

@ketab_n
Follow Me

24.2.2016

دوستويفسكي

الإخوة كارامازوف

الجزء الثالث

ترجمة: سامي الدروبي

لقد طُبعت أعمال الكاتب الروسي الكبير «دوستويفسكي» أكثر من مرّة.
ونحن نعيد طباعتها بموجب عقد مع وَرَثَة المترجم الأستاذ سامي
الدروبي بعد إعادة تنضيدها وإخراجها في حلّة جديدة

دوستويفسكي

الأخوة كارامازوف

3

ترجمة: سامي الدروبي

المركز الثقافي العربي

الكتاب: **الإخوة كارامازوف 3 (رواية)**
المؤلف: **دوستويفسكي**
المترجم: **سامي الدروبي**
الطبعة الأولى: **2010**
ISBN 978-9953-68-467-7

الناشر: **المركز الثقافي العربي**
بيروت والدار البيضاء

بيروت ــ لبنان
ص.ب. 5158 ـ 113 الحمرا
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01352826 ـ 01750507
فاكس: 01343701 ـ 961+

الدار البيضاء ــ المغرب
ص.ب.: 4006 (سيدنا)
42 شارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 522303339 ـ 522307651
فاكس: 2305726 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma cca@ccaedition.com www.ccaedition.com

الجُزءُ الثَّالِثُ

الباب السابع

أليــوشا

- 1 -

رائحة الجثة

أُعِدّ جثمان الراهب الكاهن الأب زوسيما للدفن وفقاً للطقوس المقررة. وقد جرت العادة، كما هو معروف، بأن لا يُغسل رفات الرهبان والنساك. يقول كتاب الطقوس في هذا الصدد: «إذا نادى الرب راهباً إليه، فعلى الأخ المكلف بزينة المتوفى أن يدلكه بماء فاتر، بعد أن يرسم إشارة الصليب، بإسفنجة على جبينه وصدره ويديه وقدميه وركبتيه، وهذا كل شيء». وقد تولى الأب بائيسي القيام بهذه المهمة بنفسه. فلما فرغ من تدليك جسمه ألبسه مسوح الرهبنة، وكفّنه بالجبة بعد أن شقها قليلاً بحيث يجعلها في صورة صليب، كما تأمر الطقوس بذلك. ووضع على رأسه بعدئذٍ قلنسوة مزينة بصليب ذي ثمانية أفرغٍ، تاركاً القلنسوة تسفر عن الوجه، مغطياً الوجه ببرقع أسود؛ ووضع صورة المخلّص بين يدي المتوفى. حتى إذا انتهى تكفين الجثمان على هذا النحو سُجّي عند الصباح في تابوت سبق إعداده منذ زمن طويل. وأريد أن يُترك التابوت طوال النهار في الصومعة (الحجرة الكبيرة الأولى التي اعتاد الشيخ الراحل أن يستقبل فيها الرهبان والزوار الدنيويين). وإذ إن المتوفى في رتبة الراهب الكاهن، فقد كان على الرهبان الكهنة وعلى الشمامسة أن يقرأوا أمام رفاته الإنجيل لا المزامير. فشرع الأب

يوسف في القراءة بعد قداس الجنازة فوراً. أما الأب بائيسي الذي أعرب عن رغبته في أن يقرأ أثناء بقية النهار وأثناء الليلة التالية، فقد كان في تلك الآونة مشغولاً جداً ومهموماً جداً (مثلما كان الأب رئيس الدير) من ذلك الاضطراب الشديد، الخارق، «غير اللائق»، المشوب بنوع من انتظار محموم، الذي استولى على الرهبان وعلى جموع الناس الغفيرة التي هرعت من المدينة ومن الفنادق المجاورة للدير. كان ذلك الاضطراب ما ينفك يزداد قوة وظهوراً، فاضطر الأب بائيسى ورئيس الدير إلى بذل جميع جهودهما في سبيل أن يهدئا النفوس المهتاجة ما أمكنت التهدئة. وبعد أن طلع النهار تماماً أخذ يفد من المدينة أشخاص يصطحبون مرضى، مرضى من الأطفال خاصة، كأنهم كانوا ينتظرون هذه اللحظة آملين أن يروا ظهور معجزة الشفاء الفوري التي لا بد في اعتقادهم من أن تقع بلا إبطاء. في تلك اللحظة إنما تجلى مدى تعوّد الناس على اعتبار الشيخ، حتى في أثناء حياته، قديساً صادقاً عظيماً. ولم يكن جميع الوافدين من المدينة ينتمون إلى عامة الناس. وبدا للأب بائيسي أن هذا التوقع العظيم الذي يتوقعه المؤمنون والذي يتجلى بهذا القدر من التسرع ونفاد الصبر وهذا القدر من الصراحة حتى لكأنه مطلب من المطالب، بدا للأب بائيسي أن هذا التوقع فيه شيء من الغواية الأكيدة ومن مجافاة الأدب والحشمة؛ ورغم أن الأب بائيسى قد تنبأ بهذه الغواية منذ زمن طويل، إلا أنها في الواقع فاقت كل توقعات الأب بائيسى. فكان يتجه إلى الرهبان المتحمسين فيقول لهم: «إن انتظار معجزة كبيرة مباشرة دليل على عواطف طائشة يُفهم صدورها عن دنيويين ولكنها لا تليق بنا نحن الرهبان». وكان هؤلاء لا يسمعون له كثيراً، وذلك أمر لاحظه الأب بائيسى قلقاً. ومع هذا

كان الأب بائيسى هو نفسه (تلك حقيقة يجب أن نعترف بها إذا أردنا الصدق)، رغم استيائه الشديد من مظاهر نفاد الصبر هذه التي يرى فيها باطلاً وخفّة وطيشاً، كان هو نفسه يحسّ في قرارة ضميره بهذا الانتظار نفسه الذي يشعر به المضطربون المهتاجون، وكان لا بد له أن يعترف لنفسه بذلك. على أن رؤية بعض الأشخاص قد ساءته كثيراً، لأن وجودهم قد أيقظ في نفسه شكوكاً غامضة لم تنشأ، والحق يقال، إلا من إحساسات مبهمة. من ذلك أنه شعر بنفور داخلي شديد (سرعان ما لام نفسه عليه) حين لمح بين الجمهور المحتشد في صومعة الشيخ، حين لمح راكيتين وراهب أوبدورسك القادم من مكان بعيد والذي طالت إقامته في الدير. لقد بدا الرجلان كلاهما مشبوهين في نظر الأب بائيسى، رغم أن هناك أشخاصاً آخرين كانوا مشبوهين مثلهما أيضاً. وكان راهب أوبدروسك يتميز بكثرة ذهابه وإيابه. فهو يُرى في كل مكان مستطلعاً سائلاً أو مصغياً أو هامساً على نحو سري. وكان وجهه يعبر عن نفاد الصبر نفاداً شديداً وفيه شيء يشبه أن يكون حنقاً لأن الحادث الذي يتوقع الناس أن يحدث قد تأخر حدوثه. أما راكيتين فقد عُلم فيما بعد أنه إن جاء إلى الدير في ساعة مبكرة هذا التبكير من الصباح، فلأن السيدة خوخلاكوفا هي التي طلبت منه ذلك. إن هذه المرأة التي تتصف بالطيبة ولكن تعوزها قوة الطبع، قد أحست بفضول شديد يقرصها قرصاً حين علمت بموت الشيخ عند استيقاظها من النوم، وبسبب شدة فضولها، ولمعرفتها بأن مجيئها إلى الدير لن يكون مقبولاً، فقد أسرعت توفد راكيتين موصية إياه بأن يلاحظ كل شيء وأن ينبئها حالاً، في رسالة يبعث بها إليها كل نصف ساعة، بكل ما قد يحدث. كانت السيدة خوخلاكوفا تعد راكيتين شاباً شديد التقى قوى

الإيمان، فإلى هذا الحد كان راكيتين بارعاً في الحظوة برضى الناس حاذقاً في اتخاذ المظاهر التي تطابق رغباتهم متى وجد في ذلك مصلحة له. بدأ النهار صاحياً مضيئاً. والكثير من الحجاج الذين وصلوا إلى الدير يزدحمون حول القبور المتواجدة بالقرب من الهيكل والمنتشرة في أراضي الدير كلها. وحين طاف الأب بائيسى في أنحاء الدير، تذكر أليوشا فجأة، وتذكر أنه لم يره منذ مدة طويلة، منذ الليل على كل حال. فما إن خطر بباله هذا حتى لمحه في ركن ناء قرب السياج جالساً على حجر قبر راهب مات منذ سنين وعُرف أثناء حياته بشدّة تعبّده وقسوة كفّاراته. كان أليوشا قد أدار ظهره للصومعة واتجه بوجهه نحو السياج، وكأنه يختبئ وراء شاهدة القبر. فلما اقترب الأب بائيسى رأى أليوشا وهويبكي بكاء مراً وإن يكن صامتاً، فجسمه كان يهزه الانتحاب ووجهه مدفون بين راحتيه. لبث الأب بائيسى واقفاً قربه بضع لحظات. وقال له أخيراً بصوت متأثر:

- هدئ روعك يا بني. ما بك؟ عليك أن تبتهج لا أن تبكي. أفتجهل أن هذا اليوم هو أجمل وأعظم من جميع الأيام التي وُهِبَ له أن يعرفها؟ أنسيت أين هو في هذه اللحظة؟ هلاّ فكرت في هذا!

رفع أليوشا عينيه، فرأى الأب بائيسى وجهه محتقناً بالدموع كوجه طفل؛ ثم تحول أليوشا دون أن ينطق بكلمة وأخفى وجهه في يديه من جديد. قال الأب بائيسى مطرقاً مفكراً:

- قد تكون على حق مع ذلك! إبكِ في سلام يا بني لأن المسيح هو الذي يرسل إليك هذه الدموع.

ثم أضاف بصوت خافت كأنه يخاطب نفسه: «ستساهم انتحاباتك المؤثرة في تهدئة روعك، وستبعث الفرح في قلبك الطيب». ثم ابتعد ممتلئ النفس عطفاً على أليوشا وحباً له. والحق أنه سارع

ينصرف لأنه أحسّ أنه يوشك هو نفسه أن ينفجر ناشجاً وهو ينظر إلى الفتى. كان الوقت ينقضي، وكانت صلوات الجنازة وقداساتها تتعاقب وفقاً للنظام المقرر. وحل الأب بائيسى محل الأب يوسف قرب التابوت، وأخذ في قراءة الإنجيل. ولكن قبل أن تدق الساعة الثالثة بعد الظهر وقع الحادث المقلق الذي أشرت إليه في ختام الباب السابق. وقد جاء هذا الحادث على غير ما يتوقع جميع الناس، وجاء مخالفاً مخالفة مذهلة لما كانوا يأملونه، وبلغ من ذلك أن ذكراه وذكرى جميع التفاصيل المثيرة التي رافقته قد ظلت حية إلى أيامنا هذه في أذهان سكان مدينتنا وسكان المنطقة المجاورة كما سبق أن قلت. وأحب أن أسوق هنا ملاحظة خاصة بي: إنني لأكاد أشعر بالقرف حين أتكلم عن هذا الحادث الذي لا بد أن يهز النفوس رغم أنه في حقيقة الأمر طبيعي ويمكن فهمه جداً؛ وكان في وسعي أن أسكت عنه حتماً لولا أنه قد أحدث تأثيراً قوياً جداً - في اتجاه محدد تحديداً معيناً - في نفس وقلب البطل الرئيسي، وإن يكن البطل المقبل، الذي تدور عليه أحداث هذه القصة، أعني أليوشا. لقد اضطرب أليوشا من هذا الحادث اضطراباً رهيباً، وإلى هذا العهد إنما يرجع انعطاف حياته النفسية، لأن عقله الذي أوشك أن يهزّه الحادث، قد خرج من الأزمة وصار ثابتاً منذ ذلك الحين إلى الأبد، متجهاً نحو هدف معين محدد.

وها أنذا أصل إلى الوقائع: حين أُرقد جثمان الشيخ في تابوت بعد تكفينه قبيل الفجر، ووضع التابوت في الغرفة الأولى من صومعة الشيخ - وهي حجرة الاستقبال - فإن أحد الأشخاص الحاضرين سأل إلا يُستحسن فتح النوافذ. إن هذا السؤال الذي ألقاه صاحبه كسؤال عابر وهو لا يشعر بما يشبه الخجل عليه، قد ظل بغير

جواب ولم يكد ينتبه إليه أحد. والذين سمعوه رأوا أن فكرة صدور رائحة تفسخ من جثمان ميت كهذا الميت تبلغ من السخف أنها لا تستحق غير أسف إن لم تكن ابتسامة ساخرة إزاء ما يتصف به صاحب السؤال من قلة الإيمان وشدة الطيش؛ لأن ما يُنتظر هو نقيض هذا تماماً. ولكن الذي حدث هو أن الأشخاص الذين دخلوا الحجرة ابتداء من الظهر قد أخذوا يلاحظون ملاحظات كتموها في أول الأمر عن غيرهم واحتفظوا بها لأنفسهم، خشية أن ينقلوا إلى الآخرين شعور يعنّ لهم لا يكادون يصدّقونه غير أن الظاهرة التي كانت غامضة في البداية قد تأكدت في نحو الساعة الثالثة بعد الظهر تأكداً بلغ من الوضوح أنه أصبح يستحيل الشك فيها، فإذا الخبر ينتشر في المنسك على الفور، وإذا هو يشيع بين المتدفقين من أنواع الحجاج، وإذا هو يصل إلى الدير في الوقت نفسه فيغرق الرهبان في دهشة شديدة وحزن مبرح؛ وفي نهاية الأمر، بعد فترة قصيرة من الزمن انتقل النبأ من الدير إلى المدينة فأحدث اضطراباً في الناس، المؤمنين منهم وغير المؤمنين على السواء. لقد ابتهج غير المؤمنين. وأما المؤمنون فمنهم من كان ابتهاجه أشد من ابتهاج غير المؤمنين أيضاً، لأن الإنسان «يحلو له أن يرى سقوط الرجل الصالح وتلطخ شرفه بالعار» كما قال المتوفى في أحد أحاديثه. وما وقع هو أن رائحة تفسخ قد صدرت عن التابوت خفيفة في أول الأمر، ثم ما زالت تشتد وتشتد ساعة بعد ساعة؛ فما حانت الساعة الثالثة بعد الظهر حتى أصبحت واضحة كل الوضوح، وما فتئت تشتد بعد ذلك. عبثاً تحاولون أن تجدوا في حوليات ديرنا ذكرى اضطراب فاضح عنيف كالاضطراب الذي استولى على الرهبان منذ أن عُرف الحادث، والذي ما كان يمكن تصوره في أي ظرف آخر من

الظروف. وبعد انقضاء عدد كبير من السنين ظل حتى أعقل الرهبان وأحصفهم يشعرون بدهشة شديدة وروع هائل حين يتذكرون تفاصيل وقائع ذلك النهار، متسائلين كيف أمكن للاضطراب أن يبلغ هذا المدى آنذاك. كثيراً ما حدث في الماضي أن رهباناً عُرفوا باستقامة الحياة وطهارتها، أن شيوخاً قد ماتوا أتقياء أنقياء، ثم لوحظ مع ذلك صدور رائحة تفسخ من توابيتهم المتواضعة، كما يحدث هذا لجميع الموتى، ولكن الأمر لم يصدم عندئذٍ أحداً بل ولا أدهش أحداً. صحيح أن الأذهان تحتفظ عندنا في الدير بذكرى رهبان متوفين منذ زمن طويل، يتناقل الناس عنهم أن بقاياهم لم تظهر عليها أي علامة من علامات التفسخ؛ وقد أحدث ذلك في نفوس الرهبان أثراً غامضاً، فكانوا يتحدثون عنه معجبين، وكانوا يحرصون أشد الحرص على حفظ ذكرى هذه الوقائع المعجزة التي تشهد بالقداسة؛ وكانوا يقدّرون أن مزيداً من المجد سيتحقق في المستقبل لقبور هؤلاء الأخيار المختارين في الساعة التي يشاء فيها الله ذلك. فهكذا كان شأن القديس أيوب مثلاً، الذي عاش مائة وخمس سنين والذي بقيت ذكراه حيةً في ديرنا. لقد كان أيوب ناسكاً كبيراً، اشتهر بفرائض الصمت والصيام التي كان يلزم بها نفسه؛ وقد مات منذ زمن بعيد، في السنين الأولى من القرن التاسع عشر؛ وأصبح قبره الآن محل تعظيم خاص، فسكان الدير يقودون الحجاج الذين يزورون الدير لأول مرة إلى هذا القبر، مشيرين بكلام يحمل معاني السر والإعجاب إلى الآمال الكبيرة المعقودة على مثوى ذلك الرجل الصالح (على ذلك القبر إنما لمح الأب بائيسى، في الصباح، أليوشا). وعدا ذلك الراهب الذي توفي منذ سنين كثيرة، هناك راهب آخر مات منذ عهد غير بعيد كثيراً، وخلّف في الدير ذكرى كهذه

الذكرى. إنه الشيخ العظيم الراهب الكاهن الأب فارسونوفي الذي خلفه الأب زوسيما، والذي كان يعدّه جميع الحجاج الذين يزورون الدير متنبئاً. إن الناس يروون عن كل من هذين الراهبين أن الناظر إليه في تابوته كان لا يشعر إلا بأنه نائم نوماً، وأنه دُفن دون أن يفسد جثمانه؛ بل إن نوراً كان يشعّ من وجهه. حتى إن بعض الناس ذهبوا إلى حد القول في إلحاح وإصرار إن رفاته كان ينشر روائح عطرة. ومع ذلك، رغم هذه الذكريات الموحية، فإن من العسير على المرء أن يدرك السبب الذي دفع الرهبان في ذلك اليوم إلى أن يقفوا موقفاً يبلغ هذا المبلغ من الخفة والطيش والسخف والعداوة إزاء تابوت الشيخ زوسيما. أما أنا فأعتقد أن الأسباب كثيرة متنوعة، ولكنها تعمل جميعاً في آن واحد وفي اتجاه واحد. ويحسن أن نذكر، من بين هذه الأسباب، المعاداة الشديدة لنظام المشايخ هذا الذي كان يعد بدعة مشؤومة، وهي عداوة قد ترسخت عميقة في نفوس عدد كبير من الرهبان. وهناك سبب آخر لعله أهم الأسباب، هو الحسد الذي كانت تثيره قداسة الشيخ التي بلغت أثناء حياته من الرسوخ أنه كان يبدو من غير الجائز أن يناقش أحد فيها. فلئن عرف الشيخ الراحل كيف يكسب محبة عدد كبير من الرهبان برقة روحه لا بمعجزاته، ولئن أحاط به أناس أخلصوا له كل الإخلاص، فلقد خلق من حوله، رغم ذلك وربما بسبب ذلك، حُسّاداً كثيرين أصبحوا أعداء ألداء شيئاً بعد شيء، فبعضهم يخفي هذه العداوة وبعضهم يعلنها. ولقد كان له أعداء من هذا النوع لا في صفوف رهبان الدير فحسب، بل بين العلمانيين أيضاً. إنه لم يسئ يوماً إلى أحد، ولكن الناس كانوا يتساءلون: «لماذا يُعد قديساً عظيماً»؟. وكان هذا السؤال كافياً بترديده المستمر إلى أن يخلق من حوله بغضاً لا تنطفئ جذوته.

ذلكم في رأيي هو السبب الذي جعل كثيراً من الرهبان يبتهجون ابتهاجاً شديداً حين علموا أن جسمه يصدر رائحة تفسخ، وأن هذه الرائحة قد بدأت تصدر عن الجسم بعد برهة قصيرة، لأنه لم ينقض على موته يوم. أما الرهبان المؤمنون بالشيخ المخلصون له، الذين ظلوا يقدسونه إلى ذلك الحين، فقد أحسّ بعضهم بحادثة التفسخ هذه نوعاً من إساءة نالتهم هم أنفسهم، وإهانة لحقت بهم شخصياً. إليكم كيف جرت الأمور على وجه الدقة.

منذ اللحظة التي ظهرت فيها أولى علائم التفسخ، أصبح من اليسير على المرء أن يحزر، من هيئة الرهبان الذين كانوا يدخلون صومعة المتوفى، الهدف الذي دخلوا من أجله. كانوا يدخلون فيمكثون بضع لحظات ثم يسرعون خارجين ليؤكدوا النبأ لمن كانوا يزدحمون أمام الباب؛ فبعض هؤلاء يهزون رؤوسهم بحزن وأسى، وبعضهم لا يكلفون أنفسهم حتى عناء إخفاء الفرح الخبيث الذي يسطع في نظراتهم الكارهة. ولم يخطر ببال أحد أن يؤاخذهم، وما من صوت ارتفع يدافع عن الشيخ، وذلك أمر يثير الدهشة في الواقع، لأن المعجبين بالشيخ كانوا أكثرية الدير رغم كل شيء. ولكن يظهر أن الرب كان قد قدر في هذه المرة أن يسمح للأقلية بالانتصار إلى حين. ولم يلبث أن تدفق إلى الصومعة رجال علمانيون ينتمي أكثرهم إلى الأوساط المثقفة. أما أبناء الشعب فقد كانوا قليلين بين الداخلين، رغم أن عدداً كبيراً منهم قد تجمهر على أبواب المنسك. ومهما يكن من أمر فمما لا شك فيه أن سيل الزوار العلمانيين قد ازداد ازدياداً ضخماً بعد الساعة الثالثة على أثر شيوع النبأ الفاضح. وهناك أشخاص ما كان لهم أن يجيئوا بمناسبة وفاة الشيخ، ولكنهم هرعوا إلى الدير مع ذلك وليس لهم من هدف إلا

أن يتحققوا من صدق النبأ بأنفسهم، وكان بينهم رجال من كبار الموظفين. يجب أن نذكر مع ذلك أن سلوك المستطلعين الفضوليين لمّا يعكر جو الحشمة صراحة حتى ذلك الحين، فما زال الأب بائيسى يستطيع أن يتلو آيات الإنجيل بلهجة واضحة ثابتة وهيئة قاسية دون أن يبدو عليه أنه يلاحظ شيئاً، رغم أنه قد لاحظ منذ بعض الوقت أن شيئاً خارقاً يحدث. ولكن ها هي ذي ملاحظات قد أخذت تصل إلى مسامعه. إن أصحابها يهمسون بها همساً أول الأمر، غير أنها ما تنفكّ تلح وتتجرأ فإذا هو يسمع هذه الملاحظة بوضوح: «يبدو أن حكم الله لا يؤيد دائماً حكم البشر». إن الذي جازف فقال هذه الكلمات أول القائلين هو رجل علماني متقدم في السن موظف من المدينة يعد على جانب كبير من التقى والورع. على أن هذا الرجل لم يزد على أن كرر جهراً ما كان الرهبان يسر به بعضهم إلى بعض همساً في الآذان منذ وهلة طويلة. إن هؤلاء الرهبان لم ينتظروا طويلاً من أجل أن يفصحوا عن هذه الفكرة التي تعبر عن تبدد الآمال والأنكى من ذلك أن هذه الفكرة كانت ترافقها مشاعر النصر والظفر التي كانت تزداد قوة ووضوحاً من دقيقة إلى دقيقة. وما لبثت مراعاة اللباقة أن زالت فكأن الجميع أصبحوا يحسون أن من حقهم أن لا يقيموا لها وزناً بعد الآن. «كيف أمكن أن يحدث هذا؟» كذلك كان يتساءل بعض الرهبان وهم يصطنعون في أول الأمر هيئة الحزن والأسى. «لقد كان جسمه صغيراً هزيلاً معروقاً، كله عظام، فمن أين يمكن أن تأتي هذه الرائحة؟» كان رهبان آخرون يسارعون إلى الجواب قائلين: «معنى ذلك أن الرب قد أراد أن يدل على عدم رضاه». وكانت آراؤهم هذه تُقبل فوراً بغير نقاش، لأنه إذا كان التفسخ ظاهرة طبيعية تحدث دائماً بعد وفاة

خاطئ، فإنها لا تحدث في العادة إلا بعد أربع وعشرين ساعة على الأقل، ولا تظهر بمثل هذه السرعة. أما وأن «تفسخ الشيخ قد سبق الطبيعة» فلا بد أن نرى في ذلك عملاً من أعمال الله وإشارة آتية من السماء. ذلك برهان كان يبدو مفحماً. ولقد حاول الراهب الكاهن يوسف، أمين مكتبة الدير الذي كان صفيّ الشيخ وأثيره وكان رجلاً دمثاً لطيفاً، حاول أن يسوق بعض الحجج والأدلة جواباً على تلك الأقوال المسيئة. قال فيما قال: «إن هذه الآراء لا يؤخذ بها في كل مكان وإن ما يقال من أن أجساد الصالحين لا تتفسخ ليس من صلب العقيدة الأورثوذكسية وإنما هو مجرد ظن».

ففي مراكز الأورثوذكسية الصافية النقية مثل جبل آثوس لا يقام كبير وزن لرائحة الجثة ولا يعد عدم التفسخ علامة نهائية على مجد القديس وإنما يعتمد هنالك على لون العظام بعد أن تثوي الأجساد زمناً طويلاً في الأرض وبعد أن تكون قد تفسخت في التراب تفسخاً تاماً «فإذا صارت العظام بمضي الزمن إلى صفرة كصفرة الشمع كان ذلك دليلاً قاطعاً على أن الرب قد مجّد المتوفى أما إذا أصبحت العظام سوداء استُدل من ذلك على أن الرب قد حكم على المتوفى بأنه لا يستحق ذلك الشرف، ذلك هو الأساس الذي يُبنى عليه الرأي في جبل آثوس وهو مكان مقدس جداً حافظت فيه الأورثوذكسية في كل الأزمان على صفائها ونقائها». بذلك ختم الأب يوسف كلامه ولكن أقوال هذا الراهب المتواضع لم تحدث أي صدى ولم تزد على أن أثارت في أكثر تقدير ملاحظات ساخرة، فقال بعض الرهبان: «تلك بدع العلماء لا نريد أن نسمعها». وأضاف آخرون: «سوف نبقى أوفياء للتقاليد أمناء عليها والبدع كثيرة في زماننا هذا أفينبغي لنا أن نقلدها جميعاً؟». وقالت طائفة ثالثة في استهزاء: «لا

يقل ما كان عندنا من قديسين عما كان عند رهبان آثوس وقد نسي هؤلاء كل شيء إبان الحكم التركي وفسدت الأورثوذكسية عندهم منذ زمن طويل. يضاف إلى ذلك أنهم لا يملكون حتى نواقيس».
انصرف الأب يوسف حزيناً. ثم إنه لم يعبر عن رأيه بكثير من الجزم والقطع بل عبر عنه متردداً كأنه ليس مقتنعاً به كل الاقتناع هو نفسه. وكان يرى وقد استولى عليه الاضطراب إذ رأى أن شيئاً غير لائق يبدأ وأن العصيان يرفع رأسه. وصمتت جميع الأصوات الرزينة شيئاً بعد شيء على أثر هزيمة الأب يوسف حتى لقد حدث أن أولئك الذين كانوا قد أحبوا الشيخ الراحل وكانوا قد خضعوا لنظام المشايخ بطاعة وحماسة، ذعروا من شيء ما على حين فجأة وأصبحوا لا يكادون يجرؤون حين يلتقون على أن يتبادلوا نظرة خجلى. أما خصوم هذا النظام الذين يصفونه بأنه بدعة مفسدة فقد شعروا بانتصار وراحوا يختالون تباهياً وها هم يقولون فرحين فرحاً خبيثاً: «عند موت الأب فارسونوفي لم يشعر المرء برائحة تفسخ بل كانت جثته تنشر روائح عطرة. على أنه لم يستحق نعم الرب بصفته شيخاً وإنما استحقها بفضل طهارة حياته لأنه كان رجلاً صالحاً». وانطلقت الألسن من عقالها فهي لا تتردد الآن عن انتقاد الشيخ المتوفى بل وعن اتهامه فهؤلاء بعض الرهبان الأغبياء يقولون: «كانت تعاليمه خطأ. كان يُزْعَمُ أن الحياة فرح عظيم لا خضوع وينبوع دموع». وهؤلاء رهبان آخرون يقولون بمزيد من الغباء: «كان رجلاً عصرياً. كان لا يؤمن بنار جهنم» وهؤلاء حساد يقولون: «لم يكن يتقيد بالصيام تقيداً شديداً. كان يسمح لنفسه بأكل الحلوى وكان يتناول مع الشاي مربى الكرز. كان يتلذذ بذلك. كثيراً ما كانت سيدات ترسل إليه حلوى ومربى. أيليق بناسك أن يشرب شاياً؟» وهؤلاء أشد

الرهبان شماتة يقولون بقسوة: «كان متكبراً. كان يظن نفسه قديساً. كان الناس يجثون أمامه وكان هو يقبل آيات الاحترام هذه ويعدها واجباً له على الآخرين». وهؤلاء ألد أعداء نظام المشايخ يضيفون بصوت خافت ولهجة شرسة: «كان يمتهن حرمة سر الاعتراف». إن أكثر هؤلاء الأعداء الألداء لنظام المشايخ هم بين الرهبان أكبرهم سناً وأشدهم تقشفاً وأعظمهم تقيداً بكفارات الصيام والصمت. كانوا أثناء حياة الشيخ قد انتهوا إلى الإذعان والرضوخ ولكنهم يطلقون الآن لأحقادهم أعنتها وذلك أمر يثير القلق كثيراً لأن لآرائهم تأثيراً قوياً في الرهبان الشبان الذين لم يصلب عودهم بعد. كان راهب أوبدورسك، الراهب الصغير الوافد من القديس سيلفستر، يصيخ بسمعه إلى هذه الأقوال كلها منتبهاً انتباهاً شديداً متنهداً تنهداً عميقاً، هازاً رأسه، قائلاً لنفسه: «يبدو أن الأب فيرابونت كان على حق أمس». وهذا هو الأب فيرابونت يظهر هو نفسه على حين فجأة كأنما ليكمل اضطراب النفوس وبلبلة الأفكار.

سبق أن قلت إنه كان لا يترك إلا نادراً صومعته الخشبية الواقعة في جانب المنحل وإنه كان يغيب عن الكنيسة فترات طويلة. ولكن سكان الدير كانوا يغضون البصر عن إخلاله هذا بالنظام، بحجة أنه من المجاذيب والحق أنهم كانوا يعدون أنفسهم مضطرين أخلاقياً، إن صح التعبير، إلى غض الطرف عن شذوذ سلوكه فإنه ليكاد يبدو غير لائق أن يطالب ناسك كبير مثله يلزم نفسه بالصيام والصمت مدداً طويلة ذلك الطول كله ويقضي أياماً وليالي في الصلاة والتهجد (لقد كان يتفق له أن ينام على ركبتيه)، أن يطالب بالخضوع للطقوس العامة والشعائر المتبعة إذا هو أراد أن يتحلل منها فلو أراد أن يزعجه لقال الرهبان: «إنه أقدس منا جميعاً وهو يفرض على نفسه كفارات

أقوى كثيراً مما نلزم به أنفسنا من فرائض فإذا لم يأتِ إلى الكنيسة فلا شك أن هنالك أسباباً تدفعه إلى ذلك. إن له فرائضه الخاصة التي يوجبها على نفسه». لذلك كان يُترك هذا الأب المعتزل العجوز وشأنه تحاشياً لاحتجاجات الرهبان واضطرابهم وكان معروفاً لدى الناس أن الأب فيرابونت يكره الشيخ زوسيما. ولم تلبث الشائعة التي تقول: «إن حكم الله لا يؤيد حكم البشر دائماً وإنه قد سبق الطبيعة في تفسخ جثمان الشيخ»، لم تلبث هذه الشائعة أن وصلت إلى حجرته النائية المنعزلة وأغلب الظن أن راهب أوبدورسك الذي زاره البارحة وخرج من عنده مذعوراً كان من أوائل الذين نقلوا إليه النبأ. وقد ذكرت أيضاً أن الأب بائيسى الذي ظل يتابع قراءة الإنجيل أمام التابوت ثابت الجنان بغير اضطراب والذي كان لا يمكن أن يرى وأن يسمع من مكانه هذا ما كان يجري خارج الغرفة، قد حزر مع ذلك في قرارة نفسه الشيء الأساسي مما كان يجري خارج الغرفة لأنه يعرف الروح المسيطرة على بيئته حق معرفتها. لم يدع الأب بائيسى لنفسه أن يضطرب وانتظر ما سيحدث دون أن يرتاع متنبئاً بعواقب هذا الاضطراب وراسماً مآل الأحداث في فكره بما أوتى من بصيرة نافذة، غير أن ضجة خارقة آتية من المدخل قد شدت انتباهه على حين فجأة، وهي ضجة تنافي اللياقة بكل وضوح. انفتح الباب على مصراعيه وظهر الأب فيرابونت في العتبة. إن عدداً كبيراً من الرهبان بينهم بعض العلمانيين كانوا يسيرون وراء الأب فيرابونت ولكنهم آثروا أن يتوقفوا في أسفل درجات المدخل فهم يرُون من الغرفة. لقد قرروا أن لا يدخلوا الغرفة وفضلوا أن يشاهدوا من بعد ما سيقوله الأب فيرابونت وما سيفعله. ذلك أنهم كانوا يتنبأون بأن الأب فيرابونت لم يجئ عبثاً وإنهم ليشعرون بشيء من الارتياع رغم

جرأتهم وجسارتهم. توقف الأب فيرابونت في العتبة ورفع ذراعيه فرأيت عندئذٍ من تحت ذراعه اليمنى العينان الحادتان المستطلعتان عينا راهب أوبدورسك الصغيرتان الذي لم يصطبر فاجتاز درجات المدخل وراء الأب فيرابونت بدافع فضوله الشديد، أما الآخرون فقد تراجعوا قليلاً وهم يشعرون بخوف مفاجئ حين انفتح الباب مقرقعاً. صرخ الأب فيرابونت بقوة وهو رافع ذراعيه قائلاً:

- سأطرده طرداً!

وأسرع يرسم إشارات الصليب كبيرة وهو يتجه إلى جدران الغرفة الأربعة جداراً بعد جدار. ورسم إشارة الصليب كذلك أمام كل زاوية من زوايا الغرفة وسرعان ما أدرك جميع الذين تبعوا الأب فيرابونت دلالة هذه الحركة فلقد كانوا يعرفون أنه يفعل هذا دائماً في أي مكان يذهب إليه ولا يرضى أن يقول كلمة أو أن يجلس قبل أن يطرد الشيطان وكان يردد كلما رسم إشارة الصليب:

- ابتعد أيها الشيطان! أخرج من هنا! غوروا أيها الأبالسة!

هكذا كان يزأر الشيخ فيرابونت.

وكان يرتدي ثوباً خشناً يزنره حبل، وكان صدره الأشيب الشعر يظهر من شق قميصه المصنوع من الخيش أمّا قدماه فكانتا حافيتين تماماً وإذا حرك ذراعيه سُمع صليل السلاسل الحديدية الثقيلة التي كان يحملها على جسمه. توقف الأب بائيسى عن القراءة تقدم نحو الأب فيرابونت هادئاً على وضع انتظار وسأله أخيراً وهو يلقى عليه نظرة قاسية:

- لماذا جئت إلى هنا أيها الأب المحترم؟ لماذا تشوّش النظام؟ لماذا تريد أن تبث الفوضى في الرعية الوادعة؟

صرخ الأب فيربونت يقول منقلب السحنة:

- لماذا جئت؟ تسأل لماذا جئت؟ فماذا تظن إذاً؟ لقد جئت لأطرد ضيوفكم، لأطرد الشياطين النجسة! أردت أن أرى هل استضفتم شياطين كثيرة في غيابي. سأطردهم جميعاً بالمكنسة.

أجابه الأب بائيسى هادئاً دون أن يشعر بالخوف:

- تحسب أنك تطرد الشيطان مع أنك ربما كنت تخدمه! من ذا الذي يستطيع أن يقول عن نفسه إنه قديس؟ أتراك أنت أيها الأب المحترم؟

قال الأب فيرابونت مرعداً:

- أنا لست بقديس قط! أنا رجل دنس! ولكنني لا أستريح على مقاعد وثيرة ولا أحاول أن أحمل الناس على عبادتي كإله. الناس في أيامنا هذه يستهزئون بالدين المقدس. إن صاحبكم المتوفى، هذا القديس (كذلك أضاف يقول ملتفتاً نحو الناس المحتشدين عند المدخل مشيراً بإصبعه إلى تابوت الشيخ) كان لا يؤمن بوجود الشياطين لقد كان يصف لمن مسّتهم الشياطين أدوية تنظف الأمعاء فهل عجب بعد هذا أن تتكاثر الشياطين عندكم تكاثر العنكبوت في زوايا الجدران؟ أما قديسكم فإنه يتفسخ الآن وتلك في نظرنا إشارة من السماء.

والحق أن في حياة الأب زوسيما حادثة من هذا النوع فإن راهباً من الرهبان قد رأى الشيطان في منامه عدة مرات ثم أخذت هذه الرؤى تحاصره في اليقظة أيضاً ففاتح الشيخ بذلك فنصحه الشيخ بأن يكثر من الصلاة والصيام. فلما لم تنفعه هذه الوسيلة وصف له دواءً ونصحه في الوقت نفسه بأن لا ينقطع عن الصلاة والصيام. وقد شُدِه من هذا عدد كبير من الرهبان وأخذوا يتحدثون فيه هازّين رؤوسهم استياءً واستنكاراً. وكان الأب فيرابونت أشدهم ثورة حين أسرع

الوشاة يبلغونه بما فعله الشيخ من أمر يعد «خارقاً» في حالة من هذا النوع.

قال الشيخ بائيسى بلهجة آمرة:

- ابتعد أيها الأب! إن الحكم لله لا للبشر وأن «الإشارة الآتية إلينا من السماء» يمكن أن يكون لها معنى يفوق عقلنا فلا تستطيع أنت ولا أستطيع أنا ولا يستطيع أحد هنا أن يجازف فيؤولها. ابتعد أيها الأب وكفاك تشويشاً للرعية!

كذلك ردد الأب بائيسى ملحاً.

واستأنف الراهب المتعصب المندفع كلامه وكأنه فقد كل سيطرة له على نفسه:

- كان لا يعتقد بفرائض الصيام كما يليق براهب من رتبته. ذلك هو سبب الإشارة السماوية، هذا واضح وضوح النهار ومن الإثم أن تحاول إنكار ذلك. كان يتنعم بالحلوى التي كانت تملأ بها جيوب السيدات اللواتي يزرنه. كان يملأ بطنه بالشاي ويحشوه بالحلوى أما عقله فقد كان يفيض كبرياء وزهواً. ذلك هو سبب عاره.

أجاب الأب بائيسى رافعاً صوته هو أيضاً:

- أقوالك طائشة! إنني لأعجب بقسوة صيامك وشدة تقاك ولكنك ترسل الكلام جزافاً بغير روية كشاب علماني يعوزه النضج والتأمل والتدبر.

وختم الأب بائيسى كلامه قائلاً بصوت مجلجل:

- اخرج من هنا يا أب، آمرك بأن تخرج!

قال الأب فيرابونت مرتبكاً بعض الارتباك ولكن دون أن يهدأ غضبه:

- سأمضي! طيب... أنتم رجال علماء. أنتم بكبرياء عقلكم

المسعورة ترتفعون فوق بَسَاطتي. لقد جئت إلى الدير أمّياً. والقليل الذي كنت أعرفه في الماضي نسيته منذ ذلك الحين. لقد شاءت رحمة الرب نفسه أن تصونني أنا الضعيف من دنس عقلكم. . .

ظل الأب بائيسى هادئاً ينتظر التتمة بصلابة وثبات.

صمت الأب فيرابونت لحظة ثم إذا بوجهه يظلم على حين فجأة وإذا به يحمل يده اليمنى إلى خده ويقول مرتلاً وهو ينظر إلى تابوت الشيخ:

- غداً ينشدون له النشيد العظيم «ربنا هب لنا من لدنك عوناً واحمنا» أما حين سأفطس أنا فسيكتفون بتلاوة آيات بسيطة قائلين كانت حياته هادئة وادعة[1].

كذلك قال بصوت تخالطه الدموع والأسى. ثم صرخ يقول كمن جن جنونه:

- ضيّعتكم الكبرياء والزهو! ما هذا المكان إلا عدم!

واستدار على عقبيه وهو يحرّك ذراعه وهرول يهبط درجات السلم. ظهر التردد على الجمهور الذي كان ينتظره تحت ثم تبعه بعضهم فوراً وتريث آخرون إذ رأوا أن باب الغرفة قد ظل مفتوحاً وأن الأب بائيسى الذي شيع الأب فيرابونت إلى درجات المدخل كان يلاحظهم صامتاً ولكن العجوز المندفع المتحمس لم يكن قد أفرغ كل ما في جعبته فها هو ذا يتوقف بعد أن سار عشرين خطوة ويلتفت نحو الشمس الغاربة رامياً ذراعيه في الهواء ثم يتهاوى على الأرض كأن قوة خفية قد حصدته:

- انتصر ربي! تغلب المسيح عند غياب الشمس.

كذلك زأر يقول بصوت مسعور وهو يمد ذراعيه نحو الشمس. ثم سقط ووجهه إلى الأرض وأخذ يبكي بكاء طفل بصوت عال مهتز الجسم محركاً ذراعيه كأنما ليعانق الأرض. هرع الجميع إليه وسُمع

صراخ وسُمع بكاء عطف. . . فاستولى على الجميع تهيج. وهتفوا يقولون من كل جهة من الجهات بغير تحفّظ:

- هذا هو القديس الحق. هذا هو الصالح الحق.

وأضاف آخرون يقولون بحنق شديد:

- إليه إنما يجب أن تسند المشيخة.

فبادرت أصوات أخرى تقول على الفور:

- لن يقبل أن يصبح شيخاً. سيرفض هو نفسه. لن يرضى أن ينضم إلى هذه البدعة اللعينة. ما هو بمن سيقلد جنونهم.

لا يدري أحد بماذا كان يمكن أن ينتهي هذا كله لو أن الناقوس لم تدوّ أصواته في تلك اللحظة منادية الرهبان إلى القداس. رسم الجميع إشارة الصليب ونهض الأب فيرابونت ورسم إشارة الصليب واتجه نحو صومعته دون أن يلتفت وهو لا يزال يطلق صرخات صارت مضطربة لا اتساق فيها. تبعته قلة قليلة من الرهبان ولكن أكثر الرهبان تفرقوا مسرعين إلى العبادة. وعهد الأب بائيسى إلى الأب يوسف بإتمام القراءة وابتعد هو أيضاً ضابطاً درجات السلم. إن الصرخات المحمومة التي أطلقها المتعصبون لم تستطع أن تهزه كثيراً ومع ذلك شعر بحزن خاص يغزو قلبه فجأة فدهش ووقف يتساءل: «ما مصدر هذا العناء الذي يرهقني؟». فما كان أشدّ دهشته حين أدرك فوراً أن سبب ذلك إنما هو حادث يبدو تافهاً لا قيمة له: فبين صفوف الجمهور الذي كان يضطرب منذ هنيهة عند مدخل الغرفة لاحظ الأب بائيسى وجود أليوشا فشعر من ذلك بما يشبه ألماً يطعن قلبه. إنه يتذكر هذا الآن. تساءل الأب بائيسى مدهوشاً دهشة قوية: «هل يمكن حقاً أن يكون هذا الشاب قد احتل كل هذا المكان في نفسي؟». وفيما هو يتساءل هذا التساؤل مر أليوشا غير بعيد عنه. كان يغذّ الخطى ولكنه لم يكن

متجهاً نحو الكنيسة. التقت نظراتهما فسرعان ما أشاح أليوشا عينيه وخفضهما نحو الأرض وأدرك الأب بائيسى من النظر إلى هيئة الفتى وحدها ما كان يجري في نفسه من تبدل كبير.

هتف الأب بائيسى يسأله:

- أتراك تركت لنفسك أن تهتز وتضطرب أنت أيضاً؟

ثم أضاف يقول بمرارة:

- أتراك انضممت إلى صف الذين يشكون؟

توقّف أليوشا وألقى على الأب بائيسى نظرة مترددة ثم أشاح عينيه وأطرق إلى الأرض من جديد. لقد وقف موارباً ليتحاشى نظرة محدثه وجهاً لوجه. وكان الأب بائيسى يرقبه بانتباه.

قال الأب بائيسى:

- إلى أين أنت ذاهب؟ هذه ساعة القداس.

ولكن أليوشا ظل لا يجيب. وتابع الأب بائيسى أسئلته:

- ألعلك تترك الدير؟ أبدون أن تتبئنا؟ أبدون أن تتلقى المباركة؟

فإذا بأليوشا يبتسم على حين فجأة ابتسامة ساخرة متصنّعة ويشخص ببصره إلى الراهب الذي كان يسأله. إن هناك شيئاً غريباً بل غريباً جداً في النظرة التي ألقاها في تلك اللحظة على الرجل الذي عهد به إليه أثناء موتهِ مرشده الروحي المتوفى، معلم قلبه وفكره، شيخه المحبوب. ها هو ذا يحرك يده فجأة دون أن يجيب، كمن أصبح لا يهمه أن يتقيد بدلائل الاحترام. ثم اتجه نحو مخرج المنسك بخطى سريعة.

ودمدم الأب بائيسى يقول بصوت خافت وهو يتابعه بنظره مدهوشاً دهشة أليمة:

- ستعود ثانية.

- 2 -

دقيقة كهذه الدقيقة

لا شك في أن الأب بائيسى لم يخطئ حين قدر أن «ابنه العزيز» سيعود؛ حتى لقد فهم فيما يبدو (لا فهماً كاملاً والحق يقال، لكنه فهم فيه كثير من نفاذ البصيرة) الحالة النفسية التي كان عليها أليوشا. ولكن يجب عليّ أن أعترف مع ذلك بأنني لو أردت أن أشرح على وجه الدقة معنى تلك الدقيقة الغريبة المبهمة من الحياة الداخلية التي عاشها بطلي الذي أحبه كثيراً والذي ما يزال في ريعان الشباب، لكان ذلك الآن صعباً عليّ كل الصعوبة. إنني أستطيع طبعاً أن أجيب عن ذلك السؤال المرير الذي ألقاه عليه الأب بائيسى «أتراك انضممت إلى صف الذين يشكون؟»، أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال واثقاً: «لا، إنه لم يكن يشك!». وأكثر من ذلك إن اضطرابه كان يعبّر عن نقيض هذا تماماً: لئن شعر بقلق فذلك لأن إيمانه كان كبيراً. لقد قلق أليوشا قلقاً شديداً، وبلغ قلقه من الإيلام أنه ظل بعد سنين طويلة يعدُ ذلك اليوم المشؤوم أزخر أيام حياته بالألم والحزن. ولو سئلت: «هل يمكن حقاً أن يشعر بكل ذلك الحزن والقلق لا لشيء إلا لأن جثمان شيخه قد فسد قبل الأوان بدلاً من أن يحقق معجزات شفاء؟»، لأجبت بغير تردد: «نعم، ذلك بعينه هو سبب حزنه». ولكنني أرجو القارئ مع ذلك أن لا يتسرع كثيراً فيستهزئ بصفاء قلب بطلي. لست

أميل من جهتي إلى أن ألتمس له سماحة القارئ، أو أن أنتحل لإيمانه الساذج عذراً من شبابه أو من قلة ما حصّل سابقاً من تقدم في العلوم إلخ إلخ، بل أقف الموقف المضاد فأقول بغير تردد: إنني أشعر نحو بساطة قلبه باحترام كبير. صحيح أن شباباً غيره، شباباً أشد حذراً في اندفاعات قلبهم، شباباً يحبون حباً حاراً، غير أنهم يحبون بغير هوى شديد، شباباً يحسنون التحكم بحركات قلبهم في ذكاء واثق مستقيم لكنه مع ذلك مسرف في التعقل إذا قيس بأعمارهم (وهو تبعاً لذلك ضئيل القيمة)، واضح أن شباباً كهؤلاء كان يمكن أن يتّقوا الاضطراب الذي وقع فيه بطلي. ولكن لأن ينساق المرء أحياناً مع اندفاع قد يكون طائشاً ولكنه مستلهم من حب كبير، فذلك في رأيي أنبل وأكرم من أن يكون عاجزاً عن ذلك الاندفاع. وهذا يصدق خاصة على الشباب، لأن الشاب الذي يفرط في التروي لا يوحي بثقة عميقة وليس له قيمة كبيرة. ذلك رأيي أنا على الأقل. رب أناس رصينين يعترضون قائلين: «إلى أين نصير إذا آمن جميع الشباب بمثل هذه الآراء. ليس صاحبك أليوشا بمن تضرب به مثلاً أو تقدمه قدوة». وإني لأجيب هؤلاء قائلاً: لقد كان أليوشا يؤمن إيماناً مقدساً لا يتزعزع، ولكن ليس يخطر ببالي أن ألتمس له بسبب ذلك أعذاراً.

ومع ذلك... مهما أؤكد (وربما كنت في هذا التأكيد مفرطاً في التسرع) إنني لن أحاول أن أسوّغ سلوك بطلي أو أن ألتمس له الأعذار، فإنني أراني مضطراً، رغم كل شيء، إلى أن أقدّم بعض الإيضاحات تسهيلاً لفهم قصتي. إليكم ما أريد أن أقوله: ليس غياب المعجزة هو ما أسلم أليوشا للاضطراب. إن أليوشا لم ينتظر، نافد الصبر، ظهور ظاهرة فوق الطبيعة، عن خفّة وطيش. إنه لم يكن في حاجة إلى ذلك لثبوت صدق اعتقاده ثبوتاً مظفراً (لا هذا على كل

حال)، ولا ليتاح لفكرة قائمة في ذهنه أن تنتصر بمزيد من السهولة على رأي يعارضها. أبداً! إن ما كان يعنيه في هذا الأمر قبل كل شيء آخر، بل ودون كل شيء آخر، إنما هو مصير إنسان، مصير هذا الإنسان وحده، أعني شخص الشيخ الذي كان أليوشا يحبه، شخص الرجل الصالح الذي كان أليوشا يعجب به ويبجله. إن ما في قلبه الفتيّ النقيّ من قدرة على حب «جميع الأشياء وجميع الناس» قد تركز في تلك الفترة، وأثناء السنة الماضية، على إنسان واحد هو شيخه الحبيب الذي مات الآن والذي قد أصبح - ربما في ذلك شيء من الإفراط - القطب الوحيد الذي يجتذب أعمق عواطفه. صحيح أن هذا الشيخ ظل يجسّد في نظره أرفع مثل أعلى إنساني، خلال مدة بلغت من الطول أن قوى طبيعته الشابة وأشواق نفسه كان لا بد أن تتجه إلى الشيخ وحده حتى لتنسيه في بعض الأحيان «جميع الأشياء وجميع الناس» (سوف يتذكر فيما بعد أنه في ذلك اليوم الحزين قد نسي نسياناً تاماً أخاه دمتري الذي كان يرغب أمس في رؤيته، رغبة حارة قوية؛ كما أن القرار الذي اتخذه أمس والذي يحرص عليه أشد الحرص، وهو أن يرد المائتي روبل إلى والد أليوشا، قد غاب عن ذهنه تماماً). ولكنني أعود فأقول مرة أخرى: ليست المعجزات هي ما كان أليوشا في حاجة إليه، وإنما كان أليوشا في حاجة إلى «عدالة عليا»، وهذه العدالة العليا قد أوذيت في نظره إيذاءً شديداً. فهذا لا غيره هو ما كان يؤلم قلب أليوشا إيلاماً قاسياً. لقد كان هذا طعنة موجعة رهيبة. ليس بالأمر المهم أن تكون هذه «العدالة» قد تترجمت في ذهنه، بتأثير البيئة الطبيعي، توقعاً لمعجزة لا بد أن تتحقق قرب جثمان قائده الروحي الذي كان يحبّه ويبكيه. ولكن هذه المعجزة هي ما يأمله جميع الناس في الدير، وحتى

أولئك الذين كان أليوشا يعترف بتفوقهم العقلي عليه، كالأب بائيسى مثلاً. لذلك لم يتردد أليوشا في أن يعبّر عن أمله على نحو ما كانوا يعبرون، دون أن تشوشه شكوك أو تأملات. وقد نضج هذا التوقع في نفسه خلال سنة كاملة عاشها في الدير حتى أصبحت طبيعية كعادة. ولكن ظمأه كان إلى عدالة لا إلى معجزات فقط! وهذا هو الإنسان الذي كان في عاطفة أليوشا فوق جميع البشر في العالم بأسره يتجلل بالعار فجأة ويسقط في الخزي بدلاً من أن ينال المجد الذي يستحقه! لماذا؟ من هو القاضي الذي اتخذ هذا القرار وأصدر هذا الحكم؟ من الذي يمكن أن يكون قد اتخذ هذا القرار حقاً؟ تلك هي الأسئلة التي داهمت نفسه البريئة التي تعوزها الخبرة والتجربة وأخذت تسومها سوء العذاب. كان لا يطيق، دون أن يشعر بالمذلة ودون أن يعصف به الغضب، أن يرى أصلح الصالحين فريسة استهزاء شرير وتهكم خبيث يصبه عليه جمهور طائش هو دونه كثيراً. كان يمكن أن يقبل أن لا تحدث أي معجزة وأن لا يقع أي شيء خارق للطبيعة، تلبية لما يتوقعه جميع الناس. ولكن لماذا يجلّل الشيخ بالخزي والعار، لماذا هذا التفسخ الذي يحدث قبل الأوان، و«يسبق الطبيعة» كما كان يقول الرهبان الأشرار؟ لماذا تُهيأ لهؤلاء الأشرار فرصة أن يروا في هذا التفسخ «إشارة» يسارعون الآن إلى تأويلها كما يحبون ويشتهون وراء الأب فيرابونت؟ ومن ذا الذي خوّلهم الحق في أن يعمدوا إلى استدلالات من هذا النوع؟ أين العناية الإلهية في هذا كله وأين يد الله؟ لماذا امتنع الرب عن التدخل في «اللحظة التي كان فيها تدخله ألزم ما يكون وأوجب ما يكون» (في رأي أليوشا) حتى لكأنه استسلم هو نفسه أمام قوى الطبيعة العمياء التي لا ترحم؟

ذلك ما كان ينزف منه قلب أليوشا. كان في تلك الساعة، كما سبق أن قلت، لا يفكر إلا في ذلك الإنسان الذي هو أحبّ إنسان إلى قلبه في العالم، وهذا الإنسان هو من جلّل بالخزي والعار الآن، وغُضّت قيمته وأُنزل إلى الدرك الأسفل. إنني أسلّم بأن هذا الفتى قد برهن، حين كان يطرح هذه الأسئلة، على أنه طائش العقل مخطئ الرأي، ولكنني أعود فأقول مرة ثالثة (ولتتهموني بخفة العقل أيضاً إذا شئتم) إنني ليسعدني أن أليوشا قد أعوزه التعقّل في تلك الساعة من حياته، لأن العقل يستيقظ دائماً في وقت مناسب لدى الإنسان الذي لم يُحرم من الذكاء، فإذا لم يتغلب عليه الحب في مثل هذه اللحظة في قلب فتى، فمتى عساه ينتصر؟على أنني لا أستطيع أن أصمت عن عاطفة أخرى غامضة مضطربة قد مست نفس أليوشا مساً عابراً في تلك الدقيقة الحرجة الأليمة من حياته. ولعل كلمة «عاطفة» ليست هي الكلمة المناسبة. هو «شيء» كان يندبه، هو شعور شاق مرتبط بذكرى الحديث الذي قام أمس بينه وبين أخيه إيفان والذي يعاود فكره الآن بالذات بالحاح محاصر. لست أعني قط أن عناصر إيمانه الأساسية، الفطرية إن صح التعبير، قد أصابها أي تزعزع. . . لا. . . إنه يحب إلهه الآن كما كان يحبه من قبل، وإنه ما يزال يؤمن بإلهه إيماناً راسخاً وإن كان يتذمر في بعض اللحظات. ولكن ذلك الإحساس الغامض المؤلم الخبيث المرتبط بذكرى ذلك الحديث مع إيفان قد استيقظ الآن في نفسه من جديد، وأخذ يحاول الخروج إلى سطح شعوره بقوة ما تنفكّ تتزايد. هبط المساء أثناء ذلك، وخيّم الظلام. وهذا راكيتين الذي كان يجتاز غابة الصنوبر ليذهب من المنسك إلى الدير يلمح أليوشا على حين فجأة، مستلقياً تحت شجرة، جاعلاً وجهه إلى الأرض، ساكناً لا يتحرك فكأنه نائم. اقترب راكيتين منه وناداه:

- أهذا أنت يا ألكسي؟ أيمكن حقاً أن. . .

كذلك قال راكيتين مدهوشاً، ولكنه أمسك فجأة عن الكلام قبل أن يتم جملته. كان يريد أن يقول: «أيمكن حقاً أن تصير من ذلك إلى هذه الحال؟» لم يرفع أليوشا عينيه نحو راكيتين، ولكن راكيتين أدرك من حركة جسم أليوشا، أن أليوشا قد سمعه. استأنف راكيتين يقول وقد أخذت الدهشة التي يعبر عنها وجهه تستحيل شيئاً فشيئاً إلى ابتسامة ساخرة:

- ماذا بك؟ ماذا دهاك؟ اسمع يا أليوشا! إنني أبحث عنك منذ أكثر من ساعتين في كل مكان. لقد اختفيت من هناك بغتة. فماذا تصنع هنا؟ ما هذه السخافات؟ انظر إليّ على الأقل. . .

رفع أليوشا رأسه، وجلس مسنداً ظهره إلى الشجرة. لم يكن يبكي، ولكن الألم كان يُقرأ في قسمات وجهه، وكان في عينيه حنق. على أنه لم يكن ينظر إلى راكيتين وإنما هو يحدّق إلى شيء آخر.

قال راكيتين:

- هل تعلم أن وجهك قد تغير تماماً؟ لم يبق فيه أثر من تلك الوداعة التي كنت توصف بها. أتراكِ غاضباً من أحد؟ هل أساء إليك أحد؟

قال أليوشا فجأة دون أن ينظر إليه أيضاً، قال وهو يحرك يده بإشارة تعبر عن التململ والتبرّم:

- انصرف، دعني وشأني!

قال راكيتين:

- ياه! أهكذا أصبحنا الآن إذاً؟ نغضب ونصرخ كسائر الناس! عجيب! من ذا الذي يمكن أن يصدق صدور هذا عن مثل هذا

الملاك؟ طيب يا أليوشا... أريد أن أقول لك إنك أدهشتني... أقول لك هذا صادقاً كل الصدق. لقد أصبحتُ منذ زمن طويل لا أُدهش من شيء هنا. على أنني كنت أظنك إنساناً مثقفاً...

أخيراً رفع أليوشا إليه عينيه، غير أن في نظرته الآن ذهولاً فكأنه لم يفهم جيداً ما قاله صاحبه. وعاد راكيتين يهتف قائلاً وقد استبدَّت به دهشة شديدة من جديد:

- أكلُّ هذا لأن صاحبك العجوز قد تفسخ؟ أكنت تظن حقاً إذاً أنه كان سيحقق معجزات؟

فصرخ أليوشا يقول بصوت جانق:

- كنت أظن، وما زلت أظن، وأريد أن أظن، وسأظل أظن!... أيكفيك هذا الآن؟

- ولكنني لا أريد شيئاً يا عزيزي! عجيب! إن صبياً في الثالثة عشرة من عمره لا يؤمن بهذه الأمور في أيامنا هذه. لك ما تشاء على كل حال... ها أنت ذا إذاً غاضب من الله، ثائر عليه ثورة معلنة! كموظف لم يحصل على ما كان يطالب به، أو حُرِمَ من وسام في احتفال! هذا أنتم!...

تفرّس أليوشا في راكيتين طويلاً، وهو مغمض عينيه نصف إغماض، وومض في عينيه برق... غير أن هذا ليس الآن حنقاً وغيظاً من راكيتين. ثم قال وهو يبتسم ابتسامة واهنة:

- لست ثائراً على إلهي، ولكنني «أرفض قبول الخليقة» ذلك كل شيء.

فكر راكيتين لحظة في هذا الجواب ثم سأله:

- ترفض؟ ماذا تعني؟ ما هذا الكلام الغريب أيضاً!

لم يجب أليوشا. فأضاف راكيتين:

- كفانا كلاماً في ترهات. لنفكر في الأمور الهامة: هل أكلت اليوم؟

- لا أتذكر... يبدو أنني أكلت...

- تدل هيئتك على أنك في حاجة إلى استرداد قواك. إن منظرك يثير الشفقة عليك. قيل لي إنك لم تنم طول الليل. إنكم قد عقدتم اجتماعاً كبيراً. ثم حدث ذلك الهرج كله... أظن أن ما أكلته هو جزء صغير من الخبز المقدس. إن في جيبي بعض المقانق، حملته احتياطاً حين جئت إلى هنا من المدينة. ولكنك لا تأكل المقانق، أليس كذلك؟

- هات المقانق.

- هيه هيه... هذا أمر جديد... هذه ثورة أصولية، ثورة بمتاريس! هِمْ... ما هذا بقليل أيها الأخ، هل تعلم؟ طيب... تعال معي إلى بيتي... أنا أيضاً في حاجة إلى قليل من الفودكا... إنني مرهق... أنت لا تشرب الخمرة، أليس كذلك؟ اللّهمّ إلا أن...

- سأشرب فودكا.

قال راكيتين وهو ينظر إلى صاحبه مدهوشاً:

- هكذا!... هذا كثير... المقانق سلمنا بها... والفودكا أيضاً؟ هذه أمور عظيمة حقاً. يجب أن لا تفوِّت الفرصة. هيا بنا!

نهض أليوشا دون أن ينطق بكلمة، وتبع راكيتين:

- لو علم أخوك إيفان بهذا لدهش. بالمناسبة: لقد سافر إيفان فيدوروفتش إلى موسكو هذا الصباح، هل كنت تعرف ذلك؟

قال أليوشا بغير اكتراث:

- أعرف.

وانبثقت صورة دمتري فجأة في خياله، ولكنها لم تلبث فيه إلا لحظة قصيرة. لقد أحسّ إحساساً غامضاً بوجود أمر مستعجل لا يحتمل أي إبطاء، هو إلزام أخلاقي، هو واجب رهيب يجب أن يقوم به، ولكن هذه الذكرى لم تُخرجه من خَدَرِه؛ لقد اجتازت فكره من دون أن تبلغ قلبه ثم لم تلبث أن بارحته. ومع ذلك فإن هذه الواقعة ستعاود ذاكرته كثيراً فيما بعد.

- لقد نعتني أخوك اللطيف إيفان ذات مرة بقوله: «تافه ليبرالي لا موهبة له». أما أنت فقد أسمعتني في يوم من الأيام أنني أفتقر إلى «الاستقامة». طيب! سأرى ما قيمة مواهبكم واستقامتكم أنتم (أضاف راكيتين قوله هذا هامساً كأنه يخاطب نفسه).

ثم أردف يقول بصوت عال:

- لنتحاش المرور بالدير ولنتجه رأساً إلى المدينة مجتازين الممر الضيق... هِمْ! وسأثب لحظة إلى منزل السيدة خوفلاكوفا أثناء الطريق. تصوّر أنني قصصت عليها تفصيلاً كل ما جرى هنا، فإذا هي تجيبني فوراً في بطاقة كتبت عليها بقلم الرصاص (هذه السيدة تعشق كتابة البطاقات): «إنها ما كان لها أن تتوقع من عجوز مبجّل كالشيخ زوسيما... أن يصدر عنه... مثل هذا السلوك!...». هذا ما كتبته بالحرف: «السلوك»! هي أيضاً حاقدة عليه شخصياً بسبب ما وقع. هذا أنتم! انتظر!

قال راكيتين ذلك، ثم صاح فجأة وقد توقف عن السير، وأمسك أليوشا من كتفه فأوقفه أيضاً، وحدّق إليه بعينين متفرستين:

- هل تعلم يا أليوشا؟

لقد استبدّت براكيتين في تلك اللحظة فكرة جديدة انبثقت في ذهنه على حين فجأة؛ وكان واضحاً رغم هيئته الضاحكة أنه ما زال

لا يجرؤ أن يعبر عنها من فرط ما يصعب عليه أن يصدق ما كان عليه أليوشا من حالة نفسية هي في نظر راكيتين خارقة غير متوقعة.

وعزم أمره أخيراً فقال بصوت متردد:

- هل تعلم يا أليوشا أين يجب علينا أن نذهب كلانا أولاً؟

- نذهب إلى حيث تشاء. يستوي عندي كل شيء.

فقال راكيتين وهو يرتجف في لهفة وخشية:

- لنذهب إلى جروشنكا إذا أردت! هل توافق؟

فأجاب أليوشا هادئاً بغير تردد:

- لنذهب إلى جروشنكا!

كاد راكيتين أن يثب إلى وراء من فرط ما بدت له هذه الموافقة السريعة الهادئة مستغربة. وصاح يقول مذهولاً:

- هكذا؟ عظيم!.

ولكنه لم يلبث أن تاب إلى نفسه فأمسك أليوشا من ذراعه بقوة، وأسرع يجره على الممر الضيق، خشية أن يتراجع أليوشا عن قراره. وسارا صامتين، لأن راكيتين يتحاشى الآن أن يفتح فمه مخافة أن يعكر ما كان عليه أليوشا من حسن الاستعداد والقبول. غير أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يدمدم بعد لحظة قائلاً:

- ما أعظم ما ستشعر به جروشنكا من سرور برؤيتك! أوه! لسوف تكون سعيدة!

ولكنه سرعان ما صمت.

على أن راكيتين كان يجذب أليوشا إلى منزل جروشنكا ليس ليسرّها. إن راكيتين رجل جاد، فهو لا يحاول أمراً من الأمور دون أن يرى فيه نفعاً له. ولقد كان في تلك اللحظة يخضع لباعثين اثنين. فأما الباعث الأول فهو أنه يحب أن ينتقم: إنه يريد أن يشهد «تدنّس

الرجل الصالح»، إنه يريد أن يرى «سقوط» أليوشا من «القداسة إلى الاثم»، وذلك أمر كان راكيتين يتلذذ به منذ الآن. وأما الباعث الثاني فهو هدف مادي سيحقق له ربحاً كبيراً، وسنأتي على ذكره فيما بعد.

قال راكيتين في سره وهو يشعر بفرح خبيث: «إذن لقد جاءت دقيقة كهذه الدقيقة في حياته. ويجب أن لا نفوت هذه الدقيقة، لأنها تعدنا بمنافع كثيرة».

– 3 –

البصلة

تقيم جروشنكا في قلب المدينة المزدحم قرب «ميدان الكنيسة» في منزل موروزوفا، وهي أرملة تاجر أجّرت جروشنكا جناحاً غير كبير مبنياً من خشب في فناء منزلها؛ والمنزل القديم من حجر، وهو واسع ذو طابقين، لكنه متسخ وليس في مظهره ما يلفت. وصاحبته العجوز تعيش فيه وحيدة مع قريبتين لها طاعنتين في السن هما أيضاً؛ وهي تملك من الثراء ما كان يمكن أن يعفيها من تأجير جناح الفناء، والناس في المدينة يعلمون جميعاً أنها لم تقبل سكنى جروشنكا في جناحها (منذ أربع سنين) إلا إرضاءً لقريبها التاجر سامسونوف الذي لا يخفي رعايته لجروشنكا. والناس في المدينة يؤكدون أن العجوز الغيور على الشابة، إنما أراد في أول الأمر حين أسكن أثيرته في منزل موروزوفا، أن يجعلها تحت إشراف العجوز اليقظة التي كلفها بأن تراقب سلوكها. ولكن سرعان ما ظهر أن هذا السلوك ليس في حاجة إلى أن يراقب، وقد أصبحت العجوز آخر الأمر لا تهتم بجروشنكا، ولا تراها إلا نادراً، ولا تزعجها، كما كانت تفعل، بالسؤال تلو السؤال من باب البحث والتقصّي. لقد انقضت الآن أربع سنين على اليوم الذي جاء فيه التاجر العجوز إلى هذا المنزل بالصبية الخجول التي لا يزيد عمرها على ثمانية عشر

عاماً، والتي لقيها في مركز الإقليم وكانت عندئذٍ نحيلة الجسم ضعيفة البنية كثيرة الوجوم حزينة النفس. إن مياهاً كثيرة قد جرت منذ ذلك اليوم. وكان الناس في مدينتنا لا يعرفون إلا أشياء قليلة عن ماضي الفتاة، وان ما يرددونه من معلومات عنها تعوزه الدقة والوضوح، ولم تزدد هذه المعلومات بعد ذلك كثيراً، حتى في الآونة الأخيرة التي أصبح فيها أمر «الحسناء الرائعة» التي تحولت إليها أجرافينا الكسندروفنا خلال أربع سنين، يهم عدداً كبيراً من الأشخاص عندنا. كان يقال إن ضابطاً مجهولاً قد أغراها وأغواها في السنة السابعة عشرة من عمرها، ثم لم يلبث أن هجرها وسافر وتزوج غيرها، فتركت الصبية الشقية للعار والبؤس. وكان يُزعم أيضاً أن جروشنكا، رغم أن التاجر العجوز يعيلها، فهي تنتمي إلى أسرة محترمة من رجال الدين، وأنها بنت شماس، أو كانت تقال أشياء من هذا القبيل. المهم أن اليتيمة الحسّاسة المذلّة المسكينة قد استحالت في غضون أربع سنين إلى حسناء روسية بضة الجسم، حمراء الخدين، جريئة جسور، لا تخلو من كبرياء ووقاحة، تعرف قيمة المال، شرهة إليه، بخيلة حذرة في آن واحد. وكان يقال أيضاً إنها استطاعت خلال هذه المدة القصيرة أن تجمع رأس مالاً صغيراً، بوسائل ليست شريفة دائماً. على أن هناك أمراً يجمع الناس عليه: هو أن جروشنكا امرأة يستحيل نيلها، فما من رجل واحد باستثناء حاميها العجوز، استطاع أن يتباهى بأنه حظي منها بشيء خلال تلك السنين الأربع. والأمر محقق لا ريب فيه، ذلك أن رجالاً كثيرين قد سعوا إلى الحظوة بنعمها، ولا سيما في السنتين الأخيرتين، فلم يظفر أحد منهم بطائل، وباءت جميع محاولاتهم بالإخفاق، حتى إن بعضهم قد اضطر إلى الانسحاب وهو موضع هزء وتهكم بسبب ما

تتصف به الشابة من عزيمة صلبة وروح ساخرة. وقد عُرف أيضاً أنها أصبحت تهتم بالأعمال، ولا سيما منذ سنة، وأنها تبذل فيها مقدرات كبيرة وتبرهن فيها على كفاءات عظيمة، حتى إن كثيراً من الناس أصبحوا يصفونها بقولهم: «يهودية». ليس معنى هذا أنها كانت تقرض بالربا، ولكن عُرف مثلاً أنها كانت تشتري بالاشتراك مع فيدور بافلوفتش كارامازوف سندات قديمة بعشر قيمتها ثم تتوصل بعد ذلك إلى تحصيل قيمتها كاملة، أي تتقاضى مبالغ تساوي عشرة أضعاف ما دفعت. وكان العجوز سامسونوف الذي تورمت ساقاه وأصبحتا عاجزتين عن الحركة منذ عام، رجلاً أرمل يضطهد أبناءها الراشدين ويسومهم سوء العذاب، ولكنه يملك عدة مئات من ألوف الروبلات؛ ومع ما يتصف به من بخل وقسوة لا ترحم، فقد وقع تحت تأثير الفتاة التي كان لا يمنّ عليها في أول الأمر إلا بما «يسدّ الرمق» أو بما يوجبه «الصيام الكبير» على حد تعبير الساخرين المستهزئين، إلى أن استطاعت جروشنكا أن تتحرر، ولا سيما بفضل ما أوحته إليه من ثقة عظيمة بوفائها له. إن هذا العجوز، وهو رجل من كبار رجال الأعمال (ولقد توفي منذ زمن طويل) كان له طبع خاص أهمُ ملامحه البخل والقسوة الشديدة. فرغم ما كان لجروشنكا من تأثير كبير عليه - حتى أصبح لا يستطيع الاستغناء عنها في غضون السنتين الأخيرتين - فإنه لم يترك لها مالاً كثيراً؛ ولولا قد هددته جروشنكا بالقطيعة لما تزحزح عن موقفه في هذا المجال. على أنه قد أعطاها أثناء حياته مبلغاً غير كبير من المال، فلما علم الناس في المدينة بذلك دهشوا جميعاً. قال لها وهو يعطيها ثمانية آلاف روبل: «أنت امرأة ذكية، فسوف تعرفين كيف تربين هذا المبلغ باستثماره. ولكن اعلمي أنني، عدا ما أنفقه عليك لإعالتك التي

سأستمر في تأمينها، لن أعطيك شيئاً أثناء حياتي، ولن أوصي لك بشيء في وصيتي بعد مماتي». وقد تمسك الرجل بقوله: مات تاركاً كل ثروته لأبنائه الذين عاملهم أثناء حياته، هم وزوجاتهم وأولادهم، معاملة الخدم. أما جروشنكا فقد أبى حتى إن يأتي على ذكرها في وصيته. هذه التفاصيل كلها قد عُرفت فيما بعد. ولكن الرجل قد ساعد جروشنكا في مقابل ذلك بنصائحه في استثمار «رأس مالها الشخصي الصغير»، ودلّها مراراً على أعمال رابحة وصفقات نافعة. فلما تعرف فيدور بافلوفتش على جروشنكا بمناسبة صفقة طارئة، ولما انتهى به الأمر على نحو لم يكن في حسبانه هو نفسه إلى الهيام بها هياماً أفقده كل عقله تقريباً، فإن العجوز سامسونوف الذي كان مريضاً جداً وكان يشارف على نهايته، لم يزد على أن ضحك من ذلك. إن من الأمور البارزة أن جروشنكا كانت صريحة مع العجوز صراحة تامة طوال مدة العلاقة بينهما؛ ويبدو أن العجوز كان هو الإنسان الوحيد الذي تعامله جروشنكا هذه المعاملة وتصارحه هذه المصارحة. ولكن حين توله دمتري فيدوروفيتش آخر الأمر هو أيضاً بجروشنكا انقطع حاميها العجوز عن الضحك؛ بل لقد نبّه المرأة الشابة ناصحاً محذراً، فقال لها بلهجة جادة قاسية: «إذا كان عليك أن تختاري بين الاثنين، الأب وابنه، فاختاري الأب، ولكن على شرط أن يتعهد الوغد العجوز بزواجك وأن يهب لك مبلغاً مناسباً قبل الزواج. أما النقيب فدعيه، فلا فائدة منه.». بهذا خاطب العجوز المحب لملذات الحياة صاحبته جروشنكا بينما كان يحسّ بقرب نهايته، ولقد مات فعلاً بعد ذلك بخمسة أشهر. ولنذكر عابرين أن أحداً من الناس لم يكن يعرف على وجه الدقة ماذا كان موقف جروشنكا من كارامازوف الأب وكارامازوف الابن، رغم أن أشخاصاً

كثيرين كانوا في ذلك الوقت على علم بالمنافسة الغريبة الفظيعة بين الأب وابنه على الفوز بحظوة المرأة الشابة. أما خادمتا جروشنكا فقد شهدتا في الدعوى (بعد الكارثة التي سنتحدث عنها فيما بعد) أن آجرافينا ألكسندروفنا لم تكن تستقبل دمتري فيدوروفتش إلا خوفاً، لأنه كان قد «هدد بقتلها». إن لجروشنكا خادمتين: إحداهما طباخة هرمة جداً كانت في الماضي تخدم أسرتها وهي الآن مريضة وتكاد تكون صماء، والثانية فتاة لطيفة في العشرين من عمرها كانت بمثابة وصيفة لها، وهي حفيدة الطباخة العجوز. وكانت جروشنكا تعيش حياة فقيرة في مسكن بسيط متواضع جداً. إنها تشغل في الجناح ثلاث غرف أثاثها قديم من الخشب الماهوجني، استأجرته جروشنكا من مالكة المنزل أيضاً، وهو من طراز أثاث عام 1820. حين وصل راكيتين وأليوشا إلى مسكن جروشنكا كان الظلام قد خيّم، ولكن الغرف لم تُشعل فيها الأضواء بعد. كانت جروشنكا مضطجعة في الصالون على أريكة كبيرة ثقيلة لها مسند من خشب الماهوجني، قد غُطيت بجلد صلب، نال منها الزمن فاهترأت وتثقّبت في عدة مواضع. إن المرأة الشابة مسندة رأسها على وسادتين بيضاوين وثيرتين أخذتهما من سريرها؛ مستلقية على ظهرها، ساكنة، جاعلة ذرعيها تحت رأسها، مرتدية ثوباً من حرير أسود - كأنها تنتظر زيارة أحد - ملفعة شعرها بقبّعة رائعة من تخريم تليق بها جداً، ملقية على كتفيها وشاحاً من تخريم أيضاً قد ثبتته بدبوس حلية كبيرة من ذهب. واضح أنها كانت تنتظر أحداً، لأن وضعها كان يدل على نفاد صبر واكتئاب. وكان وجهها يبدو شاحباً، وكانت عيناها تسطعان، وكانت شفتاها تحترقان، بينما كان طرف قدمها اليمنى يلطم ذراع الأريكة لطماً موقعاً ينم عن تململ الانتظار. فما إن دخل أليوشا وراكيتين مسكنها حتى استولى

عليها اضطراب شديد. لقد سمعاها، وهما في الممشى، تثب عن أريكتها وتقف على قدميها وتصيح بلهجة فيها ذعر وهلع:

- من هنا؟

وها هي ذي الخادمة الشابة التي فتحت لهما الباب تقول لسيدتها على الفور:

- ليس هو. هما شخصان آخران.

دمدم راكيتين يقول وهو يمسك أليوشا من ذراعيه ليقوده إلى الصالون:

- ماذا دهاها؟

كانت جروشنكا واقفة قرب الأريكة وهي ما تزال مذعورة بعض الشيء. إن ضفيرة كثيفة من شعرها الكستنائي قد خرجت من تحت قبّعتها وتهدلت على كتفها اليمنى، ولكن جروشنكا لم تنتبه إليها أول الأمر ولم ترفعها إلا بعد أن تفرست في القادمين وعرفتهما.

قالت جروشنكا:

- هه! أهذا أنت يا راكيتا؟ لقد روّعتني! ومن هذا الذي جئتني به؟ يا لها من مفاجأة!

كذلك صاحت جروشنكا حين عرفت أليوشا.

قال راكيتين وهو يصطنع هيئة منطلقة حرة، هيئة رجل يشعر أن بينه وبين ربة المنزل من الحميميّة ما يجيز له أن يصدر الأوامر نيابة عنها:

- هلا أمرت بإشعال الشموع.

- طبعاً، طبعاً... الشموع... الشموع! فينيا[2]، ائته بشمعة!... لقد اخترت اللحظة المناسبة لتجيئني به!

كذلك هتفت تقول جروشنكا مرة أخرى وهي تومئ برأسها إلى

أليوشا. ثم التفتت نحو المرآة، فتناولت الضفيرة المتهدلة بكلتا يديها، وأسرعت تثبتها على رأسها. كان يبدو عليها أنها غير راضية. قال راكيتين مستاء:

- لعلني جئت في غير الأوان المناسب؟

فقالت جروشنكا وهي تبتسم لأليوشا:

- كلا... ولكنك روّعتني يا راكيتا، هذا كل شيء. لا تخف مني يا عزيزي الطيب أليوشا. ليتك تعرف مدى سعادتي برؤيتك، أنا التي لم أكن أتوقع مجيئك. أما أنت يا راكيتا فقد روعتني منذ هنيهة، لأنني ظننت أن ميتيا هو الذي كان يريد أن يقتحم بابي. لقد خدعته في هذا المساء، وأجبرته على أن يحلف لي بأنه يصدقني، بينما كنت أكذب عليه. ذلك أنني زعمت له أنني سأقضي السهرة كلها عند عجوزي كوزما كوزمتش أساعده في إجراء حساباته إلى ساعة متأخرة من الليل. إنه يعلم أنني أذهب إلى كوزما كوزمتش مرة كل أسبوع لتنظيم دفاتره، نغلق علينا باب الغرفة، فيأخذ هو بإجراء عمليات الجمع مستعيناً بعداد، وآخذ أنا بتسجيل ما يمليه عليّ من أرقام، لأنني الإنسان الوحيد الذي يوليه ثقته. إن ميتيا يعتقد بأنني الآن عند العجوز، على حين أنني قابعة هنا في انتظار رسالة. كيف سمحت لكم فينيا بالدخول! فينيا! فينيا! أسرعي إلى الباب الكبير، وألقي نظرة على الخارج لتتأكدي من أن النقيب لا يحوم حول المنزل. جائز أن يكون قد اختبأ ليتجسس عليّ. إنني أخاف منه خوفاً قاتلاً!

- ليس هناك أحد يا أجرافينا الكسندروفنا، فلقد درت حول المنزل منذ لحظة، وأنا أنظر من شق الباب من حين إلى حين، لأنني أرتعد من الخوف أنا أيضاً.

- هل درف النوافذ مغلقة يا فينيا؟ يجب إسدال الستائر هكذا

(قالت هذا وأسدلت الستائر الكثيفة بنفسها) وإلا سيقتحم مسكني حين يلاحظ نوراً في النوافذ. أنني خائفة من أخيك خوفاً رهيباً في هذا اليوم يا أليوشا.

كانت جروشنكا تتكلم بصوت عال رغم قلقها وخوفها، وكان يلاحظ فيها شيء من حماسة.

سألها راكيتين:

- لماذا تخافين ميتيا كل هذا الخوف في هذا المساء؟ ما عهدتك وجلة معه، فإنما أنت تسيّرينه بعصا في العادة.

- قلت لك إنني أنتظر رسالة، رسالة ثمينة، فما ينبغي أن يجيء ميتيا الآن. ثم إنه لم يصدقني حين زعمت له إنني ذاهبة إلى كوزما كوزمتش، لقد أحسست بذلك. لا بد أنه أختبأ في مكان ما في حديقة فيدور بافلوفتش ليترصدني. فهو في هذه الحالة لن يجيء إلى هنا. هذا أفضل. أما كوزما كوزمتش فقد ذهبت إليه فعلاً، وقد رافقني ميتيا حتى باب منزله، وزعمت له أنني سأبقى هناك إلى نصف الليل، ورجوته ملحة أن يجيء ليصحبني في العودة إلى بيتي. عندئذٍ تركني، فمكثت عند العجوز عشر دقائق، ثم رجعت إلى البيت راكضة. أوف! ما أشد ما كنت أخشى أن ألقاه في الطريق!

- لأي مناسبة تزينت هذه الزينة كلها! إنها لقبّعة رائعة هذه القبعة التي أرى...

- ما أشد فضولك يا راكيتا! قلت لك إنني أنتظر رسالة، فمتى وصلت الرسالة أسرعت أخرج لأطير من هنا فما يؤخرني أحد منكم. لقد تزينت استعداداً للحظة المناسبة.

- إلى أين تطيرين؟

- تحب أن تعلم ذلك؟ الإكثار من العلم ضرر يا عزيزي!

- ياه! أنت فرحة جداً. ما رأيتك على هذه الحال في يوم من الأيام. لقد تجملَتْ وتزينَتْ كأنها ذاهبة إلى حفلة رقص!

كذلك قال راكيتين وهو ينظر إلى جروشنكا.

قالت له:

- ماذا تعرف أنت عن حفلات الرقص؟

- وأنت؟ هل تعرفين عنها أكثر مما أعرف؟

- أنا؟ شهدت حفلة رقص مرة واحدة في حياتي. حدث ذلك منذ ثلاث سنين، حين زوّج كوزما كوزمتش ابنه. كنت أشاهد الحفلة من أعلى الشرفة. على أنني لن ألهو بمناقشتك يا راكيتا بينما عندي ضيف نادر هذه الندرة، ضيف هو أمير حقاً! يا أليوشا، يا ملاكي الصغير إنني لا أصدق عينيّ! كيف أمكن أن يجيء إلى بيتي؟ الحق إنني لم أتوقع ولا كنت أحلم أن أراك في منزلي! لم أصدق في يوم من الأيام أن من الممكن أن تجيئني، أعترف لك بذلك! صحيح إن هذه اللحظة ليست مناسبة، ومع ذلك فأنا سعيدة كل السعادة برؤيتك! اجلس على هذه الأريكة... يا عزيزي، يا شمساً مضيئة! إنني مذهولة... ليتك قد خطر ببالك يا راكيتا أن تجيئني به أمس، أو أمس الأول.. لا بأس على كل حال... أنا سعيدة رغم كل شيء!... بل ربما كان مجيئه اليوم، في مثل هذه اللحظة، خيراً من المجيء أول أمس...

جلست جروشنكا على الأريكة قرب أليوشا بخفة ونشاط وحرارة وأخذت تنظر إليه في نشوة ووجد. كانت تشعر حقاً بسعادة لرؤيته، ولم تكذب حين أكدت له ذلك. كانت عيناها تسطعان، وكانت تضحك، ولكن بمرح فيه كثير من اللطف والكياسة. لم يكن أليوشا يتوقع أن يرى في وجهها مثل هذا التعبير عن الطيبة... إنه لم يرها

حتى الأمس إلا نادراً، وكان رأيه فيها رأياً فظيعاً. كانت ثورتها المتوحشة على كاترينا إيفانوفنا بالأمس قد هزت كيانه من الأساس، لذلك أدهشه الآن أشد الدهشة أن يرى فيها إنساناً مختلفاً كل الاختلاف. إنه رغم الحزن الشديد الذي يرهقه لم يستطع أن يمنع نفسه عن التحديق إلى المرأة الشابة والتفرس فيها. كانت حركاتها وآدابها قد تغيرت عما كانت عليه بالأمس وتحسنت تحسناً ملحوظاً: ليس في صوتها الآن تلك النبرات المفرطة في اللطف المنافق، كما كانت حركاتها خالية من التكلف وأصبحت الآن سريعة بسيطة مباشرة واثقة. هي الآن تشع طيبة، وتنطلق على سجيّتها رغم ما يبدو من أنها مضطربة اضطراباً شديداً.

قالت مدمدمة:

- رباه! يا لها من عجائب في يوم واحد! إنني أتساءل يا أليوشا لماذا أنا سعيدة برؤيتك هذه السعادة كلها؟ أؤكد لك إنني أجهل أنا نفسي سبب هذه السعادة.

قال راكيتين وهو يبتسم ابتسامة صغيرة:

- أأنت تجهلينه إلى هذا الحد من الجهل؟ لقد خرقت أذنيّ من طول ما سألتني ملحّة أن آتي به إليك، فلا بد أن يكون لك في ذلك هدف.

- كان لي هدف حقاً، ولكن لم يبق لي هدف الآن. فات الأوان فلأقدم إليكما شيئاً من الطعام والشراب. لقد أصبحت طيبة يا راكيتا، هل تعلم ذلك؟ هلا جلست يا راكيتا؟ لماذا تظل واقفاً؟ ها... أأنت جلست إذاً؟ لا خوف على راكيتا من أن ينسى نفسه! ها هوذا قد اتخذ لهِ مكاناً في قبالتنا يا أليوشا، مستاء من أنني لم أدعه إلى الجلوس قبل أن أدعوك أنت. إنه سريع التأذي. - هذا ما

أضافته ضاحكة. - لا تزعل يا راكيتا؟ أنا اليوم طيبة جداً! ولكن أنت يا صغيري أليوشا، لماذا تبدو حزيناً هذا الحزن كله؟ ألعلك خائف مني؟

قالت له ذلك ونظرت في عينيه وهي تبتسم ابتسامة لاهية.

قال راكيتين بصوت أجش:

- هو حزين لأنه أُغفل في الترقيات.

- أي ترقيات؟

- انتشرت من شيخه رائحة تفسخ.

- انتشرت رائحة تفسخ؟ ما هذه السخافات التي تقولها؟ لا شك أنك تريد أن تقول حقارة ما. أنت تغمز وتلمز أنا أعرفك اسكت أيها الأبله!

ثم قالت لأليوشا:

- هل تسمح لي يا أليوشا بأن أقعد على ركبتيك.. هكذا؟ قالت ذلك ثم قعدت على ركبتيه بوثبة واحدة وهي تضحك وتلامسه ملامسة رقيقة كقطة صغيرة. ثم أحاطت عنقه بذراعها اليمنى في عطف وحنان. وأردفت تقول:

- سأعرف كيف أدخل البهجة إلى قلبك يا فتاي الصغير التقي. حقاً... هل تسمح لي بأن أبقى على ركبتيك؟ ألا تغضب؟ إذا شئت قمتُ.

صمت أليوشا ولم يجرؤ أن يتحرك. لقد سمع قولها: «إذا شئت قمتُ»، ولكنه لم يجب وشعر كأنه مشلول. ومع ذلك لم يحسّ بما يمكن أن يتخيله رجل مثل راكيتين الذي كان يتأمله بشهوة. إن الألم العميق الذي يملأ قلبه قد جمّد أحاسيسه، ولو كان يستطيع أن يرى ما بنفسه رؤية واضحة لأدرك أنه كان في تلك اللحظة محصناً تحصيناً

قوياً من جميع الفتن وجميع الإغراءات الممكنة. ومع ذلك، رغم ذهوله عن حاله ورغم الألم الذي كان يرهقه، فقد أدهشه شعور جديد غريب نبت في نفسه: وهو أن هذه المرأة، هذه المرأة «الرهيبة» لا تخيفه الآن كما كانت تخيفه من قبل، ولا تبعث في نفسه ذلك الذعر الذي كان يحسه حتى ذلك الحين متى خطرت بباله المرأة! ونادراً ما كانت المرأة تخطر بباله. بل إن ما يحدث الآن هو عكس ذلك تماماً: إن هذه المرأة الشابة التي كان يخشاها أكثر مما يخشى سائر النساء، والتي تحيطه بذراعيها جالسة على ركبتيه، توقظ في نفسه شعوراً مختلفاً عن ذلك الشعور كل الاختلاف، شعوراً فريداً غير متوقع، شعوراً هو استطلاع قوي خاص صادق، إنه لا يشعر بأي خوف، لا يشعر بأي أثر من آثار جزعه الماضي، وهذا أهم شيء كان يدهشه بالرغم منه.

هتف راكيتين يقول:

- كفاك كلاماً في ترهات. خير من هذا أن تسقينا شيئاً من الشمبانيا. لقد وعدتني بذلك، هل تتذكرين؟

- صحيح. وعدتك بذلك. لقد قطعت له على نفسي عهداً يا أليوشا لاسقينَّه شمبانيا يوم يجيئني بك. هل تفهم؟ هذا علاوة على شيء آخر. هلموا بنا، سأشرب أنا نفسي شمبانيا. فينيا، فينيا، هاتينا بتلك الزجاجة التي تركها ميتيا، اسرعي! سأسقيكم شمبانيا مهما أكن بخيلة! ما هذا من أجلك، يا راكيتا، فما أنت إلا خيارة فاسدة، بل من أجله هو، من أجل أميري! سأشرب معكما، رغم أن فكري في مكان آخر. أريد أن أقصف!

عاد راكيتين يسألها مستطلعاً ملحاً، وهو يبذل جهداً كبيراً في سبيل أن يظهر بمظهر من لا يلاحظ السخريات التي تصبها عليه:

- ما هذه اللحظة المهمة لك؟ ما هذه الرسالة التي تنتظرينها؟ هل الأمر سر؟

فقالت جروشنكا وقد عاودها قلقها فجأة:

- ليس الأمر سراً، ثم إنك على علم به.

وأدارت رأسها نحو راكيتين وابتعدت قليلاً عن أليوشا مع بقائها قاعدة على ركبتيه محيطة بذراعها عنقه، وقالت:

- سيصل ضابطي يا راكيتين، ضابطي الجميل في الطريق إلى هنا!

- أعرف أنه سيصل، ولكنني كنت أظن أنه ما يزال بعيداً.

- هو الآن في موكرويه، وسيبعث إليّ من هناك رسولاً. ذكر لي ذلك في رسالة تلقيتها منذ حين. فأنا أنتظر الآن هذا الرسول.

- غريب! لماذا في موكرويه؟

- شرح هذا يطول. يكفيك الآن ما علمت.

- وميتيا هل يعلم بالأمر؟

- لا يعلمه طبعاً. ولا يشتبه في شيء لو علم لقتلني. ولكنني أصبحت لا أخاف منه. إنني لا أعبأ بخنجره. اسكت يا راكيتا. لا تحدثني بعد الآن عن دمتري فيدوروفتش. لقد أساء إليّ كثيراً أو جعل قلبي يتأمل. لا أحبّ الآن أن أفكر في هذه الأشياء. أحبّ أن أفكر في أليوشا، أريد أن أنظر إليه... ابتسم لي يا ملاكي، كن أكثر فرحاً، شاركني سعادتي، ابتسم لما قلت من سخافات... آ... ها هو ذا يبتسم أخيراً... لقد ابتسم لي! ما أجمل هذه الوداعة في نظرته. هل تعلم يا أليوشا؟ لقد كنت أعتقد أنك سوف تزعل مني بسبب تلك القصة التي حدثت في ذلك اليوم عند الآنسة. لقد تصرفت نحوها تصرف وحش خبيث! هذا صحيح. ولكنني مسرورة

رغم كل شيء بما حدث. كان هذا سيئاً من جهة حسناً من جهة ثانية. - ابتسمت جروشنكا مفكرة ثم وجمت على حين فجأة وطاف بابتسامتها شيء من القسوة - روى لي ميتيا كيف صرخت تقول بعد انصرافي: «هذه البنت تستحق أن تجلد على مرأى من الناس». لقد اسأت إليها كثيراً. هي استدعتني وأرادت أن تسيطر عليّ. كانت تظن أنها ستغريني بفنجان من الشوكولاته... لا... لا... حسن ما حدث. كل ما أخشاه هو أن تكون أنت قد زعلت مني...

بهذا اختمتت كلامها وهي تضحك ضحكة خفيفة.

قال راكيتين مدهوشاً دهشة عميقة:

- يبدو أنها تخشى رأيك حقاً يا أليوشا! إنها تخاف منك، من فرخ مثلك!

- هو في نظرك فرخ لأنك... لا ضمير لك! أما أنا فأحبه بكل نفسي هل فهمت؟ هل تصدقني يا أليوشا إذا قلت لك إنني أحبك بكل نفسي صادقة مخلصة؟

- يا للخلاعة! هذا تصريح بحب يا أليوشا، تصريح بحبّك أنت!

- لم لا يكون كذلك ما دمت أحبه؟

- وصاحبك الضابط؟ والرسالة الثمينة من موكرويه؟

- هذان أمران مختلفان.

- ذلك ما تقوله النساء دائماً في مثل هذه الحالة.

أجابته جروشنكا بقوة وحرارة:

- لا تحنقني يا راكيتا. هذان أمران مختلفان. أنا أحبّ أليوشا حباً آخر. صحيح أنني قد رسمت خططاً شريرة بشأنك يا أليوشا، لأنني منحطة عنيفة قاسية. ولكنني كنت في لحظات أخرى أعدّك بمثابة ضمير لي، وكثيراً ما كنت أحدث نفسي قائلة: «لا بد أنه

يحتقرني بسبب سلوكي». وقد قلت لنفسي هذا الكلام أمس الأول حين رجعت من عند الآنسة. لقد لاحظتك منذ زمن طويل يا أليوشا. إن ميتيا يعلم هذا. لقد ذكرت ذلك له. وهو يفهمني. هل تصدّق يا أليوشا أنه يتفق لي أحياناً حين أنظر إليك أن أشعر بالخجل فجأة، بالخجل من نفسي... فلا أدري في الواقع ولا أتذكر لماذا بدأت أفكر فيك ومنذ متى...

دخلت فينيا في تلك اللحظة، ووضعت على المائدة صينية عليها زجاجة شمبانيا مفتوحة وثلاث كؤوس ملأى.

هتف راكيتين يقول:

- وصلت الشمبانيا! أنت مهتاجة كثيراً يا أجرافينا ألسكندروفنا، حتى أصبحت لا تسيطرين على نفسك. ومتى أفرغت هذه الكأس فسوف ترقصين، ترالالا! - أضاف قائلاً وهو يتفرس في الشمبانيا - أوف! إن الشمبانيا لم تقدم وفقاً للأصول. إن الزجاجة فاترة والسدادة منزوعة، والخادم العجوز قد ملأت الكؤوس في المطبخ. لا بأس... سنشربها على كل حال.

واقترب راكيتين من المائدة، فتناول كأساً، وافرغها في جوفه دفعة واحدة ثم ملأها من جديد، وقال وهو يمر على شفتيه بلسانه:

- لا يتمتع المرء بالشمبانيا كل يوم. جاء دورك يا أليوشا. ألا فلنر مقدرتك! أي نخب نشرب؟ ربما نخب أبواب الجنة؟ تناولي هذه الكأس يا جروشا واشربي معنا نخب أبواب الجنة!

- أبواب الجنة؟ ماذا تعني؟

وتناولت جروشنكا كأساً؛ وكذلك فعل أليوشا فجرع جرعة ووضع الكأس على المائدة وقال مبتسماً ابتسامة عذبة:

- أؤثر أن لا أشرب.

فصاح راكيتين قائلاً:

- فماذا كان تباهيك إذاً؟

وقالت جروشنكا:

- لن أشرب أنا إذاً. ثم إنني ليست بي رغبة في الشراب. تستطيع أن تفرغ الزجاجة وحدك إذا شئت يا راكيتا. وإذا قرر أليوشا أن يشرب شربت أنا أيضاً.

قال راكيتين ساخراً:

- يا للعواطف الرقيقة! بينما ما تزالين تجلسين على ركبتيه. إن له هو عذراً على الأقل، فقد حلت به مصيبة، فهو حزين النفس أما أنت فأي عذر يمكن أن تنتحلي؟ لقد تمرد هو على إلٰهه وأراد أن يأكل مقانق.

- ماذا وقع له؟

- مات شيخه هذه الليلة... الأب زوسيما... ذلك القديس.

- ماذا؟ الشيخ زوسيما مات؟ رباه! لم أكن أعرف ذلك!

قالت جروشنكا هذا صائحة، ورسمت على نفسها إشارة الصليب بتقى وورع. وأردفت تقول منفعلة على حين فجأة كالمذعورة:

- آه... يا رب! وأجلس على ركبتيه في مثل هذا اليوم؟

ثم أسرعت تنهض، ومضت تجلس على الأريكة. حدّق إليها أليوشا بنظرة طويلة دهشة، وانبسطت أسارير وجهه قليلاً، وقال يخاطب راكيتين بصوت قوي حازم:

- لا تضايقني بموضوع ثورتي المزعومة على الله يا راكيتين. إنني لا أحبّ أن أغضب منك، ومن أجل هذا أرجوك أن تبرهن على نبل النفس أنت أيضاً. لقد فقدت كنزاً لم تملكه أنت في يوم من الأيام، لذلك لا تستطيع أن تدينني. خير لك أن تنظر إليها: هل

رأيت كم دارتني ورعتني؟ لقد جئت إلى هنا لأقابل إنسانة شريرة، لألقى روحاً خبيثة، وكنت أتمنى ذلك أنا نفسي، لأنني كنت في تلك اللحظة وغداً شريراً. ثم إذا أنا ألقى أختاً صادقة، جوهرة ثمينة، نفساً صافية محبة... دارت مشاعري، وأحاطتني بالرعاية. عنك أتكلم يا أجرافينا ألكسندروفنا. لقد أعدت الحياة إلى نفسي.

أخذت شفتا أليوشا تختلج وصمت مختنقاً.

قال راكيتين وهو يضحك ساخراً:

- لكأنها أنقذتك! ألا فاعلم إذاً أنها كانت تنوي أن تبلعك!

قالت جروشنكا مندفعة:

- كفى يا راكيتين. واسكتا كلاكما الآن. سأقول أنا كل شيء لا تقل شيئاً يا أليوشا، لأن أقوالك تشعرني بالخزي والخجل. أنا في الحق خبيثة لا طيبة كما تظن. أما أنت يا راكيتا فأريد أن تسكت لأنك تكذب. صحيح أنني نويت في السابق تلك النية الدنيئة وهي أن أبلعه لقمة واحدة، ولكنك مع ذلك تكذب، لأن هذا قد مضى الآن... لا أريد أن أسمع صوتك يا راكيتا!

كانت جروشنكا تتكلم مضطربة اضطراباً شديداً.

قال راكيتين بصوت صافر وهو ينظر إليهما مدهوشاً:

- لقد فقدا كلاهما العقل. لكأنهما مجنونان! أتراني وقعت في مستشفى للمجانين؟ أصبحا عاطفيين، وما هي إلا لحظة حتى يطفقا باكيين.

قاطعته جروشنكا تقول:

- سوف أبكي، نعم سوف أبكي. لقد دعاني أخته، لن أنسى هذا ما حييت! اعلم يا راكيتا أنني مهما أكن شريرة، فقد وهبت بصلة.

- أي بصلة؟ حقاً لقد فقدا العقل.

كان راكيتين يستغرب اندفاعاتهما الحماسية، ويحس بالإهانة، رغم أنه كان يمكن أن يدرك أن الظروف التي جمعت هذين الإنسانين قد هزّت نفسَيْهما هزاً شديداً نادراً ما يقع مثله. ولكن راكيتين، السريع جداً إلى إدراك كل ما يمسه، يجد عناء في فهم عواطف الآخرين وإحساساتهم أولاً لأنه قليل الخبرة بحكم شبابه، وثانياً لأنه على جانب عظيم من الأنانية.

التفتت جروشنكا نحو أليوشا وهي تضحك ضحكة عصبية وقالت له:

- ها قد رأيت يا أليوشا أنني تباهيت أمام راكيتا بأنني قدمت بصلة. ولكنني سأتكلم معك صادقة مخلصة بغير تفاخر. الأمر أمر أسطورة: هي قصة جميلة[3] قصتها عليّ في طفولتي ماتريونا التي تعمل عندي اليوم طباخة. إليك القصة: كان هناك في الماضي امرأة عجوز شريرة جداً؛ فلما ماتت هذه العجوز وكانت لا تملك أي فضيلة أمسكتها الشياطين وألقتها في بحيرة من نار. وعندئذٍ أخذ حارسها الملاك يفكر. تساءل: «ماذا أستطيع أن أفعل لإنقاذها؟ ألا يمكنني أن أكتشف فضيلة أذكرها عنها للرب!»، فإذا هو يتذكر حادثة جرت لهذه المرأة في حياتها، فقال للرب: «لقد انتزعت من حديقتها بصلة في ذات يوم ووهبتها لشحاذ». فقال الرب للملاك الحارس: «خذ هذه البصلة، ومدّها إلى هذه المرأة في بحيرة النار، ومرها أن تتشبث بها، ثم شدها لتخرجها من اللّهب. فإذا استطعت أن تخرجها ذهبت إلى الجنة، أما إذا تقطعت البصلة فستبقى المرأة حيث هي». أسرع الملاك إلى المرأة ومد إليها البصلة وقال لها: «تمسكي بهذه البصلة فأخرجك من النار». وأخذ يشد بحذر، وكاد يخرج المرأة من

بحيرة النيران حين لاحظ المذنبون الآخرون أنه كان بسبيل انقاذها، فتمسكوا بها بغية أن يخرجوا من البحيرة معها. ولكن العجوز كانت شريرة جداً، فركلتهم بقدميها وهي تصرخ: «إنما يراد إنقاذي أنا لا إنقاذكم أنتم. هذه البصلة بصلتي أنا لا بصلتكم أنتم». فما أن نطقت العجوز بهذه الكلمات حتى تقطعت البصلة، فسقطت المرأة العجوز في البحيرة من جديد. وما تزال تحترق في النار حتى الآن. أما الملاك فقد انصرف باكياً.

إنني أحفظ هذه الأسطورة عن ظهر القلب؛ احتفظت بها لأنني شبيهة بتلك المرأة العجوز الشريرة. لقد تباهيت أمام راكيتا بأنني وهبت بصلة. أما لك أنت فأقول إنني إن كنت قد وهبت بصلة مرة في حياتي فذلك كل ما فعلته، وليست تتعدى فضيلتي هذه الحدود. فلا تمدحني إذاً يا أليوشا، ولا تظن أنني طيبة. أنا شريرة، شريرة جداً، وإنني لأمتلئ بشعور الخزي والعار حين أسمعك تكيل لي المديح. وها أنذا أعترف لك بكل شيء يا أليوشا: لقد بلغت من فرط الرغبة في أن أراك عندي أنني كنت لا أعرف ما عساي فاعلة لأحض راكيتين على أن يجيئني بك. ووعدته أخيراً بأن أعطيه خمسة وعشرين روبلاً إذا هو اصطحبك إلى منزلي. لحظة يا راكيتا!

أسرعت جروشنكا تقترب من المنضدة، ففتحت درجاً، وتناولت محفظة نقودها، وأخرجت منها ورقة بخمسة وعشرين روبلاً.

هتف راكيتين يقول مرتبكاً ارتباكاً شديداً:

– ما هذا السخف؟ كان ذلك هزلاً لا جداً!

– خذ المال يا راكيتا! أنا مدينة لك به! لن ترفضه! لقد ألححت عليّ لأعطيك هذا المبلغ.

ورمت إليه الورقة.

قال راكيتين بصوت أجش وبدا عليه الارتباك ولكنه حاول أن يسيطر على ارتباكه وخجله:

- لن أرفضه. إنما وجد الأغبياء في هذا العالم لمصلحة الأذكياء.

قالت جروشنكا:

- والآن أسعدني بسكوتك يا راكيتا. إن ما سأقوله الآن لا يصلح لأذنيك. اجلس هناك، في الركن، ولا تقل بعد هذه اللحظة شيئاً. أنت لا تحبنا فما عليك إلا أن تلزم الصمت.

قال راكيتين بلهجة معادية دون أن يحاول إخفاء غضبه:

- وفيم أحبكما؟

ودسّ الورقة النقدية في جيبه، ولكنه شعر بحرج شديد أمام أليوشا. كان يقدّر أن يتقاضى مكافأته فيما بعد، على غير علم من أليوشا، فإذا بالعار الذي يشعر به الآن يجعله خبيثاً شرساً. كان قد رأى أن من الحذق حتى ذلك الحين أن لا يستفزّ جروشنكا رغم كل السخريات التي كانت تصبها عليه. بدا واضحاً أن لها عليه سلطاناً، ولكنه بدأ يغضب الآن. قال:

- لا يحب المرء بغير باعث على الحب، فما الذي يجعلكما تستحقان حبي؟

- أحبّ بغير سبب، مثل أليوشا!

- من قال لك إن أليوشا يحبك؟ ماذا صنع من أجلك حتى تعامليه هذه المعاملة؟

كانت جروشنكا في وسط الغرفة، وكانت تتكلم متحمسة بصوت تداخله في بعض اللحظات نبرات هسترية.

- اسكت يا راكيتا! إنك لا تفهم في هذه الأمور شيئاً. ثم إني

لا أريد بعد الآن أن ترفع الكلفة بيني وبينك وأن تخاطبني بصيغة المفرد. إنني أمنعك أن تفعل هذا في المستقبل. من أجاز لك أن ترفع الكلفة إلى هذه الدرجة؟ ابق في ركنك واسكت، لأنني أعدك بمثابة خادم لي. والآن يا أليوشا، سأقول لك الحقيقة كاملة، لتعلم إنني إنسانة شريرة سيئة! لك إنما أعترف هذا الاعتراف، لا لراكيتا! لقد أردت ضياعك يا أليوشا، أقول لك هذا لأنه هو الحقيقة بعينها! ولقد تصورت لهذا الأمر خطة راسخة، وكنت أبلغ من شدة الحرص عليه أنني حرضت راكيتا بالمال على أن يجيئني بك. ما هو السبب الذي دفعني إلى أن أريد ضياعك؟ إنك لم تلاحظ شيئاً، ولم يخطر ببالك شيء، وكنت تشيح بوجهك عني. كنت إذا لقيتني تغض طرفك. أما أنا فقد نظرت إليك أكثر من مائة مرة، وسألت كل من أعرفه عنك. انطبعت ملامح وجهك في قلبي. كنت أقول لنفسي: «إنه يحتقرني. إنه يأبى حتى إن يرفع عينيه إليّ». وشعرت من ذلك بغيظ بلغ من فرط القوة أنني دهشت أنا نفسي. قلت: «لماذا الخوف من هذا الصبي الغر؟ لآكلنه لقمة واحد، ولأضحكنّ بعد ذلك كثيراً». إن نوعاً من الحنق المسعور قد اضطرم في نفسي غضباً منك وحقداً عليك. صدقني، لا يستطيع أحد أن يأخذ عليّ شيئاً في هذه المدينة، لن يجرؤ أحد أن يشتبه في أجرافينا ألكسندروفنا فيسيء فيها الظن إذا هي استقبلت رجلاً في بيتها. ليس في حياتي إلا ذلك العجوز الذي ارتبطت به وبعته نفسي. لقد جمع الشيطان بيننا. غير أن ذلك العجوز هو الرجل الوحيد الذي حظي بي. ومع ذلك كنت مستعدة لأن أشذ عن هذه القاعدة من أجلك. كنت أتهيأ لأن أبلعك، لأستطيع أن أضحك ما شئت أن أضحك بعد ذلك. فانظر مدى ما أتصف به من خبث وشر أنا التي دعوتني أختك. وهذا

صاحبي الذي غشني وأغواني يبلغني أنه قادم، وأنا أنتظر رسالة منه. هل تعلم ماذا كان هذا الرجل في حياتي؟ لقد جاء بي كوزما إلى هنا منذ خمس سنين. كنت أعيش في أول الأمر هاربة من الناس أخشى أن يراني أحد وأن يسمعني أحد. كنت هزيلة الجسم غبية العقل، وكنت لا أكف عن البكاء في ليل ولا نهار. كنت أبقى مؤرقة مسهدة ليالي برمتها أحدث نفسي قائلة: «أين هو في هذه الساعة، الرجل الذي أغواني؟ لا شك أنه يضحك عليّ ويسخر مني مع امرأة أخرى. آه... ليتني أستطيع أن ألقاه يوماً! ليدفعنّ عندئذٍ ثمن ما جنت يداه!». وكنت أبكي على وسادتي في الظلمات وأحلم بالثأر والانتقام. كنت أستثير ألمي عامدة لأملأ نفسي كرهاً وحقداً. كنت أصرخ في الليل قائلة: «لسوف يرى! لسوف يرى! ليندمنّ على ما فعل!». ثم أدركت فجأة عجزي. وأصبحت إذا تصورت أنه يسخر مني ويضحك عليّ، أو إذا تصورت أنه قد نسيني نسياناً تاماً - وهكذا أنكى - أسقط عن سريري على الأرض وأظل أتدحرج منتحبة مرتجفة بكل جسمي حتى مطلع الفجر. فإذا أشرق الصباح نهضت وأنا أشد ضراوة من كلب، نهضت وأنا مستعدة لأن أؤذي الدنيا كلها ثم أخذت أجمع المال، وأصبحت بلا رحمة، وسمنت. تعقلاً؟ ماذا تظن؟ هل تظن أني هدأت بالاً وتعقّلت؟ أتغيرت نفسي؟ لا... ما من أحد يرى ما أعاني، ما من أحد في الكون بأسره يتصور ما أقاسي: ما يزال يحدث لي حتى اليوم، كما كان يحدث لي منذ خمس سنين، حين كنت صبية يافعة. أشد على أسناني في سريري ليلاً، أستمر في البكاء إلى الصباح، مرددة قولي: «ليدفعنّ ثمن ما جنت يداه!» هل تسمعني؟ فاحكم عليّ الآن: لقد وصلتني منه منذ شهر رسالة أولى يبلغني فيها أنه ترمّل، وأنه يريد أن يراني، وأنه

يأمل أن يصل قريباً. صُعقت في الوهلة الأولى وحطمني الانفعال. ثم قلت لنفسي فجأة: «سيعود، ولن يكون عليه إلا أن يصفر حتى أهرول إليه ككلب، مجلّلة بالخزي، مطعونة القلب، طالبة الصفح والغفران!». وتساءلت عندئذٍ: «أأكون جَبَانة وطيّعة إلى هذه الدرجة؟ أأرضى أن أذلّ نفسي هذا الإذلال؟»». وقد استبد بي من الغضب على نفسي طوال هذا الشهر، من خشية أن أسقط في مثل ذلك الجبن، ما جعلني أصبح أخبث نفساً وأميل إلى الشر مما كنت كذلك خلال السنوات الخمس الماضيات. هل أدركت يا أليوشا مدى ما تتصف به نفسي من سوء وشر وعنف؟ إنني أذكر لك الحقيقة كلها. لقد اتخذت دمتري سلوى لنفسي حتى لا أركض إلى لقاء الآخر. اسكت يا راكيتا! ما أنت من يحكم عليّ! وما أنت من أكلم! كنت قبل وصولك يا أليوشا راقدة على الأريكة أفكر في قدري، ولن تعرف قط ما كان يجري في قلبي. قل للآنسة يا أليوشا أن لا تأخذ عليّ المشهد الذي وقع أمس الأول... ما من أحد في العالم يستطيع أن يفهم ما أعاني الآن... ما من أحد يستطيع تصوّر هذه الحالة النفسيّة ربما أحمل خنجري معي حين أذهب إلى هناك... إنني لم أعزم أمري بعد...

بعد أن أفضت جروشنكا بهذا الاعتراف الذي «يُرثى له» لم تستطع أن تتمالك نفسها، فإذا هي تنقطع عن الكلام، وتغطي وجهها بيديها، وتتهالك على الأريكة، وتأخذ تنتحب على الوسادة كطفل صغير.

نهض أليوشا واقترب من راكيتين، وقال له:

– لا تزعل يا ميشا! لقد أهانتك ولكن ما ينبغي لك أن تغضب منها. هل سمعت قصتها الآن؟ على المرء أن يعامل النفس الإنسانية

بالتسامح والرحمة، وأن لا يشاركها في تحمّل هذا العناء وهذا العذاب. . .

قال أليوشا هذا الكلام باندفاعة من قلبه لا سبيل إلى مقاومتها. كان يشعر بحاجته إلى إطلاق انفعاله حراً لا يعوقه عائق؛ ولئن خاطب بهذا الكلام راكيتين، فلقد كان يمكن أن يتحدث وحيداً لو لم يكن راكيتين هناك. ولكن راكيتين ألقى عليه نظرة باردة ساخرة، فتوقف أليوشا عن الكلام. قال راكيتين وهو يبتسم ابتسامة كارهة حاقدة:

- شيخك هو الذي حشا رأسك بهذه الأفكار، فتريد أن تقدمها إليّ بدورك الآن يا أليوشا، يا راهباً صغيراً!

- لا تستهزئ يا راكيتين، دع السخريات، ولا تقل سوءاً في الشيخ الراحل! إنه خير من جميع البشر الذين عاشوا على هذه الأرض.

كذلك صاح أليوشا والدموع في صوته. ثم تابع كلامه يقول:

- لا أقول لك هذا الكلام قاضياً بل متهماً هو شر المتهمين طراً. ما أنا أمام هذه المرأة؟ لقد جئت إلى بيتها عاقداً نيتي على الضياع، قائلاً لنفسي في جبن وخطة «ليكن هذا. . . ليكن هذا. . .»، فإذا هي، هي التي تألمت خلال خمس سنين، تغفر كل شيء، وتنسى كل شيء، وتبكي ما إن سمعت لأول مرة كلمة مودة صادقة! إن الرجل الذي أساء إليها كل تلك الإساءة، وألحق بها كل ذلك الأذى، قد عاد وأومأ إليها، فإذا هي تغفر له على الفور، فرحة سعيدة مستعجلة لقاءه. أما الخنجر فثق أنها لن تحمله! لا. . . لا. . . أنا لا أساويها، أنا لا أعدلها. لا أدري يا ميشا هل أنت طيب نبيل كطيبتها ونبلها، أما أنا فلست كذلك بحال من الأحوال. هذا

درس تلقنته اليوم... إن هذه المرأة أعظم منا بالحب... هل كنت تعرف ما روته لنا الآن؟ إنك لم تكن تعرفه حتماً. وإلا لأدركت كل شيء منذ زمن طويل... وتلك الأخرى التي آذتها هي أمس الأول، يجب عليها أن تغفر لها هي أيضاً! سوف تغفر لها متى علمت، وستعلم... إن هذه النفس لم تسترد هدوءها وطمأنينتها بعد، فينبغي أن تدارى وأن تراعى... لعل فيها كنوزاً لا تخطر ببال....

صمت أليوشا منقطع الأنفاس. وكان راكيتين ينظر إليه مدهوشاً رغم حنقه. ما كان ليتوقع مثل هذا الكلام الطويل من الراهب الوديع البسيط.

قال راكيتين صائحاً وهو يضحك ضحكة وقحة:

- يا للمحامي البارع! أتراك وقعت في حبها؟ يا أجرافينا ألكسندروفنا، إن صاحبنا الصائم قد توله بحبك، وهام غراماً بك. هنيئاً لك بالنصر!

أنهضت جروشنكا رأسها عن الوسادة، وألقت على أليوشا نظرة حنونة أشرق بها وجهها المحتقن بالدموع علي حين فجأة.

- لا تكترث له يا أليوشا، يا ملاكي. أنت ترى ما هو، فلا داعي إلى مناقشته.

كذلك قالت جروشنكا، ثم التفتت نحو راكيتين وقالت له:

- كنت أنوى يا ميخائيل اوسيبوفتش أن أعتذر إليك عن الكلمات الجارحة التي قلتها لك، ولكنني أعدل عن ذلك الآن.

وعادت تخاطب أليوشا فقالت له وفي وجهها فرح:

- أليوشا، اجلس هنا، بجانبي، هكذا، قريباً مني. قل لي يا أليوشا (تناولت يده ونظرت في عينيه مبتسمة)، قل لي: أما زلت أحبه؟ أما زلت أحبّ الآخر؟ أقصد الرجل الذي أغواني... لقد كنت

قبل مجيئك ألقي على نفسي هذا السؤال في الظلام، محاولة أن أقرأ في أعماق قلبي: أما زلت أحبه؟ أضئ طريقي يا أليوشا. هذه ساعة اتخاذ القرار. إنني أوكل أمري إليك. هل يجب عليّ أن أغفر له؟

قال أليوشا مبتسماً:

- ولكنك غفرت له وانتهى الأمر!

فدمدمت جروشنكا واجمة مفكرة:

- صحيح. لقد غفرت له. ما أجبن قلبي!

ثم هتفت تقول:

- إنني أشرب نخب هذا السافل الكبير، قلبي!

وتناولت من المائدة كأس شمبانيا، وأفرغته في جوفها دفعة واحدة، ثم ألقته طائراً على الأرض. تحطمت الكأس، ورنت شظاياها. ومرة أخرى ظهر في طرفي فمها شيء من قسوة. قالت بصوت مثقل بتهديدات غامضة وهي تخفض عينيها كأنها تخاطب نفسها:

- لعلني لم أغفر له بعد. قلبي يتهيأ للمغفرة، وسأحاول أن أقاومه. آه، يا أليوشا! ما كان أعظم تلذذي بالدموع التي سكبتها طوال خمس سنين. إن عذابي هو ما أحب. إنني أحبّ ألمي، ولا أحبه هو!

قال راكيتين بصوت خفيض:

- لست أتمنى أن أكون إياه!

- لن تكون إياه أبداً يا راكيتا، أبداً... أنت ستنظّف لي حذائي. ذلك ما تصلح له أنت في أكثر تقدير. النساء اللواتي هنّ من نوعي لم يخلقن لك، وربما لم يُخلَقنَ له أيضاً على كل حال...

قال راكيتين ساخراً:

- ولا له أيضاً؟ فلمن تزينت إذاً؟

- لا تأخذ عليّ تزيني يا راكيتا! أنت لا تعرف قلبي بعد! سأنزع ثوبي وزينتي إذا عنّ لي هذا، سأرميها فوراً هل تفهمني (كذلك صرخت بصوت حاد). أنت لا تعرف يا راكيتا الهدف الذي من أجله تزينت. من يدري؟ ربما ذهبت إليه ووقفت أمامه فقلت له: «انظر! انظر ماذا أصبحت!». لقد تركني وأنا في السابعة عشرة من عمري ناحلة مصدورة بكّاءة. سأجلس قربه، أغريه وأغويه، وأضرم نار الهوى في قلبه، أقول له: «هيه! أرأيت ماذا أصبحت؟ لكن اللجام أفلت من يديك يا محترم. إن المسافة بعيدة بين الكأس والشفتين!». ربما كان هذا هو السبب في أنني تزينت يا راكيتا (بهذا ختمت جروشنكا كلامها لراكيتين وهي تضحك ضحكة خبيثة). أنا عنيفة يا أليوشا، أنا شريرة. سوف أنزع ثوبي، وأشوّه نفسي، وأحرق وجهي وأخدده بطعنات موسى لأدمّر جمالي ثم أمضي أتسوّل. ليس يتوقف إلا عليّ أنا أن أبقى هنا في هذا المساء، فلا أذهب لا إلى هذا ولا إلى ذاك. وإذا شئت رددت منذ الغد إلى كوزما كوزمتش جميع الهدايا التي اهداها إليّ، والمال الذي أعطانيه، ثم أمضي أعمل طوال حياتي لأجني رزقي عاملة بسيطة. هل تظن أنني لن أفعل شيئاً من هذا يا راكيتا؟ هل تظن أنني لا أجرؤ على ذلك؟ بل سأفعله، سأفعله. لا تستفزّني وإلا فعلته فوراً!... أما الآخر، فسأطرده، سأمد له لساني استهزاء، سأنسلّ من بين أصابعه!

قالت هذه الكلمات الأخيرة بصوت ثاقب، يوشك أن يكون هستيرياً، ثم لم تتمالك نفسها فإذا هي تدفن وجهها في يديها من جديد، وتتهالك على الوسادة ناشجة منتحبة. فنهض راكيتين من مكانه فجأة وقال:

- آن أوان الانصراف. لقد تأخرنا، وسوف تغلق أبواب الدير.
فانتفضت جروشنكا وصاحت تسأل أليوشا بدهشة أليمة:
- أتمضي الآن يا أليوشا؟ أتعبث بي إذاً هذا العبث؟ لقد بثثت الاضطراب في نفسي، وعريت أعصابي، ثم تتركني لأبقى وحيدة، وحيدة كما كنت من قبل، في هذه الظّلمة!
قال راكيتين بصوت ساخر:
- لن يقضي الليلة عندك على كل حال! اللّهم إلا أن يكون راغباً في ذلك حريصاً عليه! وفي هذه الحالة سأعرف كيف أعود وحدي.
فصرخت جروشنكا تقول في غضب:
- اسكت أنت أيها النفس الخبيثة! إنك لم تعرف في يوم من الأيام كيف تكلمني كما كلّمني هو اليوم.
فقال راكيتين يسألها حانقاً:
- ما هي الأشياء الخارقة التي قالها لك؟
- لا أعرف، لا أتذكّر كلماته، ولكن كلماته مضت إلى قلبي رأساً، وهزت نفسي هزاً قوياً... لقد أخذته بي شفقة ورحمة، كان الإنسان الوحيد الذي رثى لحالي! لماذا لم تأت من قبل يا ملاكي؟ (كذلك سألت أليوشا وهي تجثو على ركبتيها أمامه فيما يشبه الوجد). لقد انتظرت إنساناً مثلك طوال حياتي. كنت أعلم، كنت أحسّ أنني سألتقي في يوم من الأيام بإنسان مثلك يعرف كيف يغفر لي. كنت واثقة من أن أحداً سيحبني آخر الأمر أنا أيضاً، أنا الوقحة، لغرض آخر غير عادي...
سألها أليوشا وهو يبتسم ابتسامة فيها حنان ورقّة، ويميل عليها ويتناول يدها بلطف:
ماذا فعلت من أجلك حتى استحقّ هذا؟ أنا إنما قدمت إليك

بصلة، بصلة حقيرة، هذا كل شيء، هذا كل شيء..

وتوقف أليوشا عن الكلام وطفق يبكي. وفي تلك اللحظة سمعت ضجة في الممر. إن أحداً قد دخل إلى البيت. نهضت جروشنكا مذعورة ذعراً شديداً. وأسرعت فينيا إلى الغرفة تهتف فرحة لاهثة:

- سيدتي، عزيزتي، سيدتي الطيبة وصل الرسول! لقد أرسلت من موكرويه عربة تستقلينها، ومضى الحوذي تيموثى يبدّل الخيل. هناك رسالة لك يا سيدتي، رسالة، رسالة... هذه هي!

كانت فينيا تمسك الرسالة بيدها وتلوح بها في الهواء وهي تتكلم. انتزعت جروشنكا الرسالة منها وأدنتها من الشمعة. هي بطاقة قصيرة جداً لا تضم إلا بضعة أسطر قرأتها جروشنكا بلمحة عين. ثم صاحت تقول وقد شحب وجهها شحوباً شديداً وتقبّض بابتسامة أليمة:

- لقد صفر لي. لقد دعاني. ازحفي أيتها الكلبة الصغيرة!

وظلّت مترددة خلال هنيهة قصيرة، ثم ازدحم الدم في وجنتيها فاحمرتا حتى صارتا بلون الأرجوان، وهتفت تقول على حين فجأة:

- سأذهب! انتهت تلك السنون الخمس من حياتي. وداعاً وداعاً! وداعاً لك أنت أيضاً يا أليوشا. فقد تقرر مصيري. اذهبوا، انصرفوا الآن جميعاً، ولتغيبوا عن عيني إلى الأبد!... إن جروشنكا تبدأ حياة جديدة. لا تحمل لي حقداً، أنت أيضاً يا راكيتا. من يدري؟ قد أكون ذاهبة إلى الموت! آه... كأنني سكرى...

ثم لم تحفل بهما وركضت إلى غرفة نومها.

قال راكيتين بزعل:

- لا تهتم بنا الآن... لقد طُردنا... فلننصرف قبل أن تبدأ صراخها. مللت من الدموع والصراخ...

انقاد أليوشا انقياداً آلياً. كانت العربة في فناء المنزل. وخيول تُحل، وأناس منهمكون على ضوء مصباح. وكانوا يدخلون عبر الباب المفتوح أفراساً جديدة. وما إن هبط أليوشا وراكيتين درجات المدخل حتى فُتحت نافذة غرفة النوم، فإذا جروشنكا تصيح قائلة بصوت رنان:

- عزيزي أليوشا، أبلغ أخاك دمتري تحيتي، وقل له أن لا يحقد على هذه الوغدة، أنا. كرر على مسامعه هذه الكلمات عن لساني: «وهبت جروشنكا نفسها لرجل سافل، لا لك أنت الشهم»؛ قل له أيضاً إنني أحببته ساعة، ساعة واحدة، فليتذكر تلك الساعة مدى الحياة، إن جروشنكا هي التي تأمره بذلك.

ختمت جروشنكا كلامها شبه باكية وأسرعت تغلق النافذة.

غمغم راكيتين وهو يضحك ساخراً:

- هِمْ... هِمْ... تغمد سكيناً في قلبه، في قلب أخيك ميتيا ثم هي تريد أن يتذكرها مدى الحياة. يا للسادية!

لم يجب أليوشا. وكان يبدو عليه أنه لم يسمع. إنه يسير إلى جانب رفيقه بخطى حثيثة. ولقد كان في الواقع ذاهلاً يمشي كآلة. شعر راكيتين بألم شديد كأن أحداً قد غرز أصبعه في جرح له لم يلتئم. ليست هذه هي الخاتمة التي كان يأملها للقاء بين أليوشا وجروشنكا. لقد جرى كل شيء على غير ما كان يتنبأ؛ ولم يتحقق ما تمنى بكثير من الحرارة أن يتحقق. قال وهو يحاول أن يسيطر على اعتكار مزاجه:

- صاحبها الضابط البولندي. على أنه ليس الآن بضابط. لقد عمل زمناً في إدارة الجمارك في سيبيريا على الحدود الصينية. هو طرحٌ حقير ما في ذلك ريب. يقال إنه طرد من وظيفته. علم الآن أن

جروشنكا قد جمعت بعض المال، فها هو ذا يعود... هذه هي المعجزة كلها!

ما يزال أليوشا صامتاً. كأنه لم يسمع شيئاً. ولم يطق راكيتين صبراً، فقال وهو يضحك ضحكاً ساخراً خبيثاً:

- هيه! هل هديتها إلى الحق، هذه الخاطئة؟ هل رددت المرأة الضالة إلى سبيل الرشاد؟ هل طردت الشياطين السبعة من روحها. هه؟ هذه هي المعجزة التي انتظرها الناس طويلاً منذ هذا الصباح... لقد تحققت!

قال أليوشا متألماً:

- اسكت يا راكيتين!

- أبسبب هذه الروبلات الخمسة والعشرين إنما تحتقرني الآن؟ أتراني بعت صديقاً حميماً؟ ما أنت بيسوع المسيح فيما أعلم ولا أنا بيهوذا الأسخريوطي!

- أؤكد لك أنني لم أكن أفكر في هذا الأمر. أنت الذي تذكرني به الآن.

كذلك قال أليوشا، فغضب راكيتين في هذه المرة غضباً كاملاً، وأَغوَل يقول:

- شيطان يأخذكم جميعاً! إني لأتساءل ما كانت حاجتي إلى الارتباط بك! لا أريد أن أعرفك بعد الآن. امض في سبيلك وحدك!

انعطف فجأة فسار في شارع آخر وترك أليوشا وحيداً في الليل. خرج أليوشا من المدينة واتجه إلى الدير عبر الحقول.

– 4 –

عرس قانا

حين وصل أليوشا إلى الصومعة كان الوقت متأخراً جداً بالنسبة إلى الأنظمة المتبعة في الدير. وسمح له الراهب البواب أن يدخل من ممر خفي. كانت الساعة التاسعة قد دقت، وكان كل شيء يستريح بعد نهار مضطرب ذلك الاضطراب كله. تسلل أليوشا وجلاً إلى الغرفة التي سُجِّي فيها تابوت الشيخ. كان الأب بائيسى وحيداً في الغرفة ما يزال يقرأ الإنجيل. وكان الراهب المبتدئ بورفيري الذي أتعبه الحديث الطويل في الليلة البارحة وأتعبته انفعالات النهار، ينام في الغرفة المجاورة على الأرض نوماً عميقاً يتيحه له شبابه. ولم يلفت الأب بائيسى رأسه رغم أنه سمع دخول أليوشا. اتجه أليوشا إلى الركن الذي يقع على يمين الباب، وجثا على ركبتيه، وأخذ يصلي. كانت نفسه طافحة، غير أن مختلف المشاعر تختلط الآن في نفسه اختلاطاً مبهماً دون أن تكون لأحدها غلبة، وإنما هي تتعاقب ويطرد بعضها بعضاً في حركة مطردة هادئة. وشعر أليوشا بانفعال رقيق عذب يجتاح نفسه، فكان العجيب في الأمر أنه لم يستغرب ذلك الانفعال. إنه يرى أمامه التابوت الذي يضم جثمان الراحل المحبوب، يراه من جديد، ولكن الشفقة الأليمة المعذّبة التي كات تجثم على صدره طوال الصباح قد زالت. إنه حين

وصل قد ركع أمام التابوت ركوعه أمام شيء مقدس، غير أن فرحاً عذباً يملأ الآن روحه ويفيض من قلبه. كانت إحدى نوافذ الغرفة قد تُركت مفتوحة، فمنها يدخل إلى الغرفة هواء طري منعش. قال أليوشا يحدث نفسه: «لا بد أن الرائحة قد اشتدت ما داموا قد قرروا فتح النافذة». غير أن فكرة رائحة التفسخ التي أثارت في نفسه عند الصباح ذلك الاضطراب كله وذلك الأسى كله، والتي كانت تبدو له رهيبة فظيعة مخلة بالكرامة، أصبحت الآن لا تزعجه ولا تشعره بشيء من الحرج. أخذ أليوشا يصلي صامتاً. ولكنه لاحظ بعد برهة أنه يصلي صلاة آلية. إن نتفاً متناثرة من أفكار تلامس ذهنه ملامسة وتومض في خياله كشرارات ثم ما تلبث أن تنطفئ ليحل محلها غيرها. ولكن شيئاً كاملاً صلباً مهدئاً قد ملك عليه، وأدرك هو ذلك. وقد أخذ في بعض اللحظات يصلي بحرارة وحماسة، شاعراً بحاجة قوية عنيفة إلى أن يشكر وإن يحب... ولكن فكره ما يلبث أن ينصرف إلى شيء آخر، فإذا هو يغرق في أحلام غامضة مبهمة تنسيه الصلاة وتنسيه التأمل الذي قطع الصلاة. أصاخ بسمعه في لحظة من اللحظات إلى قراءة الأب بائيسى، فإذا هو ينحدر شيئاً فشيئاً إلى وسن هادئ رقيق لأنه كان متعباً جداً.

«وفي اليوم الثالث كان عرس قانا الجليل وكانت أم يسوع هناك.. ودعي أيضاً يسوع وتلاميذه إلى العرس...»[4].

«عرس؟ ما العرس؟ - وثارت في فكره زوبعة من الخواطر. هي أيضاً سعيدة... ذهبت إلى احتفال... لم تحمل الخنجر... ما كان ذلك منها إلا قولاً طائشاً... يجب أن نغفر الأقوال الطائشة، لأنها تهدئ النفس... وبدونها يصبح ألم الإنسان أشد من أن يطاق... غاب راكيتين في زقاق... لسوف يغيب في أزقة ما ظل

لا يفكر إلا في الإهانات التي تناله هو. . . أما الطريق فهي عريضة مشرقة ومضيئة، . . . مستقيمة وطاهرة. . . نقية نقاء البلور. . . والشمس هي التي تسطع في نهايتها. . . ها؟ ماذا يقرأ الآن؟».

«ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له: ليس لهم خمر»...

«ها. . . نعم، لم أتابع القراءة، مع أنني كنت لا أحبّ أن تفوتني هذه الفقرة، إنني أحبها كثيراً: عرس قانا، المعجزة الأولى. . . كانت تلك معجزة، معجزة إلهية محببة. . لم يجئ يسوع للحزن، بل للفرح. . . أفرح قلب الناس بتلك المعجزة الأولى. . «الذي يحب البشر، يحب فرحهم أيضاً. .». . . ذلك ما كان يردده الشيخ الراحل بغير انقطاع. . . ذلك تعليم من تعاليمه الرئيسية. . . «لا يستطيع الإنسان أن يحيا بغير فرح»، كذلك يقول ميتيا. . . نعم يا ميتيا. . . «كل ما هو حق وجميل يشيع منه الغفران الشامل». . . إنه هو الذي كان يقول هذا أيضاً. . .».

«قال لها يسوع: مالي ولك يا امرأة! لم تأت ساعتي بعد. قالت أمه للخدام: مهما قال لكم فافعلوه!».

«افعلوا. . . كان ذلك لفرح أناس فقراء، فقراء مغمورين، فقراء جداً، جداً. . . لا شك أنهم كانوا في فقر مدقع ما دام الخمر قد أعوزهم حتى لعرس. . . يؤكد المؤرخون(5) أن الأهالي الذين كانوا يعيشون في ذلك العصر على ضفاف بحيرة طبرية وفي المناطق المجاورة لها كانوا أفقر الناس في هذا العالم. . . هذه امرأة عليا كانت في العرس، هي أم يسوع، تشعر في قلبها بأنه لم ينزل إلى الأرض إلا لهدف واحد هو أن يقوم بتضحيته الهائلة، وأن نفسه قادرة على أن تشارك في الفرح البسيط الساذج الذي يحسه هؤلاء الناس المتواضعون المبرأون من المكر، الذين دعوه بمحبة إلى

حضور عرسهم الذي لا تألق فيه. قال لها يسوع وهو يبتسم ابتسامة رقيقة: «لم تأت ساعتي بعد» (لا شك أنه ابتسم في تلك اللحظة ابتسامة لا نهاية لرقتها وعذوبتها)... أجاء إذاً إلى الأرض ليزيد الخمر في أعراس الفقراء؟ ومع ذلك لم يتردد، ولبى رجاءها... آ...».

ما يزال يقرأ:

«قال لهم يسوع املأوا الأجران ماء، فملأوها إلى فوق. ثم قال لهم استقوا الآن وقدموا إلى رئيس السُّقاة فقدموا، فلما ذاق رئيس السّقاة الماء المتحول خمراً ولم يكن يعلم من أين هي بينما الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا، دعا العريس وقال له: كل إنسان يضع الخمر الجيدة أولاً فمتى سكروا وضع الرديئة، أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن».

«ولكن ما هذا؟ ما معنى هذا؟ لماذا تتسع الغرفة فجأة؟... آ... حقاً... هو الزواج... هذا عرس.. طبعاً... هؤلاء هم المدعوون... وهذان هما العريسان، الجمهور الفرح... ولكن أين هو إذاً ذلك الساقي الحكيم جداً؟ وهذا، من هذا؟ من هذا؟ الغرفة تتسع مزيداً من الاتساع... من ذا الذي ينهض على المائدة الكبرى هناك؟ كيف هو؟ أيكون هو أيضاً هنا؟... كنت أحسب أنه في تابوته... بلى! إنه هو بعينه... نهض... رآني... ها هو ذا يقبل عليَّ... رباه!».

واقترب فعلاً من أليوشا، الشيخ الناحل المخدَّد الوجه بغضون صغيرة. كان فرحاً، وكان يضحك ضحكاً رقيقاً حلواً. لقد اختفى التابوت. والشيخ يرتدي الملابس التي كان يرتديها أمس أثناء ذلك الحديث الأخير مع المدعوّين. إن وجهه يشرق مودة ومحبة، وإن

عينيه تلتمعان. كيف أمكن أن يكون هنا، في الحفلة؟ أدعي إذاً إلى عرس قانا؟ كذلك تساءل أليوشا. فسمع صوتاً مألوفاً لطيفاً يقول له من فوقه:

- نعم يا بني، لقد دُعيت أنا أيضاً، دُعيت ونوديت. لماذا تختبئ في ذلك الركن؟ لا يكاد يراك أحد. تعال، وكن منا...

هو صوته، صوت الشيخ زوسيما... لا شك أنه الشيخ، ما دام يناديه. ومدَّ الشيخ يده إلى أليوشا الراكع، فنهض أليوشا. وتابع الشيخ المعروق كلامه قائلاً:

- إننا نبتهج! نشرب الخمرة الجديدة... إنها خمرة فرح جديد، فرح عظيم جداً.. هل ترى جميع هؤلاء المدعوين؟ هذا هو الخطيب، وهذه هي الخطيبة، وهذا هو الساقي الحكيم جداً، يذوق الخمرة المدهشة. لماذا تنظر إليَّ مدهوشاً هكذا؟ لقد وهبت بصلة فقُبلت في هذه الحفلة. كثيرون هنا هم الذين لم يهبوا إلا بصلة، بصلة صغيرة جداً... كيف الأحوال عندنا؟ أنت أيضاً، يا بني الطيب الوادع، لا بد أنك وهبت اليوم بصلة لجائعة مسكينة. ابدأ مهمتك، واجه عملك، يا صغيري اللطيف! هل تراه هو؟هل ترى يسوع، شمسنا؟.

دمدم أليوشا هامساً يقول:

- أنا خائف... لا أجرؤ أن أنظر إليه.

- لا تخف منه. هو مخيف بعظمته التي ترفعه فوقنا، هو مخيف بالعلو الذي هبط منه إلينا، ولكن لطفه لا نهاية له. لقد جعل نفسه شبيهاً بنا، وذلك حباً فينا ليشاركنا فرحتنا، وأحال الماء خمراً حتى لا تنقطع سعادة الضيوف. وهو ينتظر مدعوين آخرين، وما ينفك يدعو منهم المزيد إلى الأبد. انظر ها هم يجيئون بالخمرة الرائعة، ها هم يحملون الأواني...

كان قلب أليوشا يحترق احتراقاً وقد امتلأ بشيء ما يماثل الألم، وانبجست من عينيه دموع حماسة... ومدَّ ذراعيه، وأطلق صرخة، واستيقظ من نومه...

التابوت ما يزال في مكانه، والنافذة ما تزال مفتوحة؛ وصوت الأب بائيسى ما يزال يُسمع وقوراً هادئاً وهو يقرأ الإنجيل ببطء. ولكن أليوشا لم يصغ إليه. كان قد نام على ركبتيه. والغريب أنه الآن واقف على قدميه. وها هو ذا يتقدم فجأة، كأن قوة خفية تدفعه دفعاً، فإذا هو يصبح قرب التابوت بعد ثلاث خطوات سريعة، حتى لقد لامس بكتفه الأب بائيسى دون أن يلحظ ذلك. رفع الأب بائيسى عينيه وألقى على أليوشا نظرة قصيرة، ولكنه سرعان ما استأنف قراءته، إذ أدرك أن الفتى كان في حالة غريبة. وقف أليوشا أمام التابوت نصف دقيقة: تأمل التابوت، تأمل المتوفى الساكن الذي غُطي وجهه ببرقع، ووُضعت على صدره أيقونة، ولُفِّع رأسه بقلنسوة يزينها صليب ذو ثمانية أفرع. لقد سمع أليوشا صوته قبل بضع لحظات، وما يزال هذا الصوت يترجّع في أذنيه. إن أليوشا يصغي وينتظر... أتراه يسمعه من جديد؟ وفجأة، استدار أليوشا وخرج من الغرفة.

لم يتوقف عند درجات الباب بل هبطها مسرعاً. كانت نفسه التي تطفح حماسة، في حاجة إلى فضاء وحرية. هذه قبة السماء تعلوه ممتدةً في جميع الجهات إلى غير نهاية، مزدحمةً بنجوم تسطع أشعتها سطوعاً هادئاً. إن المجرة، التي لا تكاد تُرى بعد، تمتد إلى الأفق. وإن ليلة طرية هادئة صامتة ساجية، يبدو أنها تلف الأرض بأكملها. والأبراج البيضاء والقبب المذهبة من الكاتدرائية تبرز على قاع لازوردي. وأزهار الخريف الغنية تبدو نائمة في أحواضها التي تحف بالمنزل. إن سكينة الأرض تتحد بسكينة السماء، وإن سر

الأرض يندمج مع سر النجوم. . . تأمل أليوشا هذا المنظر، فإذا هو يتهالك على الأرض فجأة كمن خارت قواه.

لم يعرف أليوشا لماذا عانق الأرض، ولماذا شعر بمثل هذه الحاجة إلى أن يغمرها بالقبل. كان يقبِّلها باكياً، فيرويها بدموعه، حالفاً بكثير من الحماسة ليحبنَّها على الدوام، ليحبنها أبد الدهر. . . «اسق الأرض دموعَ الفرح، وأحبب دموعك»، كذلك قال له صوت في أعماق نفسه. لماذا هذه العبرات؟ كان أليوشا يبكي من الحماسة، حتى لقد كان يبكي لهذه النجوم التي تنظر إليه من قرارة اللانهاية، ولم «يكن يشعر بخجل من هذا الوجد الذي ملأ نفسه». كأن عوالم الله الكثيرة قد اتصلت فجأة بنفسه فكانت نفسه تهتز وقلبه يمتلئ غبطة وفرحاً من شعوره بنشوء «هذا الاتصال بينه وبين الملأ الأعلى» من هذا الاتصال. كان يشتهي أن يغفر كل شيء لجميع الناس، وأن يستغفر أيضاً لجميع الناس، وعن كل شيء. ومرة أخرى قال صوت في أعماق نفسه: «إن آخرين سيسألون لي اللطف». وشعر في الوقت نفسه بإحساس واضح جداً، إحساس يشبه أن يكون جسمياً، أن شيئاً ما لا يتزعزع مثل قبة السماء ينفذ إلى نفسه وأن فكرة ما تبزغ في روحه لتحكمها إلى الأبد. كان أليوشا قد سقط على الأرض فتى واهناً ضعيفاً، ولكنه حين نهض الآن أحسّ بأنه مناضل جسور على مدى ما بقي له من أيام في هذه الحياة. واختلط وعيه لهذا التبدل المفاجئ الذي وقع له، اختلط بحماسته، فإذا هو في حالة نفسية جعلته لا ينسى تلك الدقيقة في يوم من الأيام. وقد ظل يؤكد بعد ذلك باقتناع عميق «أن أحداً قد زار نفسه في تلك اللحظة».

وبعد ثلاثة أيام ترك الدير متبعاً وصية الشيخ الراحل الذي «أرسله إلى العالم».

الباب الثامن

ميتيا

- 1 -

كوزما سامسونوف

إن دمتري فيدوروفتش الذي «أمرت» جروشنكا، وهي تطير نحو حياة جديدة، بأن يُبلَّغ سلاماً أخيراً، مع المطالبة بأن يحفظ إلى الأبد ذكرى ساعة قصيرة من حبٍ وهبته له، كان يجتاز هو أيضاً، رغم جهله بما كان يحدث للمرأة الشابة، كان يجتاز فترة عصيبة من الاضطراب الشديد والقلق الرهيب. إنه يعيش منذ يومين في حالة نفسية لا سبيل إلى وصفها، حتى ليكاد يصاب باحتقان في الدماغ على حد التعبير الذي استعمله هو فيما بعد. لم يستطع أليوشا أن يعثر عليه حين بحث عنه في الصباح؛ ولا هو جاء على الموعد الذي كان قد ضربه لأخيه إيفان في الحانة. وقد صمت أصحاب الشقة التي كان يقيم فيها، تنفيذاً لأوامره. وظل هو خلال يومين يضرب في الأرض على غير هدى وبغير راحة «مصارعاً قدره ساعياً إلى خلاصه»، كما صرَّح بذلك فيما بعد. حتى لقد غاب عن المدينة بضع ساعات بسبب أمر مستعجل، رغم أنه كان يرى أن ترك جروشنكا ولو للحظة بلا رقابة أمرٌ رهيب. وقد اتضح هذا الأمر فيما بعد بكل تفاصيله. أما الآن فنذكر أهم وقائع هذين اليومين الرهيبين اللذين سبقا سقوط الكارثة على حياته ذلك السقوط القاسي المفاجئ.

صحيح أن جروشنكا قد أحبته خلال ساعة من الزمن حباً صادقاً،

ولكنها أيضاً عذّبته أحياناً بقسوة لا رحمة فيها. وأنكى ما في الأمر أنه لم يستطع أن يفهم عواطفها الحقيقية فهماً واضحاً. لم يكن له أي أمل في أن يكتشف هذه العواطف لا بالملاطفات ولا بالقوة. ولو قد حاول ذلك لعاندته في جميع الأحوال ولتركته غاضبة حانقة. كان هو يشعر بذلك شعوراً كاملاً. وكان يدرك أنها تجتاز هي نفسها في تلك الساعة أزمة عصيبة لأنها تتخبط في حيرة شديدة، فهي توشك أن تعزم أمرها دائماً ثم تتردد كلَّ مرة في آخر لحظة؛ وكان يقدِّر بقلب متألم - وليس يخلو تقديره هذا من حق - أنها كانت في بعض الأحيان تكرهه وتكره غرامه بها. لعله لم يكن مخطئاً في هذا، ولكن السبب الحقيقي للقلق الذي تعانيه جروشنكا كان يفوته. وكانت المسألة التي تعذبه إنما ترتد في الواقع إلى هذا الاختيار بين شخصين لا ثالث لهما: «أما هو ميتيا، وأما فيدور بافلوفتش». وهنا يحسن أن نوضح النقطة التفصيلية التالية: كان ميتيا مقتنعاً اقتناعاً مطلقاً بأن فيدور بافلوفتش مستعد لأن يتزوج جروشنكا (ولعله عرض عليها ذلك)، وكان لا يتخيل في لحظة من اللحظات أن العجوز الفاسق قد خطر بباله أن يصل إلى تحقيق أغراضه دون أن يضحي بشيء إلا بثلاثة آلاف روبل. هكذا كان يفكر دمتري على أساس ما يظن أنه يعرفه من طبع جروشنكا. لذلك كان من الممكن أن يقدِّر أن ما تعانيه المرأة الشابة من قلق وتردد إنما يرجع إلى أنها لا تدري من تختار منهما، جاهلةً أيهما أنفع لها وأجدى. أما أن يعود في القريب ذلك «الضابط»، ذلك الرجل المشؤوم الذي احتل هذا المكان كله في نفاد الصبر وحياة جروشنكا والذي كانت جروشنكا تنتظر وصوله بذلك القدر كله من الاضطراب وشدة الخوف، فإن دمتري لم يخطر بباله هذا الأمر مرةً واحدة خلال تلك الأيام، مهما

يبدو ذلك غريباً. صحيح أن جروشنكا أصبحت في الأيام الأخيرة لا تكلمه في هذا الأمر، ولكن دمتري كان يعلم أن الرجل الذي أغواها قد كتب إليها، لأنها أطلعته على الرسالة التي تلقتها منه منذ شهر، وكان يعرف بعض ما تضمنته هذه الرسالة. لقد أطلعته جروشنكا على الرسالة بدافع القسوة، فما كان أشد دهشتها حين رأت أنه لم يول الرسالة أي اهتمام ولا اكترث لها. إنه لمن العسير أن نشرح السبب الذي جعل دمتري لا يحفل بالرسالة ولا يقيم لها وزناً كبيراً. لعل ذلك يرجع، ببساطة، إلى أنه قد بلغ من شدة رزوحه تحت وطأة هول تنافسه مع أبيه على هذه المرأة أنه كان يستحيل عليه أن يتخيل مصيبة أكبر من تلك المصيبة وشقاءً أعظم من ذلك الشقاء، في تلك الفترة على الأقل. أضف إل ذلك أنه كان لا يتصور أن من الممكن أن يعود خطيب بعد غياب خمس سنين، وأنه كان لا يتصوّر خاصةً أن سيعود قريباً. هذا إلى أن رسالة «الضابط» لم تتضمن إشارة إلى مجيئه إلا بكلمات غامضة: لم تكن الرسالة تحتوي إلا على أمور عامة ومناجيات غائمة وتصريحات عاطفية. يجب نذكر أن جروشنكا قد أخفت عنه الأسطر الأخيرة التي يشير فيها كاتب الرسالة إلى عودته القريبة بشيء من الوضوح. وكان دمتري يتذكر فيما بعد أنه لاحظ أن المرأة الشابة، حين أطلعته على الرسالة، قد أظهرت على غير إرادة منها احتقارها للرجل الذي كتب إليها الرسالة من سيبيريا. ولم تفض جروشنكا إلى دمتري بعد ذلك بأي شيء عن الاتصالات التي تمت بينها وبين ذلك المنافس الجديد، إلى أن نسي دمتري وجوده شيئاً بعد شيء. فكان لا يشغله إلا اعتقاده بأن الصدام الحاسم بينه وبين فيدور بافلوفتش يبدو وشيكاً مهما يحدث من أمر، فلا بد أن تحل هذه المسألة على أي حال من الأحوال قبل سائر

المسائل. وكان ينتظر كل لحظة على أحر من الجمر قلقاً، أن تتخذ جروشنكا قرارها، وكان يقدر أنها ستتخذ هذا القرار فجأة بما يشبه الوحي أو الإلهام، فتقول له ذات يوم: «خذني، أنا لك إلى الأبد»، وينتهي كل شيء، فيقبض عندئذٍ عليها، ويمضي بها إلى آخر العالم. نعم... ليأخذنَّها عندئذٍ فوراً إلى أبعد مكان ممكن، ليأخذنّها إلى أقصى روسيا إن لم يأخذها إلى أقصى الأرض؛ وسوف يتزوجها ويستقر معها incognito لا يعرفهما أحد بعد ذلك لا هنا ولا هناك ولا في أي مكان. ولسوف تبدأ عندئذٍ حياة جديدة! كذلك كان دمتري يحلم متحمساً بالحياة الجديدة، الحياة «الفاضلة» («الفاضلة حتماً»). لقد كان في ظمأ شديد إلى هذا التجديد، إلى هذا الانبعاث، لأنه كان يتألم تألماً قوياً من الحمأة الحقيرة التي تردى إليها وغاص فيها بإرادته؛ وكان، ككثير من الرجال في مثل هذه الحالة، يؤمن بالخلاص عن طريق تغيير البيئة: فلا يرى هؤلاء الناس ولا يعيش في هذا الوسط بعد الآن. كان يتصور أنه متى ترك هذا المحيط تغير كل شيء بين عشية وضحاها، وبدأت حياة جديدة على أسس جديدة. ذلك كان أمله، وإلى هذه الغاية إنما كانت تتجه أحلامه.

غير أن هذا الحل لا يمكن أن يتحقق إلا إذا اتخذت جروشنكا القرار الأول، القرار السعيد أن تختاره هو دون غيره. وهناك قرار ثانٍ ما يزال من الممكن أن تتخذه جروشنكا، هناك حل آخر رهيب يمكن أن يتحقق، هو أن تقول له مثلاً على حين فجأة: «اغرب عني، فلقد اتفقت الآن مع فيدور بافلوفيتش اتفاقاً نهائياً وقررت أن أتزوجه، فلا حاجة بي إليك بعد اليوم». ففي هذه الحالة... في هذه الحالة... لقد كان ميتيا لا يعرف هو نفسه ما قد يحدث

عندئذٍ، ولقد ظل لا يعرف ذلك إلى آخر دقيقة. . . علينا أن نذكر هذه الحقيقة تبرئةً له. إنه لم يعقد نيته على شيء، ولم يفكر في ارتكاب جريمة. كان لا يزيد على أن يراقب ويتجسس، ويتعذب بغير انقطاع، ولكنه لا يتصور إلا الحل الأول ولا يتنبأ إلا بالخاتمة السعيدة، ويطرد من ذهنه كل فكرة أخرى. على أن هناك صعوبة أخرى كانت تنجبس عندئذٍ وتجعله قلقاً مهموماً مغموماً؛ ذلك أن عقبة جديدة تقف عثرة في طريقه حتى حين يتحقق الحل الأول السعيد، عقبةً خارجية طبعاً، ولكنها عقبة رهيبة يستحيل تذليلها على كل حال.

هب جروشنكا قالت له: «أنا لك، خذني»، فما عساه يفعل من أجل أن يرحل معها؟ أين يجد المال اللازم للسفر؟ إن الأموال التي هيأتها له دفعات فيدور بافلوفتش والتي كانت تتدفق عليه بلا انقطاع كل هذه السنين قد نفدت نفاداً تاماً. صحيح أن جروشنكا تملك مالاً، ولكن ميتيا كان يشعر عندئذٍ على حين فجأة بكبرياء شديدة تستيقظ في نفسه. لقد كان يحرص أشد الحرص على أن يتحمل هو نفقات الرحيل، وأن يبدأ معها حياة جديدة بماله، ويرفض أن يعيش عالةً عليها. كان لا يطيق أن يتصور أن يأخذ من مالها شيئاً، وكان إذا تصوّر ذلك يبلغ من شدة الألم حدَّ الاشمئزاز من نفسه. لن أحاول أن أشرح هنا هذه الحالة النفسية بمزيد من التفصيل ولا أن أحلّلها، وحسبي أن أقرر أن هذه كانت عاطفته، وأن هذا كان شعوره آنذاك. جائز جداً أن يكون هذا الموقف قد أملاه عليه، على غير شعور منه، ما قاساه ضميره من عذاب خفي منذ أن استولى على المبلغ الذي ائتمنته عليه كاترينا إيفانوفنا. لقد كان دمتري يقول لنفسه آنذاك، كما اعترف بهذا فيما بعد: «أنا وغد حقير في نظر الأولى،

وسأصبح وغداً حقيراً في نظر الثانية. إذا علمت جروشنكا بالأمر، فلن ترضى بنذل مثلي». ولكن أين عساه يجد المال اللازم والحالة هذه؟ أين عساه يجد المال الذي يحتاج إليه هذا الاحتياج الفاجع كله، والذي بدونه سيضيع كل شيء ولن يتحقق هدفه. «أكلّ هذا بسبب مسألة ماليّة حقيرة؟. . . يا للشقاء!».

سأستبق الآن القصة فأشير إلى أن دمتري ربما كان يعلم أين يمكنه أن يجد هذا المبلغ، وربما كان لا يجهل في أي مكان يوجد هذا المبلغ. ولن أدخل الآن في سرد التفاصيل التي ستعرض في حينها. غير أنني سأبين، على نحو قد لا يكون واضحاً وضوحاً كافياً (ولكن لا ضير!)، ماذا كانت الصعوبة الكبرى في نظره: لقد كان يرى أن عليه، حتى يستطيع أن يأخذ المبلغ المخبأ في مكان ما، حتى يكون من حقه أن يستولي على هذا المبلغ، كان يرى أن عليه أولاً أن يردَّ الثلاثة آلاف روبل التي يدين بها لكاترينا إيفانوفنا. «وإلا لم أكن إلا لصاً، ووغداً حقيراً، لا أريد أن أبدأ حياة جديدة وأنا وغد». كذلك كان يقول ميتيا لنفسه، ولهذا قرر أن يقلب العالم رأساً على عقب إذا لزم الأمر، من أجل أن يستطيع ردَّ المبلغ إلى كاترينا إيفانوفنا. وقرر أن يفعل ذلك مهما يكن الأمر وقبل كل شيء آخر. وقد اختمر هذا القرار في نفسه في الأيام الأخيرة، أثناء الساعات التي أعقبت لقاءه أليوشا مساء في الطريق، بعد أن علم من أخيه بأمر الإهانة التي ألحقتها جروشنكا بكاترينا إيفانوفنا، فاعترف بأنه وغد حقير وأمر أخاه بأن ينقل كلماته هذه إلى كاترينا إيفانوفنا «إذا كان ذلك يمكن أن يخفف عنها». ولقد شعر أثناء تلك الليلة، وهو على ما هو عليه من اضطراب شديد، بأنه يحسن صنعاً «إذا هو قتل أحداً وسلبه ما معه في سبيل أن يرد إلى كاتيا مالها». قال يخاطب عندئذٍ نفسه: «ألا

فلأصبح قاتلاً ولصاً في نظر ضحيتي وفي نظر جميع الناس، ألا فلأُرسَل إلى الأشغال الشاقة بسيبريا، في سبيل أن لا تستطيع كاتيا أن تقول عني أنني لم أخنها فحسب، وإنما سرقتها أيضاً وسطوت على مالها لأهرب مع جروشنكا وأبدأ بذلك حياة جديدة. لا أطيق أن تقول عني كاتيا هذا الكلام!». ذلك ما كان يحدث به ميتيا نفسه وهو يكزّ أسنانه، وكان من حقه فعلاً أن يخشى أن يصاب باحتقان في دماغه. ولكنه كان، حتى تلك اللحظة على الأقل، ما يزال يكافح...

والأمر الغريب أنه كان من الممكن أن يبدو له أن الهدف الذي يسعى إليه لا يمكن تحقيقه وأنه لم يبق له إلا أن ييأس، فمن أين يمكنه الحصول على مثل هذا المبلغ الكبير من المال بينما هو لا يملك شيئاً ويتخبّط في بؤس أسود؟ ومع ذلك ظل يأمل حتى النهاية، واثقاً من أنه سيعثر على مبلغ الثلاثة آلاف روبل هذا، وأن هذا المبلغ سيهبط عليه من السماء عند الحاجة. فكذلك يفكر على وجه العموم أولئك الذين لم يعرفوا في حياتهم إلا تبديد ما ورثوا، مثل دمتري فيدوروفيتش، والذين يجهلون كل شيء عن طريقة جنى الرزق وتحصيل المال. إن مشاريع خيالية عجيبة تغلي وتفور في ذهنه منذ أن ترك أليوشا قبل يومين، وقد اختلطت في عقله أبسط المعاني واضطربت أيسر الأفكار، فبدأ مساعيه بمشروع هو أعجب ما يمكن أن يتخيله الخيال من مشاريع. ومن الجائز على كل حال أن تكون أشد الأفكار شذوذاً وأعمقها إيغالاً في عالم الأوهام هي التي تفرض نفسها أكثر من غيرها على أناس من نوعه في ظروف كظروفه، وتبدو لهم سهلة التحقيق. لقد قرر دمتري أن يذهب إلى التاجر سامسونوف، حامي جروشنكا، ليعرض عليه «مشروعاً» ويحصل منه

فوراً على الثلاثة آلاف روبل سلفةً تحت الحساب. كان دمتري لا يخامره شك في قيمة مشروعه من الناحية التجارية، وإنما كان يتساءل كيف عسى يستقبل العجوز المشروع كله وليس جانبه التجاري فقط. وكان دمتري يعرف بأمر العجوز، ولكنه لم يتعرف عليه ولم يكلمه يوماً حتى ذلك الحين. وكان مقتنعاً منذ زمن طويل سواء كان على خطأ أم صواب، بأن هذا العجوز الفاسق الذي وضع إحدى قدميه في القبر منذ الآن، لن يعارض في أن تبنى جروشنكا لنفسها حياة شريفة بتزوج رجل «يستحق الثقة». كان يعتقد أيضاً أن العجوز لن يرى أي ضير في هذا، بل لعله يتمناه ويساعد في تحقيقه إذا توفّرت الفرصة. وكان يعتقد أيضاً، على أساس شائعات غامضة وعلى أساس أقوال أفلتت من جروشنكا، أن سامسونوف يؤثره على فيدور بافلوفتش زوجاً للمرأة الشابة في المستقبل. ربما كان بعض قرائي يرون أن حساباً كهذا الحساب من جانب دمتري، وما عقد عليه النية من استلام خطيبته من يدي حاميها إن صح التعبير، يدلان على أن دمتري فيدوروفتش يفتقر إلى رقة الشعور وأناقة السلوك، وأن نفسه تخلو من وساوس الضمير. ولكنني أجيب على هذا بقولي إن ميتيا كان يرى أن ماضي جروشنكا قد دُفن إلى الأبد. لقد كان شقاءه وسقوطه يوقظان في نفسه شفقة عظيمة ورحمة لا حدود لها. لقد دفعته حرارة الهوى إلى الاعتقاد بأن جروشنكا ستبعث بعثاً جديداً وتصبح امرأة جديدة متى صارحته بحبها وقررت أن تتزوجه، وأنه سيُبعث هو نفسه بعثاً جديداً، فيصير رجلاً مبرأً من كل إثم، ولا يتميز إلا بالفضائل: لسوف يغفر كل منهما لصاحبه أخطاءه، ويعيشان حياة جديدة كل الجدة. أما كوزما سامسونوف فكان دمتري يرى أنه قد لعب في حياة جروشنكا الماضية التي انتهت الآن، دوراً مشؤوماً

ولا شك، بينما لم تحبه جروشنكا في يوم من الأيام. وكان دمتري يرى أيضاً أن كوزما: وهذا هو الأمر الأساسي قد «انتهى» هو أيضاً، فلا يُحسب بعد الآن. أضف إلى ذلك أنه لم يكن يستطيع كثيراً في اللحظة الراهنة أن يرى في هذا العجوز رجلاً، فلقد كان معلوماً في المدينة أن كوزما ليس اليوم إلا خرقة بالية، وكان الناس لا يجهلون أنه لم تبق له بجروشنكا إلا علاقات أبوية إن صح التعبير، وذلك منذ زمن غير قصير، منذ ما يقرب من عام. صحيح أن موقف ميتيا هذا فيه كثير من السذاجة، ولكن ميتيا كان على جانب عظيم من السذاجة حقاً رغم جميع عيوبه. فكذلك كان يظن لبساطته أن العجوز كوزما الذي يشعر بأنه يوشك أن يبارح هذا العالم، كان يحسّ بندامة صادقة على سلوكه مع جروشنكا؛ وأن جروشنكا ليس لها في هذا العالم في هذه اللحظة صديق أشد إخلاصاً وأكثر تنزهاً من هذا العجوز الذي أصبح الآن لا يُخشى منه أذى.

ففي غداة الحديث الذي جرى بين ميتيا وأليوشا على الطريق، ذهب ميتيا الذي لم يغمض له جفن طوال الليل، ذهب إلى منزل سامسونوف في الساعة العاشرة من الصباح، وطلب أن يبلغ العجوز عن مجيئه. المنزل مبنى حزين المظهر، عظيم الاتساع، من طابقين، وله ملحقات كثيرة وجناح في الفناء. إن الطابق الأول يسكنه ابنا التاجر المتزوجان، وأخته الطاعنة في السن، وابنته التي لم تتزوج. أما الجناح الذي في الفناء فيسكنه اثنان من مستخدميه في تجارته، أحدهما ذو عائلة كبيرة. إن أولاد سامسونوف ومستخدميه تضيق بهم مساكنهم، بينما الطابق الأعلى وقف على سامسونوف وحده، الذي كان يرفض حتى إن تشاركه فيه ابنته. ومع ذلك كانت ابنته هذه تعتني به وترعاه، وكان عليها، في ساعة محددة، وكلما ناداها، أن

تذهب إليه وأن تصعد السلم رغم ضيق التنفس الذي تشكو منه منذ زمن طويل. إن الطابق الأعلى الذي يسكنه العجوز يتألف من حجرات واسعة متتابعة، مؤثثة على الطراز الذي كان يحبه التجار في الماضي، قد اصطفت على طول جدرانها مقاعد ثقيلة وثيرة وغير وثيرة من الخشب، وعُلِّقت في سقوفها ثريات من الكرستال مجللة بأغطية، ووضعت بين نوافذها مرايا قاتمة. إن هذه الحجرات خالية من السكان الآن، لأن العجوز المريض أصبح لا يغادر غرفة نومه الصغيرة التي تقع في آخر الطابق والتي تخدمه فيها خادم عجوز تقمط رأسها دائماً بمنديل، و«صبى» ينام على دكة في الدهليز. وقد أصبحت ساقاه المتورمتان لا تكادان تتيحان له أن يمشي، فهو يكتفي بأن ينهض عن كرسيه من حين إلى حين ليسير بمساعدة الخادم العجوز بضع خطوات في الغرفة. وهو قاسي الطبع متجهم المزاج لا يتكلم إلا قليلاً حتى مع هذه الخادم. فلما أُبلغ زيارة «النقيب»، رفض أن يستقبله في أول الأمر؛ ولكن ميتيا ألحَّ أن يراه، فسأل العجوزُ الصبيَّ هل يبدو على الزائر أنه سكران أو هل يظهر عليه أنه يسعى إلى فضيحة. فقال الغلام: «ما هو بسكران، ولكنه لا يريد أن ينصرف».

فرفض العجوز مرة أخرى أن يستقبل الزائر. ولكن ميتيا كان قد تنبأ بالأمر، وتزود سلفاً بقلم وورقة. فها هوذا يكتب على الورقة بخط واضح «إن القضية قضية مستعجلة تتصل بأجرافينا الكسندروفنا»، ويرسل الورقة إلى التاجر العجوز. فكَّر سامسونوف بضع لحظات، ثم أمر الصبي بإدخال الزائر إلى الصالون، وأسرع يرسل الخادم العجوز في الوقت نفسه إلى ابنه الأصغر آمراً إياه أن يصعد إليه فوراً، فسرعان ما حضر الابن دون أن ينطق بكلمة. إنه

رجل طويل القامة عريض الجسم قوي قوة هرقلية، حليق اللحية، يرتدي الزي الألماني (أما سامسونوف نفسه فكان يرتدي قفطاناً وكانت له لحية). إن جميع أفراد الأسرة يرتعدون خوفاً أمام الأب. ولقد استدعى العجوز ابنه القوى هذا لا خوفاً من النقيب، فإنه لا تعوزه الشجاعة، ولكن ليكون هناك شاهد إذا لزم أن يكون هناك شاهد. وها هوذا يتسند على ابنه وعلى الصبي فيظهر أخيراً في عتبة الصالون كتلةً مائجة. وربما كان ينبغي أن نسلِّم بأنه كان يشعر بكثير من الاستطلاع والفضول. إن الصالون الذي كان ميتيا ينتظر فيه هو غرفة واسعة كالحة، من شأن مظهرها وحده أن يقبض الصدر ويهيئ النفس للحزن، وهي مزدانة بثلاث ثريات كبيرة مجللة بأغطية، لها نافذتان ومنصة في القسم الأعلى من الجدران المصنوعة من مقلَّد المرمر. كان ميتيا جالساً على كرسي قرب الباب ينتظر أن يتقرر مصيره وهو في حالة عصبية شديدة. فلما ظهر العجوز في الباب المقابل له على مسافة عشرين متراً، نهض فجأة وتقدم نحوه بخطى واسعة حازمة هي خطى جندي. لقد كان حسن الهندام، يرتدي بدلة معقودة الأزرار، ويحمل بيديه قبعةً مدوَّرة، ويلبس قفازين سوداوين، تماماً كما كان قبل ثلاثة أيام في الدير عند الشيخ أثناء لقائه بفيدور بافلوفتش وأخويه. انتظره العجوز واقفاً، رصين المظهر وقور الهيئة، وشعر ميتيا أنه تفرس فيه وفحصه بانتباه حين كان يتقدم منه. وقد خطف بصره ما كان قد أصاب وجه كوزما كوزميتش من تورم شديد منذ زمن. إن شفة كوزما السفلى، وهي شفة سميكة، تتدلى الآن تدلياً. انحنى سامسونوف أمام ضيفه صامتاً رصيناً، وأشار له إلى مقعد أمام كنبة جلس عليها هو بتهالك بطيء مستنداً إلى ابنه مطلقاً من صدره بعض الأنين. فسرعان ما شعر ميتيا أمام هذه الجهود

الأليمة التي يبذلها العجوز، بعذاب الضمير من أنه، وهو الشاب التافه، قد أجاز لنفسه أن يزعج شخصية مرموقة كهذه الشخصية الكبيرة.

قال العجوز بعد أن استقر أخيراً على الكنبة:

- ماذا تريد مني يا سيدي؟

وقد ألقى هذا السؤال بصوت بطيء قاس، مجزئاً مقاطع كلماته ولكنه ألقاه بلهجة مؤدبة مهذبة.

ارتعش ميتيا، وأراد أن ينهض، ولكنه عاد يجلس فوراً، وبدأ شروحه متكلماً بصوت عال وبسرعة كبيرة وعصبية شديدة، مكثراً من الحركات والإشارات، لأنه كان في حالة اهتياج عظيم. فمن رآه أحسّ أنه أمام رجل طريقه مسدود يحاول أن يجد مخرجاً من مأزقه وأنه مستعد لأن يلقي نفسه في الماء إذا أخفق. ولا شك أن العجوز سامسونوف قد لاحظ ذلك من أول نظرة، ولكن وجهه ظل بارداً هادئاً رصيناً مغلقاً كأنه وجه تمثال.

«لا شك أن كوزما كوزميتش المحترم جداً قد سمع عن منازعاتي مع أبي فيدور بافلوفتش كارامازوف الذي سلبني ميراثي من أمي المرحومة... إن المدينة كلها تلغط في هذا الأمر منذ زمن طويل، لأن الناس هنا قد تعودوا أن يهتموا بما لا يعنيهم... ولا شك أنك علمت من جروشنكا - معذرةً، أردت أن أقول اجرافينا الكساندروفنا التي أحترمها وأبجلها إلى أبعد حد...» بهذه الكلمات بدأ ميتيا حديثه، ولكنه لم يكمل فكرته فارتبك. على أنني لن أنقل هنا أقواله كلمة كلمة، وحسبي أن ألخِّص مضمونها الأساسي. لقد ذكر دمتري أنه استشار عن عمد منذ ثلاثة أشهر محامياً (كان ميتيا يتعمّد أن يستعمل في شروحه تعابير رائجة في البيئة التي ينتمي إليها

سامسوفوف). قال: «ذهبت إلى بافل بافلوفتش كورنيبلودوف الشهير الذي لعلك تعرفه يا كوزما كوزميتش... هو إنسان واسع المعرفة...له ذكاء يشبه أن يكون ذكاء رجل دولة.. إنه يعرفك أيضاً.. وقد أثنى عليك ثناء عظيماً...» هنا ارتبك ميتيا من جديد ولم يكمل فكرته أيضاً ولكن انقطاع الأفكار لم يمنعه في كل مرة من أن ينتقل إلى فكرة جديدة بدون تدرج. عاد يقول إن كورنيبلودوف هذا، بعد أن أصغى إلى شروح ميتيا، ونظر في الأوراق التي وضعها بين يديه (لم تكن شروح ميتيا بصدد هذه الأوراق واضحة، وإنما هو مرَّ على هذا الجزء من حديثه مروراً سريعاً)، رأى، فيما يتعلق بقرية تشرماشنيا، وهي القرية التي كان يجب أن تؤول إليه حسب وصية أمه، رأى أنه من الممكن أن ترفع الدعوى على العجوز النذل، وأن هذه الدعوى يمكن أن تضع العجوز في مأزق صعب... «لأن جميع الطرق ليست مسدودة، ولأن القضاء يعرف كيف يجد الطريق التي تؤدي إلى الهدف»؛ أي إن من الممكن الحصول بهذه الوسيلة من فيدور بافلوفتش على مبلغ يصل إلى ستة أو سبعة آلاف روبل من قبيل التعويض، لأن تشرماشنيا تساوي في الواقع خمسة وعشرين ألف روبل، أو ثمانية وعشرين ألف روبل. وحتى ثلاثين ألف روبل، ثلاثين ألف روبل يا كوزما كوزمتش، مع أنني لم أستطع أن آخذ من هذا الرجل القاسي إلا سبعة عشر ألف روبل، تصور! ولكنني آثرت أن لا أرفع دعوى، لأنني لا أفهم في شؤون المحاكمات شيئاً... فلما وصلتُ إلى هذه المدينة وجدتُ الدعوى قد رفعت ضدي (هنا ارتبك ميتيا أيضاً وأسرع يقفز إلى موضوع آخر)... هل تقبل، وفق هذه الشروط، يا كوزما كوزميتش المحترم، أن أتنازل لك عن جميع حقوقي عند هذا الشيطان الرجيم،

على أن تدفع لي في مقابل ذلك ثلاثة آلاف روبل فحسب؟. . . إنك لا تجازف بشيء على الإطلاق، أؤكد لك ذلك صادقاً، وأحلف لك عليه بشرفي. . . بالعكس: لسوف تُردُّ إليك هذه الثلاثة آلاف ستة أو سبعة. . . وإنما المهم أن تتم هذه الصفقة كلها «اليوم». إنني مستعد لأن أوقع عقداً مسجلاً لدى كاتب بالعدل، أو شيئاً من هذا القبيل. . . أي إنني مستعد لكل شيء. . أعطيك الأوراق التي ستحتاج إليها، وأتنازل لك عن جميع الحقوق التي تريدها. . . نبرم العقد فوراً، في هذا الصباح إن كان ذلك ممكناً. . ثم تعطيني الثلاثة آلاف روبل. . . أنت الذي تعد أغنى رجل في هذه المدينة. . . وبذلك تنقذني وتهب لي فرصة تحقيق مشروع سام جداً نبيل جداً في الواقع. . . فإنني أضمر عواطف رقيقة لإنسانة تعرفها أنت وتسهر عليها وترعاها رعاية الأب ابنته؛ وما كان لي أن أجيء إليك لولا علمي بأنك قد أصبحت لها بمثابة الأب حقاً. وإذا شئنا الدقة في التعبير وجب إن نقول أن رجالاً ثلاثة يتصادمون هنا، لأن القدر قوة هائلة رهيبة يا كوزما كوزميتش. فلنكن واقعيين يا كوزما كوزميتش، لنكن واقعيين! وإذ إنك أصبحت منذ زمن طويل لا تُحسب في عداد المتصادمين، فلم يبق هنالك إلا خصمان يتنازعان. إنني أعبر عما بنفسي تعبيراً أخرق، أنا أعرف ذلك، ولكنني لست بأديب. لم يبق هنالك إلا أنا من جهة، وذلك الشيطان الرجيم من جهة أخرى. فاختر الآن: أتختارني أنا أم تختار ذلك الشيطان؟ كل شيء متوقف عليك منذ الآن. إنك تملك في يديك مصائر ثلاثة أشخاص، فلتفصل في الأمر. . اعذرني إذا رأيتني أرتبك ولا أحسن التعبير: ولكنك ستفهمني ولا شك. إنني أرى من نظرات عينيك المحترمتين أنك ستفهمني، فإن لم تفهمني فلن يبقى لي إلا أن ألقي نفسي في الماء، هذا هو الأمر. . .».

قطع ميتيا حديثه الغريب الأخرق فجأة بعد أن نطق بجملته السخيفة تلك: «هذا هو الأمر»، ونهض عن مكانه بوثبة واحدة ينتظر الردَّ على عرضه السخيف. لقد أحسّ على حين بغتة وهو يختم تلك الجملة، أن كل شيء قد ضاع إلى غير رجعة، وأنه قد ارتكب على وجه الخصوص حماقة كبرى. خطر بباله فجأة «غريب! كنت حين وصولي أحسُّ أن الفكرة رائعة، فإذا هي لا تسفر في النهاية إلا عن غباء» وكان العجوز أثناء تدفق ميتيا في الكلام، يحافظ على هدوء وضعه، ويلاحظ محدثه وقد لاح في عينيه تعبير بارد برودة الثلج. فلما أنهى ميتيا كلامه، جعله العجوز ينتظر الجواب دقيقة، ثم قال له بلهجة حازمة:

– متأسف يا سيدي! إنني لا أتعاطى أعمالاً من هذا النوع.

أحس ميتيا بساقيه تنثنيان، وتمتم يقول وهو يبتسم ابتسامة يُرثى لها:

– ولكن يا كوزما كوزميتش، ما عسى أصير إليه في مثل هذه الحالة؟ لقد هلكتُ إذاً، إلا تصدِّق ذلك؟

– آسف...

لبث ميتيا جامداً ساكن النظرة، ولكنه لاحظ عندئذٍ شيئاً من الانفراج في عضلات وجه سامسونوف، فارتعش وعاوده الأمل فجأة. قال العجوز في بطء:

– أنا يا سيدي لم أتعود تعاطي أعمال كهذه، فإنني أكره الدعاوى وأمقت المحامين... ومع ذلك في وسعي أن أدلك إذا شئت، على شخص يمكنك أن تتجه إليه وتتكل عليه...

فدمدم ميتيا يقول:

– من هو؟ آه... يا رب! إنك تردُّ إليَّ الحياة يا كوزما كوزميتش!

- ليس هذا الرجل من هنا، وليس يقيم الآن في هذه المدينة أيضاً. إنه فلاح يتعاطى تجارة الخشب. يُلقب بـ«لياجافي». وهو يتفاوض منذ سنة مع فيدور بافلوفتش على ثمن الغابة في قريتك تلك نفسها تشرماشنيا، ولكنهما لم يتفقا على الثمن كما لعلك تعلم ذلك. وقد جاء إلى المنطقة من جديد، وهو يسكن الآن عند القس في قرية ايلنسكي التي تبعد اثني عشر فرسخاً عن محطة فولوفيا. وقد كتب إليَّ في موضوع الغابة هذه مستنصحاً. هذا وإن فيدور بافلوفتش يعتزم الذهاب إليه. فإذا استبقتَ فيدور بافلوفتش وعرضت على لياجافى ما عرضته عليَّ الآن، فمن الجائز أن...

فقاطعه ميتيا قائلاً بحماسة:

- ولكن هذه فكرة عبقرية! ذلك هو الرجل الذي أنا في حاجة إليه؛ هذه الصفقة صفقته! إنه يساوَم على السعر، ويُطلب منه مبلغ باهظ ثمناً لأشجار يقطعها، فإذا هو يجد بين يديه أوراقاً تجعله مالكاً للقرية بأسرها! ها ها ها!

انفجر ميتيا يضحك ضحكته الصغيرة الجافة على نحو لم يكن في حسبان العجوز، فارتعش العجوز قليلاً.

واستأنف ميتيا كلامه قائلاً وهو يغلي ويفور حماسةً:

- كيف أشكر لك جميلك يا كوزما كوزميتش؟

فقال سامسونوف وهو يحني رأسه:

- لا داعي إلى الشكر.

- أوه! إنك لا تعلم... لقد أنقذتني من اليأس.. قلبي هو الذي هداني إليك... والآن، إلى ذلك القس!

- لا داعي إلى الشكر.

- إنني ذاهب إلى هناك! سأركض إلى هناك ركضاً! لقد أسرفت

في إزعاجك والاستفادة من لطفك وكياستك، بينما أنت مريض متألِّم.. أوه! لن أنسى جميلك ما حييت. إن روسياً هو الذي يعدك بذلك، رو... سياً...

- طيب.

أراد ميتيا أن يمسك يد العجوز ليصافحها شاكراً ممتناً، ولكنّ وميضا خبيثاً لاح في عيني العجوز في تلك اللحظة، فأمسك فوراً، وأرخى يده، غير أنه سرعان ما لام نفسه على سوء ظنه، وقال لنفسه: «لا بد أن يكون متعباً...»، وهتف يقول بصوت مدوٍ:

- هذا من أجلها يا كوزما كوزميتش، هذا في سبيلها! أنت تفهم أن كل ذلك من أجلها!

ثم حيَّا العجوز بانحناء، واستدار، واتجه نحو الباب بخطى واسعة سريعة دون أن يلتفت بعد ذلك. كان ينبض حماسة. قال لنفسه: «ظننت أن كل شيء قد ضاع. ولكن ملاكي الحارس أنقذني. فحين يدلني رجل خبير من رجال الأعمال على هذا الطريق (ما أنبل نفسه، وما أعظم مهابته!)، فمعنى ذلك أنني ربحت القضية... ماينبغي أن أضيع دقيقة واحدة. سأذهب إلى هناك حالاً. ثم أعود قبل الليل... أو في الليل.... أصبح الأمر في جيبي! ذلك أن العجوز لايمكن أن يكون قد سخر مني على كل حال!». بذلك كان ميتيا يحدث نفسه وهو يتجه إلى بيته. ولم يكن يمكنه في الواقع أن يتصور إلا أحد أمرين لا ثالث لهما: فإما أن رجل الأعمال المحنك الذي كان على علم بالموقف وكان عدا ذلك يعرف لياجافى هذا - يا له من اسم غريب! - قد قدم له نصيحة لا شك في فائدتها، وإما أن العجوز قد سخر منه وضحك عليه! ويا للأسف! فقد كان هذا الافتراض الثاني هو الصحيح. لقد اعترف العجوز سامسونوف

ضاحكاً بعد وقوع الكارثة بزمن طويل أنه سخر من «النقيب». إن سامسونوف إنسان سيئ الطوية قاسي القلب ساخر النفس، الكره عنده حالة مَرَضيّة. ترى هل فعل ذلك بسبب ما رآه عند ميتيا من حماسة شديدة واعتقاد ساذج بأنه، هو سامسونوف، يمكن أن تنطلي عليه هذه العروض الخدّاعة تصدر عن مبذر و«سلة مثقوبة» من هذا النوع؛ أم أنه فعل ذلك بسبب ما شعر به من غيرة على جروشنكا التي جاء هذا «الولد الطائش الفاجر» يسأله المال باسمها من أجل مشروع سخيف مضحك؟ لا أدري أي الدافعين فعل في نفس الشيخ حين كان ميتيا يقف أمامه شاعراً بانثناء ساقيه هاتفاً في غباء أنه هلك! المهم أن سامسونوف إنما ألقى عليه في تلك اللحظة نظرات خبيثة وقرر أن يضحك عليه ويسخر منه. وما إن انصرف ميتيا حتى التفت كوزما كوزمتش إلى ابنه، وقد شحب لونه من شدة الغضب، فأمره بأن يفعل كل مايجب فعله حتى لا يستطيع هذا المتشرد أن يظهر في منزله مرةً أخرى في المستقبل وأن لا يُسمح له بدخول الفناء، وإلا...

ولم يكمل كوزما كوزمتش تهديده، ولكن ابنه ارتعد خوفاً، رغم أنه سبق أن رآه غاضباً مرات كثيرة. وظل العجوز بعد ذلك ساعة كاملة فريسةَ حنق شديد يرتعش منه جسمه كله. حتى إذا جاء المساء أحسَّ بألم ووهن، فأمر أن يرسل إليه «الممرّض».

– 2 –

لياجافي

كان على ميتيا أن يرحل إلى لياجافي «يحب الإسراع» كذلك كان يردّد ولكنه لم يكن قد بقي معه مال لاستئجار خيول. إن في جيبه بضعة قروش، فذلك كل ما بقي له من سني الثراء التي عاشها! لكنه تذكر أن عنده في البيت ساعة قديمة من فضة، متعطلة منذ زمن طويل. فحملها إلى تاجر ساعات يهودي، له دكان في السوق، فاشتراها منه هذا التاجر بستة روبلات. هتف ميتيا يقول لنفسه متحمساً: «لم أكن آمل أن أحصل على هذا المبلغ كله!» (أصبحت حماسة ميتيا لا تفتر!)، وعاد إلى مسكنه بالمبلغ مسرعاً، وأكمله باقتراض ثلاثة روبلات من أصحاب الدار التي يقيم فيها. ولقد قبل أصحاب الدار أن يقرضوه راضين مسرورين، رغم أنهم كانوا هم أنفسهم في عسر، وذلك لأنهم يحبونه كثيراً. وأبلغهم ميتيا، وهو على ما هو عليه من حماسة وفرح طافح، أن مصيره سيتقرر، وشرح لهم، ببضع كلمات سريعة جداً، «الخطة» التي عرضها للتو على سامسونوف والقرار الذي اتخذه سامسونوف، والآمال التي أشرقت في نفسه، إلخ. وكان هؤلاء الناس الطيبون على علم سابق ببعض أسراره، وهذا هو السبب في أنهم كانوا يعدونه واحداً منهم، فهو سيد لا يتكبر ولا يتعالى. فما إن جمع

ميتيا تسعة روبلات على هذا النحو، أمر بخيول الأجرة للذهاب إلى محطة فولوفيا. ولكن هذا ألَّف واقعة ثابتةً وهي: «في عشية الحادثة، قبل الظهر، لم يكن ميتيا يملك قرشاً واحداً حتى لقد اضطر، من أجل الحصول على شيء من المال، أن يبيع ساعته وأن يستدين ثلاثة روبلات من أصحاب الدار، وذلك كله تشهد به شهود».

إنني أذكر هنا هذا الظرف الذي لن تظهر خطورة شأنه إلا فيما بعد. كان ميتيا، أثناء انطلاق الخيول به إلى فولوفيا بسرعة، مشرق الآمال متهلل النفس. كان يتنبأ فرحاً بأن «جميع هذه الشؤون «ستسوَّى أخيراً». ومع ذلك كان يقلق ويرتعش خوفاً في بعض اللحظات حين يتساءل ما عسى تصير إليه جروشنكا أثناء غيابه. هبها قررت في ذلك اليوم نفسه أن تذهب إلى فيدور بافلوفتش؟ إنه بسبب هذا الافتراض إنما قرر أن لا ينبئها بأمر سفره، كما أنه أمر أصحاب داره أن لا يكشفوا لأحد عن المكان الذي سافر إليه إذا هم سئلوا عن ذلك. «يجب أن أعود قبل هبوط الليل، مهما كلف الأمر، مهما كلف الأمر». كذلك كان يكرر لنفسه بينما كانت العربة تنطلق به إلى فولوفيا مسرعة وتهزه هزاً قوياً. وكان يحدِّث نفسه مستغرقاً في أحلامه: «أما لياجافي هذا، فسوف أعود به معي، لإبرام العقد». ولكن حلمه لن يتحقق على ما رسم له من «خطط» واأسفاه!

فهو أولاً قد وصل متأخراً، لأنه سلك، ابتداء من فولوفيا، طريقاً من تلك الطرق التي تصل بين القرى الصغيرة، فلم يقطع اثني عشر فرسخاً بل ثمانية عشر. ثم إن قس ايلنسكي لم يكن في بيته لأنه كان قد ذهب إلى قرية مجاورة. فلما عثر عليه ميتيا أخيراً في تلك القرية التي تابع طريقه إليها بخيوله المكدودة المنهوكة، كان الليل قد أوشك أن يهبط. وسرعان ما ذكر له هذا الكاهن، وهو رجل لطيف

خجول المظهر، أن لياجافي قد نزل عنده فعلاً في أول الأمر، ولكنه يقيم الآن في سوخوي بوسيولوك، وإنه سيبيت هذه الليلة في بيت حارس الأحراج لأن له أعمالاً مرتبطة بشراء الغابة هناك. فتوسل إليه ميتيا أن يصحبه فوراً إلى لياجافي وأن «ينقذه» بذلك، فتردد القس في أول الأمر، لكنه وافق أخيراً على أن يرافقه حتى سوخوى بوسيولوك، وكان واضحاً أن الفضول هو الذي دفعه إلى هذه الموافقة. ومن سوء الحظ أنه نصح بقطع الطريق سيراً على الأقدام، لأن المسافة لا تزيد على فرسخ واحد أو «أكثر قليلاً». وكان طبيعياً أن يقبل ميتيا هذا الاقتراح، فأخذ يسير بخطى مديدة على عادته في السير، فكان الكاهن العاثر الحظ مضطراً إلى أن يماشيه شبه راكض. إن هذا الكاهن رجل ليس طاعناً في السن وشديد الحذر. وسرعان ما أطلعه ميتيا على مشاريعه عرضها له بحرارة وسأله بعض النصائح في أمر لياجافي، بإلحاح عصبي، وظل يتكلم على هذا النحو طوال الطريق. فكان القس يصغي إلى كلامه بانتباه، ولكنه كان ضنيناً بالأجوبة، يقتصر على أن يكرر في الجواب على أسئلة ميتيا الملحة: «لا أعلم، مع الأسف. أنَّى لي أن أعلم!». لما حدثه ميتيا عن نزاعه مع أبيه في موضوع الميراث، ذعر القس، لأنه كان مرتبطاً بفيدور بافلوفتش من بعض النواحي فيما يبدو؛ ومع ذلك سأل ميتيا في دهشة عن سبب إطلاقه اسم لياجافي على هذا الفلاح جورسكين، وذكر له أن هذا الفلاح لا يسميه أحد بهذا الاسم رغم أنه اسمه فعلاً، لأنه يستاء استياءً شديداً من مناداته بهذا الاسم، وإنه لا غنى عن مخاطبته باسم جورسكين «وإلا فلن تفلح معه في شيء، بل ولن يسمع لك». بهذه العبارة ختم القس كلامه، فدهش ميتيا قليلاً، وأجاب بأن هذا الاسم هو الاسم الذي ذكره له سامسونوف نفسه. فلما سمع الكاهن ذلك أسرع يغيِّر

الحديث. ولعله كان يحسن صنعاً لو أفصح لميتيا عن الشك الذي راوده والشبهة التي خطرت بباله: لئن أرسله سامسونوف إلى هذا الفلاح مطلقاً عليه اسم لياجافي، فمن الجائز جداً أن يكون قد فعل ذلك سخراً به وضحكاً عليه؛ ولا بد أن يكون في الأمر شيء «يعرج» على كل حال. ولكن ميتيا لم يكن في وقته متسع للتوقّف عند «مثل هذه السفاسف». فهو يغذّ السير ويمشي بخطى مديدة، ولم يدرك أن المسافة التي قطعها ليست فرساً ولا فرسخاً ونصف فرسخ، بل ثلاثة فراسخ على الأقل، لم يدرك ذلك إلا حين وصل إلى سوخوى بوسيولوك. ومع ذلك كبح جماح غضبه وسيطر على حنقه. ودخل الرجلان الدار التي كان حارس الأحراج، وهو رجل يعرفه القس، يشغل نصفها، بينما كان نصفها الثاني الذي كان أفضل من الأول عنايةً وصيانةً والذي يفصله عن النصف الأول دهليز، موضوعاً تحت تصرف جورسكين؛ ومضى الرجلان إلى جورسكين رأساً وأشعلا شمعةً. كانت الغرفة مدفَّأةً تدفئة شديدة، وعلى مائدة من خشب الصنوبر يُرى سماور منطفئة وصينية وفناجين وزجاجة «روم» فارغة وإبريق ما يزال فيه بقايا فودكا، وكسرات خبز. أما لياجافي فكان مستلقياً على دكة، قد لف سترته واتخذها وسادة، وكان يشخر شخيراً ثقيلاً. نظر إليه ميتيا متحيراً، ثم قال في قلق:

- يجب إيقاظه طبعاً! إن القضية التي جئت من أجلها ملحة، وأنا في عجلة من أمري، لأن عليَّ أن أرجع في هذا اليوم نفسه.

صمت القس والحارس ولم يقولا رأيهما. واقترب ميتيا من النائم وأخذ يحاول إيقاظه، فكان يهزه هزاً قوياً، ولكنه لم يظفر بشيء؛ فحدّث ميتيا نفسه «هو سكران، فماذا عساي أصنع؟ ما عساي أفعل؟ يا رب!» وإذ بلغ الذروة من نفاد الصبر، شد الشاخر من ذراعيه، ثم

شده من ساقيه، ثم هز رأسه، ثم أنهضه قليلاً وحاول يجلسه على الدكة، فلم يستطع أن ينتزع منه بعد جهود طويلة إلا بضع دمدمات تتخلّلها شتائم مقذعة غير واضحة. قال القس أخيراً:

- خير لك أن تنتظر، فما هو في حالة تمكّنه من النهوض والمناقشة.

وقال الحارس:

- لقد ظل يشرب طوال النهار.

فصاح ميتيا يقول:

- آه! يا رب! لو علمتما مدى حاجتي إليه، وفي أي ظرف يائس أنا!...

قال القس:

- لا حيلة في الأمر، لا بد من الانتظار إلى صباح غد.

- إلى غد؟ رحماك! هذا مستحيل!

واشتد به الكرب فأراد أن يهزّ السكران من جديد، ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك، لأنه أدرك أن جهوده عبث لا فائدة منه. وقد صمت القس فأصبح لا يقول شيئاً؛ أما الحارس فكان شديد النعاس فسكت كذلك كالح الوجه عابس الهيئة.

قال ميتيا وقد بلغ أوج الحيرة والاضطراب:

- إن الحياة تهيىء للإنسان في بعض الأحيان مهازل فاجعة مبكيه!

وكانت قطرات من العرق تسيل على وجهه. وانتهز القس لحظة هدوء فأوضح كيف أن إيقاظ النائم لن ينفع في شيء، لأنه لن يكون قادراً على المناقشة وهو فيما هو فيه من سكر شديد وختم كلامه قائلاً: «وما دام الأمر الذي جئت من أجله هاماً، فالأفضل أن ترجئه إلى الصباح».

فوافق ميتيا على هذا الاقتراح وهو يباعد بين ذراعيه معبراً عن العجز وقال:

- طيب يا أبتي. سأبقى هنا مع الشمعة أرقب اللحظة المؤاتية، فمتى استيقظ كلمته.

وأضاف يقول ملتفتاً نحو الحارس:

- وسأدفع لك ثمن الشمعة، وسأدفع لك أيضاً أجر قضاء الليلة هنا. سوف تتذكر دمتري كارامازوف.

ثم عاد يخاطب القس فسأله:

- أما أنت يا أبي فلا أعرف الآن أين ستنام أنت؟

فأجابه القس بقوله:

- الأمر بسيط، أعود إلى بيتي.

وأضاف يقول مومئاً إلى الحارس:

- سآخذ فرسه. والآن نعمت مساءً. أرجو لك التوفيق كله.

وذلك ما كان. عاد القس إلى بيته على الفرس، سعيداً بخلاصه من ميتيا. وكان في أثناء الطريق يحرك رأسه قلقاً بعض القلق، متسائلاً ألا يحسن به أن يبلغ فيدور بافلوفتش أمر هذه القضية العجيبة منذ الغد، قائلاً لنفسه: «إنه إذا علم بالأمر لسوء الحظ، فقد يغضب مني فيمنع عني خيراته». أما الحارس فقد حكَّ رأسه وعاد إلى غرفته دون أن ينطق بكلمة. جلس ميتيا على الدكة مترقباً اللحظة المؤاتية كما قال، وقد هبط عليه حزن عميق رهيب شمله كضباب كثيف. كان يحاون أن يفكر، ولكن أفكاره كانت تتهرب بسبب ما هو عليه من إرهاق وكَرَب.

إن الشمعة تذوب ببطء؛ وهذا جدجد يغنى في مكانٍ ما؛ والهواء قد أصبح خانقاً في الغرفة المدفأة تدفئة زائدة. وفجأة تراءت لخيال ميتيا حديقة أبيه، والممر الذي يقع خلف الحديقة، وتراءى له باب

يُفتح خلسةً في المنزل، وتراءت له جروشنكا تتسلل من الباب. . . فإذا هو يثب عن الدكة واقفاً!. . .

دمدم وهو يصرف بأسنانه:

- يا للمأساة!

ثم دنا من النائم بخطوات آلية، وأخذ يتفرس في وجهه. إنه فلاح نحيل ما يزال شاباً، شديد استطالة الوجه، مضفور الشعر الكستنائي، لذقنه لحية طويلة رقيقة، يرتدي قميصاً من القطن وصديرة سوداء تتدلى من جيبها سلسلة ساعة من فضة. تأمل ميتيا وجهه، فشعر بكره شديد لهذا الرجل، وأحنقته ضفائره خاصةً، لا يدري لماذا! وبدا له أنه أمر لا يطاق، أمر مذل مهين أن يكون عليه، هو ميتيا الذي جاء لأمر مستعجل هام ضحى في سبيله بالكثير وترك من أجله الكثير، أن يكون عليه أن ينتظر هنا ممزَّق القلب همّاً، بينما هذا الكسلان «الذي يتوقف عليه مصيري في هذه الساعة يغط في النوم ويشخر كأن شيئاً لم يكن، وكأنه على كوكب آخر». صاح ميتيا يقول: «آه. . . يا لسخرية القدر!» وطاش صوابه فهجم فجأة على الفلاح السكران مرة أخرى يريد أن يوقظه. وبغضب مسعور راح يهزه بكل ما أوتي من قوة، إنه الآن حاقد عليه، وها هو ذا يصدمه، بل ها هو ذا يضربه. ولكن جميع جهوده ذهبت سدى! فلما رأى بعد خمس دقائق من الجهود الضائعة أنه لا سبيل إلى إيقاظه، عاد إلى مكانه وجلس شاعراً بعجز ويأس وهو يكرر قوله:

- يا للسخف! يا للغباء!

ثم إذا هو يضيف إلى ذلك دون أن يعرف لماذا:

- يا للذل أيضاً! يا للعار!

وأخذ يشعر بصداع رهيب في رأسه. وتساءل لحظة: «أأعدل؟

أأرجع؟» ولكنه أجاب يقول: «بل سأنتظر إلى الصباح. سأبقى خصيصاً، خصيصاً! وإلا فلماذا قد جئت إلى هنا؟ ثم ما عساي أفعل لأرحل بغير خيل؟ أوه! ما أسخف هذا كله!...».

وكان صُداع رأسه ما ينفك يشتد أثناء ذلك. وظل ساكناً جامداً دون أن يلاحظ النعاس الذي كان يستولي عليه شيئاً بعد شيء، ونام آخر الأمر جالساً. لا بد أنه نام على هذه الحال ساعتين أو أكثر، فلما استيقظ كان يشعر بصداع فظيع لا يطاق، حتى ليوشك ميتيا من فرط شدته أن يصرخ. كان صدغاه يطنان طنينا، وكان يحسّ بوجع في رقبته. فلما فتح عينيه لم يستطع أن يسترد حواسه، وانقضت برهة طويلة قبل أن يفهم ما به، ثم أدرك في نهاية الأمر أن الغرفة المدفأة تدفئة زائدة تمتلئ برائحة قوية هي رائحة فحم محترق، وأنه كاد يموت اختناقاً. وكان السكران ما يزال يشخر ويغط في نومه على الدكة. وكانت الشمعة التي انصهرت انصهاراً تاماً تهم أن تنطفئ. صرخ ميتيا وأسرع إلى غرفة الحارس مترنح الخطى. فسرعان ما استيقظ الحارس، ولكن لم يبد عليه أنه انفعِل كثيراً حين علم بما حدث، وإنما مضى يتخذ الإجراءات اللازمة ببرودة وقلة اكتراث، فدهش ميتيا من ذلك حتى كاد ينفجر غضباً. وصاح يقول مضطرباً اضطراباً شديداً:

- لقد مات، مات... فماذا بعد؟

فُتح الباب، وفتحت نافذة، ودخل الهواء إلى الغرفة، ونُظّفت مدخنة المدفأة. ومضى ميتيا فجاء بدلو ماء فأغطس فيه رأسه، ثم تناول خرقة فبلّلها بالماء ووضعها على جبين لياجافي. فكان الحارس ينظر إليه أثناء ذلك هادئاً هدوءًا يوشك أن يشتمل على احتقار؛ وقال بلهجة متجهمة بعد أن اكتفى بفتح نافذة: «هذا كاف». ثم رجع إلى غرفته ينام، تاركاً لميتيا سراجاً مشتعلاً. ظل ميتيا يعتني قرابة نصف

ساعة بالسكران الذي كان يستنشق غاز الفحم السام، وظل يجدِّد له الكمادات المبتلة مرة بعد مرة، وقرر أن يستمر على هذه الحال حتى الصباح. ولكنه جلس ليستريح لحظة قصيرة، منهوك القوى، فسرعان ما أغمض عينيه، واضطجع على الدكة دون أن يلاحظ ذلك، ولم يلبث أن نام على الفور نوماً ثقيلاً.

فلما استيقظ كانت الساعة التاسعة تقريباً، والشمس تسطع من خلال نافذتَيْ الغرفة الصغيرتين؛ والفلاح المضفور الشعر قد ارتدى ثيابه كاملة، وجلس إلى المائدة التي كان عليها سماور جديد وإبريق فودكا جديد قد أُفرغ أكثر من نصفه منذ الآن (كان الإبريق الأول فارغاً ليس فيه قطرة واحدة)، فنهض ميتيا بوثبة واحدة، وأدرك منذ النظرة الأولى أن الفلاح اللعين قد سكر من جديد، وأن سكره سيكون في هذه المرة عميقاً لا برء منه ولا علاج له. ظل ميتيا يحدِّق إلى الفلاح دقيقةً محملق العينين. أما الفلاح فكان يلاحظ ميتيا صامتاً، بشيء من الخبث والمكر، بل بثقة مستخفّة محتقرة فيما بدا لميتيا. قال له ميتيا:

- معذرة... أعتقد.. لا بد أن حارس الحراج قد أخبرك... أنا الملازم دمتري كارامازوف، ابن العجوز كارامازوف الذي تفاوضه في أمر ثمن أشجار الغابة...

فأجابه الفلاح يقول بيقين هادئ وثقة كاملة مقطعاً كلامه:

- أنت تكذب! هذا غير صحيح!

- كيف؟ أنا أكذب؟ إنك تعرف فيدور بافلوفتش مع ذلك!

فقال الفلاح رخوَ الفم:

- أنا أجهل من هو فيدور بافلوفتش!

- كيف هذا؟ لقد ساومته على ثمن أشجار الغابة. هلاَّ استيقظت

أخيراً؟ هل ثبت إلى رشدك؟ إن الأب بافل إيلنسكي هو الذي جاء بي إلى هنا. . . . ولقد كتبت أنت إلى سامسونوف، فأرسلني سامسونوف إليك.

كذلك قال ميتيا لاهثاً مختنقاً. فعاد لياجافي يقول له مقطعاً كلامه:

- أنت. . . تك-. . . ذب.

فأحس ميتيا بقشعريرة باردة في ظهره.

- أرجوك! ليس الأمر مزاحاً. لعلك سكران قليلاً. حاول أن تتكلم جاداً. . . افهمني. . . أو. . . أو. . . أصبحت لا أفهم!

- أنت هذه هي مهنتك!

- أرجوك، أتوسل إليك! أنا كارامازوف، دمتري كارامازوف، وقد جئت أعرض عليك صفقة. . . صفقة رابحة. . . رابحة جداً لك. . . صفقة تتعلق بهذه الغابة نفسها. . .

أخذ الفلاح يلاعب لحيته بوقار ورصانة. ثم قال:

- هذا كذب! لا شك أنك تواطأت على جريمة وتريد أن توقع بي. أنت نذل، نعم نذل!

قال ميتيا محتجاً وهو يعقف ذراعيه كمداً ويأساً:

- أؤكد لك أنك مخطئ!

عندئذٍ أغمض الفلاح عينيه نصف أغماض ماكر، وهو ما يزال يلاعب لحيته. ثم قال:

- أود أن تقول لي ما هو القانون الذي يجيز للناس أن يقترفوا النذالات. هل تسمعني؟ أنت نذل، هل تفهم؟

تقهقر ميتيا وقد أظلمت نفسه إظلاماً شديداً. وعندئذٍ برقت في ذهنه فكرة مفاجئة، «كأن أحداً ضربه على جبينه»، كما روى هو

ذلك في ما بعد. لقد اتضح كل شيء في فكره الآن. «كان ذلك إلهاماً مباغتاً، فأدركت كل شيء». تساءل ميتيا، مذهولاً، كيف أمكن أن يُساق، هو الرجل الذكي رغم كل شيء، كيف أمكن أن يُساق إلى وضع سخيف هذا السخف، وكيف أمكن أن يندفع في مغامرة كهذه المغامرة، وأن يستمر فيها قرابة أربع وعشرين ساعة، وأن يشغل نفسه بلياجافي هذا واضعاً على جبينه كمادات مبللة. . . «إنه سكران، سكران سكراً فظيعاً، وسيظل يشرب على هذا النحو أسبوعاً بكامله. . . فعلام أنتظر مزيداً من الانتظار؟ وماذا إذا كان سامسونوف قد سخر مني وضحك عليَّ بإرسالي إلى هنا؟ وماذا إذا هي. . . أثناء هذه المدة. . . قد. . . آه. يا رب! ماذا صنعت بنفسي؟!».

كان الفلاح ينظر إليه ضاحكاً. فلو قد كان ميتيا في ظرف غير هذا الظرف إذاً لانقض على هذا الأبله حانقاً فصرعه، ولكنه كان يشعر في تلك اللحظة أنه ضعيف كطفل. فها هو ذا يتجه نحو الدكة بخطى بطيئة، فيرتدي معطفه، ويخرج من الغرفة دون أن يقول كلمة واحدة. ولم يجد الحارس في الغرفة الأخرى، فتناول من جيبه خمسين كوبيكا فوضعها على المنضدة ثمناً للشمعة وأجراً للمبيت وتعويضاً على الإزعاج. وخرج من العزبة، فوجد نفسه في قلب الغابة دون أن يكون هناك شيء يمكن أن يستهديه في معرفة طريقه؛ فسار على غير هدى، لأنه لم يتذكر حتى الجهة التي جاء منها، فلم يعرف أيتجه يمنةً أم يتجه يسرة وهو يخرج من منزل الحارس. إنه لم يلاحظ الطريق حين كان يسير مع القس في الليلة البارحة من شدة تعجّله. وهو الآن لا يشعر بأية رغبة في الانتقام، حتى ولا من سامسونوف. إنه يسير في ممر الغابة الضيق، خاوي الرأس فاقد الأمل، كأنه يبحث عن فكرة ضائعة، ولا يهمه أن يعرف إلى أين كان ذاهباً. إن في وسع طفل صغير أن

يقلبه على الأرض في تلك اللحظة بسهولة، من فرط ما كان يعاني من إرهاق جسمي ونفسي معاً. ومع ذلك خرج أخيراً من الغابة، فوجد نفسه فجأة أمام حقول محصودة عارية تنبسط على مدى البصر. قال في نفسه وهو ما يزال يسير قدماً دون أن يلوي على شيء: «كان اليأس والموت قد مرَّا بهذا المكان!».

وأنقذه مسافرون. إن عربة تنقل تاجراً عجوزاً كانت تسير على الطريق الذي يصل بين قرى صغيرة. فلما بلغته العربة سأل حوذيَّها عن الدرب، فاتفق أن كان الحوذي ذاهباً إلى فولوفيا أيضاً. وسرعان ما تم الاتفاق بينه وبين الحوذي، فركب ميتيا إلى جانب المسافر العجوز. وبعد ثلاث ساعات وصلت العربة إلى محطة فولوفي، فلاحظ ميتيا على حين فجأة، بعد أن أمر بخيلٍ تقله إلى المدينة، أنه يكاد يموت جوعاً؛ فبينما كانت الخيل تقرن، أمر لنفسه بطبق من عجة التهمه التهاماً مع قطعة كبيرة من الخبز، ثم انقض على سجق وجده جاهزاً، وشرب ثلاث أقداح صغيرة من الفودكا. حتى إذا استرد بذلك قواه، شعر بتجدد شجاعته، واستعاد صفاء نفسه. الخيل تجري، وميتيا يحض الحوذي على مزيد من السرعة، ويهيئ في الوقت نفسه «خطة» جديدة، خطةً «لا تخطئ» في هذه المرة، من أجل الحصول على «هذا المبلغ اللعين» قبل نهاية ذلك اليوم. هتف يقول مشمئزاً اشمئزازاً عميقاً: «كيف يمكن أن يهوي مصير إنسان بسبب هذه الثلاث آلاف روبل الحقيرة؟. لأجدنَّها في هذا اليوم نفسه!». وكان يمكن أن يجعله هذا التصميم سعيداً مرحاً، لولا أن التفكير في جروشنكا كان يحاصره. كان يفكر في ما الذي يمكن أن يحدث لها. كانت هذه الأفكار تطعنه في كل لحظة كشفرة مسنونة. ووصلت العربة أخيراً، فأسرع ميتيا إلى جروشنكا رأساً.

- 3 -

مناجم الذهب

عن هذه الزيارة إنما تحدثت جروشنكا إلى راكيتين مذعورة. كان قد سرَّها، وهي تنتظر «الرسالة»، أن ميتيا لم يظهر منذ يومين، وكانت تقول لنفسها إنه قد لا يجيء قبل رحيلها بإذن الله. ولكنه ظهر على حين فجأة. والقارئ يعرف التتمة، يعرف كيف تعللت له بضرورة ذهابها إلى كوزما سامسونوف حالاً، لبعض الحسابات، وكيف رجته أن يرافقها، وكيف استقطعته على نفسه وعداً، حين تركته أمام منزل التاجر العجوز، بأن يجيء في منتصف الليل لاصطحابها إلى منزلها. وقد سعد ميتيا بهذه التسوية، قال لنفسه: «ما دامت ستقضي السهرة عند كوزما، فلن تذهب إلى فيدور بافلوفتش»، ولم يلبث أن أضاف يحدث نفسه قائلاً: «اللّهم إلا أن تكون كاذبة». ولكنه كان يعتقد بأنها صادقة. إنه ينتمي إلى تلك الفئة من الغيورين الذين يتخيلون أفظع الأشياء متى ابتعدوا عن المرأة المحبوبة، ويعانون عذاباً رهيباً من تصوّر «خيانتها» لهم أثناء غيابهم. ولكن ميتيا كان متى التقى بجروشنكا مرة أخرى قلقاً يائساً معذب النفس من يقينه بأنها خانته، لا يلبث أن يسترد روحه حين يرى وجهها الضاحك الرقيق المرح، فإذا هو يطرد كل شكوكه، ويشعر بالخجل من غيرته، ويلوم نفسه على قلة الثقة. بعد أن قام ميتيا

بمرافقة جروشنكا إلى منزل سامسونوف أسرع يعود إلى بيته. إن هناك مسائل كثيرة بقي عليه أن يحلها قبل حلول الغد! وكان يشعر على الأقل بأن حملاً ثقيلاً قد انزاح الآن عن صدره. غير أنه لم يلبث أن قال لنفسه: «ينبغي لي أن أسأل سمردياكوف، بأقصى سرعة ممكنة، هل حدث شيء في الليلة البارحة، هل ذهبت جروشنكا إلى فيدور بافلوفتش أمس؟». هكذا اشتعلت الغيرة في قلبه المعذب من جديد، قبل أن يتسع وقته للعودة إلى بيته.

الغيرة! «ليس عطيل غيوراً، إنه وَثوق»، كذلك قال بوشكين. إن هذه الملاحظة البسيطة تشهد بعمق عبقرية شاعرنا العظيم. إن ما عاناه عطيل من قلق النفس واضطراب الأفكار ناشئ عن أنه فقد إيمانه بمثله الأعلى. ولكن عطيل ما كان له أبداً أن يرضى لنفسه هوان المرابطة في مكان ما من أجل أن يتجسس ويترصد ويترقب: إنه أكثر ميلاً إلى الثقة من أن يفعل ذلك. بالعكس: كان لا بد من دفعه ومن تقديم البراهين له، ومن تحريضه بالأدلة الدامغة لحمله على تصوّر الخيانة. ليس كذلك الغيور الحق. لا يستطيع المرء أن يتخيل مدى ما يمكن أن يهوي إليه الغيور من درك الدناءة والحطة دون أن يشعر بأي خجل من ذلك. وليس معنى هذا أن الغيورين أناس يتصفون بحقارة النفس حتماً. لا... ربّ رجل نبيل القلب نقيّ الفكر محبّ مخلص العاطفة، يرتضي مع ذلك أن يختبئ تحت السرير، وأن يرشي أناساً قذرين، وأن يستخدم أحط أنواع التجسس. وما كان لعطيل أبداً أن يذعن للخيانة - أقول يذعن للخيانة ولا أقول يغفرها - رغم أن له نفساً رقيقة بريئة كنفس طفل صغير. وليس كذلك الغيور الحق! ما من شيء إلا ويمكن أن يذعن له الغيور وما من شيء إلا ويمكن أن يغفره عند الحاجة. إن الغيورين أسرع الناس

إلى الغفران، والنساء يعرفن هذا! هم قادرون مثلاً على أن يمسحوا خيانة مشهودة (بعد أن يثوروا ثورة عنيفة في البداية طبعاً)، وقبلات وعناقات رأوها بأعينهم، شريطة أن يستطيعوا أن يقنعوا أنفسهم أن «هذه آخر مرة» وأن الغريم سيغيب وأنه سيرحل إلى بلد في آخر العالم، أو أنهم سيمضون هم أنفسهم بحبيبتهم إلى منطقة نائية لا يستطيع الخصم الكريه أن يدركها فيها يوماً. ثم لا تدوم المصالحة أكثر من ساعة طبعاً، ذلك أنهم، ولو اختفى الخصم، ما يلبثون أن يكتشفوا خصماً جديداً منذ الغد، فإذا هم يستأنفون عذاب أنفسهم بسبب هذه «الخيانة» الجديدة. رب متسائل يتساءل: ما هي قيمة حب يقتضي هذه الاحتياطات كلها، ويتطلب هذه المراقبة الدائمة المتصلة. وهل المرأة التي يعتقدون أنها تخونهم تستحقّ منهم هذا الحب كله. إن هذا السؤال بعينه هو ما لا يلقيه الغيورون الحقيقيون على أنفسهم، مع أن منهم أناساً لهم نفوس سامية رفيعة. وهناك أمر جدير بالملاحظة أيضاً: إن ذوي العواطف النبيلة من هؤلاء الغيورون يستطيعون، وهم مختبئون في ركن من الأركان للتجسس والتنصت، يستطيعون أن يفهموا تماماً، «لنبل قلوبهم»، أنهم ينحدرون إلى الخزي والعار، ولكنهم مع ذلك لا يشعرون بشيء من عذاب الضمير، ما ظلوا مختبئين في أوكارهم على الأقل.

ما إن رأى ميتيا صاحبته جروشنكا حتى شعر بغيرته تتبدد وتزول، وحتى عاد وَثوقاً كريماً سمحاً خلال بضع لحظات، بل لقد مضى في هذا إلى حد احتقار نفسه بسبب تلك الشكوك الأثيمة التي ساورته وذلك يدل على أن حبه لتلك المرأة كان فيه عنصر أسمى كثيراً مما كان يظن هو نفسه، وأن الشهوانية «وتثنيات جسدها» التي حدث عنها أخاه أليوشا، ليست جوهر ذلك الحب. ولكن ما إن غابت جروشنكا

عن عينيه حتى عاد يتصور فيها جميع حقارات الخيانة ودناءاتها، دون أن يشعر أثناء ذلك بأي ندم أو عذاب ضمير.

استبدت به الغيرة إذاً من جديد. وكان عليه أن يستعجل على كل حال. كان عليه قبل كل شيء أن يجد قليلاً من المال لسدِّ حاجاته المباشرة: إن الروبلات التسعة التي جمعها في الليلة البارحة كانت قد نفدت كلها تقريباً في تلك الرحلة؛ والمرء لا يستطيع أن يفعل شيئاً حين لا يكون في جيبه قرش واحد كما يعلم ذلك جميع الناس. ولقد فكَّر ميتيا، أثناء وضعه خطته الجديدة في العربة، فكَّر في الوسيلة التي تمكّنه من الحصول على بضعة روبلات بلا إبطاء. إنه يملك خراطيش ومسدسين رائعين من المسدسات التي تستعمل في المبارزات، ولم يكن قد رهنهما حتى الآن، لأنه يحرص عليهما حرصاً أكثر من حرصه على الأشياء الأخرى. وكان قد تعرف منذ زمن طويل، في حانة «العاصمة الكبرى»، بموظف شاب عازب غني كان فيما يقال في الحانة أيضاً يهوى جمع الأسلحة على اختلاف أنواعها هوى شديداً. فهو يشتري مسدسات وبنادق وخناجر يعلقها على جدران غرفته، ويدعو ضيوفه إلى مشاهدتها ويعتز بها ويشرح لهم نظام كل مسدس وطريقة حشوه بالرصاص، وطريقة التصويب به، إلخ. ذهب ميتيا إلى هذا الموظف الشاب دون تفكير كثير، وعرض عليه أن يستودعه مسدّسَيْه رهناً على قرضٍ قدره عشرة روبلات، فسرَّ الموظف سروراً عظيماً، وحاول إقناع ميتيا بأن يبيعه هذين السلاحين، ولكن ميتيا رفض التخلي عنهما، فدفع له الموظف عندئذٍ عشرة روبلات قائلاً إنه لن يتقاضى فوائد عن هذا القرض بحال من الأحوال. وافترق الرجلان صديقين. وأسرع ميتيا إلى جناحه الذي يقع خلف منزل فيدور بافلوفتش بغية أن يلقى

سمردياكوف. وهكذا أثبَتَ ميتيا من جديد واقعة وهي أنه قبل حدوث الحادث الذي سنتحدث عنه طويلاً فيما بعد، قبل حدوث ذلك الحادث بثلاث ساعات أو أربع لم يكن في جيبه كوبيك واحد، فقرر أن يرهن في سبيل الحصول على عشر روبلات مسدسين كان يحرص عليهما أشد الحرص، ثم إذا هو بعد ذلك ببضع ساعات يملك ألوف الروبلات... ولكنني أسبق بهذا تتمة القصة فلأعد إلى حيث كنت.

علم ميتيا في منزل ماريا كوندراتيفنا (جارة فيدور بافلوفتش) بنبأ مرض سمردياكوف فاضطرب اضطراباً شديداً وقلق قلقاً عظيماً. أصغى إلى قصة سقوطه في القبو، ونوبة الصرع، ووصول الطبيب، وهموم فيدور بافلوفتش. وأُبلغ أيضاً نبأ سفر إيفان فيدوروفتش إلى موسكو في مطلع الصباح، فبدا عليه اهتمام شديد بهذه الواقعة التفصيلية. قال يحدِّث نفسه: «لا بد أن إيفان قد مرَّ بفولوفيا قبلي». غير أن مرض سمردياكوف قد أحدث في نفسه قلقاً كبيراً ومخاوف خطيرة. كان يحدث نفسه قائلاً: «ما العمل الآن؟ من عساي أكلف بمراقبة المنزل واطلاعي على ما يجري؟» فأخذ يسأل المرأتين بإلحاح: «ألم تلاحظا شيئاً في مساء أمس؟». وأدركت المرأتان فوراً ما الذي يحاول أن يعرفه فطمأنتاه ما وسعهما أن تطمئناه. قالتا له مؤكدتين: لم يجئ أحد. وقد أمضى إيفان فيدوروفتش الليلة كما اعتاد أن يمضيها، و«جرى كل شيء على ما يجب». وجم ميتيا مفكراً. لا بد من حراسة في هذه الليلة أيضاً. الأمر واضح. ولكن أين يرابط؟ أيرابط هنا في الحديقة، أم يرابط أمام منزل سامسونوف؟ وقرر أخيراً أن يراقب المكانين كليهما، وفقاً لما توجبه الظروف، أما الآن... كل ما في الأمر أنه كان عليه أن ينفذ «الخطة» الجدية،

الأكيدة في هذه المرة، التي رسمها في العربة. إن هذا المشروع لا يمكن تأجيله. فقرر ميتيا أن يقف على هذا المشروع ساعة من الزمن وقال يحدث نفسه: «بعد ساعة واحدة أكون قد علمت كل شيء وسوَّيت كل شيء، ثم أذهب إلى منزل سامسونوف أسأل أما تزال جروشنكا عنده، ثم أعود إلى هنا فوراً لأبقى حتى الساعة الحادية عشرة، وبعد ذلك أذهب إلى منزل سامسونف ثانية لأصحبها إلى بيتها». هذا ما قرر ميتيا أن ينفذه وعلى هذا النحو حلّ الأمور.

وأسرع إلى بيته فاغتسل ومشط شعره ونظف ثيابه بالفرشاة، وارتدى ملابسه وذهب إلى السيدة خوخلاكوفا. فهناك كانت «خطته»، واحزناه! كان ميتيا قد قرر أن يقترض الثلاثة آلاف روبل من تلك السيدة. حتى لقد راوده على حين فجأة يقينٌ عجيب خارق من أنها لن تمنع عنه هذا المبلغ. رب متسائل يتساءل: إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يخطر بباله أن يتجه قبل هذا الوقت إلى هذه المرأة التي تنتمي إلى بيئته على الأقل، ولماذا آثر أن يتجه إلى سامسونوف الذي يجهل ميتيا طبيعة تفكيره ولا يعرف بأي لغة يخاطبه؟ يحسن أن نذكر هنا أن ميتيا كان قد انقطع منذ شهر عن التردد إلى منزل هذه السيدة التي كان لا يعرفها كثيراً على كل حال. وكان يعلم عدا ذلك أنها لا تطيقه، ذلك أنها قد ناصبته العداء منذ البداية في الواقع، لسبب بسيط هو أنه كان خطيب كاترينا إيفانوفنا. لقد كانت تتمنى أن تقطع كاترينا إيفانوفنا صلتها به لتتزوج إيفان فيدوروفتش «الشاب المثقف، اللطيف، الذي يملك روح الفروسية ويتمتع بآداب راقية»، على حين أن آداب ميتيا بدت لها كريهة مقيتة. ثم إن ميتيا قد سخر منها مراراً كثيرة وقال عنها ذات مرة «إنها كثيرة الحركة والكلام بمقدار ما هي قليلة الثقافة». ولكن فكرة قد ومضت في ذهنه وميض

البرق، في الصباح، فقال لنفسه: «ما دامت تكره أن أتزوج كاترينا إيفانوفنا وما دام هذا الزواج يثير حنقها إلى هذا الحد (كان لا يجهل أن استياء السيدة خوخلاكوفا من هذا الزواج يبلغ حد الهستريا)، فلا يمكن أن ترفض إقراضي هذه الثلاثة آلاف روبل التي ستتيح لي أن أفصم علاقتي بكاتيا، وأن أرحل من هنا إلى الأبد». وكان ميتيا يقول لنفسه أيضاً: «إن نساء المجتمع المدللات لا يبخلن بشيء في سبيل نزواتهن. عدا ذلك فهي غنية جداً». إن «الخطة» التي وضعها لاقتراض هذا المبلغ من السيدة خوخلاكوفا لا تختلف عن خطة البارحة: سوف يعرض عليها أن يتنازل لها عن حقوقه في قرية تشرماشنيا، ولكنه لا ينوي في هذه المرة أن يبسط الأمر على أنه صفقة تجارية، ولا يهدف إلى إغراء هذه السيدة، كما حاول إغراء سامسونوف، بأنها ستربح ستة آلاف أو سبعة آلاف روبل؛ وإنما يكون التنازل عن الحقوق، في هذه الخطة الجديدة، بمثابة ضمانة سخية للقرض الذي سيُتفق عليه. وكان كلما ازداد تفكيراً في هذا المشروع ازداد حماسةً له، وذلك ما يحدث له دائماً حين يتخذ قراراً جديداً. إنه يتحمس في البداية لكل مشروع جديد من مشاريعه. ومع ذلك شعر، وهو يصعد درجات من منزل آل خوخولاكوف، بقشعريرة في ظهره، واجتاحت نفسه عندئذٍ عاطفة قلق رهيب وخوف شديد: لقد أدرك في تلك اللحظة، بيقين رياضي، أنه يقامر بآخر ورقة يملكها. فإذا لم تفلح هذه المحاولة، فلا أمل بعد ذلك، «اللّهم إلا أن أذبح أحداً وأسلبه ثلاث آلاف روبل، وبدون ذلك فلا مخرج لي...». كذلك قال ميتيا لنفسه. وكانت الساعة السابعة والنصف حين شدَّ الجرس.

بدا كل شيء يجري على ما يحب ويشتهي في أول الأمر: فما إن

أُبلغت السيدة خوخلاكوفا عن وصوله حتى أمرت بإدخاله. فدُهش ميتيا من سرعة استقباله، وقال لنفسه: «لكأنها كانت تنتظرني». وما كاد يدخل الصالون حتى هرعت إليه وأعلنت له فجأة أنها كانت تنتظره...

- كنت أنتظرك، كنت أنتظرك! لا شيء كان يسمح لي بأن أتنبأ بزيارتك، أعتقد أنك تقدر ذلك بسهولة. ومع هذا كنت أنتظرك. فاعجب بما أملك من صدق غريزة المرأة يا دمتري فيدوروفتش، لأنني كنت واثقة، منذ هذا الصباح، بأنك ستزورني.

قال ميتيا وهو يجلس بخراقة:

- حقاً إن هذا يثير الدهشة... يثير أكبر الدهشة ولكنني جئت من أجل قضية خطيرة، خطيرة خطورة رهيبة... بالنسبة إليَّ، طبعاً... يا سيدتي... بالنسبة إليَّ وحدي... لذلك أسارع ف...

- أعرف أن السبب الذي دفعك إلى المجيء سبب خطير يا دمتري فيدوروفتش. وليست المسألة هنا مسألة تنبؤات لأنني أكره ذلك وذلك الإيمان الرجعي بالمعجزات (هل علمت بما جرى للشيخ زوسيما؟)... وإنما الأمر حساب رياضي: كان لا بد أن تجيء إليَّ حتماً بعد كل ما جرى مع كاترينا إيفانوفنا، لم يكن في وسعك أن لا تجيء. هذه رياضيات...

- أو فلنقل هذا واقعية يا سيدتي. لنكن واقعيين هذه حياة... اسمحي لي أن أبسط لك بإيجاز...

- الواقعية... قلتها يا دمتري فيدوروفتش! أنا من أنصار الواقعية بعد اليوم!... لقد تلقيت درساً قاسياً وقد شُفيت من مرض الإيمان بالمعجزات المعجزات. أنت لا تجهل طبعاً أن الشيخ زوسيما قد مات؟

قال ميتيا بشيء من الدهشة:

- لم أكن أعلم شيئاً عن ذلك.

وطافت بخياله صورة أليوشا. قالت السيدة خوخلاكوفا:

- مات هذه الليلة... تصوّر أن...

قاطعها ميتيا قائلاً:

- سيدتي، أنا لا أعرف إلا شيئاً واحداً: هو أنني في وضع عصيب للغاية وأن كل شيء سينهار إذا أنت لم تساعديني، وسأكون أنا أول من ينهار. اغفري لي خشونة لغتي، ولكنني في قلق محموم؛ إن بي حمى حقاً...

- أعرف ذلك، أعرف ذلك، أعرف أن بك حمى. أنا مطلعة على كل شيء، وما كان يمكن أن تكون حالتك النفسية غير ما هي عليه. كل ما قد تقوله لي الآن، أنا أعرفه سلفاً. إنني أفكر في مصيرك منذ زمن طويل يا دمتري فيدوروفتش. كنت ألاحظ حياتك، وأدرسها... هه! أنا طبيبة نفوس، خبيرةٌ جداً... صدقني يا دمتري فيدوروفتش!.

عاد ميتيا يقول وهو يبذل جهداً من أجل أن يبدو لطيفاً محبباً:

- سيدتي، لا شك عندي في أنك طبيبة خبيرة. ولكنني أنا أيضاً مريض خبير. إنني مقتنع اقتناعاً قوياً بأنك ستساعدينني في اتقاء هلاك كبير، ما دمت قد اهتممت بمصيري ذلك الاهتمام كله. فاسمحي لي أن أبسط لك أخيراً الخطة التي تجرأت أن أجيء لأبسطها لك... وأن أقول لك بهذه المناسبة نفسها إنني آمل منك... لقد جئت يا سيدتي من أجل أن...

- لا تشرح... هذا أمر ثانوي! لن تكون أول شخص أساعده يا دمتري فيدوروفتش! لا شك أنك سمعت عن ابنة عمي بلمسوفا.

كان زوجها الذي تدمرت حالته المالية قد انهار انهياراً على حد التعبير الصادق الذي استعملته أنت منذ هنيهة. فنصحتها بتعاطي تربية الخيول، فأصبحت حالتها اليوم مزدهرة ازدهاراً عظيماً. هل تفهم في شؤون تربية الخيول يا دمتري فيدورفتش؟

صاح ميتيا يقول نافد الصبر ثائر الأعصاب، حتى لقد همَّ أن ينهض:

- لا يا سيدتي، أبداً... لا أفهم في هذا المجال شيئاً! أتوسل إليك يا سيدتي أن تصغي إليَّ لحظة. دعيني أتكلم دقيقتين فحسب، لأعرض لك مشروعي. ثم إنني لا أملك إلا وقتاً قصيراً جداً، أنا مستعجل غاية الاستعجال (كذلك أعول ميتيا يقول بصوت هستيري، إذ حزر أنها ستقاطعه، وأمل أن يستطيع منعها من مقاطعته برفع صوته). لقد جئت إليك لأنني قد بلغت ذروة اليأس، وأردت أن أرجوك أن تسلفيني ثلاثة آلاف روبل، ولكن بضمانة قوية وطيدة يا سيدتي، بشروط موثوقة تماماً. وها أنذا أشرح لك الموضوع...

قالت السيدة خوخلاكوفا وهي تحرك ذراعيها كأنما تطرد الشروح التي همَّ بها ميتيا:

- تشرح فيما بعد، فيما بعد... ستقول لي هذا كله فيما بعد. ثم إنني أعرف سلفاً كل ما قد تذكره لي، سبق أن قلت لك هذا. أنت في حاجة إلى مال، أنت تطلب ثلاثة آلاف روبل، ولكنني سأعطيك أكثر من ذلك، أكثر كثيراً، لأنني أريد أن أنقذك يا دمتري فيدورفتش. ولكنني أطالبك في مقابل ذلك بأن تطيعني.

وثب ميتيا من مقعده من جديد، قائلاً بانفعال شديد:

- آه! سيدتي! هل يمكن أن تكوني طيبة إلى هذا الحد؟! آه! لقد أنقذتني! يا رب! لقد انتزعت إنساناً من ميتة عنيفة يا سيدتي، من

ميتة انتحارٍ بطلقة مسدس... لسوف أظل شاكراً لك إلى الأبد...

عادت السيدة خوخلاكوفا تقول، وهي تنظر بابتسامة مشرقة إلى وجه ميتيا المتحمس:

- لأعطينك أكثر كثيراً من ثلاثة آلاف روبل!

- أكثر كثيراً؟ لست في حاجة إلى كل هذا. ليس بي حاجة إلا إلى هذه الثلاثة آلاف الشقية! وأريد من جهتي أن أعطيك ضمانة لهذا القرض، وأن أعبر لك عن شكر لا حدود له. إن المشروع الذي أحبّ أن أبسطه لك هو...

فقاطعته السيدة خوخلاكوفا التي كان وجهها يشرق بفرحة الإحسان المتواضعة:

- كفى! أنا أنفذ ما أقول ولا أنكث عهداً. لقد وعدتك بأن أنقذك، وسأفعل. سأخرجك من مأزقك كما أخرجت بلمسوفا. ما رأيك في مناجم الذهب يا دمتري فيدوروفتش؟

- مناجم الذهب يا سيدتي؟ لم أفكر في هذا الأمر يوماً حتى الآن...

- أما أنا فقد فكرت فيه من أجلك! لقد وزنت جميع جوانب المسألة. إنني ألاحظك منذ شهر لهذا الغرض. ظللت أفحصك أكثر من مائة مرة عابراً، فكنت أقول لنفسي في كل مرة: «هذا رجل نشيط فعّال يمكن أن ينجح في مناجم الذهب»، حتى لقد أنعمت النظر في مشيتك، فاستنتجت أنك ستكتشف مناجم كثيرة.

لم يملك ميتيا إلا أن يسأل السيدة خوخلاكوفا مبتسماً:

- استنتجت ذلك من مشيتي يا سيدتي؟

فأجابت السيدة خوخلاكوفا:

- نعم، من مشيتك أيضاً. هل تستطيع أن تنكر يا دمتري

فيدوروفتش أن في الإمكان معرفة طبع الشخص من مشيته؟ إن العلوم الطبيعية تعلمنا هذا. آه... ما أكثر ما أصبحت واقعية الآن! فمنذ ذلك اليوم، منذ تلك القصة التي حدثت في الدير والتي هزتنا هزاً قوياً، أصبحت لا أؤمن إلا بالواقعية با الـ... وا... قعيّة، وأصبحت أريد أن أقف حياتي على نشاط عملي. لقد شفيت من الغيبيّة إلى الأبد. «كفى!»، كما قال تورجينف[6].

– ولكن ماذا عن تلك الثلاثة آلاف روبل التي تفضلت فوعدتني بها كريمة سخية...

قاطعته السيدة خوخلاكوفا بقوة وحرارة:

– ستحصل عليها، تستطيع أن تعدها في جيبك منذ الآن. لا ثلاثة آلاف، بل ثلاثة ملايين، وخلال فترة وجيزة يا دمتري فيدوروفتش! إليك المشروع الذي أقترحه عليك: تكتشف مناجم ذهب فتثرى ثراء عظيماً وتصبح من أصحاب الملايين؛ ثم تعود إلينا رجلاً كبيراً من رجال العمل والفعل، تصبح رجلاً محركاً لغيرك من الناس، تنقذنا من خَدَرنا وكَسَلنا وتقودنا نحو الخير. أمعقول أن نترك جميع هذه المبادرات لهؤلاء اليهود؟ ستبني عمارات، وستخلق صناعات، وستساعد الفقراء، وسيغمرك هؤلاء الفقراء بالدعوات والبركات... إننا نعيش في عصر السكك الحديدية يا دمتري فيدورفتش. وستعلم وزارة الخزانة، التي تتخبط في مصاعب ضخمة، ستعلم بوجودك وتعتمد عليك. إن سقوط عملتنا الورقية قد حرمني من النوم[7]! ذلك جانب من طبيعتي لا يعرفه الناس كثيراً...

قاطعها ميتيا قائلاً وهو يوجس قلقاً شديداً:

– سيدتي! سيدتي! من الممكن أن أتبع نصيحتك، وهي نصيحة

سديدة جداً في الواقع... سأتبع نصيحتك في ما بعد سأذهب إلى مناجم الذهب هذه... وسأعود مرة أخرى لنتحدث في أمرها... بل سنتحدث عنها مراراً كثيرة... أما الآن... فلنتكم في تلك الثلاثة آلاف روبل التي تكرمت ف... آه! إن هذا المبلغ سيخرجني من جميع المصاعب! ليتني أستطيع الحصول عليه في هذا اليوم... ذلك أنني، كما ترين، لا أملك وقتاً أضيّعه ... ولا ساعة...

قاطعته السيدة خوخلاكوفا تسأله بلهجة قاطعة:

- كفى، كفى! أجبني: أتذهب إلى مناجم الذهب أم لا؟ هل عزمت أمرك؟ أريد جواباً واضحاً دقيقاً!

- سأذهب يا سيدتي فيما بعد. سأذهب إلى حيث تريدين يا سيدتي! أما الآن...

صاحت السيدة خوخلاكوفا تقول:

- انتظر!

وثبت واقفة وهرعت نحو مكتبها الأنيق ذي الأدراج الكثيرة، فأخذت تفتحها درجاً درجاً بسرعة، باحثة فيها عن شيء ما.

قال ميتيا محدثاً نفسه وقد كاد ينشق قلبه: «الثلاثة آلاف! فوراً وبدون ضمانة، بدون رهن، بدون وصل... ما أنبلها! آه! إنها امرأة رائعة! ولكن ليتها كانت أقل ثرثرة...».

وهتفت السيدة خوخلاكوفا تقول بحماسة عائدة إليه:

- هاك... هاك ما كنت أبحث عنه.

هو أيقونة صغيرة جداً من فضة، ذات حبل، كالأيقونات التي تحمل أحياناً تحت القميص مع الصليب.

وشرحت السيدة خوخلاكوفا قائلة في إجلال:

- هذه الأيقونة من كيف. لقد لمست هذه الصورة رفات القديسة

باربرا، الشهيدة العظيمة. فاسمح لي أن أعلقها لك بنفسي، لتباركك في حياتك الجديدة، ومشاريعك المقبلة.

قالت له ذلك، ووضعت الأيقونة حول عنقه، وجهدت أن تدسها تحت قميصه. أحنى ميتيا رأسه متحيراً، وأخذ يساعدها، وأفلح أخيراً في أن يدس الصورة تحت الياقة ورباط العنق وأن يضعها على صدره.

عندئذٍ قالت السيدة خوخلاكوفا وهي تجلس على مقعدها في مهابة:

- والآن هلُم إلى مناجم الذهب.

قال ميتيا.

- سيدتي! أنا متأثر جداً... لا أدري كيف أشكر لك هذه العواطف الكريمة وهذه المشاعر النبيلة... ولكن ليتك تعلمين مدى استعجالي!... إن ذلك المبلغ الذي أنتظره من كرمك وأنا ممتلئ القلب بالأمل.. آه... ما أطيبك، ما أعظم عطفك عليَّ! (بهذا هتف ميتيا على حين فجأة في حماسة)... اسمحي لي أن أعترف لك... بأمر تعرفينه منذ زمن طويل على كل حال... إنني أحبّ امرأة في هذه المدينة... لقد خنت كاتيا... أقصد كاترينا إيفانوفنا. وأسفاه! كان سلوكي معها خالياً من الإنسانية والشرف... تولهت هنا بامرأة أخرى... امرأة لعلك تحتقرينها، فأنت على علم بالأمر... ولكن يستحيل عليَّ أن أتركها، يستحيل! لذلك كانت هذه الثلاثة آلاف روبل...

قاطعته السيدة خوخلاكوفا قائلة بلهجة قاطعة:

- دعك من كل شيء. دع النساء خاصةً! مناجم الذهب، ذلك هو هدفك بعد اليوم، ولا شأن للنساء هناك! فيما بعد، حين ترجع

غنياً مجللاً بالمجد، تختار واحدة من بنات أرقى مجتمع: فتاةً عصرية، مثقفة، متحررة من الآراء المتخلفة. وفي ذلك الحين ستكون مشكلة المرأة، هذه المشكلة التي يتحدث الناس عنها كثيراً في هذه الأيام، ستكون قد حُلَّت، وستظهر في روسيا امرأة جديدة...

قال ميتيا وهو يضم يديه إحداهما إلى الأخرى في هيئة المتوسل:

- ولكن يا سيدتي ليس هذا، ليس هذا ما...

- بل هو هذا، هو هذا يا دمتري فيدورفتش! هو هذا ولا شيء سواه! هذا هو ما تسعى إليه دون أن تعرف أنت نفسك ذلك. إنني مطلعة اطلاعاً واسعاً على مشكلة المرأة. إن نهضة المرأة، وحتى وصولها إلى الحياة السياسية في المستقبل القريب، هو مثلي الأعلى. إن لي ابنةً يا دمتري فيدوروفتش، والناس لا يعرفونني كثيراً في هذا المجال. لقد كتبت في هذا إلى شيدرين[8]. إن هذا الكاتب قد كشف لي أموراً كثيرةً، كثيرة جداً، لا تخطر على البال، عن رسالة المرأة، فوجهت إليه في العام الماضي كتاباً لم أذكر فيه اسمي، كتاباً من سطرين: «أعانقك وأقبلك يا كاتبي، يا عزيزي المفكّر الكبير، باسم المرأة العصرية. استمر»! وذيلت الكتاب بهذا التوقيع: «أم». خطر ببالي أن أوقِّع: «أم عصرية»، ولكنني اكتفيت، بعد تردد، بكلمة الأم، لأن فيها جمالاً أخلاقياً أعظم يا دمتري فيدوروفتش؛ هذا عدا أن كلمة «عصرية» كان يمكن أن تذكره بمجلته «المعاصر»، وأن توقظ في نفسه ذكريات أليمة بسبب الرقابة التي تسود الآن[9]... ولكن ماذا بك؟ يا رب! ماذا جرى لك؟

كان ميتيا قد وثب عن مقعده. وها هو ذا يضم يديه إحداهما إلى الأخرى أمامها صائحاً بضراعة عاجزة:

- سيدتي! لسوف تبكينني إذا تأخرت مزيداً من التأخر عن تنفيذ ما تكرمت فودعتني به. . .

- ابك يا دمتري فيدوروفتش، ابك! لا تخشى أن تبكي إن هذه العواطف تشّرفك. . . ما يزال طريقك طويلاً! ستحسن الدموع إليك. سوف تعود يوماً وسوف تكون سعيداً. ستجئ إليّ من أعماق سيبيريا خصيصاً لأشاركك فرحتك. . .

أعول ميتيا فجأة هذه المرّة:

- اسمحي لي أخيراً أن أقول كلمة. أرجوك مرةً أخيرة أن تجيبيني: هل يمكنني أن أتلقى هذا المبلغ منك اليوم؟ وإلا ففي أي يوم تأمرين أن أجيء لأخذه؟

- عن أي مبلغ تتكلم يا دمتري فيدوروفتش؟

- عن الثلاثة آلاف روبل التي تكرمت فوعدتني بها. . منذ قليل. . .

- ماذا؟ ثلاثة آلاف روبل؟ آه. . . لا. . . أنا لا أملك هذا المبلغ.

كذلك قالت السيدة خوخلاكوفا بدهشة هادئة.

صعق ميتيا. وقال:

- كيف هذا؟ حتى لقد قلت منذ هنيهة قصيرة إنني أستطيع أن أعد هذا المبلغ موجوداً في جيبي.

- آه. . . لا. . . لا شك أنك أسأت فهمي يا دمتري فيدوروفتش. إنك لم تفهمني لا، لا، لقد قلت ذلك الكلام بصدد مناجم الذهب. صحيح أنني وعدتك بأكثر كثيراً من ثلاثة آلاف روبل، تذكرت هذا الآن، ولكنني كنت لا أفكر عندئذٍ إلا في مناجم الذهب.

صاح ميتيا يقول بغباء:

- والمبلغ؟ والثلاثة آلاف روبل؟

- إذا كنت قد جئت من أجل اقتراض مال، فيجب أن أذكر لك أنني لا أملك مالاً. إنني الآن خالية الوفاض تماماً يا دمتري فيدوروفتش. حتى إنني في شجار مع وكيلي، وقد اضطررت أن أقترض خمسمائة روبل من ميوسوف منذ بضعة أيام. لا، لا، لا أملك شيئاً من المال، واعلم عدا ذلك يا دمتري فيدوروفتش أنني لو كنت أملك مالاً لما أسلفتك أيضاً، أولاً لأنني لا أقرض أحداً قط، فالدين خصام دائماً؛ وإذا أقرضت غيرك، فلا أقرضك أنت، لأنني أريد لك الخير، وأريد أن أنقذك، وما أنت في حاجة إلا إلى شيء واحد: المناجم، المناجم، المناجم!

زأر ميتيا يقول:

- آ. . . يا للشيطان! شيطان يأخذ المناجم!

وهوى بقبضة يده على المنضدة يضربها بكل ما أوتي من قوة.

- آي. . . آي. . .

كذلك صاحت السيدة خوخلاكوفا مرتاعة وهي تهرب إلى آخر الصالون.

بصق ميتيا من فرط حنقه. وبخطى سريعة، اجتاز الغرفة، وخرج من المنزل، وأوغل في الشارع المظلم. إنه يسير الآن كمجنون، ويلطم صدره بقبضة يده، على ذلك الموضع نفسه الذي لطمه منذ يومين بحضور أليوشا حين لقيه مساء في الطريق المظلم. لماذا يلطم صدره هذا اللطم على هذا الموضع نفسه، وماذا كان معنى هذه الحركة؟ ذلك سر لم يفصح عنه لأحد، حتى ولا لأليوشا في تلك الساعة، ولكنه كان يعلم أن هذا السر ينطوي على ما هو أكبر من

العار بالنسبة له، ينطوي على هلاكه وانتحاره، وذلك ما سيحدث حتماً إذا هو لم يحصل على هذه الثلاثة آلاف روبل ليرد إلى كاترينا إيفانوفنا مالها، ولينزع عن صدره، «عن هذا الموضع بعينه من صدره»، الخزي الذي يخنقه، الحمل الذي يبهظه، والذي يرهق ضميره أشد الإرهاق. إن هذا كله سيتضح مزيداً من الاتضاح للقارئ فيما بعد. والآن وقد انهار آخر أمل من آمال هذا الرجل القوي الجسم، فإنه ما إن ابتعد بضع خطوات عن منزل خوخلاكوفا حتى انفجر يبكي على حين فجأة ناشجاً كطفل صغير. وها هوذا يمسح دموعه بقبضتي يديه دون أن يلاحظ ذلك. وعلى هذه الحال من الاضطراب إنما وصل إلى الميدان، حيث أحسّ بغتةً أنه قد صدم شيئاً ما، وسرعان ما سمع أناتٍ شاكية صادرة عن عجوز كاد يقلبها.

- يا رب! كاد يقتلني! هلّا نظرت أين تسير أيها الوغد!

صاح ميتيا يقول وهو يتفرس وجه المرأة العجوز في الظلام:

- كيف؟ أهذا أنت؟

لقد عرف ميتيا في هذه المرأة العجوز، خادمةَ كوزما كوزمتيش الطاعنة في السن التي لاحظها في منزله الليلة البارحة.

سألته العجوز بصوت أصبح لطيفاً على حين فجأة:

- ومن أنت يا بني؟ لا أستطيع أن أميِّزك في هذا الظلام...

- أنت في خدمة كوزما كوزمتيش، أليس كذلك؟

- هذا صحيح يا بني، وأنا عائدة الآن من بروخورتش... ولكن لماذا لا أستطيع أن أعرفك؟

قال ميتيا في اضطراب شديد:

قولي لي يا أماه: هل اجرافينا ألكسندروفنا عندكم الآن؟ لقد أوصلتها إلى منزلكم منذ قليل.

- لقد جاءت يا بني فمكثت لحظة ثم انصرفت.

فصرخ ميتيا:

- انصرفت؟ كيف هذا؟ متى ذهبت؟

- لم تمكث عندنا إلا دقيقة، قصَّت خلالها على كوزما كوزمتش قصة مضحكة ثم لم تلبث أن انصرفت.

زأر ميتيا يقول:

- أنت تكذبين أيتها العجوز اللعينة.

فصاحت المرأة تقول مذعورة:

- آي... آي...

ولكن ميتيا كان قد غاب. أسرع يركض نحو منزل آل موروزوف. كانت جروشنكا قد سافرت منذ ربع ساعة إلى موكرويه، وكانت فينيا في المطبخ مع جدتها ماتريونا الطباخة، حين ظهر «النقيب» فجأة في المنزل. فلما رأته أطلقت صرخات ارتياع وجزع.

أعول ميتيا يسألها:

- ها... تصرخين؟ أين هي؟

ولكن قبل أن يتسع وقت فينيا، التي صعقها الذعر، لأن تنطق بكلمة واحدة، ارتمى ميتيا على قدميها قائلاً لها:

- فينيا، قولي لي، أناشدك بيسوع المسيح، إلى أين ذهبت؟

- لا أدري يا سيدي، لست على علم بشيء أيها العزيز دمتري فيدوروفتش. ولو قتلتني لما استطعت أن أقول لك أكثر من هذا. ثم إنك قد خرجت معها منذ قليل....

كذلك أكدت فينيا متدفقة في كلامها.

قال ميتيا:

- ولكنها عادتْ.

- لا ، لا ، يا عزيزي دمتري فيدوروفتش، لم تعد، أحلف لك بالله أنها لم تعد!

صرخ ميتيا يقول:

- تكذبين! وإني لأحزر من ذعرك وحده إلى أين ذهبت.

وخرج من المنزل راكضاً. فما كان أسعد فينيا المذعورة بأنها تخلصت منه بمثل هذه السهولة. فلقد أدركت حق الإدراك أنه كان سيسومها سوء العذاب، لولا استعجاله الشديد. على أنه قد فاجأ فينيا وماتريونا العجوز، حين انصرافه، بحركة لم تكن في الحسبان: كان هناك على المائدة هاون نحاسي وفيه مدق نحاسي، ولكن المدقّ ليس كبيراً. فبينما كان ميتيا يضع يده على قبضة الباب راكضاً ليخرج، مد يده الأخرى فتناول المدق اختطافاً ودسَّه في جيب سترته.

هتفت فينيا تقول وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى:

- رباه! سيقتل أحداً.

– 4 –

في الظلام

إلى أين كان يركض؟ ذلك سؤال يُحزر جوابه: «أين عساها تكون إن لم تكن عند فيدور بافلوفتش؟ لا شك أنها ذهبت إليه رأساً بعد أن غادرت منزل سامسونوف. الحيلة واضحة، والكذب مفضوح!». كانت هذه الأفكار تغلي في رأس ميتيا. وتحاشى أن يمر بفناء ماريا كوندراتيفنا. قال لنفسه: «يجب أن لا تراني بحال من الأحوال... يجب إلاّ أنبهها.. وإلا أبلغت فوراً أنني هنا... لسوف تخونني حتماً. لا شك في أنها متواطئة معهم. وكذلك سمردياكوف. لقد اشتُروا جميعاً!». لذلك سلك طريقاً آخر: دار دورة طويلة، فمرَّ بالشارع الصغير متحاشياً منزل فيدور بافلوفتش، واجتاز شارع دمتريفسكايا، وعبر الجسر الضيق الصغير، فوصل بذلك إلى مكان خال غير مأهول يقع خلف المنزل. إن هذا المكان يحدُّه سياج بستان مجاور من جهة، ويحده من الجهة الأخرى السور العالي المتين الذي يحيط بحديقة فيدور بافلوفتش. واختار ميتيا لتخطي ذلك السور الموضع الذي يُروى أن اليزافيتا سمردياشايا قد تخطت السور منه في الماضي. قال ميتيا لنفسه لا يدري إلا الله لماذا: «إذا استطاعت تلك أن تتخطاه فكيف لا أفلح أنا في تخطيه؟». واستطاع فعلاً من أول وثبة، أن يتشبث بذروة السور

بيده، وأن يرتفع بعد ذلك باندفاعة قوية، فإذا هو يصبح في أعلى السور، فيركب عليه ركوبه على حصان. إن حمّامات المنزل قريبة جداً من ذلك المكان، ومنه تُرى نوافذ الدار المضاءة. قال ميتيا يحدث نفسه: «طبعاً... إن في غرفة نوم العجوز نوراً. معنى هذا أنها عنده!». ووثب بعد ذلك إلى الحديقة. ورغم علمه بأن جريجوري مريض، وبأن مرض سمردياكوف قد لا يكون تمارضاً، وأن أحداً من المنزل لا يمكن إذاً أن يسمعه في هذه اللحظة، فقد لطا متجمعاً على نفسه بدافع الغريزة، وجمد لا يتحرك، وأصاخ بسمعه. إن صمتاً كصمت الموت يخيم على المكان وما حوله. لا نأمة، ولا نسمة... هدوء مطلق، كأنما عن قصد وعمد.

«الصمت وحده يهمهم»[10] خطر هذا البيت من الشعر ببال ميتيا. وقال يحدث نفسه: «آمل أن لا أكون قد سُمعتُ لحظةَ قفزت! ولكن يظهر أنني لم أُسمع». وبعد أن لبث على هذه الحال دقيقة لا يتحرك، تسلل بخطى وئيدة خلال الحديقة، سائراً على العشب حتى يخنق كل ضجة. كان يتحاشى الأشجار والأدغال، ويتقدم بطيئاً، ولا يضع قدمه إلا محاذراً، ويصيخ بسمعه إلى كل خطوة يخطوها. فلم يصل إلى النافذة المضاءة إلا بعد خمس دقائق. وتذكر أن تحت النوافذ أشجار بيلسان ورباط كثيفة تمتد أغصانها إلى علو كافٍ. وكان الباب الذي يفضي من الحديقة إلى داخل المنزل على الجهة اليسرى من الواجهة مغلقاً، فانتبه ميتيا إلى ذلك انتباهاً خاصاً وسجله في ذهنه عند مروره. ووصل أخيراً إلى الشجيرات فاختبأ وراءها حابساً أنفاسه. قال لنفسه: «يجب أن أتلبث هنا بضع لحظات، فلعلهم قد سمعوا صوت وقع خطواتي، فأخذوا يصيخون بأسماعهم... فليطمأنوا... أرجو أن لا أسعل أو أعطس...».

وانتظر دقيقتين، خافق القلب خفقاناً شديداً، حتى لتكاد تنقطع من ذلك أنفاسه. ثم قال لنفسه: «إن دقات قلبي لن تهدأ، فلا يمكنني أن أنتظر مزيداً من الانتظار». كان ميتيا مختبئاً في ظل مجموعة الأشجار التي ينير الضوء الآتي من النافذة جانبها الأمامي. ورأى نفسه يدمدم قائلاً دون أن يعرف لماذا: «ما أشد الاحمرار في أثمار أشجار الرباط هذه!». ثم أخذ يدنو من النافذة بخطى بطيئة لم يُسمع صوتها، حتى إذا بلغها انتصب واقفاً على رؤوس الأصابع. بدت له غرفة نوم فيدور بافلوفتش كلها. إنها غرفة صغيرة، تنقسم قسمين بحاجز أحمر، كان فيدور بافلوفتش يسميه «الصيني». قال ميتيا لنفسه: «الحاجز الصيني... لا شك أن جروشنكا تختبئ وراءه».
وأخذ ميتيا ينعم النظر في أبيه. كان الأب يلبس ثوباً جديداً للمنزل من حرير مخطط ما رآه عليه ميتيا من قبل، ويشد على خصره حزاماً من حرير أيضاً ينتهي بعقد؛ وتحت ياقة الثوب يُرى قميص أنيق نظيف جداً مصنوع من نسيج رقيق ناعم وله أزرار من ذهب؛ وكان فيدور بافلوفتش يضع على رأسه الضماد المصنوع من قماش أحمر الذي سبق أن رآه أليوشا. قال ميتيا لنفسه: «لقد تجمّل وتزيّن».
وكان أبوه واقفاً قرب النافذة واجماً شارد اللب. وها هوذا يرفع رأسه على حين فجأة مصيخاً بسمعه كأنما لينصت؛ فلما لم يسمع شيئاً اقترب من المائدة فصبَّ نصف قدح من الكونياك وأفرغه في جوفه، ثم تنفس تنفساً عميقاً ملء رئتيه. وفكّر بضع لحظات، ثم اتجه نحو المرآة بخطى ذاهلة، فأزاح بيده اليمنى الضماد الأحمر الذي يخفي جبينه، وأخذ ينعم النظر في الندبات والبقع الزرق التي لم تختف بعد. قال ميتيا لنفسه: «أغلب الظن أنه وحيد ليس عنده أحد». وفي تلك اللحظة ابتعد فيدور بافلوفتش عن المرآة، والتفت فجأة نحو

النافذة، وأخذ ينظر إلى الخارج. فما كان من ميتيا إلا أن ارتمى في الظلام بوثبة واحدة.

وقال ميتيا لنفسه: «من الجائز أيضاً أن تكون مختبئة وراء الحاجز، وربما كانت نائمة». فما أن تراءى له هذا الافتراض حتى شعر بطعنة تنفذ في قلبه. وابتعد فيدور بافلوفتش عن النافذة. «لا شك أنه يترقبها هي إذ ينظر من النافذة إلى الخارج. فليست إذاً عنده! وإلا فما له وللظلمات يمعن النظر فيها متفرساً مستطلعاً! واضح أن نفاد الصبر يحرقه حرقاً». وعاد ميتيا يقترب، وأخذ يرصد أباه. كان العجوز قد جلس إلى المائدة، وكان واضحاً عليه أنه خائب الرجاء يائس النفس. ووضع كوعيه أخيراً على المائدة، وأسند خده إلى راحة يده اليمنى. فكان ميتيا يفحصه بنوع من النهم.

وقال يكرر لنفسه من جديد: «وحيد! إنه وحيد! فلو كانت معه، لكان وجهه وجهاً آخر. «ويا للغرابة: لقد أحسَّ ميتيا فجأة حين أدرك أن جروشنكا ليست هناك، بنوع من خيبة الأمل عجيب لا يُفهم، فقال يشرح لنفسه: «إن هذا الشعور من الاهتياج لا يرجع إلى أنني لا أراها، وإنما يرجع إلى أنني لا أملك أي وسيلة للتأكد على وجه اليقين من أنها مع العجوز أو أنها ليست معه». وقد تذكر ميتيا فيما بعد أن فكره في تلك اللحظة كان على جانب عظيم من الصحو والصفاء، فلا تفوته شاردة ولا واردة، حتى ليدرك أدق تفاصيل الموقف. ولكن القلق كان يجتاح نفسه بمزيد من القوة شيئاً بعد شيء، لأنه ليس من أمره على يقين. حتى أصبح لا يطيق هذا الوضع تساءل: «أهي هنا أم لا؟». واشتعل حنقه. وها هوذا يعزم أمره على حين فجأة، فيمد ذراعه، وينقر على إطار النافذة نقرات الإشارة التي اتفق العجوز عليها مع سمردياكوف وهي: نقرتان

متباعدتان، فثلاث نقرات متقاربة، دلالةً على أن «جروشنكا قد وصلت». فانتفض العجوز، ورفع رأسه، ووثب من مكانه، واندفع نحو النافذة. فارتمى ميتيا في الظلام. فتح فيدور بافلوفتش النافذة وأطل منها برأسه. وهمس يسأل بصوت مترجف:

- أهذا أنت يا جروشنكا؟ أنت؟ أين أنت يا ملاكي؟ أين أنت يا روحي، يا ملاكي؟ أين أنت؟

وكان يختنق من فرط الانفعال.

قال ميتيا لنفسه: «إنه وحيد».

واستأنف العجوز يسأل:

- أين أنت إذاً؟

وكان الأب وهو يرسل هذا السؤال يميل برأسه من النافذة حتى الكتفين ناظراً إلى جميع الجهات. وها هو ذا يضيف قوله:

- تعالي! لقد أعددت لك مفاجأة حلوة. تعالى فأريك المفاجأة.

قال ميتيا في سره: «هي الظرف الذي يضم الثلاثة آلاف روبل».

- ولكن أين أنت إذاً؟ لعلك قرب الباب؟ سأفتح لك الباب...

وكاد يسقط وهو يبرز بكل جسمه من النافذة ليرى المرأة الشابة في الظلام من جهة الباب الذي يفضي إلى الحديقة على اليمين. ولو قد اتسع الوقت لحظة أخرى إذاً لأسرع إلى الباب حتماً دون أن ينتظر جواب جروشنكا. كان ميتيا يرقبه من جانب بغير حركة. كان يراه من جانب فكان وجهه الكريه المقيت، وكانت جوزة عنقه الرخوة، وكان أنفه المعقوف، وكانت شفتاه اللتان تبتسمان بانتظار شيق، كان ذلك كله يبرز في ضوء ساطع يسقط عليه مواربا من المصباح الموجود في الجهة اليسرى من الغرفة. فإذا بكره عنيف فظيع يغلي في قلب ميتيا فجأة، فيقول في نفسه: «هذا هو، هذا هو

غريمي، هذا هو جلّادي، هذا هو عدوّ حياتي!». إنها سورة الحنق المباغت المسعور الحاقد الظامئ إلى الانتقام، الذي تحدث عنه إلى أليوشا بما يشبه التنبؤ أثناء حديثهما في الجناح قبل أربعة أيام جواباً على سؤال أليوشا له: «كيف يمكن أن يخطر ببالك أن تقتل أباك؟».

لقد أجابه يومئذٍ قائلاً:

«لا أدري، أصبحت لا أدري. قد لا أقتل، ولكن من الممكن أن أقتل... أخشى أن يصبح في نظري كريهاً على حين فجأة بوجهه المقيت في تلك اللحظة. إنني أكره جوزة عنقه، وأنفه، وعينيه، وضحكته الصغيرة المستهترة. إنه يثير فيَّ تقززاً جسمياً. ذلك هو ما أخشاه خاصة. قد لا أستطيع أن أكبح جماح نفسي».

وأصبح التقزز الجسمي الذي يحسّ به ميتيا لا حدود له. فإذا هو، دون أن يدرك ماذا يفعل، يخرج من جيبه مِدقَّ الهاون على حين فجأة...

سوف يقول فيما بعد «إن الله كان ساهراً عليه في تلك الدقيقة». ففي تلك اللحظة نفسها استيقظ جريجوري فاسيلفتش في سريره الذي كان قد اضطجع عليه مريضاً. كان قد لجأ في المساء إلى استعمال الدواء الذي ذكره سمردياكوف في حديثه مع إيفان فيدوروفتش، أي دلْك جسمه بمعاونة امرأته بخليط من الفودكا ومغليّ أعشاب قوي ثم شرب ما تبقى من هذا الخليط، بينما كانت مارفا اجناتيفنا تقرأ عليه دعاءً سرياً بصوت خافت. ثم رقد وذاقت مارفا اجناتيفنا الدواء أيضاً، ولكنها لم تلبث أن نامت إلى جانب زوجها نوماً عميقاً على الفور، لأنها لم تألف شرب الكحول، ولم تتعوده. أما جريجوري فقد استيقظ من نومه في وسط الليل على غير توقع، وفكَّر لحظة، ثم إذا هو يجلس على سريره رغم أنه أحسّ بألم شديد في المنطقة

الحقوية. فلما فكر من جديد، نهض وأسرع يرتدي ثيابه. من الجائز أن يكون قد شعر بعذاب الضمير لأنه نام بينما بقي البيت بغير حارس يحرسه «في فترة خطرة إلى هذا الحد». وكان سمردياكوف الذي صرعته النوبة، راقداً بلا حراك في الغرفة الصغيرة المجاورة. ولم تتحرك مارفا اجناتيفنا، فقال جريجوري لنفسه وهو يلقي نظرةً عليها: «قد أضعفها الدواء» ثم خرج إلى درجات الباب وهو يئنّ. كان لا يستهدف إلا أن يلقي نظرة على الخارج، لأنه كان لا يحسّ أنه قادر على المشي، بسبب الألم الشديد الذي كان يشعر به في ظهره والساق اليمنى. ولكنه تذكر في تلك اللحظة نفسها أنه لم يقفل باب الحديقة في المساء. إن جريجوري رجل دقيق المواعيد منظم السلوك، لا ينحرف أبداً عن القواعد التي فرضها على نفسه إلى ولا عن العادات التي أخذ نفسه بها خلال سنين أبداً. وها هو ذا يهبط درجات الباب عارجاً متلوياً من الألم، ويتجه إلى الحديقة. وكان باب الحديقة مفتوحاً حقاً. ودلف إلى الحديقة بصورة آلية. أتراه لاحظ شيئاً يثير الانتباه أو سمع صوتاً لا يُتوقع؟ فلما لفت رأسه فجأة نحو اليسار، رأى النافذة في غرفة نوم مولاه مفتوحة، ولم ير أحداً عليها؛ فتساءل: «كيف تكون النافذة مفتوحة ولسنا في فصل الصيف؟»، ولمح في تلك اللحظة نفسها ظلاً يتحرك في الحديقة على مسافة أربعين خطوة منه. كان هذا ظلاً يتحرك في الحديقة على مسافة أربعين خطوةً منه. كان هناك رجل يهرب في الظلام. صاح جريجوري يقول: «رباه!»، ثم نسي فجأة ألمه، واندفع يركض ليقطع على الهارب طريق الفرار، فسلك أقصر طريق، لأنه يعرف الحديقة أكثر مما يعرفها الرجل الذي يطارده. لقد اتجه الهارب نحو الحمّامات، فدار حولها، ثم اندفع صوب الحائط. وكان جريجوري

يركض بأقصى سرعة دون أن يغيب الرجل عن بصره، فوصل إلى السور في اللحظة التي كان فيها الرجل المجهول يتسلق السور؛ وها هو ذا يطلق صرخة قوية وقد خرج عن طوره، ويمسك إحدى ساقي الرجل بكلتا يديه.

لم يخطئه حدسه؛ عرف الرجل: إنه ذلك «الشيطان الرجيم قاتل أبيه».

زأر العجوز يقول:

- يا قاتل أبيه!

ولكنه لم يستطع أن يقول أكثر من ذلك: فها هو ذا يهوي على الأرض مجندلاً. قفز ميتيا إلى الحديقة من جديد ومال على العجوز الذي جندله. وكان ميتيا يمسك المدق النحاسي بيده، فرماه على العشب ذاهلاً. سقط المدق على مسافة خطوتين من جريجورى، لا بين الحشائش، بل في الممر، أي في أبرز موضع يُرى. ولبث ميتيا بضع لحظات يتأمل جسم الخادم العجوز الدامي الرأس، ومدَّ يده يجس الرأس. لقد تذكر ميتيا فيما بعد، تذكراً واضحاً، أنه شعر في تلك اللحظة بحاجة قوية لا تقاوم، إلى «التأكد تأكداً كاملاً»: هل كُسرت جمجمة جريجورى أم أن الأمر لا يعدو أن يكون قد أُغمي عليه بسبب الضربة التي أصابت رأسه. ولكن الدم الحار كان يتدفق فيغرق أصابع ميتيا المرتجفة. وتذكر ميتيا فيما بعد أنه أخرج من جيبه منديلاً نظيفاً كان قد تزود به حين ذهب إلى خوخلاكوفا، فوضعه على وجه جريجورى، محاولاً بغباء أن يقطع سيلان الدم على جبينه وخديه. وسرعان ما ابتل المنديل بالدم. فتساءل ميتيا فجأة وقد ثاب إلى رشده: «رباه! لماذا أفعل ذلك؟ ما بقائي هنا؟ وكيف يمكنني أن أعرف الآن هل كُسرت الجمجمة أم لا؟ «ثم أضاف يقول يائساً:

«وما جدوى هذا على كل حال؟ ما وقع فقد وقع. . فقد كان العجوز متهوراً فنال ما يستحق!» بهذا ختم ميتيا كلامه بصوت عالٍ، ثم اندفع نحو السور، فتسلقه، وقفز إلى الشارع الضيق، وانصرف راكضاً. وكان لا يزال يمسك بيده اليمنى منديله المبلل بالدم، فدسَّه في جيب سترته الخلفي دون أن يهدئ سرعة ركضه. كان يعدو عدواً شديداً يوشك أن يقطع أنفاسه؛ ولسوف يتذكر عدة مارة صادفوه في الشوارع أنهم رأوا في تلك الليلة رجلاً يهرب في الظلام طائش العقل. اتجه ميتيا من جديد إلى منزل آل موروزوف. كانت فينيا قد أسرعت، بعد انصرافه، إلى البواب نازار إيفانوفتش فتوسلت إليه «باسم يسوع المسيح أن لا يدع للنقيب أن يدخل المنزل مرة أخرى، لا في هذا المساء ولا في الغد»، فوعدها البواب بأن يلبي رجاءها، ولكنه إذا اضطر أن يذهب إلى مالكة المنزل التي استدعته إليها لسوء الحظ في هذه اللحظة في الطابق الأعلى، فعهد بمراقبة الفناء إلى ابن أخيه الذي التقى به في طريقه إلى السيدة، وهو فتى في العشرين من عمره كان قد وصل من الريف مؤخراً، ونسي أن يوصيه بما كان يجب أن يوصيه به بشأن النقيب، فلما وصل دمتري طرق الباب، ففتح له الشاب الفلاح فعرفه، لأن ميتيا كان قد أعطاه «بقشيشاً» مرات كثيرة، وتركه يدخل، حتى لقد أسرع يبلغه، وهو يبتسم ابتسامة تودد، أن «اجرافينا ألكسندروفنا ليست في بيتها». فسأله ميتيا بحرارة وهو يتوقف:

- فأين هي يا بروخور؟

فقال له الشاب.

- سافرت إلى موكرويه منذ أكثر من ساعتين، وتولى تيموثي قيادة الخيل.

صاح ميتيا يسأله:

- ماذا ذهبت تصنع هناك؟

- لا أدري يا سيدي. ضابط استدعاها وأرسل إليها عربةً تقلها.

كان ميتيا قد تركه وركض كالمجنون باحثاً عن فينيا.

– 5 –

قرار مفاجئ

كانت فينيا في المطبخ مع جدتها، وكانت المرأتان تستعدان للنوم. وقد اعتمدتا على يقظة نازير إيفانوفتش، فأهملتا مرة أخرى إقفال الباب بالمفتاح. اقتحم ميتيا الغرفة، وارتمى على فينيا، فقبض على عنقها، وزأر يسألها خارجاً عن طوره:

– قولي لي حالاً، مع من هي في موكرويه الآن؟

فأطلقت المرأتان صرخة حادة. وصاحت فينيا تقول بسرعة وقد استحوذ عليها هلع رهيب:

– سأقول كل شيء يا دمتري فيدوروفتش العزيز، سأتكلم، لن أخفي شيئاً. لقد ذهبت إلى لقاء ضابطها في موكرويه.

صرخ ميتيا يسألها:

– أي ضابط؟

فأسرعت تجيبه:

– الضابط الذي عرفته في الماضي، منذ خمس سنين... الضابط الذي تركها وسافر.

اعتق ميتيا عنق فينيا. ولبث أمامها لحظة لا ينطق بكلمة، وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة الموت، وعبَّرت نظرته عن أنه أدرك

الحقيقة فوراً، وأنه فهم كل تفاصيل الأمر وحزر كل شيء دفعة واحدة. ولكن فينيا المسكينة لم يخطر ببالها في تلك اللحظة أن تلاحظه لتعلم هل أدرك الحقيقة فعلاً أم هو لم يدركها. لقد ظلت جالسةً على صندوق كما كانت حين وصول ميتيا، ولبثت ترتعش جامدةً على ذلك الوضع نفسه مادَّةً ذراعيها كأنما لتحمي نفسها. وكانت عيناها اللتان اتسعت حدقتاهما من الجزع تحدقان إلى ميتيا الذي كانت يداه حمراوين من الدم، وكان ميتيا أثناء الطريق قد اضطر أن يمسح بيديه العرق الذي كان يتصبب من وجهه، فكانت بقع الدم تُرى كذلك على جبينه وعلى خده اليمنى. وأوشكت فينيا أن تصاب بنوبة عصبية. وكانت العجوز الطباخة التي وثبت عن مكانها تنظر كمن طاش صوابه، نصف مجنونة من شدة الهلع. وقف ميتيا دقيقة ثم تهالك بحركة آلية على كرسي قرب فينيا.

كان ميتيا لا يفكر. إنه الآن أقرب إلى أن يكون خائفاً مذهولاً. كان كل شيء قد اتضح: إنه ذلك الضابط. وكان ميتيا على علم بوجود هذا الضابط مع ذلك وكان لا يجهل أنه كتب إلى جروشنكا منذ شهر، وقد عرف ذلك من جروشنكا نفسها. فخلال شهر إذاً، خلال شهر كامل، ظلت هذه المؤامرة تدبر من وراء ظهره، إلى أن وصل الخصم الجديد، دون أن يكون ميتيا قد اهتم بهذا الأمر أو قلق منه يوماً. كيف أمكنه أن لا يفكر في هذا الضابط يوماً، ولماذا نسيه نسياناً تاماً بعد أن عرف بوجوده؟ كان هذا السؤال يبعث في نفسه خوفاً ورعباً كأنه رأى أمامه شيئاً فظيعاً يجعله يشعر بقشعريرة في ظهره.

وها هو ذا ميتيا يخاطب فينيا على حين فجأة برقة وكياسة، كطفل طيب خجول، كأنه نسي تماماً أنه داهمها وقسا عليها منذ لحظات.

أخذ يلقى عليها أسئلة واضحة دقيقة يُستغرب صدورها عن رجل في مثل حالته فكانت فينيا تجيبه عن كل سؤال باستعداد عظيم وسرعة كبيرة، رغم أنها لم تستطع أن تحوّل بصرها المذعور عن يديه الداميتين، حتى لقد بدا عليها أنها تحرص على أن تكشف له عن «الحقيقة كلها». ولاح شيئاً فشيئاً أنها تجد مسرة في أن تكشف له عن جميع التفاصيل، لا بقصد إيلامه، بل عن رغبة صادقة منها في أن تكون نافعة له. قصّت عليه أحداث النهار تفصيلاً، وذكرت له زيارة راكيتين وأليوشا، وحكت له كيف أنها كُلِّفت بالترقب والترصد، وروت له سفر جروشنكا، وردَّدت على مسامعه التحيات التي حرصت المرأة الشابة على أن تكلف أليوشا من النافذة بأن ينقلها إليه، بغية «أن يتذكر على مدى حياته الساعة التي أحبته فيها». فلما وصلت فينيا إلى هذه التحيات ابتسم ميتيا، واحمر خداه الشاحبان. فسألته فينيا فوراً وهي لا تحس بأي خوف من إظهار حب استطلاعها هذه المرّة:

- لماذا أرى يديك ملوثتين بالدم يا دمتري فيدوروفتش؟

فأجابها ميتيا ذاهلاً:

- آ... نعم... صحيح.

وألقى على يديه نظرة ذاهلة. ولكنه سرعان ما نسي السؤال الذي أُلقي عليه، وغرق في الصمت. لقد انقضى قرابة عشرين دقيقة على وجوده هنا. إن الرعب الذي اجتاحه قبل بضع لحظات قد تبدد الآن، وبدا على ميتيا أن قراراً حازماً لا رجعة عنه قد استولى عليه وحلَّ محل ذلك الرعب. وها هو ذا ينهض فجأة ويبتسم حالمَ النظرة شارد الفكر.

سألته فينيا وهي تشير إلى يديه:

- ماذا وقع لك يا سيدي؟

وكانت فينيا تتكلم بلهجة فيها عطف وشفقة، كأن ميتيا ليس له أحد أقرب منها إليه في لحظة الشقاء هذه التي يمر بها.

نظر ميتيا مرة أخرى إلى يديه. ثم أجابها وهو ينظر إليها نظرة غريبة:

- وهو دمٌ يا فينيا... دم إنساني...الله وحده يعرف لماذا سُفح هذا الدم... ولكن اعلمي يا فينيا أنه يوجد هنالك سور عالٍ (وكان ميتيا ينظر إليها في تلك اللحظة نظرة من يلقى عليها «فزورة»)، سور رهيب... وغداً، عند الفجر، حين «تبدأ الشمس مسيرتها»، سيقفز ميتيا ذلك السور... إنك لا تفهمين يافينيا أي سور أعني... لا ضير... ستعرفين ذلك غداً، وستفهمين عندئذٍ كل شيء... أما الآن، فوداعاً! لن أكون عقبةً في طريق سعادتها، سأعرف كيف أمّحي... عيشي واسعدي يا فرحتي، يا حياتي... لقد أحببتني ساعة، ولسوف تتذكرين ميتنكا كارامازوف طوال حياتك... تعرفين أنها كانت تناديني ميتنكا!

قال ميتيا هذه الكلمات وخرج من المطبخ فظهر على فينيا أن انصرافه هذا قد أرعبها أكثر مما أرعبها وصوله حين اقتحم الغرفة وهجم عليها.

وبعد عشر دقائق تماماً كان دمتري فيدوروفتش يمثل أمام بيتر ايلتش برخوتين، الموظف الشاب الذي استودعه المسدسين رهناً. كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف، وكان بيتر ايلتش قد احتسى الشاي، وارتدى سترته ليمضي يلعب البلياردو قليلاً في حانة «العاصمة الكبرى». وصل إليه ميتيا في اللحظة التي كان يهم فيها أن يخرج. فما أن رأى الشاب بقع الدم على وجهه حتى صرخ مدهوشاً:

- رباه! ماذا وقع لك؟

أجاب ميتيا في سرعة:

- لا شيء جئت أردُّ إليك مالك واسترد المسدسين. شكراً لقد قدّمت لي خدمة كبيرة. أنا مستعجل جداً يا بيتر ايلتش، أسرع أرجوك.

كانت دهشة بيتر ايلتش ما تنفكّ تزداد: ذلك أنه رأى في يدي ميتيا كدسة أوراق نقدية، وأغرب ما في الأمر أن ميتيا كان يمسك كدسة الأوراق النقدية كما لا يمسكها أحد: كان قابضاً عليها بيده اليمنى التي يقدمها إلى أمام كأنما ليعرضها. وقد صرَّح الخادم الشاب الذي التقى بميتيا في المدخل، صرَّح فيما بعد أن دمتري فيدوروفتش قد دخل المنزل وهو على هذه الحال، وأن أغلب الظن إذاً أنه كان في الشارع أيضاً يحمل حزمة الأوراق النقدية بيده على هذه الصورة بحيث يراها الناس بسهولة.

كان ميتيا يشد على الأوراق النقدية (وهي من فئة المائة روبل) بأصابعه المدماة. وقد ذكر بيتر ايلتش للأشخاص الذين سألوه فيما بعد عن المبلغ هل هو ضخم، ذكر أن من الصعب تقديره بالنظر وحده، وأن من الجائز أن يبلغ ألفي روبل وربما ثلاثة آلاف روبل، غير أن الكدسة كانت كبيرة على كل حال، كانت «سميكة جداً». أما دمتري فيدوروفتش فلقد كان، كما ورد في الشهادة التي أدلى بها هذا الموظف الشاب فيما بعد، «في حالة غير طبيعية، ولكنه لم يكن ثملاً، وإنما كان شديد الاندفاع، عميق الذهول، رغم أن منظره يُشعر في الوقت نفسه بأنه كان يركز ذهنه على فكرة تشغله، فهو يبدو مفكراً باحثاً عن حل لا يفلح في الوصول إليه. وكان عدا ذلك مستعجلاً جداً، وكان يجيب بأجوبة قصيرة، وجُمَل غريبة. وكان

يمكن أن يُظن في بعض اللحظات أنه فرح لا حزين».

صاح بيتر ايلتش يسأل من جديد وهو يتفرس في زائره مذهولاً:

- ولكن ماذا بك؟ ماذا فعلت حتى تلطخت بالدم هذا التلطخ كله؟ أتراك سقطت على الأرض؟ انظر إلى نفسك في المرآة.

قال له ذلك وأمسكه من كوعه وقاده نحو مرآة. فلما رأى ميتيا وجهه دامياً ارتعش وقطب حاجبيه. ودمدم يقول حانقاً:

- اللعنة! لم يكن ينقص إلا هذا...

وأسرع ينقل الأوراق المالية من يده اليمنى إلى يده اليسرى، وأخرج منديله من جيبه بحركة متشنجة. كان هذا المنديل (الذي استعمله ميتيا في مسح رأس ووجه جريجورى) ملطخاً بالدم، وكانت طياته قد التصقت بعضها ببعض التصاقاً قوياً فلم يفلح ميتيا في فضها، فرمى المنديل على الأرض غاضباً وهو يسأل بيتر ايلتش قائلاً:

- اللعنة! أليس عندك خرقة... أمسح بها؟

- أأنت تلوثت بالدم تلوثاً فحسب؟ ألست جريحاً إذاً؟ إذا كان الأمر كذلك فتعال اغتسل. سأعطيك طشت ماء.

- أأغتسل؟ طيب... ولكن أين أضع هذا؟

قال ذلك ذاهلاً وهو يشير إلى حزمة الأوراق المالية، سائلاً بيتر ايلتش بنظراته كأن بيتر ايلتش هو الذي يقع على عاتقه أن يقرر ماذا يفعل ميتيا بماله. قال بيتر ايلتش:

- ضع المال في جيبك... أو ضعه على المائدة هنا... فلن يأخذه أحد.

- في جيبي؟ طبعاً في جيبي... عظيم...

ثم صاح يقول فجأة كأنه يخرج من ذهوله:

- هذا كله سخيف!... لا... يجب أن نسوّي تلك المسألة أولاً... هات المسدين.. إليك المال... إنني في حاجة ماسة إلى المسدسين... وأنا مستعجل جداً.. ليس هناك لحظة أستطيع أن أضيعها.

قال ذلك ومدَّ إلى الموظف ورقةً بمائة روبل كانت أولى أوراق الحزمة. فقال له بيتر ايلتش:

- لا أستطيع أن أبدِّلها لك... أليس معك نقود صغيرة؟

فأجابه ميتيا:

- لا...

نظر ميتيا إلى كدسة الأوراق من جديد، وجس ورقتين أخريين أو ثلاث ورقات أخرى كأنه غير متأكد من صحة جوابه، ثم أضاف:

- لا.... ليس عندي أوراق صغيرة... هي جميعاً واحدة.

قال ذلك ونظر إلى بيتر ايلتش نظرة متسائلة.

سأله الموظف الشاب:

- من أين جاءتك هذه الثروة كلها؟

ثم أضاف يقول:

- انتظر! سأرسل الصبي إلى مخزن آل بلوتنيكوف. إنهم يغلقون متجرهم في ساعة متأخرة وربما سيبدلون لنا هذه الورقة. هيه! ميشا!

كذلك نادى الصبي وهو يفتح الباب.

هتف ميتيا يقول فيما يشبه الإلهام المباغت:

- متجر آل بلوتنيكوف(11)؟ فكرة رائعة...

ثم قال يخاطب الصبي الذي دخل الغرفة في تلك اللحظة:

- اركض يا ميشا إلى متجر آل بلوتنيكوف، وقل لهم إن دمتري فيدوروفتش يبلغكم تحياته، وإنه سيجيء إليكم بنفسه بعد قليل..

وقل لهم أيضاً هذا: أن يحضروا شمبانيا بانتظار وصولي إليهم... نعم... ثلاث دستات شمبانيا... وليحزموها كما فعلوا في المرة الأخيرة حين سافرت إلى موكرويه.. لقد طلبت يومئذٍ أربع دستات (كذلك أضاف يقول فجأة وهو يلتفت إلى بيتر ايلتش). وهم يعلمون على كل حال، يا ميشا... لا تهتم بشيء (هكذا استأنف كلامه مخاطباً الصبي)... ها نعم! قل لهم أيضاً أن يضيفوا جبناً، وفطائر ستراسبورجية، وأسماكاً مدخنة، وشرائح من فخذ الخنزير، وكافياراً، أي شيئاً من كل ما عندهم في مخزنهم، بحيث يكون ثمن المجموع مائة أو مائة وعشرين روبلاً كما في المرة السابقة... وقل لهم كذلك أن لا ينسوا الملبّس والسكاكر الذوابة، وبطيختين أو ثلاثاً... لا بل تكفي بطيخة واحدة... ولكن لا بد في مقابل ذلك من شوكولاتة وسكر شعير، وفاكهة مربىة وكارامل لين، تماماً كالمرة الماضية؛ فيكون الثمن مع الشمبانيا حوالى ثلاثمائة روبل... تماماً كالمرة السابقة... هل ستتذكر يا ميشا؟ أليس اسمه ميشا؟ (وجّه هذا السؤال إلى بيتر ايلتش).

قال بيتر ايلتش الذي كان يصغي إليه ويلاحظه قلقاً:

– لحظة!... من الأفضل أن تذهب بنفسك وتأمرهم بإعداد الأشياء. لا شك أن الصبي سيخطئ.

– سيخطئ، سيخطئ طبعاً! أوه! ميشا! كنت أريد أن أقبّلك منذ الآن شكراً لك... اسمع: إذا لم تخطئ في تنفيذ المهمة، فلك مني عشرة روبلات. هيا أسرع... لا تنسى الشمبانيا خاصةً، يجب أن يحضروا كثيراً من الشمبانيا... وكذلك من الكونياك... ومن الخمر... تماماً كالمرة السابقة. هم يعرفون ما طلبته في المرة السابقة.

قاطعه بيتر ايلتش قائلاً وقد نفد صبره:

- هلاَّ تركتني أتكلم آخر الأمر؟ أعود فأقول لك: حسبُ الصبي أن يجيئنا بالنقود، وأن يوصيهم بأن لا يغلقوا متجرهم قبل وصولك. وستذهب إليهم فوراً، فتعمل ما يجب بنفسك. أعطني هذه الورقة... والآن هيَّا يا ميشا، وأسرع... فهمت؟

يبدو أن الموظف كان حريصاً على أن يسرع في صرف ميشا الذي كان ينظر محملق العينين إلى الزائر الذي تلطخت يداه وتلطخ وجهه بالدم وحملت أصابعه المرتعشة حزمة من الأوراق المالية. كان الغلام واقفاً أمام ميتيا فاغر الفم دهشةً وخوفاً، ولعله لم يفهم شيئاً مما كان يقال له.

فلما انصرف الغلام قال بيتر ايلتش بلهجة جافة:

- والآن تعال اغتسل. ضع المال على المائدة أو ضعه في جيبك... هكذا... تعال... اخلع عنك هذه السترة.

وساعده في خلع السترة، فإذا هو يصيح فجأة من جديد قائلاً:

- انظر... السترة أيضاً ملوثة بالدم.

- ليست هي... ليست السترة الكُم وحده اتسخ قليلاً في هذا الموضع... وهنا أيضاً... ذلك لأنني هنا إنما دسست المنديل، فنضح الدم... ولا بد أنني قعدت عليه عند فينيا، فرشح الدم من الجيب.

كذلك راح ميتيا يشرح الأمر في سورة من ثقة عجيبة. فقطب بيتر ايلتش حاجبيه. وقال متذمراً:

- ها أنت ذا دبرت أمرك! أغلب الظن أنك اقتتلت مع أحد.

وابتدأ التنظيف. تناول بيتر ايلتش جرّةً وأخذ يسكب الماء. فكان ميتيا من فرط تعجله لا يحسن غسل يديه بالصابون (كانت يداه

ترتعشان؛ تذكر بيتر ايلتش ذلك فيما بعد)، فأمره الموظف الشاب بأن يعيد الكرة فيغسل يديه من جديد. كان الموظف في تلك اللحظة يسيطر على ميتيا، وكان سلطانه عليه يقوى شيئاً بعد شيء. يحسن أن نشير هنا إلى أن هذا الشاب لم يكن وجلاً أو خجول الطبع.

- انظر: لقد نسيت أن تنظف ما تحت الأظافر. نظف وجهك الآن جيداً. أكثر من هذا! هنا على الصدغين، وقرب الأذن أيضاً... هل تنوي أن تنصرف لابساً هذا القميص؟ وإلى أين تريد أن تذهب؟ ألا ترى: إن حاشية الكم اليمنى ملطخة بالدم.

فقال ميتيا وهو يفحص حاشية الكم:

- حقاً! إنها ملطخة.

- بدِّل إذاً ملابسك الداخلية.

- لا يتسع وقتي. سأدبّر هذا الأمر: اثنِ طرف الكم نحو الداخل، فلا يُرى من تحت البدلة. وهكذا...

كذلك واصل ميتيا كلامه بتلك الثقة نفسها، وهو يجفف وجهه ويديه بمنشفة ويرتدي سترته.

- قل لي الآن ما وقع لك؟ هل اقتتلت مع أحد؟ مع من اقتتلت؟ أفي الحانة، كما حدث هذا من قبل؟ أتراك اقتتلت مرة أخرى مع ذلك النقيب نفسه الذي جررته إلى الشارع وأخذت تضربه ضرباً مبرحاً؟ (ذكر بيتر ايلتش ذلك المشهد بلهجة لائمة). من ذا ضربت اليوم... أم تراك قتلت أحداً؟

- سخافات!

- سخافات؟ ماذا تعني؟

قال ميتيا:

- دعك من هذا الأمر.

ثم استدرك يقول مبتسماً:

- دست امرأة عجوزاً في الميدان.

- دست امرأة عجوزاً؟

- بل رجلاً عجوزاً.

كذلك صاح ميتيا ضاحكاً، وصارخاً كأنه يكلّم رجلاً أطرش. وكان يسدد نظراته إلى عيني بيتر ايلتش.

- آه... اللعنة... رجل عجوز... امرأة عجوز!... أصبحت لا أفهم... أتراك قتلت أحداً؟

- لا بل تصالحنا. تضاربنا في أول الأمر ثم تصالحنا بعد ذلك. حدث ذلك هناك. وافترقنا صديقين. ثم إنه غبي أبله... أوه! لقد غفر لي وعفا عني... لا بد أن يكون قد صفح عني في هذه الساعة... ولو قد نهض، لما أمكن أن يغفر لي... هه... غامزاً... فليذهب الأبله إلى الشيطان! هل تسمعني يا بيتر ايلتش؟ فليذهب إلى الشيطان! لا أريد أن أهتم به بعد الآن، لا أريد أن يخطر ببالي في هذه اللحظة!

كذلك صاح ميتيا يقول بلهجة قاطعة. قال بيتر ايلتش:

- لا أحب أن أتدخّل ... ولكن أي لذة تجد في التشاجر مع أول قادم؟... وفي سبيل ترهات وسفاسف، كما حدث مع ذلك النقيب؟ تقتتل ثم تمضي تلهو وتقصف، ذلك طبعك حقاً! ثلاث دستات شمبانيا! ما أكثر هذا!

- أعطني المسدسين بسرعة. أنا مستعجل جداً، أحلف لك! كنت أود لو أثرثر معك يا عزيزي، ولكن ليس في وقتي متسع. ثم فيم الثرثرة؟ لقد فات أوان الكلام. آه!... ولكن! أموالي، أين وضعتها؟

كذلك هتف يقول وهو يفتش جيوبه واحداً بعد آخر.

- أموالك على المائدة... هناك... وضعتها على المائدة بنفسك. هل نسيت؟ لكأن المال ليس له أي شأن عندك حقاً! أما مسدساك فهاكهما. إني لأستغرب أن تكون قد رهنتهما لاقتراض عشر روبلات عند العصر، ثم إذا بك تقبض بيديك الآن على ألوف. كم معك على وجه الدقة؟ ألفان، ربما ثلاثة آلاف؟

أجاب ميتيا ضاحكاً:

- ثلاثة آلاف.

ودسّ الحزمة في جيب سرواله.

- سوف تضيعها هكذا. أتراك اكتشفت منجم ذهب؟

صاح ميتيا يقول بصوت قوي وهو ينفجر بضحك صاخب مجلجل:

- مناجم، مناجم ذهب! هل تهمك المناجم يا بروختين؟ إنني أعرف هنا سيدة تعطيك ثلاثة آلاف روبل على الفور إذا أنت مضيت باحثاً عن المناجم. لقد أعطتني أنا ثلاثة آلاف روبل، فإلى هذا المدى يذهب جنونها بالمناجم! هل تعرف السيدة خوخلاكوفا؟

- أعرفها بالنظر، وبالسمعة أيضاً. أهي التي أعطتك الثلاثة آلاف روبل؟ أعطتكها هكذا؟

كذلك سأله بيتر ايلتش وقد بدا في وجهه أنه لم يصدق ما يقوله ميتيا.

- إذا كنت لا تصّدق ما أقول اذهب إليها غداً منذ الفجر، ساعةَ طلوع الشمس حين يرتقي فيبوس قبة السماء مسبِّحاً بحمد الرب ممجداً عظمته بشبابه الخالد. اذهب إليها فاسألها ألم تعطني ثلاثة آلاف روبل، وسوف تعلم.

- لا أتدخل في علاقاتك. وما دمت تؤكد ذلك جازماً فلا بد أن يكون صحيحاً. . . . ولكنك ما إن استلمت المبلغ حتى أخذت تلهو وتقصف وتبدد، بدلاً من أن تذهب إلى سيبيريا!. . . إلى أين تنوي أن تذهب في هذه الساعة؟

- إلى موكرويه.

- إلى موكرويه؟ ليلاً؟

قال ميتيا فجأة:

- كان العالم ملك يميني، فأصبحت لا أملك الآن شيئاً!

- لا تملك شيئاً؟ وهذه الثلاثة آلاف روبل؟

- لا قيمة لها عندي! ألا فليذهب المال إلى الشيطان. . . وإنما أنا أتكلم عن طبع النساء. . .

طبع النساء سريع التصديق

وقلبهنّ كثير التقلب فاسد[12]

أوليس هو الذي قال هذا، وأنا أوافقه في الرأي كل الموافقة.

- لا أفهمك.

- أظن أنك تحسبني ثملاً؟

- لا لست ثملاً، ولكن ربما أسوأ من ذلك.

- روحي هي السكرى يا بيتر ايلتش، ولكن كفى هذا الآن. . .

- ماذا تفعل؟ أتحشو مسدسك؟

- نعم أحشوه.

كان ميتيا قد فتح علبة المسدسين فعلاً، فبعد أن سكب بارودأ في خرطوشة، دسَّ الخرطوشة في المسدس؛ وقبل أن يضع الرصاصة في السبطانة، أمسكها بين أصبعين وأخذ يمعن النظر إليها في ضوء الشمعة.

سأله بيتر ايلتش الذي كان يراقبه بفضول قلق:
- لماذا تنظر إلى الرصاصة؟
- هي نزوة لا أكثر: أتخيّل... لو كنت تنوي أن تُسكن هذه الرصاصة في دماغك، أفما كنت تنظر إليها حين تحشو المسدس؟
- أنظر إليها؟ لماذا؟
- ما دامت ستنفذ في جمجمتي أنا، فإنه ليهمني أن أرى هيئتها... هذه سخافات أقولها على كل حال، سخافات لا أكثر.
ثم أضاف يقول وهو يدخل الرصاصة ويرسّخها بالمشاقة:
- انتهى! ما هذا كله إلا سخافات يا عزيزي بيتر ايلتش، سخافات لا أكثر... ليتك تعلم مدى ما في هذا كله من غباء. اعطني ورقة بسرعة!
- هذه ورقة.
- بل أريد ورقاً نظيفاً أكتب عليه. هذا يصلح على كل حال.
وتناول ميتيا ريشةً من على المنضدة، فكتب على الورقة سطرين بسرعة، وطوى الورقة أربعة أرباع، ودسّها في أحد جيوب صديريته. وبعد ذلك أعاد المسدسين إلى العلبة، وأقفل العلبة بالمفتاح واحتفظ بها في يده. ثم ألقى نظرة على بيتر ايلتش، وهو يبتسم ابتسامة حالمة. وقال:
- والآن نمضي.
- إلى أين؟ قف! ألعلك تفكر فعلاً في إرسال هذه الرصاصة إلى رأسك؟
كذلك سأله بيتر ايلتش، وقد اشتد قلقه.
- سخافات! ألا فاعلم أنني أريد أن أحيا، لأنني لأحبّ الحياة! إنني أحبّ فيبوس وضفائره الذهبية وحرارته أكثر من أن يخطر ببالي

الانتحار. . . قل لي يا عزيزي بيتر ايلتش: هل تستطيع أنت أن تمَّحي؟

- أن أمَّحى؟ ماذا تعني؟

- نعم أن تمَّحي، أن تزول من الدرب. أن تخلي الطريق للإنسان الذي تحبه والإنسان الذي تكرهه؟ وأن تحب حتى ذلك الذي كان عليك أن تكرهه. . . أن تبتعد عن طريقهما قائلاً: «هيَّا اذهبا، وليحرسكما الله، أما أنا فسوف. . .».

- سوف. . . ماذا؟

- لا شيء! فلنمض. . .

- أظن أنه عليّ أبلغ بعضهم ليمنعوك من السفر. ماذا عساك فاعلاً في موكرويه؟

كذلك قال بيتر ايلتش وهو يتفرس في ميتيا. فأجابه ميتيا:

- في موكرويه امرأة. . . امرأة. . . ها أنت ذا عرفت الآن ما فيه الكفاية يا بيتر ايلتش! حسبك هذا!

- اسمع لي: أنت إنسان متوحش، ولكنك كنت دائماً محبباً إلى قلبي. فأنا الآن شديد القلق عليك. . .

- شكراً يا أخي! تقول إنني متوحش. يا للمتوحشين! ذلك ما كنت أدعيه دائماً: متوحشون، متوحشون. . . آ. . . هذا ميشا قد عاد. كنت قد نسيته.

وصل ميشا لاهثاً يحمل النقود. فذكر أن آل بلوتنيكوف قد «هبوا يتحركون»، فهم يحملون الزجاجات ويهيئون السمك ويجلبون الشاي، وإن كل شيء سيكون قد تم إعداده بعد بضع دقائق. تناول ميتيا ورقة مالية بعشرة روبلات، فمدَّها إلى بيتر ايلتش، ورمى للصبي ورقة أخرى بتلك القيمة نفسها.

صاح بيتر ايلتش:

- إياك! لا أسمح لك بذلك في داري. فإن ذلك سيفسده. أعد هذا المال إلى جيبك. ضعه هنا... لماذا تبدده؟ قد تحتاج إليه في القريب فتعود إليَّ منذ الغد لتستدين عشرة روبلات... لا تدسَّ جميع هذه الأوراق في جيب السروال، وإلا ضاعت منك!

- هيه يا صديقي! ليتنا نذهب إلى موكرويه معاً. ما رأيك؟

- ما ذهابي أنا إلى هناك؟

- اسمع! سنفتح إحدى الزجاجات لنشرب تمجيداً للحياة. إنني في حاجة إلى شرب شيء من الشمبانيا. أود أن أشرب معك خصيصاً. أظن أننا لم نشرب معاً في يوم من الأيام! وأنا أحرص على هذا وأصرّ عليه.

- لك ما تشاء! فلنذهب إذاً إلى الحانة. لقد كنت أنوي أن أذهب إلى هناك.

- ليس في وقتي متسع لأذهب إلى الحانة. سنشرب عند آل بلوتنيكوف، في الحجرة التي وراء الدكان. سألقي عليك «فزورة»، هل توافق؟

- ألقها.

أخرج ميتيا من جيب صديرته الورقة التي كان قد طواها ووضعها فيها، ففض الورقة وأطلع عليها الموظف الشاب. فقرأ هذا الجملة التالية التي كتبها عليها ميتيا بأحرف كبيرة: «إنني أعاقب نفسي مكفّراً عن حياتي كلها، وأقبل هذا العقاب».

قال بيتر ايلتش بعد أن قرأ الورقة:

- أحسب حقاً أن عليَّ أن أبلغ بعض أقاربك! سأقوم بهذا.

- لن يتسَّع وقتك يا عزيزي! هلمَّ نشرب.

يقع متجر آل بلوتنيكوف في ناصية الشارع بعد بيت واحد من دار

بيتر ايلتش. إنه أكبر «بقالة» في المدينة، وهو متجر مزدهر أصحابه من أغنياء التجار؛ وفي هذا المتجر يباع كل شيء، كما في المخازن الكبرى بالعاصمة: خمور من «أقبية الأخوة يليسييف»، فاكهة، سيجار، شاي، سكر، بن، إلخ. وفيه يعمل ثلاثة مستخدمين مقيمين، وغلامان متجولان يحملان السلع إلى منازل الزبائن. لقد أصيب إقليمنا بفقر شديد، وغادره أثرياء المالكين، وبارت التجارة فيه، ولكن مخازن البقالة ظلت مزدهرة، حتى ليمكن القول إنها تزداد ازدهاراً سنةً بعد سنة: إن السلع التي من هذا النوع لا تعدم من يشتريها في كل زمان. كان آل بلوتنيكوف ينتظرون وصول ميتيا إلى مخزنهم نافدي الصبر، لأنهم يتذكرون ما اشتراه منذ بضعة أسابيع من سلع كثيرة، إذ ابتاع، دفعةً واحدة، من الخمور والبضائع ما بلغت قيمته بضع مئات من الروبلات عداً ونقداً (وما كان لهم بطبيعة الحال أن يبيعوه شيئاً بالدين)؛ وهم لم ينسوا أيضاً أنه كان يحمل بيده، كما في هذه المرة، حزمة أوراق مالية ضخمة، وأنه كان يرميها لهم من دون حساب ومن دون أن يساوم ومن دون أن يفكِّر في فائدة تلك السلع الكثيرة التي اشتراها. وقد رُوي بعد ذلك في المدينة كلها أنه حين ذهب إلى موكرويه بصحبة جروشنكا، «قد أنفق في ليلة واحدة وفي النهار الذي أعقب تلك الليلة مبلغ الثلاثة آلاف روبل كله، ثم عاد من ذلك القصف بغير قرش واحد في جيبه، كما ولدته أمه تماماً». فقد استأجر فرقة من الغجر (كانوا يعسكرون أيامئذٍ على مقربة من بلدتنا)، فرتب هؤلاء أمرهم بحيث يسلبونه مئات ومئات من الروبلات، ويشربون أعداداً كبيرة من زجاجات الخمرة الغالية، مستغلين سكره. وقدِ روى الناس أيضاً، في معرض السخر من ميتيا، أنه قدم شمبانيا لفلاحين قذرين، وأنه أشبع بنات الحي فطائر

ستراسبورجية وأنواعاً من الحلوى. وكان الناس يتندرون أيضاً، ولا سيما في الحانة (ولكن ليس بحضور ميتيا، وإلا تعرضوا للمخاطر)، كانوا يتندّرون بتلك الواقعة التي ذكرها هو نفسه على رؤوس الأشهاد، وهي أنه لم يحظ من جروشنكا، من قبيل المكافأة له على تلك الرحلة، إلا «بقبلةٍ على قدمها، ولا شيء غير ذلك».

حين اقترب ميتيا وبيوتر ايلتش من البقالة وجدا على بابها مركبة «ترويكا» مجهزة تماماً، مزينة العدة بأجراس ومفارش وغطاء مريح، وعربةً مزوَّدة بسجادة. وكان الحوذي آندريه ينتظر ميتيا متربعاً على مقعده وكان في الدكان منذ ذلك الحين صندوق خشبي كبير قد ملئ تقريباً بالسلع التي أمر بها ميتيا، وكان أصحاب المتجر لا ينتظرون إلا وصول ميتيا لتسمير الصندوق ووضعه في العربة. دهش بيتر ايلتش، فسأل ميتيا:

- من أين جاءت مركبة الترويكا هذه؟

فأجابه ميتيا:

- لقد التقيت بآندري حين كنت آتياً إليك، فأمرته بأن ينتظرني مع الخيول أمام البقالة. فلقد كان عليَّ أن لا أضيِّع وقتاً. إن تيموثي هو الذي قادني في المرة السابقة، ولكنه سافر في هذا المساء مع ساحرة، من دون أن يحفل بي... هل سنتأخر كثيراً يا آندري؟

أسرع آندريه يجيب:

- لن يسبقونا إلا ساعة واحدة في أكثر تقدير... بل أقل من ذلك!... ساعة قصيرة! لقد قرنت خيول تيموثي بنفسي، وأنا أعرف سرعتها. لأقودنَّك بسرعة غير تلك السرعة يا دمتري فيدوروفتش! أنى لهم أن يقاسوا بنا! لن يصلوا قبلنا إلا بساعة.

كذلك قال أندريه مؤكداً بحرارة. وهو رجل ما يزال شاباً، أحمر

الشعر جان الجلد، يرتدي قميصاً ويحمل قفطانه على ذراعه اليسرى.
- لك مني خمسون روبلاً «بقشيشاً» إذا لم نتأخر أكثر من ساعة!
- اعتمد عليَّ يا دمتري فيدوروفتش. ساعة؟ بل سيكون من حقّهم أن يعتزّوا ويفتخروا إذا هم سبقونا بنصف ساعة.
أخذ ميتيا يتحرّك في المتجر باضطراب وكان يصدر أوامره بشكل غريب غير منتظم، متنقلاً من طلب إلى طلب آخر قبل إنهاء الطلب الأول. فرأى بيتر ايلتش أن من واجبه أن يتدخل محاولاً تخفيف اندفاعه والحدّ من جنونه.
قال ميتيا آمراً:
- أريد أن يكون الثمن أربعمائة روبل على الأقل، تماماً كالمرة السابقة. أربع دستات شمبانيا، لا أريد أن تنقص زجاجة واحدة!
صرخ بيتر ايلتش:
- قف! ما عساك صانعاً بكل هذا العدد من زجاجات الشمبانيا؟ ماذا يحتوي هذا الصندوق الخشبي؟ لا يمكن أن يكون فيه ما يساوي ثمنه أربعمائة روبل.
أسرع المستخدمون يشرحون له، بلهجة متلطفة، أن هذا الصندوق الأول لا يحتوي إلا ست زجاجات من الشمبانيا، وأنه يحتوي كذلك «الأشياء الضرورية جداً» كالمقبلات، والملبس، والحلوى، إلخ... أما «الغلات» الأساسية فستحزم على حدة، ثم ترسل كالمرة السابقة على ترويكا أخرى تصل بعد «دمتري فيدوروفتش بأقل من ساعة».
قال ميتيا ملحاً:
- بعد ساعة واحدة، لا أكثر من ذلك. وستضعون فيها أكبر قدر ممكن من الملبّس والكاراميل. إن البنات هناك يعشقن الكاتو والكاراميل.
قاطعه بيتر ايلتش يقول شبه غاضب:

- أوافق على الكاراميل! ولكن ما عساك صانعاً بأربع دستات من زجاجات الشمبانيا؟ تكفيك دستة واحدة وتزيد!

وأخذ بيتر ايلتش يساوم، وطلب أن يرى الفاتورة، وتحرّك كثيراً، ثم لم يستطع آخر الأمر أن ينقذ إلا مائة روبل، فتقرر أن لا يزيد ثمن البضائع المشتراة على ثلاثمائة روبل.

ثم صاح بيتر ايلتش يقول وقد ثاب إلى رشده:

- شيطان يأخذكم! أنا ما لي ولهذا كله! بدِّد مالك كما تشاء، ما دمت قد كسبته بغير جهد!

فقال له ميتيا وهو يجره إلى الغرفة التي تقع خلف الدكان:

- هدئ روعك يا صاحبي المدبِّر! سيأتوننا الآن بزجاجة ترطب حلقينا! لنسافر معاً يا بيتر ايلتش. لماذا لا تسافر معي؟ أنت شاب شهم، وإنني لأحب أمثالك من الرجال.

جلس ميتيا على مقعد أمام مائدة صغيرة مغطاة بمفرش قذر للغاية. وجلس بيتر ايتلش قبالته، وجيئا بالشمبانيا. واقتُرحت عليهما محارات «من نوع فاخر وصلت مؤخراً»، فقال بيتر ايلتش رافضاً الاقتراح في غضب:

- دعوني من محاراتكم، فإنني لا أحبّ المحار.

وقال ميتيا:

- لا يتسع وقتنا لأكل المحار، ثم إنني لا أشتهي أن آكل محاراً.

ثم التفت يقول لبيوتر ايلتش وقد تحمس على حين فجأة:

- اسمع يا صديقي، إنني كنت أكره كل هذه الفوضى دائماً.

- ومن ذا الذي لا يشمئز منها؟ ثلاث دستات من زجاجات الشمبانيا. . . ولمن؟ لفلاحين؟ ألا إن هذا ليثير غضب أي رجل ويبعث على الغثيان!

- ليس هذا ما أعنيه. فإنما أنا أقصد الفوضى التي تشوّش النظام الأعلى، نظام النفس، ونظام الروح، لقد أعوزني دائماً ذلك النظام... ليس في نفسي انسجام... ولكن انتهى الآن كل شيء، فعلام الندم والأسف؟ فات الأوان! لا بأس!... لم تكن حياتي كلها إلا فوضى طويلة، وقد آن لي أن أدخل عليها شيئاً من النظام. إنني أستعمل استعارات وكنايات رديئة، هه؟

- بل قل إنك تخرّف!...

قال ميتيا:

المجد للخالق في الخلق

المجد للخالق في نفسي(13)

لقد نظمت هذا البيت من الشعر في الماضي، انبجس مني في ذات يوم انبجاس دمعة.. لم يكن هو اليوم الذي جررت فيه النقيب من لحيته!

- لماذا تتكلم عن ذلك النقيب؟

- لماذا؟ لماذا؟ آه... ما كل شيء إلا دخان! كل شيء يتبدد! كل شيء يزول آخر الأمر!

- اسمع! إن مسدسيك يقلقاني...

- ما المسدسات إلا دخان! اشرب، وكفَّ عن قول هذه السخافات! إنني أحبّ الحياة...إنني أسرف في حب الحياة، حتى لأخجل من ذلك. كفى! فلنشرب يا عزيزي، فلنشرب نخب الحياة، نخب الحياة! لماذا أنا معجب بنفسي! إنني حقير، ولكنني راض عن نفسي! ومع ذلك يعذبني شعور بأنني حقير ولكنني راض عن نفسي. إنني أبارك الخليقة، وإنني مستعد لأن أسبّح بحمد الخالق، وأن أتغنّى بعظمته، ولكن.. يجب أولاً سحق حشرة خبيثة حتى لا تسمم

حياة الآخرين. . . هيه يا أخي! فلنشرب نخب الحياة! أي شيء أفضل من الحياة؟ لا شيء أفضل من الحياة، لا شيء! المجد للحياة، والمجد لملكتي، ملكة الملكات!

- لك ما تشاء! فلنشرب نخب الحياة، ولنشرب نخب ملكة قلبك.

وأفرغ كل من الرجلين كأساً. كان ميتيا، المهذار المتحمس يبدو حزيناً، كأن هماً ثقيلاً يجثم على صدره وليس يستطيع طرده.

- ها. . . ها هو ذا ميشا، ها هو ذا غلامك ميشا قد دخل! تعال إلى هنا أيها الصبي الطيب! اشرب كأساً معنا، تمجيداً لفيبوس وضفائره الشقراء، تمجيداً للشمس التي ستطلع غداً. . .

قال بيتر ايلتش محتجاً حانقاً:

- أأنت مجنون؟ أتسقه شمبانيا؟

فقال ميتيا:

- اسمح له بأن يشرب مرةً واحدة! لسوف يسرني هذا.

- آه. . . ما دمت تصرّ

أفرغ ميشا قدحاً، وسلَّم ثم انصرف.

قال ميتيا:

- هكذا سيتذكرني مدة أطول على الأقل. . . إنني أحبّ المرأة، أحبّ المرأة! ما المرأة؟ هي ملكة الأرض. . إنني أحسّ بحزن يا بيتر إيلتش، أحسّ بحزن رهيب هل تتذكر ما قاله هملت: «أشعر بحزن يا هوراسيو، أشعر بحزن شديد. . . واأسفاه! مسكين يوريك ذلك!»[14] لعلني أنا يوريك! إنني في هذه اللحظة بعينها يوريك. وبعد ذلك سأكون الجمجمة.

كان بيتر ايلتش يصغي إليه صامتاً، وصمت ميتيا أيضاً.

ثم اتجه بالكلام فجأة إلى المستخدم يسأله شارد اللّب وقد رأى في الركن كلباً صغيراً جميلاً طويل الشعر متدلّي الأذنين أسود العينين:

– لمن هذا الكلب؟

أجاب المستخدم:

– هو لبربارا ألكسييفنا، صاحبة المتجر. نسيته هنا منذ قليل. سيكون علينا أن نذهب به إليها.

قال ميتيا حالماً:

– رأيت في الماضي كلباً يشبهه كل الشبه... كان ذلك في الكتيبة... ولكن ذلك الكلب كان مكسور الساق... بالمناسبة يا بيتر ايلتش، كنت أريد أن أطرح عليك سؤالاً: هل اتفق لك أن سرقت في حياتك؟

– يا لها من فكرة!

– افهمني! أقصد السرقة الحقيقية... أن تأخذ مالاً من جيب شخص آخر، لا من الدولة، فجميع الناس يسرقون الدولة... هذا شيء معروف، وأنت أيضاً تسرق الدولة، لا شك عندي في ذلك...

– سحقاً لك...

– هل سرقت مع ذلك؟ من جيب، أو من محفظة؟..

– سرقت في طفولتي قطعة نقدية بعشرين كوبيكا من أمي.. كان عمري تسع سنين. أخذت القطعة النقدية من على المائدة، دون يراني أحد، وأخفيتها في قبضة يدي.

– وبعد ذلك؟

– لا شيء. احتفظت بها ثلاثة أيام، ثم شعرت بالخجل والعار، فرددتها معترفاً بالسرقة.

- ثم؟

- جُلدت كما أستحق. ولكن لماذا هذه الأسئلة؟ أتراك سرقت؟

قال ميتيا وهو يغمز غمزة ماكرة:

- سرقت!

- فسأله بيتر ايلتش قلقاً:

- ماذا سرقت؟

- سرقت عشرين كوبيكاً من أبي. كان عمري تسع سنين. ثم رددتها بعد ثلاثة أيام.

قال ميتيا ذلك ثم نهض فجأة.

صرخ الحوذي أندريه يقول من باب المتجر:

- آن أوان السفر يا دمتري فيدوروفتش.

- هل كل شيء جاهز؟ هيَّا بنا!

قال ميتيا ذلك، وأخذ يتحرك هنا وهناك. وأضاف يقول:

- بضعة أسطر أخرى وأتم القصيدة[15]! كأس من الفودكا لأندريه بسرعة! واعطوه أيضاً كأس كونياك!.... أما العلبة (علبة المسدسات)، فضعوها تحت مقعدي. استودعك الله يا بيتر ايلتش، ما ينبغي لك أن تؤاخذني.

- ولكنك ستعود غداً؟

- نعم نعم، سأعود.

قال مستخدم وهو يهرع إلى ميتيا:

- هل تتكرم بتصفية الحساب الآن؟

- آ... نعم... الحساب... طبعاً!

أخرج ميتيا من جيبه حزمة الأوراق المالية، فسلَّ منها ثلاث ورقات من فئة المائة روبل، ورماها على البسطة بإهمال، ثم خرج

مسرعاً من الغرفة، فرافقه جميع مستخدمي المتجر، وشيّعوه متمنين له رحلة سعيدة وهم ينحنون له انحناءً كبيراً. وكان أندريه قد أفرغ كأساً من الكونياك، فها هو ذا يسعل لينظف حلقه، ثم يصعد إلى مكانه من العربة. ولكن بينما كان ميتيا يهم أن يستقر في العربة، انبجست فينيا راكضة لاهثة، فضمت يديها إحداهما إلى الأخرى، وجثت على ركبتيها أمامه، وهتفت تتوسل إليه قائلة:

- سيدي العزيز دمتري فيدوروفتش، ملاكي، لا تصب سيدتي بسوء، لا تنلها بأذى! ألا ما كان أغباني حين قصصت عليك كل شيء! ولا تسئ إليه هو أيضاً، القديم... لأنه عرفها قبلك. وهو ينوي أن يتزوج أجرافينا ألكسندروفنا، لقد جاء من سيبريا لهذا الغرض... سيدي العزيز دمتري فيدوروفتش، لا تحطم حياتهما! لا تسفح دم أخيك الإنسان.

دمدم بيتر ايلتش يخاطب نفسه: «آ... هذا بيت القصيد في الحكاية كلها... ستُحدث مشاجرة هناك. استبان الآن كل شيء. أصبح كل شيء واضحاً»...

ثم هتف يقول بصوت عالٍ:

- دمتري فيدوروفتش! أعد إليَّ هذين المسدسين في الحال إذا كنت رجلاً. هل تسمع يا دمتري؟

فأجابه ميتيا:

- المسدسين؟ لحظة يا عزيزي... سأرميهما أثناء الطريق في غدير. وانهضي أنت يا فينيا. لا تركعي أمامي. إن ميتيا لن يقتل، إن ميتيا، هذا الرجل الغبي، لن يحطم حياة أحد بعد الآن.

ثم صاح يقول بعد أن استقر في المركبة:

- اسمعي يا فينيا؛ لقد أهنتك منذ قليل، فأرجو أن تغفري لي.

اغفري لهذا الشقي البائس... على أنه يستوي أن تغفري وأن لا تغفري... لم يبق لهذا قيمة... هيًا يا آندريه، طر بسرعة.

رفع أندريه سوطه معلناً الانطلاق. فجلجلت الأجراس.

استودعك الله يا بيتر ايلتش، لك مني آخر دمعة!...

قال بيتر ايلتش يخاطب نفسه وهو يتابع بنظره مركبة الترويكا التي أخذت تبتعد: «ليس بسكران، ولكن ما أشد الغباء في أقواله». وقد أراد بيتر ايلتش أن يبقى في المتجر ليراقب شحن الخمور والمؤونات على عربة أخرى، لأنه كان يحسّ أنهم سيغشون ميتيا. ولكه شعر بحنق على نفسه فجأة لاهتمامه بهذه التفاصيل، وبصق من شدة غضبه، واتجه نحو الحانة ليلعب البلياردو قليلاً كما كان ينوي ذلك.

وقال في نفسه أثناء الطريق: «إنه رجل غبي، ولكنه طيب. أما ذلك الضابط، أما صاحب جروشنكا «القديم» ذاك، فقد سبق أن سمعت عنه. هل عاد إذاً... ولكن ما يثير قلقي هو المسدسان... آ... اللعنة... أأنا مربيه؟ فليحل الرجلان نزاعهما... ولن يحدث شيء على كل حال. سيصرخان كثيراً، وسيسكران، وسيقتتلان، ثم يتصالحان. ليسوا جادين، لا هؤلاء ولا أولئك... كلمات جوفاء! «سوف اتنحى عن طريقهما...«إني أعاقب نفسي»... دعنا من هذا! لن يفعل من ذلك شيئاً. لقد ردَّد أقوالاً من هذا النوع مائة مرة في الحانة حين كان ثملاً. وهو في هذه المرة لم يشرب. «نفسي سكرى...»؛ إن جميع أمثاله من القاصفين يحبون العبارات الرنانة الطنانة. أأنا مربيه أخيراً؟ لقد تشاجر على عادته، فدمى وجهه. ولكن من ذا الذي تشاجر معه؟ سأعرف هذا في الحانة حتماً. وذلك المنديل المدمًى؟... لقد تركه على الأرض في غرفتي... ولكن لا قيمة لهذا كله على كل حال!».

وصل بيتر ايلتش إلى الحانة معتكر المزاج جداً، وأخذ يلعب البلياردو فوراً. وأشرق مزاجه أثناء اللعب شيئاً بعد شيء، وشرع في اللعب مرة أخرى، وأخذ يقصّ فجأة على أحد ملاعبيه أن دمتري كارامازوف أصبح يملك مبلغاً كبيراً من المال مرة أخرى، وأنه رأى في يديه بأم عينه ثلاثة آلاف روبل. وأضاف أن ميتيا قد سافر في هذه المرة أيضاً إلى موكرويه ليقصف فيها مع جروشنكا. أصغى السامعون إلى هذه الأنباء بفضول شديد، وسرعان ما أخذوا يتناقشون بحرارة، دون مزاح، ويتكلمون بلهجة فيها جد عجيب. حتى لقد انقطع لعب البلياردو.

- ثلاثة آلاف روبل؟ من أين جاء بها؟

أخذ الحضور يمطرون بيتر ايلتش بوابل من الأسئلة. ولم يصدقوا حكاية مناجم الذهب التي اقترحتها السيدة خوخلاكوفا.

- أليس من الممكن أن يكون قد سرق أباه العجوز؟

- ثلاثة آلاف روبل! هذا أمر يثير الاشتباه!

- لقد تباهى في هذا المكان نفسه بأنه سيقتل العجوز، وسمعه جميع الناس، حتى لقد تحدث في تلك المناسبة نفسها عن ثلاثة آلاف روبل. . .

كان بيتر ايلتش يصغي، وأصبحت أجوبته موجزة مقتضبة على حين فجأة. حتى لكأنه صار يتهرّب من الكلام ولم ينطق بكلمة واحدة عن الدم الذي رآه على وجه ميتيا ويديه، رغم أنه كان ينوي أن يتحدث عن ذلك حين ذهب إلى الحانة. وبدأ لعب البلياردو مرة ثالثة، وانصرف الحديث عن ميتيا. حتى إذا انتهت اللعبة الثالثة، أعلن بيتر ايلتش أنه لا يحب أن يلعب مزيداً من اللعب. ثم وضع عصا البلياردو، وخرج حتى من دون أن يتعشى، خلافاً لما كان

ينتويه. فلما وصل إلى الميدان توقف لحظة، وتساءل مدهوشاً منزعجاً كيف أمكن أن يخطر بباله أن يذهب إلى دار فيدور بافلوفتش ليعرف هل وقع له شيء. «سأوقظ جميع الناس، وأحدث فضيحة، مع أن هذا كله ليس إلا تخيلاً! وما شأني أنا؟ أأنا خادمهم؟».

واتجه إلى منزله معتكر المزاج حانقاً. وفجأة خطرت بباله فينيا. قال لنفسه في حسرة: «اللعنة! إن فينيا هي الشخص الذي كان يجب أن أسأله، ولو فعلتُ لقالت لي كل شيء!». وشعر عندئذٍ برغبة قوية في أن يكلمها، وبلغت عنده هذه الرغبة من القوة أنه انعطف فجأة، وهو في منتصف الطريق إلى داره، فاتجه نحو منزل آل موروزوف الذي تقيم فيه جروشنكا. فلما وصل إلى الباب طرقه، فإذا بالطرقات التي ترجَّعت في صمت الليل ترده فجأة إلى الواقع، وإذا بحنقه يشتد لأنه يقوم بعمل غير لائق. قال في نفسه وهو يشعر بجرج يوشك أن يكون أليماً: «سوف أحدث فضيحة». ولكنه لم ينصرف، بل استأنف طرق الباب، بكل ما أوتي من قوة في هذه المرة. دوَّت طرقات الباب في الشارع كله. فردَّد يقول: «لا ضير! لسوف أظل أطرق الباب إلى أن يفتحوا!»، بينما كان سخطه على نفسه يزداد لدى كل طرقة جديدة. لكنه كان يستأنف الطرق بمزيد من القوة.

– 6 –

ها أنذا!

كان دمتري فيدوروفتش يطير إلى موكرويه بسرعة عظيمة. إن المسافة تزيد قليلاً على عشرين فرسخاً. ومن المكن، بفضل سرعة عدو خيول آندريه، قطع هذه المسافة بساعة وربع ساعة. وأنعشت السرعة فكر ميتيا. كان الهواء عليلاً بارداً، وكانت نجوم كبيرة تتلألأ في سماء بلا سحب. في تلك الليلة، وربما في تلك الساعة، إنما تهالك أليوشا على الأرض، «حالفاً بحرارة ليحبنَّها إلى الأبد». كان ميتيا يشعر بضيق شديد، ولكن نفسه، رغم ثقل الهموم التي تعذبها، كانت لا تنصرف في تلك اللحظة إلا إلى ملكته التي يتعجل لقاءها ليتأملها مرةً أخيرة. حسبي أن أقرر ما يلي: لم يخطر ببال ميتيا أن يناضل للاحتفاظ بهذه المرأة. ربما لن تصدقوا كلامي إذا قلت إن هذا الغيور لم يكن يشعر بأية عاطفة من عواطف الغيرة نحو القادم الجديد، نحو ذلك الغريم الذي لم يكن في حسبانه، نحو هذا «الضابط» الذي ظهر في حياته بتلك المفاجأة. لو حاول أي إنسان آخر أن يحلّ محلّه لأسرع ميتيا يرد بحنق غيور، ولتلطخت يداه بالدم من جديد. أما تجاه هذا الإنسان الذي هو «أول رجل» في حياة جروشنكا فإن ميتيا كان لا يشعر بأية غيرة، ولا بأي عداوة، أثناء ما كانت مركبة الترويكا تقله إلى موكرويه. ولم يكن قد

رأى ذلك الرجل بعد. «الأمر واضح. إنهما على حق. هو أول حب في حياتهما، هو الرجل الذي لم تستطع أن تنساه يوماً خلال خمس سنين. معنى هذا أنها لم تنقطع عن حبه طوال تلك المدة. أما أنا، فماذا جئت أعمل في حياتها؟ ما أنا عندها؟ ابتعد يا ميتيا! تنحَّ عن طريقهما! ثم ما قيمة هذا كله اليوم، ما دام مصيري قد تقرر، ما دام كل شيء سينتهي بالنسبة إليَّ، حتى ولو لم يكن هو هناك، حتى ولو لم يجئ ذلك الضابط؟».

بهذه العبارات تقريباً إنما كان يمكن أن يعبِّر ميتيا عن المشاعر التي كانت تجيش في نفسه، لو كان قادراً على التفكير في تلك الآونة. ولكن ميتيا لم يكن يفكر. إن القرار الذي اتخذه؛ اتخذه على حين فجأة، دون أي تفكير، فإذا هو يقبله دفعةً واحدة مع جميع النتائج التي تترتب عليه، بعد ما كشفت له عنه فينيا من أمور. ومع ذلك ما يزال ميتيا يشعر بضيق واختناق واضطراب أليم: إن قراره لم يردَّ السكينة والطمأنينة إلى نفسه. إن أشياء كثيرة تربطه بذلك الماضي الذي كان يعذبه. وبدا له الأمر غريباً.

كان يقول لنفسه في بعض اللحظات: «ما أغرب هذا» كان قد نطق بحكم نهائي على مصيره، كان قد كتب على ورقة قوله: «إنني أعاقب نفسي، وأنا أقبل هذا العقاب»، وإن هذه الورقة موجودة الآن في جيبه، معدَّة لأن تستعمل؛ وإن مسدسه محشو، وهو يعلم حق العلم ما الذي سيفعله في صباح الغد، حين يطلع «فيبوس ذو الضفائر الذهبية» فيدفئ الأرض من جديد بأولى أشعته. ومع ذلك.. لم يكن ميتيا يستطيع أن ينفصل عن ماضيه الذي يحاصره ويعذبه. فكان يشعر بذلك متألماً: لا سبيل إلى النسيان؛ وكان الشعور بهذه الاستحالة يملؤه كمداً ويأساً. ولقد أوشك في لحظة من اللحظات، أثناء هذه

الرحلة، أن يأمر أندريه بالتوقف، وأن يخرج من العربة، ويسلّ مسدسه المحشو ويطلق رصاصة على نفسه ويَفْرَغ من الأمر كله دون أن ينتظر الغد. ولكن هذه النية لم تلبث أن تبددت، كما تنطفئ شرارة طائرة. وكانت مركبة الترويكا «تنهب به الأرض نهباً»، فكلما اقتربت به من غايته، كانت صورة تلك المرأة تنفذ فيه مزيداً من النفاذ بقوة طاغية مستبدة مستأثرة، طاردةً جميع أشباح الرعب التي تملأ قلبه. أوه! ما أشد رغبته في أن يلقي نظرة عليها، ولو من بعيد، عابرةً... «إنها في هذه الساعة معه، وسأراها هي وحبيبها الأول، وسأتأملهما، ذلك هو كل ما أتمناه الآن!» لم يشعر نحو هذه المرأة - التي لعبت في مصيره هذا الدور الكبير - في يوم من الأيام بمثل الحب الذي يشعر به الآن، لم يشعر نحوها في يوم من الأيام بمثل ما يشعر به الآن من عاطفة رقيقة جديدة مفاجئة حتى بالنسبة له، من عاطفة الخضوع والمذلّة التي تدفعه إلى أن يريد نسيان ذاته، والتضحية بنفسه في سبيلها. هتف يقول فجأة وقد استبدَّت به حماسة تشبه أن تكون هذيان:

سأتنحّى من طريقها سأختفي.

العربة تعدو منذ قرابة ساعة. ميتيا صامت. وآندري، وهو فلاح مهذار في العادة، لا يتكلم أيضاً، كأنه يخاف خوفاً غامضاً من أن يقطع الصمت. فهو لا يزيد على أن يحرِّض بصوته أحصنته الكمت النحاف السريعي العدو. وفجأة هتف ميتيا يقول بقلق شديد:

- آندري! ماذا لو وجدناهم نائمين؟

في تلك اللحظة إنما خطر بباله هذا الاحتمال الذي لم يكن قد ساوره قبل ذلك.

- جائز جداً أن يكونوا في هذه الساعة راقدين يا دمتري فيدوروفتش.

قطب ميتيا حاجبيه حانقاً متألماً. ماذا؟ أيجيء حاملاً هذه العواطف... ثم يكونون نائمين نوماً هادئاً.. هي أيضاً.. ربما إلى جانبه! وغلى الغضب في قلب ميتيا.

صرخ يقول خارجاً عن طوره:

- أجلد يا آندري! مزيداً من الإسراع، مزيداً من الإسراع أيضاً.

قال أندريه بعد صمت:

- ما أحسب أنهم ناموا. لقد أسرَّ لي تيموثي أن جمعاً غفيراً قد اجتمع هذا المساء في موكرويه...

- في محطة العربات؟

- بل في نزل آل بلاستونوف، وهو محطة عربات أيضاً.

- أعرف. أتقول جمع غفير؟ كيف هذا؟ من هؤلاء؟ من أين جاؤوا!

كذلك هتف ميتيا يسأل الحوذي وقد شدهه هذا النبأ الذي لم يكن يتوقعه.

- إنهم جميعاً من السادة على ما قال تيموثى: اثنان منهم جاءا من المدينة ولا أدري من هما، واثنان من هنا كما قال تيموثى ولم يذكر لي مَنْ هنا، ثم اثنان آخران هما مسافران عابران فيما يظهر، ثم شخص آخر أيضاً إذا صح فهمي. وهم يلعبون بالورق، على ما يدّعي تيموثى.

- بالورق؟

- نعم. وما داموا قد أخذوا يلعبون بالورق، فلا يعقل أن يكونوا قد ناموا. إن الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة الآن.

صرخ ميتيا يقول من جديد بعصبية:

- اسرع، اسرع مزيداً من الإسراع.

استأنف أندريه كلامه بعد صمت فقال:

- قل لي يا سيدي. هناك أمر أحبّ أن أسألك عنه، ولكنني أخشى أن أغضبك.

- ما هو هذا الأمر؟

- إن فيدوسيا ماركوفنا قد ارتمت على قديمك منذ قليل متوسلة إليك أن لا تلحق أذى بمولاتها وبشخص آخر... فيا سيدي، ما دمت أنا أقودك إلى هناك، فإن ضميري... لا تؤاخذني يا سيدي... إذا كنت غبياً في ما أقول...

فأمسكه ميتيا من كتفيه فجأة، وسأله وهو فريسة اضطراب نفسي شديد:

- أنت حوذي، أليس كذلك؟ أنت حوذي؟

- نعم، حوذي...

- فأنت تعلم إذاً ما معنى التنحي عن الطريق، وإخلائه. هل يستطيع حوذي أن يمضي، رافضاً أن يمر الآخرون؟ هل يستطيع أن يقول لغيره: لسوف أدوسك ولا أتخلى لك عن الطريق؟ إنه لا يستطيع ذلك، أليس هذا صحيحاً؟ ليس لحوذي أن يدوس المارَّة... لا يجوز للمرء أن يدوس أحداً، لا يحق لأحد أن يحطم حياة غيره. ومن يدمِّر حياة شخص آخر، فإنه لا يبقى عليه إلا أن يعاقب نفسه بنفسه بعد ذلك... إذا هو دمَّر حياة أحد، فليمض... فلينل العقاب!

تكلم ميتيا جيَّاش النفس، شديد الاندفاع، ورغم أن أندريه دُهش من أقواله، فإنه لم يقطع الحديث قال:

- صحيح جداً ما تقوله يا سيدي دمتري فيدوروفتش. أنت على حق، ما ينبغي لأحد أن يدوس البشر، ولا أن يعذبهم؛ وما ينبغي له

أن يدوس الحيوانات أيضاً ولا أن يعذبها، فالحيوانات مخلوقات كسائر مخلوقات الله، انظر الخيول مثلاً. إن من الناس مَنْ يضربونها بغير طائل، ويستحثونها أكثر مما تحتمل. إن بعض الحوذيين في بلادنا لا يعرفون القصد والاعتدال، وهم بذلك يسيرون كالمسعورين لا أدري إلى أين وكيف. . .

قاطعه ميتيا قائلاً وهو يضحك ضحكته الصغيرة الجافّة:

– لعلهم يفعلون هذا ليصلوا إلى جهنم بسرعة أكبر. قل لي يا آندري: إنك إنسان طيب القلب بسيط النفس (وأمسكه من كتفيه مرة أخرى) هل تعتقد أن دمتري فيدوروفتش كارامازف سيذهب إلى جهنم؟

– لا أدري يا سيدي الطيب، ذلك متوقف عليك أنت. . . اسمع يا سيدي: حين مات ابن الله على الصليب، نزل رأساً إلى جهنم فخلَّص جميع الخاطئين الذين كانوا يقاسون فيها عذاب السعير. وقد تشكى الجحيم عندئذٍ، مخافة أن لا يستقبل خاطئين بعد ذلك. فقال الرب للجحيم: «اطمئني يا جهنم، فإنك ستستقبلين بعد الآن شخصيات كبيرة: ستستقبلين أمراء وقضاة عظاماً وأغنياء، وستمتلئين من جديد كما كنت ممتلئة في الماضي، إلى اليوم الذي أرجع فيه إلى هذا العالم». إن هذا الكلام هو الحقيقة، لأن الرب قاله. . .

– هذه أسطورة شعبية جميلة. أجلد الحصان الأيسر يا آندري!

استأنف أندريه كلامه وهو يفرقع بسوطه فوق الحصان الأيسر؛ قال:

– أولئك هم الناس الذين أعدت لهم جهنم. أما أنت يا سيدي فنحن نعدك طفلاً. . . ذلك هو رأينا نحن. . . مهما تكن عنيفاً غضوباً. . . وإنك لعنيف غضوب ما في ذلك ريب. . . فإن الرب سيغفر لك لأنك إنسان بسيط.

- وأنت يا آندريه، هل تغفر لي؟
- ليس هناك ما أغفره لك يا سيدي، فإنك لم تسئ إليَّ.
- إنني أسألك هل تستطيع أن تغفر لي نيابةً عن الجميع، أن تغفر لي أنت، في هذه اللحظة، على هذا الطريق؟ هل تغفر لي باسم الجميع؟ أجبني يا ابن الشعب!
- سيدي! لقد بدأت أخاف... إنك تتكلم كلاماً غريباً جداً..
كان ميتيا قد أصبح لا يصغي إليه، فهو الآن يصلي صلاة حارة، مدمدماً بنوع من حماسة عنيفة وحشية:
- يا رب! اقبلني رغم حطتي، ولكن لا تحكم عليَّ. اللّهم اسمح لي أن أجيء إليك دون أن أمثل أمام محكمتك... لا تحكم عليَّ، ما دمت قد حكمت على نفسي بنفسي... لا تحكم عليَّ، لأنني أحبك يا رب! اللّهم إنني خبيث دنيء، ولكني أحبك. وحتى في الجحيم، إذا أنت أرسلتني إلى الجحيم، سأظل أحبك، وسأظل أهتف لك بحبي إلى الأبد، ولكن دع لي أن أحبّ حبي الأرضي حتى النهاية... اسمح لي أن أظل أحب، في هذه الحياة الدنيا، خمس ساعات أخرى، إلى أن تطلع شمسك الدافئة... إنني أحبّ ملكة قلبي، ولا أملك أن أمتنع عن حبها اللّهم إنك تراني كلي في هذه اللحظة. سوف أهرع إليها، فأرتمي عند قدميها، وأقول لها: لقد كنت على حق حين نبذتني، وداعاً... انسي ضحيتك، ولا تدعي لذكراي أن تعذبك يوماً!
صاح أندريه يقول وهو يومئ إلى القرية بسوطه الممدود في آخر ذراعه:
- هذه موكرويه!
من خلال ليل شاحب، كانت تُرى رؤيةً ضعيفة، كتلةً مظلمة،

هي كتلة منازل القرية المبعثرة على رقعة واسعة. إن سكان قرية موكرويه يبلغ عددهم ألفي نسمة. ولكن كل شيء كان الآن غارقاً في النوم. وليس يرى الناظر إلا بضعة أنوار تخترق الظلام هنا وهناك. صرخ ميتيا يقول محموماً:

- أسرع، أسرع مزيداً من الإسراع. أنا قادم!

فقال أندريه وهو يشير بسوطه إلى نزل آل بلاستونوف، الذي يقع عند مدخل القرية، والذي كانت نوافذه الست المطلة على الشارع مضاءة إضاءة قوية:

- لم يناموا بعد.

فكرر ميتيا كلام الحوذي فرحاً:

- لم يناموا بعد! اجر بالعربة جرياً سريعاً يا آندريه، حتى ترن جلاجلها فيكون لدخولي ضجة وجلبة. ألا فليعلم الجميع من الواصل! هو أنا... ها أنذا قادم!

كذلك صرخ ميتيا وقد بلغ ذروة الاهتياج.

استحث أندريه أحصنته المكدودة، فوصلت العربة إلى باب النزل مقرقعة قرقعة قوية، وهنالك استوقف الحوذي أحصنته وقد أوشكت أن تموت تعباً. وثب ميتيا من العربة في اللحظة التي كان فيها صاحب النزل ذاهباً ليأوي إلى فراشه فلما سمع قرقعة العربة ظهر على عتبة الباب يريد أن يرى من عسى يصل في مثل هذه الساعة بمثل هذه الجلبة. هتف ميتيا يسأله:

- أهذا أنت يا تريفون بوريستش؟

مال صاحب النزل إلى أمام ليستطيع أن يميز في الظلام ملامح وجه القادم، ثم نزل درجات المدخل راكضاً، وهرع إلى الزائر بحماسة مجاملة، وهو يقول:

- أهذا أنت يا عزيزي دمتري فيدوروفتش؟ ما أعظم فرحي برؤيتك من جديد!

إن تريفون بوريستش هذا فلاح قوي البنية مربوع الجسم متوسط طول القامة ضخم الوجه، تعبّر قسماته في العادة عن قسوة وغيظ، ولا سيما حين يكلّم فلاحي موكرويه، ولكنه يملك قدرة فذة على تغيير سحنته فوراً، وعلى اصطناع هيئة المجاملة الشديدة والملاطفة المفرطة متى آنس منفعة وربحاً. إنه يرتدي ثياباً على الزي الروسي، فقميصه مقلوب الياقة، وصديريته مطرزة. ورغم أنه قد جمع كثيراً من المال، كان لا يحيا إلا لجمع المزيد من الثراء، وتحقيق المزيد من الارتفاع. إن أكثر من نصف فلاحي موكرويه مدينون له، واقعون في شباكه، خاضعون لتسلطه. كان يستأجر الأراضي من ملاكي المنطقة، وكان يشتري بعض هذه الأراضي أيضاً، فيجبر الفلاحين على العمل فيها سداداً لما له عليهم من ديون لا يصلون إلى التخلص منها أبداً. وهو أرمل له أربع بنات كبيرات، إحداهن مات عنها زوجها فهي تعيش عند أبيها مع طفلين صغيرين، ويعاملها أبوها معاملة خادمة؛ والثانية زوجة موظف من الموظفين بلغ مرتبة الناسخ، فالداخل إلى المنزل يستطيع أن يرى على دار إحدى غرفه بين صور عائلية صورة فوتوغرافية صغيرة لهذا الخادم من خدم الدولة بلباسه الرسمي الذي يزدان كتفاه بشارات القصب[16]. أما البنتان الأخريان، فهما في أيام الأعياد الكنسية أو أثناء الزيارات تختالان بأثواب زرقاء أو خضراء مشدودة على الجسم من الخلف، ذات أذيال طويلة على آخر «موضة»، ولكنهما تنهضان في الغداة منذ الفجر كسائر الأيام، لتكنسا الغرف ولتحملا القاذورات وتنقلا الماء، وتنظفا الغرف بعد رحيل النزلاء الذين شغلوها. وكان تريفون بوريستش، رغم المال الكثير

الذي جمعه، يبتهج كثيراً لكل فرصة تمكّنه من استلاب أموال مبذر من المبذرين. وهو يتذكر أنه سلب دمتري فيدوروفتش، منذ أقل من شهر، مائتي روبل إن لم يكن ثلاثمائة روبل، في يوم واحد، حين تلبث هذا في نزله ليقصف مع جروشنكا. لذلك استقبله هذه المرة بفرح فائض، مدركاً من طريقة وصول المركبة إلى الباب على هذا النحو الصاخب، أن الفريسة ستكون سهلة من جديد.

- عزيزي دمتري فيدوروفتش، ها أنت ذا عندنا من جديد!

فقاطعه ميتيا يسأله:

- لحظة يا تريفون بوريستش. قل لي الأمر الأساسي أولاً: أهي هنا؟

فسأله صاحب المنزل الذي فهم ما يعنيه ميتيا حق الفهم وكان يحدق إليه بنظرة نافذة:

- أجرافين ألكسندروفنا؟ هي هنا...!

- مع من؟ مع من؟

- مع نزلاء عابرين... موظف لا شك أنه من أصل بولندي.. يظهر هذا من لهجته... إنه هو الذي أرسل خيلاً لتجيء بها إلى هنا... وشخص آخر هو صاحب البولندي، أو رفيق رحلته فحسب، لا أدري.. وهما كلاهما يرتديان ملابس مدنية..

- هل يقصفون؟ هل يملكون مالاً؟

- يقصفون؟ دعك من هذا الكلام! هم صغيرو الشأن..

- صغيرو الشأن؟ والآخرون؟

- هناك سيدان من المدينة... كانا عائدين من تشرنايا، فتوقفا هنا لقضاء الليل. أحدهما شاب هو قريب السيد ميوسوف فيما يبدو، ولكنني نسيت اسمه... أما الثاني فأحسب أنك تعرفه أيضاً: إنه

الملاّك ماكسيموف الذي ذهب يحج إلى ديرنا فيما يدّعي، وهو الآن يرافق ذلك الفتى قريب السيد ميوسوف في الطريق..

- أهذا كل شيء؟

- نعم، ليس هناك أحد عدا هؤلاء.

- اسكت يا تريفون بوريستش. شيء واحد يهمني: ما حالها وماذا تفعل هي الآن؟

- وصلت منذ وقت غير طويل، وهي الآن معهم.

- أهي مرحة؟ أهي تضحك؟

- لا... إنها لا تضحك كثيراً كما لاحظت. حتى لقد بدا لي أنها حزينة. وكانت تمشط شعر الشاب.

- شعر الضابط، ذلك البولندي؟

- دعك من هذا الكلام! ليس البولندي شاباً ولا هو ضابط. أنا لم أقصد البولندي، بل الشاب... قريب ميوسوف ما لي نسيت اسمه.

- لعل اسمه كالجانوف؟

- تماماً، كالجانوف.

- طيب، سوف أرى. قلت إنهم يلعبون بالورق أليس كذلك؟

- كفوا عن اللعب. لقد تناولوا الشاي، وأمر الموظف بخمور.

- لحظة يا تريفون بوريستش! سأحكم على الموقف بنفسي. أجبني الآن عن الشيء الأساسي: هل في القرية غجر؟

- لم يبق غجر يا دمتري فيدوروفتش! لقد طردتهم السلطات. غير أن عندنا في مقابل ذلك يهوداً يعزفون على الرباب والكمان. هم الآن في روجدستنفسكايا، ولكن يمكن استدعاؤهم فيجئيون حتماً.

- استدعهم حالاً ويجب كذلك إيقاظ البنات، كما في المرة

السابقة، ولا سيما ماريا تلك، ثم ستيبانيدا وايرينا. سأدفع للجوقة مائتي روبل.

- بهذا المبلغ أوقظ لك أهل القرية بكاملها، ولو كانوا نائمين كالأموات. ولكن هل يستحق هؤلاء الفلاحون وهاته البنات أن يُدفع لهم مبلغ ضخم كهذا المبلغ؟ هؤلاء الأوغاد لا يستحقون هذه الملاطفات! لم يخلق فلاحونا لتدخين السيجار وقد قدمت لهم سيجاراً. هؤلاء أناس نتنون. أما البنات فهن جميعاً قذرات وسخات. إني لأوثر أن أرسل إليك بناتي، ولو بالمجان، على أن أدعك تبعثر هذا المال كله. إن بناتي نائمات الآن، ولكني سأوقظهن، سأوقظهن ركلاً بقدمي إذا اقتضى الأمر، وسأجبرهن على أن يغنين لك. لا أستطيع أن أتصور كيف قدمت شمبانيا لأولئك الفلاحين! ذلك أمر يبعث على الشفقة!

عبثاً كان تريفون بوريستش يشفق الآن على ميتيا، إذ إنه هو نفسه أخفى عنه نصف دستة زجاجات شمبانيا آنذاك وحين وجد تحت المائدة ورقة بمائة روبل رفعها وشد عليها قبضته. وهكذا بقيت في قبضته.

- تريفون بوريستش! ألا تتذكر أنني أنفقت هنا أكثر من ألف روبل في المرة الماضية؟

- كيف لا أتذكر؟ بل لقد أنفقت هنا ثلاثة آلاف روبل يا ضيفي العزيز.

- إذاً فاعلم أنني أملك الآن مثل ذلك المبلغ نفسه. انظر!

قال ميتيا ذلك وأخرج حزمة الأوراق المالية وأدناها من أنف صاحب المنزل. ثم أضاف قوله:

- اسمع الآن وحاول أن تفهم: بعد ساعة سيصل خمر ومقبلات

وفطائر وسكاكر. فاحمل هذا كله فوراً إلى فوق. أما ذلك الصندوق الخشبي الموجود تحت مقعد أندريه فيجب أن تنقله إلى هناك أيضاً، فتفتحه وتقدم الشمبانيا حالاً. ولكن لا تنس الأمر الأساسي هو البنات، البنات! وأريد حتماً أن تجيء ماريا تلك!...

واتجه ميتيا إلى العربة فأخرج من تحت مقعده علبة المسدسين.

- سأدفع لك دينك عليَّ يا آندريه، إليك خمسة عشر روبلاً، أجرَ العربة، وإليك خمسين أخرى «بقشيشاً»... مكافأة لك على إخلاصك، وتقديراً لاستعدادك... تذكر البارين كارامازوف.

قال أندريه بلهجة مترددة:

- لا أجرؤ يا بارين[17]... إنني أقبل خمسة روبلات مكافأة، لا أكثر من ذلك. مستحيل... هذا تريفن بوريستش شاهد عليَّ. اغفر لي حماقتي...

سأله ميتيا وهو يشقله بنظره:

- ممَّ تخاف!

ثم صرخ يقول متذمراً وهو يلقي إليه خمسة روبلات:

- أنت وشأنك! اذهب إلى الشيطان! والآن يا تريفون بوريستش خذني برفق وهدوء إلى موضع أستطيع منه أولاً أن أتفحصهم جميعاً على مهل دون أن يروني. أين هم الآن؟ أظن أنهم في الغرفة الزرقاء، أليس كذلك؟

ألقى تريفون برويستش على ميتيا نظرة قلقة، ولكنه أطاعه صاغراً فقاده في حذر خلال دهليز، ودخل غرفة كبيرة تتاخم الغرفة التي كان فيها النزلاء، فأبعد الشمعة التي كانت تضيء تلك الغرفة؛ ثم أدخل ميتيا إلى الغرفة المظلمة بغير ضجة، وتركه في ركن معتم جداً يسهل عليه منه أن يتفحص المتحادثين دون أن يُرى. غير أن ميتيا لم

يمكث مدة طويلة ليتأملهم: فما إن رآها حتى أخذ قلبه يخفق خفقاناً شديداً يكاد ينفجر منه صدره، واضطرب بصره فلا يكاد يرى. كانت جالسة في جانب على مقعد قرب المائدة، وكان الشاب كالجانوف يجلس قريباً منها على الكنبة، وهو فتى حسن الهيئة وسيم الطلعة. كانت جروشنكا ممسكةً يده وكأنها تضحك، بينما كان هو ممتعض الوجه لا ينظر إليها ويناقش ماكسيموف، وكان ماكسيموف هذا يجلس إلى الطرف الآخر من المائدة قبالة جروشنكا ويضحك ضحكاً عالياً أما هو فقد كان جالساً على الكنبة نصف مضطجع، وكان يدخِّن غليوناً، وعلى كرسي جنب الكنبة قرب الجدار، لاحظ ميتيا رجلاً آخر لا يعرفه. إن الشخص المسترخي على الكنبة، يبدو رجلاً بدين الجسم عريض الوجه، قصير القامة في أغلب الظن بدا لميتيا أنه غاضب من أمر ما، أما الثاني فهو طويل جداً. على أن ميتيا لم يتسع وقته لأن يرى أكثر من ذلك. لقد انقطعت أنفاسه، ولم يستطع أن يمكث زمناً أطول، فوضع العلبة على المنضدة ودخل الغرفة الزرقاء التي كان يجلس فيها المتحادثون وهو يشعر ببرودة في ظهره. رأته جروشنكا أول من رآه، فصاحت مذعورة:

- آي . . .

– 7 –

الصديق القديم الذي لا يمكن جحوده

تقدم ميتيا من المائدة بخطى كبيرة سريعة وبدأ كلامه بصوت قوي جداً، بصوت يكاد يكون صراخاً، ولكنه يتلعثم عند كل كلمة:

– أيها السادة... أنا... لا... لا شيء... لا تخافوا، لن أفعل شيئاً... (ثم قال ملتفتاً نحو جروشنكا التي مالت على كالجانوف وتشبثت بذراعه... لا شيء... أنا... أنا هنا عابر كذلك... سأمكث حتى الصباح فقط... يا سادتي، هل تأذنون لمسافر ضلّ طريقه في هذا المكان... أن يجالسكم، حتى الصباح فحسب، ولآخر مرة... في هذه الغرفة نفسها؟

وجّه ميتيا هذا السؤال إلى الرجل القصير السمين الذي كان يدخّن على الكنبة. فما كان من هذا إلا أن أقصى الغليون عن شفتيه بوقار، وأجاب بصوت قاس:

– أيها البان[18]، هذا اجتماع خاص، وفي النزل حجرات أخرى.

فتدخل كالجانوف فجأة يقول:

– أهذا أنت يا دمتري فيدوروفتش؟ فلماذا هذه الكلفة كلها؟ اجلس هنا... أهلاً بك!

فأجابه ميتيا مسرعاً فرحاً:

- يومك سعيد أيها الصديق العزيز، أيها الصديق الذي لا نظير له. لقد شعرت نحوك دائماً بكثير من الاحترام.

ومدَّ إليه يده من فوق المائدة.

قال كالجانوف ضاحكاً:

- أوه! يا لها من قبضة قوية! لقد أوشك أن يحطِّم أصابعي.

فقالت جروشنكا مرحةً وهي تبتسم وجلة:

- هذه طريقته في المصافحة دائماً...

لقد أدركت جروشنكا من النظر في هيئته أنه لن يعمد إلى شيء من العنف. وكانت تتفحصه باستطلاع قوي تداخله بقية من قلق. إن شيئاً ما في تعبير وجه ميتيا قد خطف بصرها وأسر انتباهها، لا سيما وأن دخوله على هذا النحو وكلامه على هذا الشكل قد بدا لها غريباً.

وانبرى الملاَّك ماكسيموف بدوره، فقال بصوته المتعاذب:

- مرحباً! يا ديمتري فيدوروفتش!

فاندفع ميتيا نحوه قائلاً:

- أهذا أنت؟ ما أسعدني برؤيتك! أيها السادة! أيها السادة! أنا... (وقد توجه بكلامه من جديد إلى السيد الذي يدخن الغليون، وكان واضحاً أنه يعده أهم شخص في هذا الجمع)... أنا قد أسرعت إلى هنا، لأقضي ليلتي الأخيرة، لأقضي ساعاتي الأخيرة في هذه الحجرة، في هذه الغرفة نفسها.. التي أتيح لي فيها، أنا أيضاً، أن أعبد ملكتي! (ثم هتف يقول في بحماسة) اغفر لي يا باني. لقد أسرعت إلى هنا وحلفت اليمين... أوه! لا تخش شيئاً، لأن هذه الليلة هي ليلتي الأخيرة! فلنشرب أيها السيد، فلنشرب نخب صداقتنا! سوف يجيئوننا بخمر. ولقد حملت معي هذا (قال ذلك

وهو يخرج من جيبه كدسة الأوراق المالية، لا يدري أحد لماذا)... اسمح لي أيها السيد... إنني أريد موسيقى، أريد صخباً، أريد حركة، تماماً كالمرة الماضية. إن دودة الأرض، إن دودة الأرض التي لا نفع لها ولا فائدة منه ستكف قريباً عن الزحف على الأرض... لسوف تختفي وتزول... أريد أن أستحضر في ليلتي الأخيرة هذه ذكرى أجمل يوم من أيام حياتي!...

كان ميتيا يختنق اختناقاً. أراد أن يقول أشياء أخرى كثيرة، ولكنه لم يستطع أن يفصح عن ذات نفسه إلا بصيحات غريبة عجيبة. لبث البولندي جامداً لا يتحرك، منقّلاً بصره بين ميتيا وكدسة الأوراق وجروشنكا، وقد ظهرت عليه حيرة شديدة وبلبلة كبيرة. قال:

- إذا وافقت ملكتي...

قالت جروشنكا مقاطعة على حين فجأة:

- ما أسخفكما كليكما بهذه الطريقة في الكلام! أأنا ملكة؟ إنكما لتضحكاني! اجلس هنا يا ميتيا. ماذا كنت تعني حين قلت إن هذه الليلة هي آخر لياليك؟ لا تروِّعني، أرجوك. لن تروِّعني، أليس كذلك؟ إذا كففت عن تخويفي فسوف أكون سعيدة بمجيئك...

هتف ميتيا يقول رافعاً ذراعيه في الهواء:

- أنا؟ أنا أروِّعك؟ أوه... اعبري... اعبري... لن أكون عقبةً في طريقكما...

وما إن قال ذلك حتى ارتمى فجأة على كرسي وأجهش يبكي، محوِّلاً رأسه نحو الجدار، شاداً بيديه ظهر الكرسي كأنه يعانقه. ذلك ما فعله ميتيا على نحو لم يكن يتوقعه أحد، ولا كان يتوقعه هو نفسه.

سألته جروشنكا بلهجة العتب:

- ما هذا؟ ما هذا؟ ماذا تفعل؟ ذلك هو سلوكه حين يأتي إليَّ. يأخذ يقول على حين فجأة، حتى لقد انفجر ناشجاً منتحباً في ذات مرة... وها هو ذا يعيد الآن الكرة. ألا تستحي؟ لماذا البكاء؟

ثم أضافت تقول بلهجة ملغزة، وهي تشدد كلماتها بشيء من الحنق:

- لو كان هنالك ما يدعوك إلى البكاء على الأقل...

قال ميتيا:

- أنا... أنا لا أبكي.. هيه! يومكم سعيد جميعاً!

واستدار فجأة على كرسيه وانفجر ضاحكاً. ليست ضحكته الآن تلك الضحكة الجافة المعهودة فيه، ولكنها ضحكة تشبه أن تكون صامتة، ضحكة عصبية، ممتدة، مشدودة، متوترة، كانت تهز جسمه كله.

قالت جروشنكا ملحة:

- تعود ثانية... هلَّا كنت أكثر مرحاً، أكثر مرحاً! إنني سعيدة جداً بمجيئك يا ميتيا، سعيدة جداً جداً، هل تسمعني؟

ثم قالت بلهجة آمرة وهي تتجه بكلامها إلى جميع الحضور في ظاهر الأمر، وإن كان كلامها منصرفاً إلى الشخص المضطجع على الكنبة في الواقع:

- أريد أن يبقى معنا! أريد ذلك، أريد ذلك! فإذا كان عليه أن ينصرف، انصرفت أنا أيضاً.

أضافت جروشنكا هذه العبارة الأخيرة وقدحت عيناها شرراً. قال «البان» وهو يلثم يد جروشنكا بلطف ورقة:

- رغبات ملكتي هي عندي أوامر.

ثم التفت إلى ميتيا متحبباً متودداً وقال:

- تفضل فاجلس معنا يا سيدي!

وهمَّ ميتيا أن يثب عن مكانه ليلقي خطاباً جديداً كما ظهر ذلك في هيئته، ولكنه لم يلبث أن عَدَلَ عن هذا، اكتفى بأن قال:

- لنشرب، باني!

وضحك الجميع.

هتفت جروشنكا تقول بعصبية:

- يا رب السماء! تصورت أنه سيلقي علينا خطاباً آخر... ثم أضافت تخاطب ميتيا بلهجة الاستبداد:

- اسمع يا ميتيا، كفَّ عن الوثوب عن كرسيك، والزم مكانك هادئاً. أما الشمبانيا فقد أحسنت إذ جئت بها. سيحلو لي أن أشرب شمبانيا، لأنني أكره الخمور الأخرى. وإنني ليسرني خاصةً أنك قد خطر ببالك أن تأتي، فلقد كنا هنا في ضجر رهيب خانق... أرى أنك تنوي أن تقصف وأن تبدد من جديد؟... خبئ أوراقك المالية هذه في جيبك. من أين جئت بكل هذا المال؟

وها هو ذا ميتيا الذي كان لا يزال يشد بين أصابعه الأوراق المالية التي تجعدت والتي كان حجمها الكبير قد خطف أبصار الحضور ولا سيما «البانين» البولنديين، ها هو ذا ميتيا يسرع فيدس الكدسة في جيبه وقد اضطرب واحمر وجهه. وظهر عندئذٍ صاحب النزل حاملاً على صينية زجاجة شمبانيا مفتوحة وأقداحاً. فأمسك ميتيا الزجاجة، ولكنه من فرط ارتباكه كان يبدو أنه أصبح لا يعرف ماذا يصنع بها، فهبَّ كالجانوف إلى نجدته، فتناول الزجاجة بيديه وملأ الأقداح.

قال ميتيا يأمر صاحب النزل:

- هات زجاجةً أخرى، هات زجاجةً أخرى!

ونسي أن يقرع كأسه بكأس «البان» بعد أن دعاه إلى شرب الكأس

نخبَ الصداقة، فها هو ذا يفرغ كأسه في جوفه دون أن ينتظر أن يرفع الآخرون كؤوسهم. وسرعان ما تغير تعبير وجهه. إن الهيئة التراجيدية الفخمة التي كانت له عند دخوله قد استحالت الآن هيئة تشبه أن تكون هيئة طفل. بدا عليه الإذعان والتضاؤل. فهو ينظر إلى الحضور بفرح خجول تتخلّله في كل لحظة ضحكات صغيرة عصبية تذكِّر بالكلب الصغير المذنب الذي يحسّ بسعادة وامتنان حين يرى أصحابه قد غفروا له وأخذوا يلاعبونه من جديد. لكأنه نسي كل شيء عن الماضي، فهو يتفحص المتحادثين واحداً بعد واحد، بنوع من الإعجاب، ويبتسم ابتساماً بريئاً ساذجاً. أما جروشنكا فكان يتفرس فيها بغير انقطاع ضاحكاً، حتى لقد قرَّب كرسيَّه من مقعدها. وشيئاً فشيئاً أخذ يلاحظ الرجلين البولنديين أيضاً، رغم أنه لم يدرك بعد وزنهما، فأما البان الأول فقد أدهشه بمظهره الرزين الرصين، ولهجته البولندية، وغليونه خاصة. قال ميتيا لنفسه: «هل من ضير في أن يدخّن وأن يحب الغليون!». ولم يصدمه في أول الأمر ما لاحظه في وجه هذا السيد الذي يقارب عمره الأربعين، من غضون وأخاديد، ولا ضايقه أنفه الصغير الذي يمتد تحته شاربان رقيقان نحيلان مشمَّعان يضفيان على وجهه لا أدري أي نوع من الاستخفاف والوقاحة؛ لا ولا أزعجته الباروكة البشعة المصنوعة في سيبيريا والممشوطة مشطاً غبياً من خلف إلى أمام على الصدغين. قال ميتيا لنفسه وهو فيما هو فيه من غبطة وهناءة: «باروكة؟ لِمَ لا؟». وأما البولندي الآخر الذي يجلس قرب الجدار ويبدو أصغر سناً من «البان» ذي الغليون، فقد كان ينظر إلى الجمع بوقاحة مستفِزَّة، ويتابع حديثهم محتفظاً لنفسه بصمت فيه ازدراء واحتقار. إن الشيء الوحيد الذي خطف بصرَ ميتيا فيه إنما هو فرط طوله الذي يؤلف مع

قصر رفيقه ابن وطنه تناقضاً واضحاً وتضاداً بارزاً قال ميتيا لنفسه: «لو نهض لكان طوله قريباً من مترين!» وقد اعتقد ميتيا أيضاً أن «البان» الطويل لا بد أن يكون مرتبطاً بصاحب الغليون ارتباط حارس بسيده، فالقصير هو الذي يأمر العملاق في أغلب الظن. وبدا ذلك كله لميتيا طبيعياً سعيداً كل السعادة. لم يبق في الكلب الصغير أثر من خصومة أو تنافس. ولم يكن قد أدرك بعدُ المعنى الحقيقي لموقف جروشنكا، واللّهجة الملغزة التي كانت تقول بها بعض عباراتها. فكل ما عرفه متأثراً في قرارة قلبه أشد التأثر، هو أنها لطيفة معه وأنها «عفت» عنه وأنها أذنت له أن يجلس إلى جانبها. وقد أصبح لا يملك نفسه إعجاباً بها وهي تحسو بضع جرعات من الشمبانيا. ولكن الصمت الذي كان يخيِّم على الجمع لم يلبث أن لفت انتباهه فجأة، فأجال على الحضور نظرة سائلة، فكأن عينيه تقولان: «ما بالنا لا نفعل شيئاً؟ ما الذي يمنعنا عن أن نتحدّث ونلهو ونتسلّى أيها السادة؟».

قال كالجانوف في تلك اللحظة، وكأنه قد حزر ما جال في خاطره، قال مشيراً إلى ماكسيموف:

- انظر إلى هذا! إنه لا ينى يكذب، وقد أضحكنا كثيراً.

فحدق ميتيا إلى الرجلين واحداً بعد آخر. وسأل وهو يضحك ضحكته الصغيرة الجافة، كأن ذلك قد أبهجه كثيراً:

- يكذب؟ هأ هأ...

- نعم، تصوّر أنه يدّعي أن جميع ضباطنا في سلاح الفرسان قد تزوجوا نساءً بولنديات بين عامي 1820 و1830؛ هذا سخف، أليس كذلك؟

قال ميتيا بالغاً أوجَ السرور:

- بولنديات؟

كان كالجانوف يدرك حق الإدراك نوع العلاقات القائمة بين ميتيا وجروشنكا، وكان يحزر أيضاً دور «السيد» البولندي، ولكن لم يكن يبدو عليه أنه مهتم بذلك كثيراً، لانشغاله بالجدال مع ماكسيموف وحده دون ما عداه. لقد قادته هو وماكسيموف المصادفة إلى هذا النزل الذي التقى فيه بالرجلين البولنديين اللذين لا يعرفهما حتى الآن. أما جروشنكا فقد سبق أن رآها بل لقد ذهب إلى بيتها في ذات يوم مع أحد أصدقائه، ولم تعجبه حينذاك؛ ولكنها تنظر إليه هنا بعينين تفيضان رقة وحناناً. وقد ظل لا يبالي بها في ظاهر الأمر رغم أنها قد أخذت تلاطفه متلامسة قبل وصول ميتيا. إنه فتى في العشرين من عمره على أكثر تقدير، شديد الأناقة، جميل الوجه، شاحب اللون، له شعر أشقر رائع، وعينان زرقاوان أخاذتان تعبران عن ذكاء، وتعبران في بعض اللحظات عن عمق، فلا يتفق ذلك مع سنّه الغضة، لا سيما وأن مظهره وحتى أقواله تُشعر في بعض الأحيان بأنه طفل. على أن هذا لم يكن يضايقه قط، رغم شعوره القوي به. كان يبدو على وجه العموم إنساناً متفرداً، وربما بدا في بعض الأحوال صاحب نزوات، ولكن ذلك لا يخرجه أبداً عن لطفه وعذوبته. وكان تعبير وجهه يتجمد في بعض الأحيان فيكتسي شيئاً يشبه العناد: فهو عندئذٍ ينظر إلى محدثه ويصغي إليه، ولكنه يكون غارقاً في أفكاره هو، يتابعها في إصرار لا يحيد عنه. وهو تارة رخو متوانٍ، وهو تارة أخرى حاد مندفع إلى أقصى الحدود، يضطرب لأيسر الأمور ويهتاج لأتفه الأسباب.

تابع كالجانوف كلامه قائلاً وهو يجر كلماته جراً كسولاً يظل طبيعياً لا اختيال فيه ولا غطرسة:

- تصوّر أنني أطوّف هذا الرجل معي منذ أربعة أيام، منذ اللحظة التي دفعه فيها أخوك إلى خارج العربة فسقط، كما تتذكر ذلك حتماً. لقد اهتممت بأمره عندئذٍ، وأخذته معي إلى الريف. ولكنه لا ينقطع عن الكذب. إنه يكذب بلا توقف، حتى أخذ كذبه يضايقني ويزعجني. وإني أنوي أن أعيده إلى داره. . .

قال البولندي ذو الغليون مخاطباً ماكسيموف:

- إن هذا الرجل لم يعرف في حياته نساءً بولنديات، وهو يروي أشياء كاذبة.

كان البولندي ذو الغليون يجيد اللغة الروسية إجادة تامة، وكان على كل حال يجيدها أكثر مما يتراءى لمن يسمعه. ولكنه يصرّ على أن ينطق بها نطقاً رديئاً، فهو يشوّه الألفاظ ويدسّ في جُمله كلمات بولنديّة.

أجاب ماكسيموف يقول بضحكة ساخرة:

- ولكنني تزوجت أنا نفسي امرأة بولندية.

فسرعان ما تدخل كالجانوف قائلاً:

- ليست هذه هي المسألة، هل خدمت في سلاح الفرسان؟ ذلك أنك عن سلاح الفرسان إنما تتكلم! هل لك هيئة ضابط من سلاح الفرسان؟

هتف ميتيا يقول مرحاً، وكان يصغي إلى الحديث بنهم وشراهة:

- هذا هو الأمر! هل له هيئة ضابط من سلاح الفرسان؟ فارس جميل. . .

وكانت عينا ميتيا السائلتان تتنقلان بين المتحادثين واحداً بعد آخر، كأنه ينتظر منهم أنْ يكشفوا عن حقائق مدهشة لا يدري إلا الله ما هي!

قال ماكسيموف وهو يلتفت إلى ميتيا:

- لا... لقد أسأت فهمي. فإنما أنا أقصد أولئك الفتيات البولنديات... وهنَّ فتانات في الواقع ولكنّهن يفقدن صوابهنّ متى رقصن رقصة مازوركا مع أحد فرساننا الرمّاحين... يكفي أن ترقص إحداهن مع الفارس رقصة مازوركا، حتى تثب بعد ذلك فوراً على ركبتيه، كقطة صغيرة بيضاء... ويكون البان أبوها والباني أمها حاضرين، فلا يجدان في ذلك بأساً ولا يحتجّان... بل هما يأذنان ويستحسنان ويشجعان... وفي الغد يمضي الفارس يطلب يد الفتاة... يمضي يخطب الحسناء... هأ هأ...

كذلك ختم ماكسيموف كلامه ضاحكاً.

- بان وغد!

هكذا جمجم يقول البولندي الطويل، الجالس على كرسي قرب الحائط، وأنزل إحدى ساقيه المتصالبتين عن الأخرى، ليصالبهما في الاتجاه المعاكس من جديد. لاحظ ميتيا عندئذٍ جزمته الضخمة المشمعة التي كان نعلها السميك وسخاً جداً. يجب أن نذكر على كل حال أن الرجلين البولنديين كان مظهرهما مهملاً، ولم تكن ثيابهما نظيفة نظافة لا مأخذ عليها.

تدخلت جروشنكا تقول بلهجة حانقة:

- لماذا يكون وغداً؟ أنا لا أحبّ الإهانات!

فقال البولندي ذو الغليون وهو يلتفت نحو جروشنكا:

- باني أجريبينا! لا بد أن هذا البان قد رأى بنات وضيعات لا سيدات من الطبقة النبيلة!

فأكَّد الرجل العملاق على كلام صاحبه قائلاً:

- تستطيعين أن تكوني من ذلك على يقين.

قالت جروشنكا متجهمة الأسارير:

- كفى! دعوه يتكلم! بماذا أساء إليكم؟ إن المرء ليتسلى مع أمثاله على الأقل!

فأجاب البان البولندي ذو الباروكة، يقول بوقار:

- لست أمنعه من الكلام يا سيدتي.

وألقى نظرة طويلة على جروشنكا، ثم صمت وتنشق نفساً من غليونه برصانة ورزانة.

قال كالجانوف متحمساً وكأن الأمر أمر مناقشة هامة جداً:

- معذرة! أحسب أن «السيد» على حق. ما دام ماكسيموف لم يعش في بولنده فبأي حق يقول هذا الكلام عن تلك البلاد؟ إنك لم تتزوج في بولنده مع ذلك، هه؟

قال ماكسيموف شارحاً:

- لا... وإنما تزوجت في إقليم سمولنسك. إن أحد الفرسان هو الذي جاء إلى ذلك الإقليم بزوجتي... أعني بمن أصبحت زوجتي فيما بعد... جاء بها إلى ذلك الإقليم تصحبها السيدة أمها، وخالة من خالاتها، وقريبة أخرى لها ابن كبير. لقد جاءت هذه السيدات من بولنده، فهنَّ بولنديات حقاً. وقد تنازل لي الفارس عنها. كان هذا الفارس فتىً أخاذاً... كان في نيته أن يتزوجها هو نفسه في أول الأمر، ولكنه تركها أخيراً لأنها كانت عرجاء.

هتف كالجانوف يسأله:

- كيف؟ تزوجت عرجاء؟

- نعم، كانت تعرج. وقد تآمرا كلاهما على خداعي. كنت أنا أظن أنها تتواثب تواثباً جميلاً، وكنت أعزو ذلك إلى فرحتها...

- إلى فرحتها بتزوجك؟

كذلك سأله كالجانوف بصوت رنان طفولي.

- نعم، إلى فرحتها بتزوجي. ولكن اتضح لي أن الأمر لم يكن كذلك البتة. فبعد زواجنا، بل في مساء الحفلة نفسه، اعترفت لي بالحقيقة، واعتذرت اعتذاراً مؤثراً: يظهر أنها قد أرادت أثناء طفولتها أن تقفز فوق غدير، فانكسرت عندئذٍ ساقها! هأهأ!

انطلق كالجانوف عندئذٍ في ضحك كضحك الأطفال تماماً، وكاد ينقلب على الكنبة. وضحكت جروشنكا أيضاً. أما ميتيا فقد شعر أنه في ذروة الغبطة والهناءة والسعادة.

صاح كالجانوف يقول مخاطباً ميتيا:

- هل تدري أنه ذكر الآن الحقيقة؟ إنه لم يكذب في هذه المرة! اعلم أنه تزوج مرتين... وهو عن زوجته الأولى إنما تحدث الآن، أما الثانية فقد هربت... هل تعلم هذا؟ وهي ما تزال حية. أكنت تجهل ذلك؟

قال ميتيا مندهشاً وهو يلتفت بقوة إلى ماسكيموف:

- غير معقول!

فقال ماكسيموف مؤكداً بتواضع:

- بل لقد هربت فعلاً. نعم... حدث لي هذا المكروه! سافرت مع رجل فرنسي. وأسوأ ما في الأمر أنها كانت قد سجلت على اسمها قريتنا والأراضي التي تتبعها. قالت لي: «أنت رجل مثقف، وسوف تستطيع تدبير أمرك وحدك». على هذا النحو إنما تركتني. وقد نبهني أسقف محترم جداً في ذات يوم إلى أن إحدى زوجتيَّ كانت ساقها عرجاء، وأن الثانية كانت ساقها خفيفة... هأ هأ!...

صاح كالجانوف يقول في حماسة:

- هل تسمعون؟ هل تسمعون؟ إذا كذب - وهذا ما يحدث له

أحياناً كثيرة - فهو لا يكذب إلا ليسلينا. ليس في هذا شيء من حطة، ليس فيه شيء من حطة! أليس كذلك؟ إنه يعجبني أحياناً، هل تعلمون؟ هو دنيء جداً، ولكن دناءته طبيعية، أليس كذلك؟ ما رأيكم؟ غيره ينحطون طمعاً في منفعة، أو سعياً إلى ربح، أما هو فيفعل ذلك مجاناً، يفعل ذلك مدفوعاً إليه بطبيعته المنزهة عن الغرض. تصوروا مثلاً أنه يدّعي أن جوجول إنما وصفه هو في كتابه «النفوس الميتة»[19]. لقد تشاجرنا أمس حول هذا الموضوع طوال الطريق. إنكم تذكرون أن كتاب جوجول هذا يحدثنا عن ملاك اسمه ماكسيموف، جلده رجل اسمه نوزدريوف، فحوكم هذا الرجل «بتهمة توجيه إساءة شخصية بالسياط، في حالة سكر، إلى الملاك ماكسيموف». هل تذكرون؟ إن صاحبنا ماكسيموف لا يتورع أن يؤكد الآن أنه هو الذي جلد بالسياط ذلك الجلد الذي يحدثنا عنه كتاب جوجول، فهل هذا ممكن؟ فكروا قليلاً! إن تشتشيكوف قد سافر في بداية العشرينيات، فالتاريخ إذاً غير مطابق أبداً. إنه ليستحيل استحالة مادية أن يكون ماسكيموفُنا نحن قد جُلد منذ زمن بعيد كل ذلك البعد. يستحيل، أليس كذلك؟

لقد تحمس كالجانوف تحمساً صادقاً، رغم أن من الصعب على المرء أن يفهم لماذا يولي هذه المسألة كل هذا الاهتمام، ولماذا يقيم لها كل هذا الوزن! وتحيّز له ميتيا باقتناع تام، ثم صاح يقول وهو يضحك ضحكاً مدوياً:

- ولكن ما دام يعترف بأنه جُلد...

فقاطعه ماكسيموف مصححاً:

- الحق أن ما وقع لي لم يكن هو الجلد تماماً، بل كان شيئاً من هذا القبيل.

- كيف هذا؟ شيء من هذا القبيل؟ إما أنك جُلدت وإما أنك لم تُجلد، ولا وسط بين الأمرين!

سأل البان البولندي ذو الغليون صاحبه البولندي الطويل، باللغة البولندية بهيئة من يشعر بالملل:

- كم الساعة الآن؟

فرفع البولندي الطويل كتفيه. لم يكن مع أحد من الرجلين البولنديين ساعة.

تدخلت جروشنكا تقول بلهجة هجومية:

- هل أضجركم هذا الحديث؟ دعوا الآخرين يتكلمون! لماذا تمنعونهم من أن يتسلوا ويسرّوا عن أنفسهم؟

كان يبدو على جروشنكا أن مزاجها متأهب للمشاجرة، فدُهش ميتيا من هذا ولأول مرة. أجاب السيد البولندي بشيء من العصبية قائلاً باللغة البولندية:

- سيدتي! أنا لم أقل شيئاً، ولا أنوي أن أزعج أحداً.

فهتفت جروشنكا متجهة بالكلام إلى ماكسيموف:

- طيب. حدّثنا الآن. ما لي أراكم تسكتون جميعاً على حين فجأة!

استأنف ماكسيموف كلامه وقد سرّه الاهتمام به، وأخذ يقول مصطنعاً اللطف والدلال:

- ليس هناك ما أقصه! ما هذا كله إلا هراء! ثم إن جوجول قد موّه أكثر الأسماء في هذه القصة، وأبدلها بتسميات رمزية. من ذلك أن نوزدريوف قد كان اسمه الحقيقي نوسوف[20]، كما أن كوفشينيكوف كان اسمه الحقيقي شكفورنيف، والاسمان مختلفان كل الاختلاف. أما فيناردى فكان اسمه فعلاً فيناردي، ولكنه كان روسياً

لا إيطالياً: فيناردي بتروف. وكانت الآنسة فيناردي فتاة أخاذة فتانة... ليتكم رأيتموها! ليتكم رأيتم ساقيها المغمدتين في سروالها الضيق تحت تنورتها القصيرة اللامعة!... وما كان أروع دورانها!... ولكنها لم تدر إلا خلال أربع دقائق، لا خلال أربع ساعات. لقد فتنت ألبابنا جميعاً يومئذٍ...

صاح كالجانوف يسأله:

- ولكن لماذا جلدوك؟ هلاَّ قلت لنا لماذا جلدوك؟ ذلك هو الأمر الذي يعنينا!

أجاب ماكسيموف:

- جلدوني بسبب بيرون.

فسأله ميتيا:

- أي بيرون؟

- الكاتب الفرنسي الشهير بيرون. كنا جماعةً كبيرة في كاباريه وكنا قد شربنا قدراً لا بأس به من الخمر. حدث ذلك في أثناء تلك السهرة نفسها. دعوني، فما لبثت أن كِلْت لهم أبياتاً شعرية لاذعة. قلت لهم: «أهذا أنت... بوالو؟ يا للزي الغريب المضحك!»[21] فأجاب بوالو بأنه ذهب إلى حفلة تنكرية، وكان بوالو يقصد بذلك الحمامات... هاها!... ولكنهم عدوا هذا تعريضاً بهم. وعندئذٍ أسرعت أكيل لهم أبياتاً جديدة معروفة في الأوساط المثقفة، وكانت في الحق كاوية:

أنت سافو وأنا فاوون - ذلك أمر مر

ولكن أكبر مصائبي

إنك تجهلين طريق البحر[22]

فازداد استياؤهم وأخذوا يهينونني إهانات ليست لائقة. فأردت

عندئذٍ، لسوء حظي، أن أصلح ما بدر مني من خراقة؛ ومن أجل أن أسوِّي الأمر قصصت عليهم حكاية عن الشاعر بيرون التي لا يعرفها إلا المثقفون جداً. فذكرت لهم كيف أن هذا الشاعر، حين لم ينتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية، أراد أن ينتقم لنفسه، فنظم بيتين لشاهدة قبره، فقال:

هنا يرقد بيرون، الذي لم يكن شيئاً ذا بال حتى ولا عضواً في الأكاديمية.

فما كان منهم إلا أن هجموا عليَّ فجلدوني.

- عجيب! لماذا؟ لأي سبب؟

- ليعاقبوني على سعة اطلاعي.

وأضاف ماسكيموف يختم كلامه، مصطنعاً هيئة الوداعة والحكمة، قائلاً:

- ما أكثر الأسباب التي يُجلد من أجلها إنسان!

قاطعته جروشنكا قائلة:

- كفى! لقد ضقت ذرعاً بهذه الحكايات المضجرة! لا أريد أن أسمعه بعد الآن. لقد توقعت شيئاً أدعى إلى البهجة وأبعث على الضحك!

فسرعان ما وجم ميتيا وكفَّ عن الضحك. ونهض البان البولندي الطويل، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً واضعاً يديه وراء ظهره، وقد بدا عليه الكبر والتعالي، كرجل أوقعته المقادير في صحبة أناس يزدريهم فهو يشعر بملل وسأم.

قالت جروشنكا وهي تنظر إليه باحتقار:

- ما أبلد مشيته هذه!

فازداد انفعال ميتيا، لا سيما وأن البان الجالس على الكنبة كان

يتفرس فيه بغير لطف أو وداعة فيما خيل إليه. فصاح ميتيا يقول:
فلنشرب أيها البان. (ثم التفت إلى البولندي الآخر وتابع كلامه).
وأنت أيضاً... فلنشرب، فلنشرب أيها الباني!
وتناول ثلاث كؤوس وملأها شمبانيا. وهتف يقول:
- فلنشرب نخب بولنده! فلنشرب نخب بلادكم بولنده! فلنشرب نخب الأرض البولندية!
فأجابه البان ذو الغليون قائلاً باللغة البولندية بوقار متلطف وهو يرفع كأسه:
- بكل سرور يا باني! فلنشرب!
فقال ميتيا مهتماً:
- والسيد الآخر أيضاً. هلاّ قلتم لي اسمه خذ كأساً يا سيدي.
قال السيد ذو الغليون:
- اسمه السيد فروبلفسكي.
واقترب السيد فروبلفسكي من المائدة متمايلاً، وتناول كأساً، ولكنه ظل واقفاً.
هتف ميتيا وهو يرفع كأسه:
- فلنشرب نخب بولنده يا باني! هورا!
وأفرغ الثلاثة كؤوسهم. ولم يلبث ميتيا أن تناول الزجاجة فملأ الكؤوس الثلاث من جديد. وقال:
- والآن فلنشرب نخب روسيا أيها السادة! علينا أن نتآخى!
قالت جروشنكا:
- املأ لي أنا أيضاً كأساً. أريد أن أشرب كأس روسيا.
وقال كالجانوف:
- وأنا كذلك!

وزاد ماسكيموف فقال بضحكة قصيرة:

- وأنا أيضاً! إنني أحرص على أن أشرب نخب جدتنا العجوز روسيا. هيء هيء!..

هتف ميتيا يقول:

- فلنشرب جميعاً! فلنشرب جميعاً! هات زجاجات أخرى يا ريّس!

جئ بالزجاجات الثلاث الباقية. وملأ ميتيا الكؤوس. وصاح يقول من جديد.

- نخب روسيا! هورا!

فشرب الجميع إلا البولنديين. أفرغت جروشنكا كأسها دفعةً واحدة. أما البولنديان فلم يمسّا كأسيهما.

هتف ميتيا يقول:

- ماذا؟ أهكذا أنتم؟

فتناول البان فروبلفسكي كأسه، ورفعه، وقال بصوت عالٍ:

- إنني أشرب نخب روسيا بحدودها السابقة على سنة 1772[23]!

فهتف البان الآخر قائلاً باللغة البولندية:

- عظيم!

وأفرغ الاثنان كأسيهما. فلم يملك ميتيا إلا أن يقول:

- ألا ما أغباكما!

فوقف البانان وحدّقا في ميتيا كديكين، وقالا له بلهجة التهديد:

- أيها... البان!

وكان يبدو على البان فروبلفسكي أنه خارج عن طوره؛ وها هو ذا يصرخ قائلاً في استياء باللغة البولندية:

- هل محظور على المرء أن يحب بلاده؟

وهنا انفجرت جروشنكا تقول بلهجة آمرة وهي تقرع الأرض بقدمها:

- سكوت! كفاكم شجاراً! لا أريد هذه المناقشات!

قالت جروشنكا ذلك وقد التهب وجهها وسطعت عيناها. كانت الشمبانيا قد فعلت فعلها. خاف ميتيا. وأسرع يقول:

- معذرة أيها «السيدان»! أنا المذنب. لن أكرر. يا فروبلفسكي، يا بان فروبلفسكي، لن أكرر ذلك بعد الآن سأجلس ساكناً.

فقاطعته جروشنكا قائلة بانزعاج حانق:

- ليتك تسكت أنت على الأقل! أبله!

جلس جميع الحضور، وخيَّم الصمت، وأخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض في حرج.

لم يدرك ميتيا شيئاً عن اندفاع جروشنكا، فاستأنف يقول:

- أنا سبب هذا كله أيها السادة! يجب أن لا نبقى عاطلين هكذا... ألا نستطيع أن نتخيل شيئاً... فنسترد مرحنا وانطلاقنا؟...

قال كالجانوف بإهمال ودون اكتراث:

- حقاً إن المرء ليضجر هنا ضجراً رهيباً.

فقال ماكسيموف مقترحاً:

- ما رأيكم في لعبة بالورق كما فعلنا منذ قليل؟ هيء هيء!

فقال ميتيا مؤيداً مستحسناً:

- لعبة بالورق؟ فكرة عظيمة! هذا إذا وافق هذان السيدان...

فقال السيد ذو الغليون بلهجة تنم عن اعتكار المزاج، قال باللغة البولندية:

- بوزنو الوقت متأخر.

فقال فروبلفسكي مؤمناً:

- هو على حق.
فسألت جروشنكا:
- بوزنو؟ ما معنى هذه الكلمة؟
فأجابها السيد الجالس على الكنبة:
- معناها: الوقت متأخر. فقالت جروشنكا بصوت حاد وقد نفد صبرها:
- الوقت دائماً متأخر في نظر هذين السيدين، وكل شيء مستحيل في نظرهم. إنهما لا يجيدان إلا الضجر والسأم، ويريدان أن يحرما الآخرين من البهجة والمسرة. إنهما، إلى أن جئت يا ميتيا، لم يفعلا طوال الوقت شيئاً غير الصمت، متخذين هيئة التعالي تجاهي.
فهتف الجالس على الكنبة يقول باللغة البولندية:
- إلهتي! ما قلته صحيح تماماً. لقد أصبحت حزيناً منذ لاحظت أنك مستاءة غير راضية.
وأضاف يقول لميتيا بغير تمهل:
- أنا مستعد.
فأجابه ميتيا، وقد أدرك ريبتهما:
- افتح اللعب يا سيدي.
قال ميتيا ذلك وأخرج حزمة الأوراق المالية من جيبه فسلٌ منها ورقتين بمائتي روبل ووضعهما على المائدة. وقال:
- أريد يا سيدي أن أخسر مالاً كثيراً معك. خذ الورق، وكن أنت الخازن.
قال البان القصير بلهجة جادة مشدداً كلماته:
- يجب أن نلعب بورق صاحب النزل.
فقال السيد فروبلفسكي باللغة البولندية مؤيداً:

- ذلك أفضل حقاً!

قال ميتيا، وقد أدرك ريبتهما:

- تفضلون ورق صاحب النزل؟ طيب أيها السادة! أنا فاهم. سنأخذ ورق صاحب النزل. أنتم على حق.

وقال يأمر صاحب النزل:

- هات ورقاً.

فجاء صاحب النزل برزمة ورق مختومة، وأعلن لميتيا أن البنات قد تجمعن، وأن اليهود الذين يعزفون على الرباب والكمان سيصلون بعد هنيهة، ولكن العربة التي تحمل المؤن قد تأخرت. فنهض ميتيا وأسرع إلى الغرفة المجاورة ليتخذ الإجراءات اللازمة. لم يكن في الغرفة إلا ثلاث بنات. ولم تكن ماريا قد ظهرت بعد. وكان ميتيا لا يعرف في الواقع ما هي الإجراءات التي كان عليه أن يتخذها، حتى لقد تساءل لماذا جاء إلى هذه الغرفة. ومن أجل أن يخرج من ارتباكه أمر بأن يؤتى بالصندوق الذي يحتوي السكاكر، وأن يوزّع على البنات كارامل. وأضاف يقول متعجلاً: «وقدّموا فودكا لأندريه لأنني جرحت شعوره منذ قليل». وشعر ميتيا في تلك اللحظة بأن أحداً يضع يده على كتفه. التفت فرأى ماكسيموف الذي كان قد تبعه إلى الغرفة. همس الملاك يقول له:

- هل تستطيع أن تسلفني خمسة روبلات؟ إنني أحبّ أن ألعب أيضاً! هيء هيء...

- عظيم! عظيم! خذ هذه الروبلات العشرة! إليك عشرة روبلات!

وأخرج ميتيا حزمة الأوراق المالية من جيبه مرة أخرى، فتناول منها ورقة بعشرة روبلات، وقال له:

- وما عليك إذا خسرتها إلا أن تطلب المزيد. سأعطيك غيرها أيضاً...

همس ماكسيموف يقول فرحاً كل الفرح:

- طيب! هذا يكفي.

وأسرع يعود إلى القاعة الأخرى. ولم يتأخر ميتيا عن اللحاق به، واعتذر للجمع عن تغيبه. وكان البولنديان، الجالسان الآن إلى المائدة، قد فضا الورق قبل وصوله وقد أصبح وجهاهما أقل جهامة وأكثر بشاشة حتى ليمكن أن يوصفا باللطف والدماثة. وها هو ذا السيد القصير، الذي أشعل غليوناً جديداً، يستعد لخلط الورق بوقار. هتف فروبلفسكي يقول:

- مكانكم يا سادة!

فقال كالجانوف:

- وأنا لن ألعب. فقد سبق أن خسرت معهما خمسين روبلا.

فقال البان ذو الغليون:

- إن البان لم يحالفه الحظ في المرة السابقة، ولكن قد يتدارك الآن ما فاته...

سأل ميتيا متحمساً:

- كم الخزنة؟

- يمكن أن تكون مائة روبل، ويمكن أن تكون مائتين، فذلك متوقف على المبلغ الذي تحطه.

فقال ميتيا وهو ينفجر ضاحكاً:

- مليون!

- لا شك أن النقيب يعرف قصة البان بدوفيسوتسكي[24]؟

- أي بودفيسوتسكي؟

- حدث في ذات مرة في فارصوفيا أن تكدست جميع الأموال الموضوعة عند الخازن. فأقبل بودفيسوتسكي، فرأى ألوف القطع الذهبية، فحطَّ على الخزنة كلها. سأله الخازن عندئذٍ أهو يريد أن يلعب بذهب أم هو يريد أن يلعب اعتماداً على عهد الشرف. فقال بدوفيسوتسكي: «بل اعتماداً على عهد الشرف»، فقال الخازن «حسناً»، وقطع، فلمَّ بودفيسوتسكي القطع الذهبية. فإذا بالخازن يقول له: «لحظة أيها البان». وفتح الدرج وناول بودفيسوتسكي مليوناً وهو يقول له: «خذ. هذا ما ربحته». لقد كانت الخزنة مليوناً. قال بودفيسوتسكي متردداً: «كنت أجهل هذا» فقال له الخازن: «يا سيد بودفيسوتسكي؛ أنت لعبت بالاعتماد على عهد الشرف... وأنا كذلك». فأخذ بودفيسوتسكي المليون ودسَّه في جيبه.

هتف كالجانوف يقول:

- هذا غير صحيح!

فقال السيد ذو الغليون، يخاطبه باللغة البولندية:

- يا سيد كالجانوف، ما هكذا يتكلم المرء في صحبة أناس محترمين!

فصاح ميتيا قائلاً:

- لا تحاول أن تقنعنا بأن بولندياً قد أعطى مليوناً على هذا النحو!

ولكن ميتيا لم يلبث أن ثاب إلى نفسه فاستدرك يقول:

- معذرة يا بان! ها أنا ذا أخطئ من جديد! إن البولنديين يمكن أن يعطوا مليوناً بسهولة، تنفيذاً لعهد الشرف، صوناً للشرف البولندي: انا أسلّم بهذا أرى أنني أنا أيضاً سأتكلم البولنديه آخر الأمر... هأهأ! أحط عشرة روبلات على الولد.

فقال ماكسيموف وهو يضحك ضحكة صغيرة ويقدم ورقة البنت:

- وأنا أقامر بروبل صغير على البنت، البنت الجميلة، بنت الكوبة، على «الباني البولندية» هيء هيء....

قال ماكسيموف ذلك واقترب من المائدة اقتراباً شديداً، كأنه يريد أن يخفي ما سيفعله، ورسم تحت المائدة إشارة الصليب في تعجل. ربح ميتيا، وربح الروبل الصغير أيضاً.

صاح ميتيا:

- أضاعف.

وتمتم ماكسيموف يقول بسعادة كبيرة وقد طار لبه فرحاً بربحه الروبل:

- وأنا ألعب مرة أخرى بروبل، روبل فقط، روبل طيب، روبل صغير!

صرخ ميتيا:

- خسرت! أضاعف حطتي على السبعة.

- وخسرت السبعة أيضاً.

قال كالجانوف فجأة:

- كفّ عن اللعب.

فعاد ميتيا يقول من دون أن يضطرب:

- أضاعف.

وظل ميتيا يضاعف، وظل يخسر في كل مرة، ولكن الروبلات الصغيرة التي كان يحطها ماكسيموف ظلت تربح.

صرخ ميتيا حانقاً:

- أضاعف أيضاً.

فقال له «السيد» ذو الغليون:

- خسرت حتى الآن مائتي روبل. فهل تريد أن تقامر بمائتي روبل دفعةً واحدة؟

- كيف؟ خسرت مائتي روبل؟ لا بأس! أضاعف مع ذلك! ألعب بمائتي روبل دفعةً واحدة!

قال ميتيا ذلك وأخرج من جيبه ورقتين بمائتي روبل، وهمَّ أن يلقيهما على البنت، فإذا بكالجانوف يضع يده عليها فيغطيها. قال كالجانوف صائحاً بصوت رنان:

- يكفي هذا!

فسأله ميتيا وهو ينظر إليه مندهشاً:

- ماذا بك؟

- يكفي هذا. لن أدعك تستمر.

- لماذا؟

- هكذا! دعهما وامض. هذا أفضل. صدقني سوف أمنعك من متابعة هذا اللعب.

كان ميتيا يتفرس فيه دون أن يفهم.

وتدخلت جروشنكا قائلة بنبرة غريبة في صوتها:

- دع اللعب يا ميتيا. ربما كان على حق. ثم إنك قد خسرت ما فيه الكفاية.

نهض السيدان البولنديان من مقعديهما في هيئة من أُهين.

قال السيد القصير يخاطب كالجانوف بالبولندية وهو يحدِّق إليه تحديقاً قاسياً:

- أتراك تمزح؟

وصرخ البان الطويل يقول لكالجانوف بصوت راعد:

- كيف تجرؤ أن تقول ذلك!

فغضبت جروشنكا وصرخت:

- لا أسمح بالصراخ هنا. لكأنكم ديكة حانقة!

كان ميتيا ينقل بصره بينهم واحداً بعد واحد. وفجأة لفت انتباهه في هيئة جروشنكا تعبير غريب. وفي تلك اللحظة نفسها ومضت في ذهنه فكرة جديدة عجيبة.

بدأ البان القصير يتكلم فقال وقد احمر وجهه غضباً:

- سيدتي أجريبينا

ولكن ميتيا لم يدعه يكمل كلامه. فقد اقترب منه، وضرب بيده على كتفه وقال له:

- كلمتين أيها السيد النبيل!

فسأله هذا بالبولندية:

- ماذا تريد؟

فأجابه ميتيا:

- تعال معي إلى الغرفة المجاورة. أريد أن أكلمك على انفراد، وما سأقوله لك سيسرك كثيراً. سترى أن ما سأقوله لك يرضيك.

بدت الدهشة على السيد القصير، ونظر إلى ميتيا في خشية. ومع ذلك رضي أن يتبعه، ولكنه اشترط أن يصحبه البان فروبلفسكي.

هتف ميتيا قائلاً:

- حارسك؟ فليأت هو أيضاً... ثم إن حضوره ضروري. هيا بنا أيها السيدان!

سألته جروشنكا قلقة:

- إلى أين تذهبون؟

فأجابها ميتيا:

- سنعود بعد لحظة.

من رأى ميتيا في تلك اللحظة أحسَّ أن فيه عزماً وتصميماً وجرأة وحماسة مباغتة. إن تعبير وجهه الآن يختلف كل الاختلاف عن تعبير وجهه ساعة وصوله. قاد ميتيا الرجلين البولنديين إلى غرفة تقع على اليمين، ليست هي الغرفة التي كانت تجمع فيها جوقة البنات وتُهيَّأ فيها المائدة للقاصفين، ولكنها غرفة نوم ملأى بالحقائب والصناديق، وفيها سريران كبيران على كل منهما جبل من وسائد. وكان في الغرفة شمعة مشتعلة فوق منضدة صغيرة في الركن. جلس البان ذو الغليون وميتيا متقابلين، ووقف البان العملاق فروبلفسكي في جانب، واضعاً يديه وراء ظهره. إن الرجلين البولنديين يرقبان ميتيا عابسَيْن، ولكن كان واضحاً أنهما يشعران برغبة قوية في معرفة ما يريد أن يقوله.

تمتم السيد ذو الغليون يقول بالبولدنية:

- ما الخدمة التي يمكنني أن أقدمها للبان؟

- اسمع يا باني. لن أكثر في الكلام. خذ المال (قال ميتيا ذلك وأخرج من جيبه حزمة الأوراق المالية)، خذ المال... هل تريد ثلاثة آلاف روبل؟ خذها وانصرف!

حدق البان إلى ميتيا بنظرة فاحصة، مغرقاً عينيه في عينيه. وسأله بالبولندية:

- ثلاثة آلاف روبل يا باني؟

وتبادل وصاحبه فروبلفسكي نظرة خاطفة.

قال له ميتيا:

- نعم، ثلاثة آلاف! اسمع يا باني: إنني ألاحظ أنك رجل عاقل. خذ هذه الثلاثة آلاف روبل واذهب من هنا، ولكن لا تنس أن تصطحب صاحبك فروبلفسكي، هل فهمت؟ على أنني اشترط أن

تذهب فوراً، في هذه الدقيقة نفسها، وإلى الأبد. تخرج من هذا الباب إلى الأبد. ماذا تركت في الغرفة الأخرى؟ معطفاً؟ فراءً؟ سأجيئك به. وسآمر بإعداد عربة ترويكا لك فوراً. . وأتمنى لك سفراً سعيداً يا باني. هيه، ما رأيك؟

كان ميتيا ينتظر الجواب وهو ممتلئ ثقة. كان لا يراوده شك في أن الرجل سيقبل هذا العرض. واتخذ وجه البان ذي الغليون هيئة تنم عن غاية العزم والتصميم. وقال يسأل ميتيا:

- أين المال يا باني؟

- إليك تفصيل الأمر فيما يتعلق بالمال: أدفع لك الآن خمسمائة روبل سلفةً ونفقات سفر. أما الباقي، وهو ألفان وخمسمائة، فسأدفعه لك غداً في المدينة، أحلف لك بشرفي. سأجيئك بهذا المبلغ من تحت الأرض إذا لزم ذلك! (هكذا صاح ميتيا).

تبادل البولنديان نظرة. وأصبح وجه البان ذي الغليون أقل تشجيعاً مما كان منذ قليل. قال ميتيا:

- بل أعطيك سبعمائة روبل، لا خمسمائة، كدفعة أولى. . . أعطيك إياها حالاً، في هذه اللحظة نفسها (كذلك أسرع يقول ميتيا الذي أحسّ بنذير سوء). ما بك يا باني؟ ألا تصدقني؟ لست أستطيع أن أنقدك ثلاثة آلاف دفعةً واحدة على كل حال. ذلك أنك قد تأخذ المبلغ الآن ثم تعود إليها غداً. . . ثم إنني لا أحمل الآن هذا المبلغ، وإنما هو مخبأ في مسكني بالمدينة، (كذلك تمتم يقول ميتيا الذي كانت شجاعته تهبط عند كل كلمة جديدة، والذي أصبح يرتعش منذ ذلك الحين خوفاً من الإخفاق) أحلف لك أن هذا المال في بيتي، مخبأ. . .

وفي مدى لحظة قصيرة، اجتاح وجهَ البان ذي الغليون تعبيرٌ عن

إنفة خارقة وشمم هائل، فسأل ميتيا في سخرية (باللغة البولندية):

- أهذا كل ما تريده؟ يا للعار!

ثم بصق للتعبير عن اشمئزازه بمزيد من القوة. وبصق فروبلفسكي أيضاً.

قال ميتيا وقد شعر باليأس يغزوه، وأدرك أن كل شيء قد ضاع، قال:

- أنت تبصق أيها البان لأنك تأمل أن تسلب جروشنكا مبلغاً أكبر! ألا إنكما لديكين مخصيين!

فقال البان ذو الغليون، وقد احمرّ احمراراً شديداً (قال باللغة البولندية أيضاً):

- إنك تهينني إلى أقصى حدود الإهانة.

ثم أسرع يتجه نحو الباب، في هيئة رجل مستاء لا يريد أن يسمع المزيد من الكلام. وسار فروبلفسكي وراءه متمايلاً. وتبعهما ميتيا حائراً وقد أسقط في يده. كان يخشى غضب جروشنكا، لأنه أوجس أن البولندي سيفضح الأمر. وذلك ما حدث فعلاً. فقد دخل البان ذو الغليون القاعة، فوقف أمام جروشنكا وقفة مسرحية، وهتف يقول لها باللغة البولندية:

- لقد أُهنت إلى أقصى حدود الإهانة يا باني أجريبينا!

فإذا بجروشنكا تصيح في وجهه حانقة وكأن أحداً مس لها أشد المواضع إيلاماً:

- باللغة الروسية، تكلم باللغة الروسية! لا أريد بعد الآن أن أسمع كلمة بولندية واحدة! لقد كنت تعرف الروسية في الماضي، ولا يمكن أن تكون قد نسيتها في خمس سنين!

وكانت جروشنكا محمرَّة الوجه غضباً.

- سيدتي أجريبينا. . .

- اسمي اجرافينا. . . أنا جروشنكا. . . تكلم بالروسية إذا كنت تريد أن أسمع لك!

جُرحت كبرياء البان فتنحنح، وأسرع يقول في تنفخ وفخفخة، متعمداً تشويه الكلمات:

- أيتها الباني أجرافينا! لقد جئت وأنا أنوي أن أنسى الماضي وأن أغفر، جئت وأنا أنوي مسح ما حدث حتى هذا اليوم. . . .

فقاطعته جروشنكا قائلة وهي تثب من مكانها:

- جئت لماذا؟ لتغفر؟ أتريد أن تغفر لي أنا؟

نعم يا باني، كنت أريد أن أغفر لك. إن لي نفساً رحبة وقلباً سمحاً. ولكن سلوك خليلك قد أدهشني. فمنذ هنيهة، في الغرفة المجاورة، أراد البان ميتيا أن يعطيني ثلاثة آلاف روبل لأسافر. فبصقت في وجهه.

صرخت جروشنكا تسأله بهستيرية:

- ماذا؟ هل تجرّأ أن يقدم لك مالاً من أجلي؟ أصحيح هذا يا ميتيا؟ كيف تجرّأت؟ أأنا امرأة تباع وتُشترى؟

قال ميتيا في أنين:

- أيها الباني، أيها الباني، إنها طاهرة كملاك، ولم أكن خليلها في يوم من الأيام. لقد كذبتَ في هذا الأمر. . .

زأرت جروشنكا تقول:

- كيف تجرؤ أن تدافع عني أمامه؟ لئن حافظتُ على طهارتي، فإنني لم أفعل ذلك تمسكاً بالفضيلة أو لأنني كنت أشعر بخوف من كوزما، بل ليكون من حقي أن أكون متعالية معه وأن أصرخ في وجه هذا الرجل حين ألقاه: أنت شقي تعس! هل يمكن حقاً أن يكون قد رفض المال الذي عرضته عليه؟

فصاح ميتيا يقول:

- إنه لم يرفض... لقد رضي... ولكنه أراد أن أنقده الثلاثة آلاف روبل دفعةً واحدة، أما أنا فقد عرضت عليه قسطاً أول هو سبعمائة روبل.

قالت جروشنكا:

- اتضح الآن كل شيء: لقد علم أنني أملك مالاً، فأراد أن يتزوجني!

صرخ البان يقول:

- يا باني أجريبينا، أنا فارس، أنا بولندي نبيل، لا شقي تعيس. لقد كنت أريد أن أتخذك حليلةً لي، ولكنني أرى الآن أمامي امرأة تختلف كل الاختلاف عن المرأة التي عرفتها، أرى أمامي الآن امرأة راكبةً رأسها ولا ترعوي...

صرخت جروشنكا تقول وقد خرجت عن طورها:

- اذهب! عد من حيث جئت! لآمرنَّ بطردك، فيضعك على الباب! ألا ما كان أشد بلاهتي حين عذّبت نفسي خلال هذه السنين الخمس بسببه!... لا... إنني لم أعذّب نفسي هذا التعذيب بسببه، وإنما عذبت نفسي غضباً وحنقاً! ليس هذا هو الرجل الذي أحببته أوه! إنه لم يكن هكذا! أغلب الظن أنه أبوه! أين صنعت لنفسك هذه الباروكة المضحكة؟ لقد كان ذلك صقراً، أما هذا فدجاجة مبتلة! كان ذاك يضحكني وينشدني الأغاني... ألا ما كان أغباني إذ لبثت أبكي طوال خمس سنين، وما كان أحطني، وما كان أجبنني!

قالت جروشنكا ذلك وتهالكت على مقعدها من جديد، وغطت وجهها بيديها. وفي تلك اللحظة، ترجّعت في الغرفة التي تقع على

الشمال أصوات جوقة بنات موكرويه اللواتي اجتمع شملهن أخيراً. لقد أخذن يغنين أغنية راقصة شيطانية.

فصاح فروبلفسكي على حين فجأة يقول:

- هذا محل دعارة! يا ريِّس، اطرد هاته النساء الخليعات!

كان صاحب النزل يلقي على القاعة نظرات استطلاع من حين إلى حين، فلما سمع الصراخ فأدرك أن نزلاءه قد أخذوا يتشاجرون أسرع إليهم. وقال يسأل فروبلفسكي بلهجة فظة غير متوقعة:

- هيه! أنت! ما لك تصيح هذا الصياح بحلقك العريض كله؟

فزأر فروبلفسكي يقول له:

- وغد!

- وغد؟ أنا وغد؟ هلاّ قلت لي بأي ورق لعبت منذ قليل؟ لقد جئتك بحزمة مختومة، فأخفيتها، ولعبت بورق مغشوش! هل تعلم أنني أستطيع أن أرسلك إلى سيبريا بسبب هذا الغش؟ إن اللعب بورق مزيف يشبه صنع نقود مزيفة...

واقترب صاحب النزل من الكنبة، فأغطس يده بين الوسادة والظهر، فسحب حزمة الورق المختومة، وقال:

- هذا ورقي، لم يمسَّ!

ورفع حزمة الورق بين أصابعه يُظهر عليها جميع الحضور، وهو يقول:

- لقد رأيته من ركني لحظة دسَّ هذه الحزمة في الشق، وبدّلها بورقٍ من عنده! أنت وغد صغير لا بان...

وقال عندئذٍ كالجانوف:

- وأنا فاجأت «السيد» يغش مرتين.

صاحت جروشنكا تقول وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى:

- يا للعار! آه... يا للعار!... رباه! كيف أمكن أن يتغير هذا الرجل إلى هذا الحد؟...

وكانت جروشنكا قد تخضّب وجهها بحمرة شديدة من فرط شعورها بالذل والخجل.

قال ميتيا:

- لقد اشتبهت في أنهما يغشان!

فما إن نطق ميتيا بهذه الكلمات حتى التفت السيد فروبلفسكي إلى جروشنكا مغتاظاً مضطرباً، وصرخ يقول لها وهو يمد قبضة ذراعه نحوها:

- مومس!

ولكن ميتيا انقضّ عليه في تلك اللحظة نفسها، فأمسك بجسمه كله، ورفعه، ونقله بطرفة عين إلى الغرفة التي تقع على اليمين، الغرفة التي قادهما إليها منذ لحظات. وسرعان ما عاد إلى القاعة لاهثاً من الجهد والانفعال، فقال للقوم:

- رميته على الأرض! الغشاش يتخبط، ولكنه لن يسارع إلى الرجوع.

وأغلق ميتيا أحد مصراعي الباب، وترك المصراع الثاني مفتوحاً، واتجه إلى «السيد» ذي الغليون يسأله:

- هل تتنازل، أيها السيد النبيل، فتلحق بصاحبك؟ بشيبرا شام.

فهتف تريفون بوريستش يقول:

- ولكن يا دمتري فيدوروفتش، استردَّ منه المال الذي خسرته في اللعب، على الأقل... لقد سرقاك!

قال كالجانوف:

- أنا أترك لهما روبلاتي الخمسين!

فصاح ميتيا:

- وأنا أتنازل عن روبلاتي المائتين! لن أستردها بحال من الأحوال فليحتفظا بها عزاءً لهما!

- مرحى ميتيا، عظيم!

كذلك صاحت تقول جروشنكا بصوت فيه شيء من الشر. فاتجه السيد ذو الغليون نحو الباب، وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة من فرط الحنق، ولكنه لم يفقد شيئاً من رصانته. ومع ذلك فإنه قبل أن يخرج من القاعة، توقف والتفت نحو جروشنكا وقال لها (بالبولندية):

- باني، إذا كنت تريدين أن تتبعيني، فتعالي! وإلا... فوداعاً...

ثم اجتاز الباب عابس الوجه مختنق الصدر غضباً وخزياً.

ذلك الرجل رجل لا يخجل ولا يهزّه. فإنه بعد كل ما حدث ظل يأمل أن تتبعه «الباني»، لأنه يقدر نفسه قدراً عظيماً.

أغلق ميتيا الباب خلفه.

وقال له كالجانوف ناصحاً:

- أقفل الباب عليهما بالمفتاح.

ولكن القفل صرَّ من داخل الغرفة. لقد سارعا هما إلى إقفال الباب بالمفتاح.

هتفت جروشنكا تقول بلهجة حاقدة:

- عظيم! هذا أقلّ ما يستحقانه!

- 8 -

هذيان

ما إن مضى البولنديان حتى شمل القاعة مرحٌ عام، وحتى بدأ احتفال يشبه أن يكون مجوناً وكانت جروشنكا أول المطالبين بخمر قالت: «أريد أن أشرب، أريد أن أسكر تماماً، كالمرة السابقة، هل تتذكر يا ميتيا، يومَ تعارفنا؟» وكانت حالة ميتيا النفسية أشبه بهذيان، لأنه كان يتنبأ «بسعادته». وكانت جروشنكا، مع ذلك، ما تنفكّ تصرفه في كل لحظة، قائلةً له: «اذهب إليهم، سرِّ عن نفسك، مرهم بأن يرقصوا، حتى يكون هنالك انطلاق ومرح. أريد قصفاً عنيفاً حاراً، كالمرة السابقة، كالمرة السابقة تماماً». كانت جروشنكا مهتاجة جائشة النفس. وكان ميتيا يتحرك هنا وهناك ليطيعها وينفذ أوامرها. تجمع أفراد الجوقة في الغرفة المجاورة. إن هذه القاعة التي تجمعوا فيها صغيرة مسرفة في الصغر، تقسمها إلى قسمين ستارةٌ من نسيج قطني تخفي وراءها سريراً ضخماً ذا حشوة رخوة كبيرة فوقها كدسة من وسائد. وإن في سائر الغرف الأربع الأخرى «النظيفة» سرراً على كل حال. استقرت جروشنكا أمام الباب، حيث أتاها ميتيا بمقعد تجلس عليه. ذلك هو المكان الذي شغلته «في ذلك اليوم»، أثناء احتفالهما الأول في الليل، تتأمل منه الرقصات وتسمع الغناء. إن البنات اللواتي اشتركن في ذلك الاحتفال

قد جئن اليوم هن أنفسهن. ولم يلبث اليهود أن وصلوا مع آلات الرباب والكمان. وأُعلن أخيراً أن عربة الترويكا التي طال انتظارها قد وصلت هي أيضاً تحمل المؤن والخمور. شُغل ميتيا كثيراً، وراح يتحرك هنا وهناك. كان أناس من أهل القرية يقفون أمام العتبة من حين إلى حين ليلقوا نظرةً على الغرفة. لقد أوقظ الفلاحون والفلاحات في وسط الليل، متوقعين وليمة عجيبة كوليمة الشهر الماضي. إن ميتيا يحيّي الوافدين الجدد بالتحيات، ويعانق الأصحاب القدامى، ويثير ذكريات سابقة، ويفتح الزجاجات، ويقدم الشراب لكل قادم. والبنات وحدهن يقدرن الشمبانيا، أما الفلاحون فيؤثرون خمر الروم والكونياك، ويفضلون «البنش» خاصة. أصدر ميتيا أوامره بإعداد شوكولاته للبنات، وبأن تظل ثلاثة سماورات يغلي ماؤها بدون انقطاع لتحضير الشاي والبنش. يجب أن يكون هنالك شراب للجميع. يجب أن يستطيع كل قادم أن يسكر ما شاء له هواه أن يسكر. الخلاصة: قامت الدنيا وقعدت، وأخذ الناس يشربون بفوضى لا يلجمهم شيء. ولكن ميتيا كان يحسّ في هذا السديم المضطرب بارتياح، ويزداد انتعاشاً ونشاطاً على قدر ازدياد الفوضى والسخف في هذه السهرة. فلو خطر ببال أول فلاح واصل أن يسأله مالاً في تلك اللحظة، إذاً لأخرج الحزمة من جيبه ووزَّع الأوراق المالية على الحضور دون عد. ولعل هذا هو السبب الذي جعل صاحب النزل لا يكف عن الحوم حوله لحمايته في أغلب الظن. وقد عزم تريفون بوريستش على أن لا ينام في هذه الليلة، لذلك لم يشرب هو نفسه إلا قليلاً جداً (اكتفى بكأس بنش واحد)؛ ولكنه كان يسهر على مصالح ميتيا بمزيد من الانتباه، ولو على طريقته الخاصة؛ فهو يتدخل متى وجب أن يتدخل، بلهجة متعاذبة لينة، ليوقف ميتيا

عند حدود لا يتعداها، محاولاً أن يحول بينه وبين أن يقدم للفلاحين الحفاة «سيجاراً وخمور الراين كما فعل في المرة الماضية»، أو أن يوزِّع عليهم شيئاً من المال خاصةً، لا سمح الله! كان يسوءه أن يرى البنات تشرب خموراً وتقضم ملبّساً، فيقول: «وسخات! وسخات! لأطردهن ركلاً بالقدمين، ولأحملهنّ على أن يشكرن لي هذا الشرف. ذلك ما هن به جديرات!». وتذكر ميتيا الحوذي أندريه من جديد، فأرسل إليه شيئاً من البنش. وكان يردد قائلاً بصوت ضعيف دامع: «لقد أسأت إليه منذ قليل». ورفض كالجانوف في أول الأمر أن يشرب، ولم ترضه جوقة البنات ولكن مرحه اشتد اشتداداً جنونياً بعد أن شرب الكأس الثانية من الشمبانيا، فكان يتنقّل بين الغرف ضاحكاً مادحاً كل شيء، الأغاني والموسيقى. وكان ماكسيموف الذي بلغ أوج السكر والغبطة منذ ذلك الحين، لا يتركه لحظة واحدة. وكانت جروشنكا، التي ثملت قليلاً هي أيضاً، ما تنفكّ تقول لميتيا وهي تومئ إلى كالجانوف «ما ألطفه فتى! ما أحلاه وما أعذبه!»، فكان ميتيا يسرع عندئذٍ إلى كالجانوف فيعانقه ويقبله بحماسة؛ وكان يقبِّل ماكسيموف في هذه المناسبة. آه... ما كان أعظم السعادة التي يوجس ميتيا أنه سينالها! صحيح أن جروشنكا لم تكن قد وعدته بشيء بعد، وأنها كات تتعمد تجنب أي شرح الآن، ولكنها كانت تنظر إليه خلسةً من حين إلى حين وقد فاضت عيناها رقة وحناناً. وها هي ذي تمسك يده على حين فجأة، فتجذبه إليها بقوة، وتقول له وهي جالسة على مقعد أمام الباب:

- ما كان أغرب هيئتك حين دخلت علينا منذ قليل! أوه! لقد خفت عندئذٍ خوفاً شديداً. كيف خطر ببالك أن تتنازل عني لذلك الرجل؟ هل يمكن أن يكون ذلك قد خطر ببالك حقاً؟

دمدم ميتيا يقول وقد طاش عقله من فرط السعادة:

- لم أشأ أن أفسد سعادتك.

ولكن جروشنكا لم تصغ إلى جوابه. وصرفته عنها من جديد قائلة له:

- اذهب، اذهب، سرِّ عن نفسك لاهياً معهم. وليس لك أن تتشكى، فسأناديك بعد قليل.

انصرف ميتيا، واستأنفت جروشنكا تأمل الرقصات والإصغاء إلى الأغنيات. ولكنها لم تصرف عن ميتيا نظراتها. فلما انقضى على ذلك ربع ساعة أومأت له فهرع إليها. قالت:

- اجلس بجانبي الآن، واقصص عليَّ كيف علمت أمس أنني هنا. من أولُ من قال لك ذلك؟

أخذ ميتيا يقص عليها بحرارة، ولكن بفوضى، فليس في سرده تسلسل كثير. والشيء الغريب أنه كان في بعض الأحيان يتوقف عن الكلام ويقطب حاجبيه. قالت له جروشنكا:

- ما بك؟

فأجابها:

- لا شيء... لقد تركت في المدينة مريضاً. أرجو أن يشفى... إني لأهب من عمري عشرة أعوام في سبيل أن يشفى!

- لا تفكر بعد الآن في ذلك المريض. قل لي: هل صحيح أنك كنت تريد أن تنتحر في غد أيها الأحمق؟ لماذا؟

ثم دمدمت تقول له بلغة منتفخة قليلاً:

- أحبّ أمثالك، المجانين قليلاً. أأنت مستعد إذاً لأن تجازف بكل شيء في سبيلي؟ أكان في نيتك إذاً أن تنتحر من أجلي غداً يا عزيزي الطيب الأبله؟ ألا فاعلم إذاً أن من الأفضل لك أن تنتظر...

قد أقول لك في الغد كلمة صغيرة... لا اليوم... بل غداً! آ... لا شك أنك تؤثر أن أقولها لك اليوم؟ لا... لا أريد أن أقولها اليوم... اذهب، اذهب الآن، سلْ نفسك!

ولكنها نادته في لحظة من اللحظات مندهشة قلقة، وسألته:

- مالي أراك حزيناً هذا الحزن كله؟ إنني ألاحظ أنك مهموم.

وسدَّدت إليه نظرة نافذة، وأردفت تقول:

- نعم، ألاحظ ذلك واضحاً. مهما تضحك وتمزح مع الفلاحين، فإنني أدرك أن هناك شيئاً يعذبك. كن فرحاً! أريد ذلك! أنا فرحة، فعليك أن تفرح أنت أيضاً... تصوّر أنني أحبّ أحداً هنا. احزر مَنْ هو؟... أوه! انظر إليه! لقد غفا فتاي الصغير... إنه ثمل، عزيزي!

كانت تعني كالجانوف. لقد غفا كالجانوف بضع لحظات على الكنبة بتأثير الكحول. على أن الخمر وحدها ما كانت لتكفي أن تغرقه في النوم. وإنما الحقيقة أنه شعر فجأة بحزن ثقيل في وسط هذا الاحتفال، دون سبب معيَّن واضح، وذلك ما عبَّر عنه بقوله إنه «ضجر». وكانت أغاني البنات قد أصبحت تثير فيه الاشمئزاز، لأنها كانت تزداد فسقاً ودعارة بتأثير الخمر شيئاً بعد شيء، وكذلك كان شأن الرقصات: لقد خطر ببال بنتين من البنات أن تتنكرا دُبَّيْن، وأخذت سيتبانيدا، وهي امرأة قوية الجسم خلية البال، «تعرضهما» وفي يدها هراوة، قائلةً في صراخ: «بحيوية أكثر يا ماريا، وإلا هويت عليك بالهراوة!» وأخذ الدبان يتدحرجان أخيراً على أرض الغرفة تدحرجاً خالياً من الحشمة كل الخلو حقاً، فكان جمهور الفلاحين والفلاحات الذي يشاهد المنظر ينفجر ضحكه المجلجل! قالت جروشنكا بلهجة الحكمة وهيئة الغبطة: «دعوهم يلهون على ما

يشاء لهم هواهم، ذلك من حقهم مرة. إن هذه الفرصة لا تعرض لهم كثيراً، فلينتهزوها!» وكان كالجانوف ينظر إلى المشهد شاعراً بأنه اتسخ؛ وابتعد وهو يقول: «ما أكثر الابتذال في هذا الفرح الشعبي! إنهم يلعبون ألعابهم الربيعية منتظرين طلوع الشمس في الليل الصيفي».

وكانت قد آذته أغنية «جديدة» إيذاءً خاصاً. هي أغنية تتردد فيها لازمة بإيقاع راقص جريء؛ وهي تروي قصة سيد مسافر يسأل البنات[25].

سأل السيد البنات:

أتحبينني؟ أتحبينني؟

ولكن البنات رأين أنه لن يكون زوجاً صالحاً.

سيضربني السيد

ولن أحبه.

واتفق أن مرّ عندئذٍ غجري:

سأل الغجري البنات:

أتحبينني؟ أتحبينني؟

ولكنه لم يعجب أكثر من السيد:

سيكون الغجري لصاً

ولن تكون هذه هي السعادة

ومرّ رجال آخرون كثيرون، حتى لقد مرّ جندي:

سأل الجندي البنات:

أتحبينني؟ أتحبينني؟

ولكن البنات نبذنَهُ باحتقار:

سيحمل الجندي الكيس

وأنا خلفه...

وكان البيت الثاني بذيئاً بذاءة صريحة، وكانت البنات تغنيه دون أن تحمر خجلاً، فتثير في الجمهور حماسة عظيمة، وتقدم أخيراً تاجر:

سأل التاجر البنات:

أتحبينني؟ أتحبينني؟

فأحبته البنات، لأن:

التاجر سيجني ثروة كبيرة

ويجعلني أميرة...

غضب كالجانوف فصاح يقول بصوت عالٍ:

- هذه أغنية حديثة جداً. تُرى من مؤلفها؟ ليس ينقصها في الواقع إلا متعهدو سكك حديدية ويهود. فلو سألوا البنات لاحرزوا النصر!

كان كالجانوف كمن أُهين تقريباً، وقال فجأة إنه ضجر، واضطجع على الكنبة فسرعان ما غفا. وهذا وجهه الجميل، الشاحب شحوباً خفيفاً، ينزلق على الوسادة قليلاً.

قالت جروشنكا وهي تقود ميتيا إليه:

- انظر ما ألطفه! كنت منذ قليل أسلّي نفسي بملاعبة شعره. إن شعره غزير كثيف، وهو أشبه بخيوط الحرير نعومةً...

ومالت جروشنكا على كالجانوف في حنان، وقبلت جبينه. ففتح كالجانوف عينيه فجأة، ونظر إليها، ثم نهض نصف نهوض، وسألها وقد بدا عليه انشغال البال: أين ذهب ماكسيموف؟

فقالت جروشنكا ضاحكة:

- انظروا عمن يسأل. ماكسيموف هو الذي يعوزه! هلاّ بقيت معي بضع لحظات! يا ميتيا، ابحث له عن ماكسيموف وجئه به.

كان ماكسيموف قد أصبح لا يترك البنات، ولا يبتعد عنهن من حين إلى حين إلا ليصب قدحاً من الخمر. وقد شرب أيضاً فنجانين من الشوكولاته. وتلوَّن خداه، واصطبغ أنفه بحمرة قانية، بينما عيناه المخضَّلتان الرطبتان تنظران حوله في عاطفة وحنان. وسرعان ما هرع ماكسيموف يعلن أنه سيرقص رقصة «سابوتيير» على «لحنٍ موسيقيّ معروف». وقال شارحاً:

- لقد علموني في طفولتي هذه الرقصات الراقية الرفيعة.

قالت جروشنكا:

- اذهب معه يا ميتيا أما أنا فسأنظر إلى رقصته من هنا.

فهتف كالجانوف يقول في سذاجة، مبعداً الفرصة التي عرضتها له جروشنكا وهي أن ينفرد بها:

- سأمضي أنا أيضاً. إنني أريد أن أراه عن كثب حتماً.

وتبعوا ماكسيموف. وعرض ماكسيموف رقصته، فلم تثر حماسة أحد إلا ميتيا. هي رقصة قوامها قفزات وتلوّيات، ورفع السيقان إلى فوق وجعل النعال عاليةً في الهواء، فكان ماكسيموف يقرع نعله بيده في كل مرة. استاء كالجانوف، ولكن ميتيا قبَّل الراقص قائلاً له:

- شكراً لك يا صاحبي الطيب. يخيَّل إليَّ أنك تعبت. ألأنت تنظر إلى السكاكر؟ أتريد واحدة؟ أم لعلك تحب أن تدخن سيجاراً؟

- بل سيجارة.

- ألا تريد أن تشرب شيئاً؟

- شربت خموراً. أليس عندكم سكاكر بالشوكولاته؟

- ما أكثر ما عندنا على المائدة. اختر ما يحلو لك يا حمامتي!

- ليس هذه، أريدها سكاكر بالڤانيليا... أريد سكاكر الشيوخ العجائز تلك! هيء هيء!...

- ليس عندنا منها يا أخي!

ومال العجوز فجأة على أذن ميتيا فسأله موشوشاً:

- قل لي: أما من سبيل... أليس هناك وسيلة... انظر إلى هذه البنية، إلى ماريا اللطيفة هذه، هيء هيء، كم أود لو أتعرف عليها... إذا كنت ترى، بما لك من شهامة وأريحية، أن الأمر ممكن...

- ما هذا الكلام! أوه! أرجو أن تكون هازلاً!

- لا أريد بأحد شراً.

كذلك دمدم يقول ماكسيموف باكتئاب. فقال له ميتيا:

- طيب... طيب... هنا يا أخي غناء ورقص، ولكن ذلك هو كل شيء. على كل حال... إذا كنت تحرص هذا الحرص كله.. عجيب! عليك قبل كل شيء أن تأكل وتشرب وتمرح. ألعلّك في حاجة إلى مال؟

أجابه ماكسيموف مبتسماً:

- ربما أحتاج إلى شيء من المال. فيما بعد.

- طيب...

كان رأس ميتيا ناراً مشتعلة. خرج إلى الدهليز وصعد إلى الرواق الذي يمتد على جزء من المبنى من جهة الفناء. أحسن إليه الهواء الطري. توقف وحيداً في ركن مظلم، وإذ به يضع رأسه بين يديه فجأة. إن خواطره المتفرقة المتبعثرة، وإحساساته الغامضة المبهمة، قد اتّحدت الآن وترتّبت وتوضّحت، فخرج منها على حين فجأة ضياء رهيب! ومرّت في ذهنه فكرة: «إذا كنت أريد أن أطلق رصاصة في رأسي، فلماذا لا أفعل ذلك حالاً؟ أمضي فأجيء بمسدسي وأنهي الأمر في هذا المكان نفسه، في هذا الركن المظلم

القذر ذاته؟» ولبث يتردد دقيقة طويلة. إنه منذ ساعات قليلة، حين كانت عربة الترويكا تقله إلى موكرويه، كان قد خلف وراءه عاراً هو عار السرقة وسفك الدم... ولكن ما كان أسهل اتخاذ القرار الوحيد الممكن حينذاك! لقد كان اتخاذ هذا القرار أسهل منه الآن، أسهل كثيراً! كل شيء كان يبدو عندئذٍ ضائعاً: كان قد فقد تلك المرأة، قد تنازل عنها... أصبحت لا وجود لها... وكان تنفيذ الحكم الذي أصدره على نفسه هيناً يسيراً. لقد خضع لذلك الحكم خضوعه لقدر لا رادّ له، لقضاء أعلى لا اعتراض عليه. ما كان حاجته إلى البقاء حياً بعد أن وقع ما وقع؟ لم يكن قد بقي شيء يشده إلى هذا العالم ويربطه به. أما الآن فقد اختلفت الحال. إن إحدى حلقات القدر وأحد أشباح الخوف قد تبدد الآن دخاناً! إن صديقها القديم الذي لا يمكن جحوده أو التنكر له، قد اختفى دون أن يخلف أثراً! إن ذلك الشبح المرعب قد استحال ظلاً تافهاً مضحكاً. لقد أُخرجَ من الغرفة كطفل، وأقفل عليه الباب بالمفتاح! ولن يرجع أبداً. إنها تشعر بالعار من هذا الرجل؛ وقد استطاع ميتيا أن يقرأ في عينيها من ذا تحب في الواقع. الآن إنما يمكن أن تكون الحياة جميلة، جميلة جداً... ولكن الحياة مستحيلة بعد أن وقع ما وقع، مستحيلة! يا لها من لعنة! «اللّهم ردَّ الحياة إلى ذلك الذي صرعتُه قرب السور! اللّهم امنع عني هذي الكأس واجعل الكارثة تمرّ دون أن ترميني! اللّهم إنك قد صنعت معجزات لأناس غيري كانوا مذنبين مثلي، فهب لي من لدنك معجزة من تلك المعجزات!... ولكن ماذا إذا كان العجوز لم يمت! لأمحونَّ عندئذٍ عار الإثم الآخر، فأرد المال المسروق، أعيده إلى صاحبه، ولو اضطررت أن أمضي باحثاً عن المال تحت الأرض... لن يبقى عندئذٍ أثر من آثار ذلك العار... إلا في قرارة

قلبي حيث سيعيش إلى الأبد. لا، لا، هذا مستحيل. هذه أحلام جبان، أحلام لا سبيل إلى تحقيقها... يا للعذاب!».

ومع ذلك ساوره شعاع من أمل بعد هذه الأفكار، شعاع ضعيف في ظلام الليل. انتزع نفسه من تأمله القاتم، وأسرع ينزل إلى غرف الطابق الأرضي، أسرع إليها من جديد، إلى تلك التي تحكم قلبه إلى الأبد. تساءل: «ألا تساوي ساعة واحدة من حبها، ألا تساوي دقيقة واحدة من حبها حياةً بأكملها، ولو كان ثمنها عذاباً وعاراً». استولت هذه الفكرة الغريبة على ميتيا، وطردت من نفسه سائر الهموم والمشاغل. قال يحدث نفسه: «أراها، أراها أيضاً، أسمعها، أنقطع عن التفكير في أي شيء، أنسى كل ما عداها، ولو ليلةً واحدة، ساعة واحدة، دقيقة واحدة!». وفيما كان ينزل من الشرفة لمح تريفون بوريستش عند مدخل الدهليز. كان تريفون بوريستش حزين الهيئة منزعجاً، وبدا لميتيا أنه كان يبحث عنه.

- أتبحث عني أنا يا تريفون بوريستش؟

فأسرع صاحب النزل يجيبه:

- لا... ليس أنت... ثم علام أبحث عنك؟ ولكن... أين كنت؟

- مالي أراك مظلم الوجه؟ أتراك غاضباً؟ اصبر علينا قليلاً، وسندعك تنام. كم الساعة الآن؟

- هي الثالثة أو تزيد.

- سننصرف.

- لا، لا... في وسعكم أن تبقوا ما شئتم أن تبقوا...

تساءل ميتيا وهو يسرع إلى القاعة التي كانت ترقص فيها البنات: «ماذا حدث له؟». ولكن جروشنكا لم تكن هناك. لا ولا كانت في

الغرفة الزرقاء. وكان كالجانوف ينام على الكنبة نوماً هادئاً. ألقى ميتيا عندئذٍ نظرة خلف الستائر، فإذا هو يجدها هناك. كانت جالسةً في ركن، على صندوق، مسندةً رأسها ويديها إلى حافة السرير، تبكي بكاءً مراً، محاولة أن تخنق نشيجها، جاهدةً أن لا ينفجر انتحابها وأن لا تلفت الانتباه إليها. لمحت ميتيا، فأومأت إليه أن يقترب، وأمسكت يده فضغطتها بيدها ضغطاً قوياً. وقالت هامسة:

- أوه! ميتيا، ميتيا، لقد أحببت هذا الرجل مع ذلك! أحببته كثيراً خلال هذه السنين الخمس! ترى أأحببته أم كنت أحبّ حقدي؟ لا بل أحببته هو! أوه! نعم، هو، هو! أكذب إذا زعمت أنني ما أحببت إلا حقدي! أواه يا ميتيا! لم يكن عمري حينذاك إلا سبعة عشر عاماً، وكان يُظهر لي كثيراً من اللطف والأنس والوداعة، وكان يغني لي أغنيات وكان مرحاً... أم تراه لم يظهر لي فتاناً إلى ذلك الحد إلا لأنني كنت غبية، إلا لأنني كنت طفلة غرة؟... أما اليوم... رباه! إنه ليس هو، إنه ليس ذلك الرجل نفسه! لقد تغير وجهه أيضاً، فهو لا يشبهه البتة. أنكرته حين رأيته أول وهلة. لقد كنت أتساءل طوال الطريق، وأنا آتية إلى هنا مع تيموثي: «كيف أتصرف حين ألقاه؟ ماذا أقول له؟ كيف ينظر كل منا إلى الآخر؟...» وانهارت نفسي... كأنما صُبَّ على رأسي سطلاً من قاذورات. تكلم كما يتكلم معلم مدرسة. اتخذ أوضاع التعالي، واصطنع هيئة الوقار، فأرتج عليَّ وخرست! لم يتح لي أن أقول كلمة واحدة. حسبت في البداية أن وجود ذلك البولندي الطويل يحرجه. كنت جالسة هناك، أمامه، أتساءل لماذا أصبحتُ على حين فجأة لا أجد كلمة أقولها له. إن زوجته، إن تلك المرأة الأخرى هي التي أثرت فيه تأثيراً سيئاً... تلك المرأة التي من أجلها تركني ثم تزوجها بعد ذلك... لقد بدلته

تبديلاً كاملاً. . . يا للعار يا ميتيا! إني لأشعر الآن بالعار من حياتي كلها! لعنت تلك السنون الخمس، إلى الأبد.

وتدفقت دموعها من جديد، ولكنها لم تترك يد ميتيا، بل ضغطتها في يدها مزيداً من الضغط.

- ميتيا، حمامتي، لا تذهب، انتظر لحظة سأقول لك كلمة صغيرة (هكذا دمدمت تقول وهي ترفع إليه بصرها). اسمع. قل لي أنت: من هو الرجل الذي أحبه؟ إنني أحبّ رجلاً هنا. فمن هو ذلك الرجل؟ قل لي هذا أنت!

وأضاءت ابتسامة في وجهها المحتقن من الدموع، والتمعت عيناها في الظلام. وتابعت تقول:

- منذ قليل دخل صقر، فتوقف قلبي عن الخفقان. وقال لي قلبي: «أيتها الغبية، هذا هو، هذا هو الرجل الذي تحبين!» لقد دخلت أنت فأضأت كل شيء. تساءلت: «ولكن ممَّ هو خائف؟». ذلك أنك كنت خائفاً، وقد بلغت من الخوف أنك لم تستطع حتى أن تتكلم. قلت في سري: «ليس خائفاً منهم مع ذلك. أنت لا يمكن أن ترتجف أمام شخص آخر، إنني أعرف ذلك حق المعرفة. وقلت لنفسي عندئذٍ: «إنه خائف مني، مني أنا وحدي»؛ إذ لا شك أن فينيا قد روت لك - أليس كذلك أيها الأحمق؟ - كيف أنني هتفت أقول لأليوشا، من النافذة، إنني قد أحببت ميتنكا مدة ساعة، وإنني ذاهبة الآن. . . لأحب رجلاً آخر! أوه! ميتيا، ميتيا، كيف أمكنني أن أصدق أنني أستطيع أن أحبّ رجلاً آخر بعدك؟ ما كان أغباني! اغفر لي يا ميتيا؟ هل ستغفر لي؟ هل تحبني؟ هل تحبني؟

نهضت جروشنكا بهمة وقوة، ووضعت يديها على كتفيه. أصبح ميتيا أخرس من فرط السعادة، فكان لا يزيد على أن ينظر إلى

عينيها، ووجهها، وابتسامتها... ثم عانقها فجأة وغمرها بالقبلات.

- هل ستغفر لي أنني عذبتك؟ لقد عذبتكم جميعاً، من فرط غضبي وحسرتي! وبدافع الشر وحده جعلت العجوز مجنوناً بحبي... هل تتذكر كيف حطمت في بيتي قدحاً، في ذات يوم، بعد أن شربت؟ لقد تعلمت أنا هذه الحركة، فحطمت اليوم قدحاً وأنا أشرب «نخب قلبي الحقير!». ميتيا، صقري، لماذا لا تقبّلني؟ لقد قبلتني مرةً ثم أمسكت. إنك تنظر إليَّ، وتصغي إليَّ... ما قيمة الإصغاء إليَّ؟ قبلني، بمزيد من القوة، بمزيد من القوة، هكذا، ما دمت تحبني!... لأكونن بعد اليوم عبدة لك، مدى الحياة! ما أحلى أن أكون عبدة... قبلني أيضاً! اضربني! عذبني! افعل بي ما شئت... لأنني أستحق أن تعذبني... لا... انتظر! لنؤجل هذا! لا أريد الآن.

قالت له ذلك ودفعته عنها فجأة. وأردفت تقول:

- اذهب يا ميتيا، سأشرب الآن خمراً، أريد أن أسكر، وسأرقص بعد ذلك، أريد هذا، أريد هذا!

وتخلصت من عناقه وغابت وراء الستائر. تبعها ميتيا. كان كالسكران. «ما قيمة ما سيحدث فيما بعد، ما قيمة ما سيحدث فيما بعد؟ دقيقة كهذه الدقيقة خير من الكون كله». بهذا حدَّث ميتيا نفسه. شربت جروشنكا كأساً أخرى من الشمبانيا سرعان ما صعدت إلى رأسها. جلست على المقعد، في مكانها السابق، وهي تبتسم ابتسامة غبطة وهناءة وسعادة. احمرَّ خداها، احترقت شفتاها. اضطرب نظرها وفي عينيها الساطعتين، كان يُقرأ نداء محموم جامح. كالجانوف نفسه اضطرب من ذلك، كأن شيئاً قد لسع قلبه، فاقترب منها. سألته:

- هل أحسست بالقبلة التي وهبتها لك حين كنت نائماً؟ أوه! أحسّ أني سكرى... وأنت؟ ألم تسكر؟ لماذا لا يشرب ميتيا؟ ميتيا، يجب أن تشرب! أنا شربت وأنت لا تشرب.

- أنا؟ أنا سكران بغير شراب. سكران بك... ولكنني أريد أن أسكر بالخمر أيضاً.

وأفرغ ميتيا في جوفه كأساً آخرى، فإذا بهذه الكأس الأخيرة تفجّر السكر فيه دفعةً واحدة، على حين أن الكؤوس السابقة لم تحدث أثراً فقد كان صاحياً وأدرك هذا إدراكاً واضحاً... شيء غريب! أخذ كل شيء يدور في رأسه منذ تلك اللحظة، فكأنه في حالة هذيان. إنه الآن يمشي، ويضحك، ويكلم كل من يلقاه، دون أن يعي. وفي قلبه كانت تضطرم طوال الوقت عاطفة كاوية ثابتة «تحرقه حرقاً كجمرة» كما قال فيما بعد. وكان يقترب من جروشنكا، ويجلس إلى جانبها، وينظر إليها، ويسمع لكلامها... أما جروشنكا فقد أصبحت تتدفق في هذرها تدفقاً رهيباً؛ وهي تنادي الناس إليها، وتستدعي بنتاً من بنات الجوقة، حتى إذا دنت البنت منها أخذت تقبلها ثم تصرفها أو رسمت عليها إشارة الصليب، حتى لتوشك أن تجهش باكية. وكان يفرحها ويضحكها «العجوز الصغير» خاصةً (هكذا كانت تسمى ماكسيموف). إنه يهرع إليها في كل لحظة ليقبّل يدها. لاثماً كل أصبع من «أصابعها الصغيرة العزيزة»، واحدةً بعد أخرى. وانتهى به الأمر إلى أن أخذ يرقص من جديد على لحن قديم دندنه بصوته. وقد رقص بحماسة خاصة على اللازمة التي كانت تتكرر:

الخنزير الصغير، كريو - كريو

العجل الصغير، مو - مو

البطة الصغيرة، قوا - قوا

الأوزة الصغيرة، جا - جا

والدجاجة الصغيرة تمشي في الدهليز

منادية صغارها: تيورري - ريو - ريو

قالت جروشنكا:

- هلاَّ أعطيته شيئاً يا ميتيا! اهد إليه هدية. إنه فقير. أوه! رباه! يا لهؤلاء الأشقياء جميعاً، يا لهؤلاء المذلِّين جميعاً!... هل تعلم يا ميتيا؟ أريد أن أدخل الدير! بلى! بلى! سأدخل الدير ذات يوم. لقد كلمني اليوم أليوشا بطريقة لن أنساها ما حييت، لن أنساها ما حييت. أما الآن فلنمرح! اليوم سرور وغداً دير! أود أن أقوم بأعمال جنونية! ولسوف يغفر لي الرب. أي ضير في أن أتسلى أيها الناس الطيبون؟ لو كنت أنا الله، إذاً لغفرت لجميع الناس، ولقلت لهم: «يا أعزائي الخاطئين، قد عفوت عنكم منذ اليوم». ولسوف أمضي أطلب الغفران من الجميع قائلة لهم: «أيها الناس الطيبون، اغفروا لامرأة مسكينة حمقاء غبية!». ذلك ما سأقوله لهم. أنا وحش مفترس نعم. ولكنني أريد أن أصلِّي. لقد وهبتُ بصلة أنا أيضاً. إنني، أنا الشقية، أريد أن أصلِّي! دعهم يرقصون يا ميتيا، لا تعكِّر سعادتهم! جميع الناس طيبون، جميعهم بغير استثناء! آه! ما أحلى أن يحيا المرء في هذا العالم! نحن شريرون، ولكن الحياة جميلة جداً.. فينا الخير والشر، الخير والشر في آن واحد... قولوا لي أنتم جميعاً! يجب أن أسألكم هذا السؤال! اقتربوا وقولوا لي: لماذا أنا طيبة إلى هذه الدرجة؟ إنني طيبة فعلاً، فقولوا لي، اشرحوا لي: لماذا أنا طيبة إلى هذه الدرجة؟

بهذا الكلام كانت تدمدم جروشنكا، مغرقة في السكر مزيداً من الإغراق شيئاً بعد شيء، إلى أن أعلنت أخيراً أنها تريد أن ترقص هي نفسها، ونهضت عن كرسيها مترنحة.

- ميتيا، امنعني من أن أشرب أكثر مما شربت. إذا طلبت خمراً فلا تعطني! لا يحمل الكحول إلى النفس السكينة والهدوء. إن كل شيء يدور الآن أمامي، والمدفأة أيضاً! أريد أن أرقص... فلينظر إليَّ الجميع، وليعجبوا برقصي... أرقص جيداً...

كان هذا من جروشنكا عزماً أكيداً وقراراً حاسماً. أخرجت منديلاً صغيراً أبيض من نسيج ناعم رقيق، وأمسكته من أحد أطرافه بيدها اليمنى لتلوِّح به أثناء الرقص. تحرك ميتيا هنا وهناك. صمتت البنات، وتهيأن لأن يصدحن بلحنٍ يرافق الرقص جوقةً واحدة عند أول إشارة. وحين علم ماكسيموف بأن جروشنكا سترقص، راح يطلق صرخات متتابعة من فرط حماسته، وأخذ يتواثب أمامها، وطفق يدندن:

ساقاها دقيقتان ووركاها مدوران

ولكن ذيلها كالبوق

أبعدته جروشنكا عنها بحركة من منديلها، قائلة:

- شت! لماذا لا يجيئون يا ميتيا؟ فليهرعوا جميعاً... لرؤيتي... ونادهما هما أيضاً، ناد المحبوسين... لماذا حبستهما؟ قل لهما إنني أريد أن أرقص. فليجيئا هما أيضاً، ليعجبا بي!

اتجه ميتيا نحو الباب المقفل بالمفتاح، مترنّح الخطى من السكر، وأخذ يقرع الباب بقبضة يده ليلفت انتباه البولنديين.

- هيه! أنتما... اخرجا... إنها سترقص وهي تناديكما.

فصاح أحد البولنديين يجيبه بالبولندية:

- ما جداك (شقي)!

فأجابه ميتيا:

- أنت الشقيّ ما أنت إلا شقي حقير صغير... ذلك أنت!

قال كالجانوف وقد ثمل هو أيضاً، قال بلهجة تتكلف الحكمة:

- هلا كففتم عن إهانة بولندا؟

- اسكت أيها الفتى الصغير! إنني إذ وصفته بأنه شقي، لم أهن بولندا كلها. ليس متعجرفٌ محتالٌ تافه كلَّ بولندي. صمتاً أيها الطفل اللطيف، عليك أن تأكل ملبسة.

قالت جروشنكا وهي تتقدم إلى أمام لترقص:

- يا للأشرار! أليس فيهم شيء من إنسانية؟ لماذا يرفضون أن يتصالحوا؟

غنت الجوقة لحناً شعبياً راقصاً. رفعت جروشنكا رأسها، وفتحت شفتيها، وابتسمت، ولوَّحت بمنديلها، ثم توقفت فجأة وهي تتمايل تمايلاً قوياً في وسط الغرفة، وتشعر بارتباك شديد. وأنَّت تقول بصوت أليم:

- أُحس بوهن.. معذرة. إنني ضعيفة جداً... لا أستطيع... لا تؤاخذوني...

وحيَّت الجوقة بانحناء، ثم حيَّت جميع الحضور وهي تنحني إلى جهات الغرفة الأربع جهة بعد جهة، وتردد قولها:

- لا تؤاخذوني.. لا تؤاخذوني!

قالت بعض الأصوات في الجمهور:

- أسرفت في الشراب، السيدة الشابة!... هي سكرى، السيدة اللطيفة...

وقال ماكسيموف يشرح للبنات ضاحكاً:

- السيدة ثملة قليلاً.

ودمدمت جروشنكا تقول بصوت منطفئ:

- ميتيا... خذني من هنا... انقلني من هنا.

فهرع ميتيا إليها، فتناولها بذراعيه، وأسرع يركض بحمله الثمين إلى ما وراء الستائر. قال كالجانوف لنفسه: «في هذه المرة، آن أوان الانصراف»، وغادر الغرفة الزرقاء مغلقاً الباب وراءه. وتتابع الاحتفال بصخب ما ينفك يشتد. وضع ميتيا صاحبته جروشنكا على السرير، وقبّلها قبلة محمومة على الفم. دمدمت تقول بصوت ضارع:

- لا تلمسني، لا تلمسني، أنا لست لك بعد... قلتُ إنني سأكون لك، ولكن لا تلمسني... ارحمني، اشفق عليَّ... لا تفعل شيئاً الآن، بينما هم لا يزالون هنا. ما ينبغي هذا.. إنه هناك... على بعد خطوتين هذا فظيع ...

قال ميتيا متعثراً في كلامه:

- إنني أطيعك... لم يخطر ببالي هذا... أنا أمامك في نشوة ووجد. نعم، هذا فظيع هنا. يا للمكان الموبوء!

ودون أن يدع عناقها، تهالك على قدميه، قرب السرير.

قالت جروشنكا بصوت رخو:

- أنا واثقة منك، أعرف أنك متوحش، ولكن نفسك نبيلة. يجب أن يجري كل شيء بشرف بعد الآن... أريد أن يكون كل شيء طاهراً... وأن نكون شرفاء أيضاً... لا بهائم، بل بشراً طيبين أنقياء طاهرين... خذني إلى مكان بعيد، بعيد جداً عن هنا، هل تسمع؟ لا أريد بعد الآن أن أعيش هنا... أريد أن أسافر إلى مكان بعيد... بعيد جداً.

قال ميتيا مؤيداً وهو يشدها إلى قلبه:

- بالطبع، سنسافر... سأخذك... سأطير بك!... إنني مستعد لأن أهب حياتي كلها في سبيل سنة واحدة من السعادة معك شريطة أن أعلم ماذا جرى لذلك الدم...

سألته جروشنكا مندهشة:

- أي دم؟

فأجابها ميتيا وهو يصرف بأسنانه:

- لا شيء... إنك تريدين يا جروشنكا أن نكون شرفاء، ولكنني أنا لص. لقد سرقت مال كاتنكا!... يا للعار!... يا للعار!

- كاتنكا؟ الآنسة؟ لا... لم تسرق شيئاً! ردَّ إليها مالها. خذ مالي أنا... ما بك؟ إن كل ما أملكه أنا هو الآن لك. ما حاجتنا إلى المال؟ سوف نبدده على كل حال في القصف واللّهو. إن أمثالنا لا يحسنون الاحتفاظ بالمال. إنني لأوثر أن نحرث الأرض معاً. أريد أنا أن أعمل في الأرض بهاتين اليدين اللتين تراهما. إن من واجبنا أن نعمل، هل تسمع؟ أليوشا هو الذي شرح لي ذلك. لن أكون خليلتك، بل حليلتك، زوجتك الوفية، عبدتك المخلصة... سأتعب وأجهد في سبيلك... سوف نذهب إلى الآنسة، فننحني لها بتحية عظيمة حتى تغفر لنا قبل رحيلنا. وإذا لم تغفر، فسنرحل مع ذلك. أما المال فسترده إليها. إن عليك أن تحبني أنا... لا أريد أن تحبها هي!... إنني أمنعك من أن تحبها... وإلا فلأخنقنَّها... لأفقأنَّ عينيها بإبرة طويلة...

- أنت من أحب، أنت وحدك، وسأظل أحبك في سيبيريا أيضاً.

- لماذا تتكلم عن سيبيريا؟ لا بأس! سنسافر إلى سيبيريا إذا كنت ترغب في ذلك... يستوي الأمر عندي... إن في وسعنا أن نعمل هناك كما في أي مكان آخر... إن في تلك البلاد ثلجاً كثيراً.. وأنا أعشق أن أركب الزلاجات التي تنزلق على الثلج سريعة مجلجلةً أجراسُها. هل تسمع؟ لكأن جرساً يرن في مكان ما. من أين يأتي رنين هذا الجرس؟... لا شك أنهم مسافرون قد وصلوا إلى

النزل... انقطع الصوت الآن.

وأغمضت جروشنكا عينيها، متعبة إلى أقصى حدود التعب، وغفت بضع لحظات. كان جرس قد رنَّ فعلاً في بعيد ثم صمت. مال ميتيا برأسه على صدر جروشنكا. لم يكن قد انتبه إلى صوت الجرس وإلى انقطاع رنينه فجأة؛ لا ولا لاحظ أن الأغاني قد توقفت وأن الصخب الذي كان يسيطر على النزل حتى ذلك الحين قد حلَّ محله فجأة صمت كصمت الموت. وفتحت جروشنكا عينيها بعد دقيقة. قالت:

- ماذا يجري؟ أأنا نمت؟ نعم... ذلك الجرس... لقد نمت وحلمت بأنني محمولة على زلاجة فوق الثلج... كان الجرس يرن، وكنت أنا نائمة. كنت مسافرة مع رجل عزيز على قلبي، معك أنت. وكنا ذاهبين إلى مكان بعيد، بعيد جداً... وكنت أقبلك وأشد جسمي إلى جسمك، لأنني كنت أحسّ ببرد فيما يبدو... وكان الثلج يسطع... ما كان أعجبه من إحساس... الثلج الباهر، وضياء القمر... لكأن ذلك لم يكن على الأرض... واستيقظت، فإذا أنا أراك، يا حبيبي، قريباً مني... ما أحلى هذا!...

ردَّد ميتيا كلامها قائلاً وهو يلثم ثوبها وعنقها ويديها:

- نعم، قريباً منك كل القرب.

وأحس فجأة بإحساس غريب: خيِّل إليه إنها تنظر إلى أمام، ولكن عينيها بدلاً من أن تستريحا على وجهه، تتطلعان إلى ما وراء رأسه، في جمود عجيب. عبَّرت قسمات جروشنكا عن الدهشة أولاً، ثم عن الخوف.

ودمدمت تقول:

- ميتيا! من ذا يرقبنا من وراء الستائر؟

التفت ميتيا فإذا هو يلمح شخصاً يبدو أنه يرصدهما مبعداً الستائر؛ حتى لقد أحسَّ أن هناك عدة أشخاص يقفون هناك. فنهض من مكانه بسرعة وقوة، واتجه نحو ذلك الشخص الفضولي. فإذا هو يسمع صوتاً يقول:

- هل تتفضّل معنا أيها السيد؟

كان المنادي المجهول يتكلم بصوت مخفوض ولكنه جازم قاطع.

خرج ميتيا من وراء الستائر، فإذا هو يتجمد في مكانه. كانت القاعة ملأى بالناس، ولكن هؤلاء الناس ليسوا أولئك الذين كانوا يلهون ويقصفون منذ قليل. لقد احتل الغرفة أشخاص جدد. شعر ميتيا برعدة تسري في ظهره كله فارتجف. إن ميتيا يعرف هؤلاء الأشخاص جميعاً، وها هو ذا يتعرفهم الآن دفعة واحدة. إن الرجل العجوز السمين الطويل الذي يرتدي معطفاً ويضع على رأسه قبعة ذات شارة، هو رئيس الشرطة ميخائيل ماكاروفتش. وهذا الشاب الذي يوحي مظهره بأنه مصدور والذي يتأنق في ملبسه تأنقاً عظيماً ويلتمع حذاؤه دائماً إنما هو وكيل النيابة. «إنه يملك ساعة من ذهب قيمتها أربعمائة روبل. لقد أرانيها في ذات يوم» لأعجب بها. أما ذلك الشاب الآخر القصير القامة الذي يضع على عينيه نظارتين... فلم يتذكر ميتيا اسمه، ولكنه يعرفه أيضاً وقد سبق أن رآه: إنه قاضي التحقيق الذي تخرج من «مدرسة الحقوق» ووصل إلى المدينة منذ مدة غير طويلة. وهذا موظف الشرطة مافريكي مافريكفتش الذي يعرفه ميتيا منذ زمن بعيد. ولكن ماذا جاء يفعل هنا هؤلاء الرجال الآخرون الذين يحملون على صدورهم صفائح معدنية؟[26] وهذان الفلاحان؟... وبعد هؤلاء جميعاً، لمح ميتيا، عند فرجة باب المدخل، كالجانوف وتريفون بوريستش.

قال ميتيا:

- ماذا أيها السادة؟ ماذا جرى؟

ولكنه لم يلبث أن هتف يقول فجأة بملء صوته، كأنما تدفعه إلى ذلك قوة لا سبيل إلى مقاومتها:

- ف. . . همت!

تقدم الشاب ذو النظارتين من ميتيا وقال له بصوت وقور وبشيء من السرعة:

- كنا نريد. . . الخلاصة. . . أرجوك أن تجلس هنا، على الكنبة. . . ثمة حاجة ملحة إلى أن توضح لنا الأمر.

صرخ ميتيا خارجاً عن طوره:

- العجوز. . . والدم المسفوح. . . ف. . . . همت!

وكإنما انهارت قواه على حين فجأة، فتهالك على كرسيٍّ كان هناك.

فإذا برئيس الشرطة العجوز يزأر فجأة وهو يقترب من ميتيا:

- آ. . . فهمت؟ فهمت؟ يا قاتل أبيه! أيها الشيطان! إن دم أبيك يتهمك!

كان رئيس الشرطة أحمر الوجه من شدة الغضب، وكان جسمه كله يرتجف.

فصاح الشاب القصير القامة:

- ولكن ليس بهذه الطريقة يا ميخائيل ماكاروفتش. يجب أن أكون أنا وحدي أول المتكلمين. . . ما كنت أتوقع منك سلوكاً كهذا السلوك.

فاستأنف رئيس الشرطة كلامه قائلاً:

- هذا هذيان. . . هذا مشهد هذيان أيها السادة. انظروا إليه. . .

تضرج بدم أبيه ثم هو يقضي السهرة لاهياً عابثاً ماجناً في صحبة بنت من بنات الهوى... هذا هذيان، هذا هذيان...

أسرع وكيل النيابة يهمس في أذن رجل الشرطة العجوز قائلاً:

- أرجوك وألحّ في الرجاء أن تسيطر على انفعالاتك يا عزيزي ميخائيل ماكاروفتش، وإلا اضطررت أن أتخذ إجراءات من أجل أن...

ولكن قاضي التحقيق الصغير لم يدع له أن يتم جملته، فها هو ذا يتجه إلى ميتيا، ويعلن له بوقار، وبصوت عال صارم:

- أيها السيد الملازم المتقاعد كارامازوف، إن من واجبي أن أبلغك أنك متهم بمقتل أبيك فيدور بافلوفتش كارامازوف، الذي قُتل في هذه الليلة...

وأضاف قاضي التحقيق بضع كلمات أيضاً. وتدخل وكيل النيابة قائلاً شيئاً بعد ذلك، فيما تراءى لميتيا... ذلك أن ميتيا، رغم أنه قد جهد أن يصغي، أصبح لا يفهم شيئاً، وإنما هو يتفرس وجوههم مجنون العينين....

الباب التاسع

التحقيق التمهيدي

– 1 –

البدايات الموفّقة للموظف برخوتين

إن بيتر ايلتش برخوتين الذي تركناه يطرق طرقات ما تنفكّ تزداد وتقوى، على الباب السميك لمنزل الأرملة موروزوفا، قد توصل طبعاً إلى أن يحملهم على أن يفتحوا له. وحين سمعت فينيا هذا الصخب أمام باب الدخول، وكانت لم تفق بعد من الذعر الذي أصابها قبل ساعتين، ولا عزمت أمرها على أن تنام، من شدة اضطرابها و«كثرة أفكارها»، حين سمعت فينيا هذا الصخب استبد بها هلع قاتل مرة أخرى: ذلك أنها ظنت أن دمتري فيدوروفتش قد عاد (رغم أنها رأته يسافر على عربة ترويكا). فمَنْ غيره يمكن أن يطرق الباب «بمثل هذا العنف»؟. وهرعت إلى البواب الذي أيقظته الضجة وهمَّ أن يفتح الباب، فتوسلت إليه أن لا يسمح لأحد بالدخول. ومع ذلك سأل البوابُ الطارقَ عن اسمه من خلال الباب، فلما عرف صفته، وعرف أنه يريد أن يكلّم فيدوسيا ماركوفنا في أمر هام جداً، قرر أن يفتح له. مضى بيتر ايلتش رأساً إلى المطبخ ليرى فينيا التي أصرَّت، من باب «تجنب الشك»، أن يحضر البواب المقابلة. أخذ الموظف يلقي الأسئلة على المرأة، فسرعان ما وقع على أمرٍ أساسي: هو أن دمتري فيدوروفتش حين مضى يبحث عن جروشنكا قد أخذ مدقَّ الهاون، وأنه رجع بعد ذلك دامي اليدين ولم يكن

المدقّ معه. «كان الدم يسيل ويتساقط قطرات كبيرة على الأرض». كذلك هتفت تقول فينيا التي اخترع خيالها المضطرب هذا الوصف التفصيلي الرهيب اختراعاً على غير شعور منها. وكان بيتر ايلتش قد رأى الدم في يدي ميتيا بنفسه على كل حال، وإن لم يكن يسيل، وقد ساعده على غسل يديه. ولم يكن يهمُّ بيتر ايلتش أن يتساءل على كل حال: أجفَّ الدم بسرعة أم لا، وإنما كان يهمه أن يعرف: ماذا فعل دمتري فيدوروفتش بمدق الهاون هذا، وإلى عند من ذهب؟ هل يمكن أن يُستدل من ذلك على وجه اليقين أنه ذهب إلى منزل أبيه، وعلى أي شيء يستند هذا الاستدلال؟ لذلك ألحَّ بيتر ايلتش على هذه النقطة إلحاحاً خاصاً؛ ثم انتهى إلى الاقتناع التام تقريباً، رغم أن فينيا لم تقدم إليه أية قرينة واضحة دقيقة، بأن دمتري فيدوروفتش لا يمكن أن يكون قد ذهب إلا إلى منزل أبيه وأن شيئاً ما لا بد أن يكون قد حدث هنالك حتماً. أضافت فينيا تقول متأثرةً أشد التأثر: «حين رجع، قصصت عليه كل شيء، ثم سألته بعد ذلك لماذا أرى يديه داميتين»، فأجاب بأن هذا دم إنسان، وبأنه قد قتل إنساناً منذ برهة. «اعترف لي بذلك في هذا المكان نفسه في هذا المطبخ، ثم ولَّى هارباً كمجنون. أخذت أفكر بعد انصرافه: إلى أين يركض هذا الركض؟ لا شك أنه ينوي أن يسافر إل موكرويه ليقتل الآنسة المسكينة، فاندفعت ألاحقه، لأتوسل إليه أن لا يسيء إلى مولاتي؛ وكنت آمل أن أجده في مسكنه، ولكنني لمحته أمام متجر آل بلوتنيكوف وهو يهم أن يسافر، وكانت يداه عندئذٍ نظيفتين» (لقد لاحظت فينيا هذا الأمر التفصيلي وحفظته). وقد أكدت جدة فينيا العجوز أقوال حفيدتها على نحو ما استطاعت أن تفعل.
وبعد أن ألقى بيتر ايلتش بضعة أسئلة أخرى خرج من المنزل وهو أشد اضطراباً وقلقاً مما كان عند وصوله إليه.

ربما بدا أن أبسط شيء الآن هو أن يذهب بيتر ايلتش إلى منزل فيدور بافلوفتش مستطلعاً هل حدث له شيء، وأن لا يبلغ رئيس الشرطة إلا بعد ذلك، مستنداً إلى معلومات ثابتة. وهذا ما خطر ببال بيتر ايليتش في أول الأمر فعلاً. ولكن الليل حالك الظلام، وأبواب منزل كارامازوف لا بد أن تكون سميكة، فسيكون عليه إذاً أن يطرق من جديد، وأن يُحدِثَ ضجّةً وصَخَباً وهو لا يعرف فيدور بافلوفتش إلا معرفة سطحية. فما عسى يحدث إذا قيل له، بعد أن يفتح له الباب، إن شيئاً لم يقع؟ إن فيدور بافلوفتش الساخر لن يفوته أن يروي للمدينة كلها في الغد، من باب التندر، أن الموظف برخوتين، الذي ليس بينه وبينه صلة ولا معرفة، قد اقتحم منزله عند منتصف الليل ليسأله هل قتله أحد. ليكونن هذا فضيحة! وبيوتر ايلتش لا يرهب شيئاً في هذا العالم كما يرهب الفضيحة! غير أن العاطفة التي كانت تدفعه إلى العمل والحركة قد بلغت من القوة أنه بعد أن قرع الأرض بقدمه غاضباً وشتم نفسه، أسرع يتخذ قراراً جديداً: هو أن يذهب لا إلى دار فيدور بافلوفتش بل إلى السيدة خوخلاكوفا. سوف يسألها هل صحيح أنها أعطت دمتري فيدوروفتش ثلاثة آلاف روبل منذ بضع ساعات، فإذا أجابته بالنفي ذهب إلى رئيس الشرطة لا يلوي على شي ولا يمر بمنزل فيدور بافلوفتش؛ وإلا أرجأ مساعيه إلى الغد ورجع إلى بيته. وواضح أن بيتر ايليتش حين يذهب في الساعة الحادية عشرة من الليل إلى سيدة من سيدات المجتمع لا يعرفها، وقد يحملها على النهوض من سريرها ليلقي عليها سؤالاً قد يبدو في مثل هذه الظروف غريباً سخيفاً يعرضه لإحداث فضيحة أكبر من فضيحة ذهابه إلى فيدور بافلوفتش. غير أن تناقضات من هذا النوع قد يرتكبها، في ظروف كهذا الظرف، أشخاص هم أكثر الناس

برودة نفس ورويّة تفكير. فما بالك وقد فقد بيتر ايلتش في تلك اللحظة كل برودته وكل رويته! لسوف يظل يتذكر طوال حياته كيف أن قلقاً لا سبيل إلى التغلب عليه قد اجتاح نفسه شيئاً بعد شيء، ثم استحال أخيراً إلى عذاب حاد دفعه في تلك الليلة إلى أن يتحرك ويتدخل، على غير إرادة منه تقريباً. والحق أنه قد استاء وغضب أثناء الطريق، وقرَّع نفسه على أنه سيزعج هذه السيدة، ولكنه حلف «ليسيرنَّ إلى آخر الشوط، مهما كلّف الأمر»، وردد ذلك عشر مرات وهو يصرف بأسنانه. وقد برَّ بيمينه، فمضى إلى آخر الشوط فعلاً.

كانت الساعة هي الحادية عشرة تماماً حين دخل منزل السيدة خوخلاكوفا. لقد فُتح له الباب بغير مشقة، ولكن البواب لم يستطع أن يقول له على وجه اليقين أَرَقدت السيدة أم لا، واكتفى بأن ذكر له أنها تتهيأ للنوم عادةً في مثل هذه الساعة. وأضاف يقول: «اصعد إلى فوق، واعلن عن نفسك، فإذا شاءت استقبلتك، فكل شيء رهن بإرادتها». صعد بيتر ايلتش إلى الطابق الأول. وهنالك أخذت تتعقد الأمور. رفض الخادم أن يبلغ السيدة خوخلاكوفا وصوله، ونادى الخادمة. فرجاها بيتر ايلتش، بأدب ولكن بإلحاح، أن تبلغ السيدة خوخلاكوفا أن الموظف برخوتين يريد أن يكلمها حالاً، وأنه ما كان له أن يزعجها لولا أن الأمر الذي يريد أن يكلمها فيه هو على جانب عظيم من الخطورة حقاً! «انقلي إليها هذه الكلمات نقلاً دقيقاً». بذلك أوصى برخوتين الخادمة حين مضت تبلغ مولاتها. انتظر بيتر ايلتش في الدهليز. وكانت السيدة خوخلاكوفا في غرفة نومها، ولكنها لم تكن قد نامت بعد. لقد هزتها زيارة ميتيا، وهي تتنبأ بأنها لن تنجو في هذه الليلة من الصداع الشديد الذي يلم بها عادة في أعقاب انفعالات من هذا النوع. فلما سمعت ما قالته لها خادمتها

دُهشت، ومع ذلك أمرت خادمتها، بلهجة حانقة، أن تصرف هذا الزائر رغم أن مجيء «الموظف برخوتين» إليها في مثل هذه الساعة، على غير توقع، قد أثار فيها فضولاً قوياً. ولكن بيتر اليتش عَنَدَ في هذه المرة عناد بغل. فلما علم أن السيدة خوخلاكوفا ترفض استقباله، طفق يلحُّ من جديد إلحاحاً شديداً على أن تنقل الخادمة إلى مولاتها أقواله حرفاً حرفاً: وهي أنه جاء «لأمر يبلغ من خطورة الشأن أن السيدة قد تندم إذا هي لم تستقبله». وقد روى فيما بعد أنه أحسّ في تلك الدقيقة أنه «يسقط في هاوية». تفرّست فيه الخادمة مندهشة، وأسرعت تقوم بالواجب الذي عهد إليها أن تقوم به. ذُهلت السيدة خوخلاكوفا، وفكرت بضع لحظات، وسألت عن مظهر الزائر، فقيل لها أنه «حسن الهندام، شاب، مهذب جداً». يجب أن نذكر هنا عابرين أن بيتر ايلتش فتى جميل جداً، وإنه كان شاعراً بذلك. عندئذٍ قررت السيدة خوخلاكوفا أن تسمع له. وإذ كانت بثوب المنزل، والخفين، فقد ألقت على كتفيها شالاً أسود. وأُدخل الموظف إلى الصالون، حيث استُقبل ميتيا قبل بضع ساعات. تقدّمت ربة المنزل بوجه متجهم مستجوب، وسألته دون أن تدعوه إلى الجلوس: «ماذا تريد مني أيها السيد؟».

فبدأ برخوتين كلامه قائلاً:

- لقد جازفت فجئت أزعجك في أمر يتعلق بصديقنا المشترك دمتري فيدوروفتش كارامازوف...

ولكن ما إن نطق بهذا الاسم حتى ارتسم على وجه السيدة خوخلاكوفا حنق شديد، فهمّت أن تصرخ، ولكنها أمسكت، وقاطعت محدثها قائلة له بلهجة عنيفة هائجة:

- إلى متى، إلى متى أظل أُعذَّب بسبب هذا الإنسان الفظيع؟

كيف تجرأت أيها السيد، كيف سمحت لنفسك أن تزعج سيدة لا تعرفها، أن تجيء تضايقها في منزلها، في مثل هذه الساعة... متحدثاً إليها عن شخص أراد منذ ثلاثة ساعات، في هذا الصالون نفسه، في هذا المكان نفسه، أن يقتلها... وقرع الأرض بقدمه، ثم خرج بطريقة ما كان لأحد يسمح لنفسه بمثلها في منزل محترم! اعلم أيها السيد أنني سأقدم شكوى ضدك... أنني لن أسكت لك عن هذه الوقاحة... وأرجوك أن تخرج من مسكني فوراً... أنا أم... وأنا... أنا... حالاً...

- أراد أن يقتلك؟ أأراد أن يقتلك أنت أيضاً؟

- هل قتل إذاً أحداً؟

كذلك سألت السيدة خوخلاكوفا بحرارة. فأجابها برخوتين بصلابة:

- إذا وافقت على أن تسمعي لي، ولو نصف دقيقة، يا سيدتي، شرحت لك كل شيء في بعض كلمات. في هذا اليوم، في الساعة الخامسة بعد ظهر هذا اليوم، جاء إليَّ السيد كارامازوف رجاني رجاء الصديق أن أقرضه عشر روبلات. وأنا أعلم علم اليقين أنه كان في تلك اللحظة خالي الوفاض؛ وفي هذا اليوم نفسه، في الساعة التاسعة، رجع إليَّ ممسكاً بيديه حزمةً من أوراق مالية تقدر بألفي روبل أو بثلاثة آلاف روبل. وكانت يداه ووجهه ملطخة بالدماء، وكان يتصرف تصرف مجنون. فلما سألته من أين أتى بهذا المال كله، أجابني إجابةً واضحة دقيقة بأنه قد استلمه منك قبل لحظات، وبأنك قد أعطيتِهِ ثلاثة آلاف روبل من أجل أن يسافر باحثاً عن مناجم الذهب فيما زعم...

ظهرت على وجه السيدة خوخلاكوفا علائم انفعال شديد عنيف

أليم. وصاحت تقول وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى:

- يا رب السماء! لقد قتل أباه العجوز... أنا لم أعطه مالاً قط، لم أعطه مالاً قط... آه... اركض، اركض بسرعة، لا تقل كلمة واحدة أخرى، لا تضيع الوقت! أنقذ أباه، أسرع إلى نجدته، أنقذه!

- اغفري لي إلحاحي يا سيدتي. أنت تؤكدين أنك لم تعطه مالاً، فهل ذكرياتك واضحة في هذه النقطة؟

- لم أعطه شيئاً، لم أعطه كوبكاً واحداً. رفضت أن أقرضه، لأنه لم يقدر نواياي حق قدرها. وانصرف كمجنون مسعور قارعاً الأرض بقدمه. وقد هجم عليَّ، ولكنني استطعت أن أقفز جانباً... وإني لأسر إليك أيضاً، لأنني قررت أن لا أكتمك شيئاً بعد الآن، أنه قد بصق عليَّ، هل تستطيع أن تتخيل هذا؟ ولكن لماذا نحن واقفان؟ اجلس... أرجوك... معذرة... أنا... لا بل اركض، اركض بسرعة. واجبك أن تنقذ العجوز المسكين من ميتة فظيعة.

- ولكن ما دام قد قتله...

- آ... نعم... رباه هذا صحيح! فماذا نفعل الآن؟ هل في ذهنك فكرة عما يجب أن نفعله؟

ومع ذلك أجلست بيتر ايلتش وجلست أمامه. بسّط لها بيتر ايلتش، بإيجاز ولكن بوضوح، لبَّ القضية، في حدود ما شهده بنفسه في ذلك اليوم على الأقل. وروى لها أيضاً أنه زار فينيا، وما ذكرته له عن مدق الهاون. فكان من شأن هذه التفاصيل أن هزَّت السيدة المضطربة هزاً عنيفاً فلم تستطع أن تحبس، أثناء هذه القصة، صرخات الارتياع والهول حتى إنها وضعت يديها أمام عينيها عدة مرات...

- فظيع... رهيب... تصوّر مع ذلك أنني أوجست بالنبوءة كلَّ

شيء. لقد أُوتيت موهبة عجيبة في التنبؤ. وما أتنبأ به يتحقق لا محالة. كم من مرة قلت لنفسي وأنا أنظر إلى هذا الرجل الكريه: «سيقتلني هذا الرجل أخيراً في ذات يوم». وذلكِ ما وقع.. أقصد أنه إذا كان لم يقتلني بل قتل أباه، فإنما يرجع الفضل في ذلك إلى تدخل العناية الإلهية. لا شك أن الله قد حماني ونجّاني في ذلك الحين. أضف إلى ذلك أنه لم يجرؤ أن يقتلني لأنني كنت قد علّقت في عنقه، هنا في هذا المكان نفسه، الأيقونة المقدسة لشهيدة عظيمة... ولم يكن يخطر ببالي عندئذٍ أنني ألامس الموت ملامسة قريبة في تلك اللحظة. اقتربت منه، ومسسته تقريباً، فمدَّ لي عنقه... يجب أن أقول لك يا بيتر ايليتش (معذرة، أليس اسمك بيتر ايليتش؟)، يجب أن أقول لك آه... رباه! إنني كنت لا أؤمن بالمعجزات حتى الآن، ولكنني أشعر باضطراب شديد حين أتذكر أن تلك الأيقونة التي علقتها في عنقه قد أنقذتني بمعجزة من ميتة فظيعة! إنني أحسّ بأنني متأهبة للإيمان من جديد بكل شيء... لا شك أنك تعرف قصة الأب زوسيما تلك، أليس كذلك؟ أراني أتيه، فلا أعرف ماذا أقول.. تصوّر أنه، رغم تلك الأيقونة، قد بصق عليَّ... بصق فحسب، صحيح هذا، ولم يقتلني... واضح الآن إلى أين مضى مسرعاً! ماذا يجب أن نقرر الآن، ما الذي يجب أن نعمله، قل لي؟

نهض بيتر ايليتش معلناً أنه سيذهب حالاً إلى رئيس الشرطة ليطلعه على الأمر، فيتولى رئيس الشرطة عمل ما يجب عمله.

- إنه رجل ممتاز، ممتاز، أنا أعرفه. ميخائيل ماكاروفتش: ذلك هو بعينه الرجل الذي يجب إبلاغه الأمر. ما أفطنك يا بيتر ايلتش. فكرتك رائعة، وما كان لها أن تخطر ببالي أنا، لو كنت في مكانك.

قال بيتر ايليتش، وهو ما يزال واقفاً، محاولاً أن يتخلص بأسرع

وقت من هذه المرأة المهذار التي لا تدع له فرصة التفوه بكلمة واحدة ليستأذن بالانصراف، قال:

- لا سيما وأنني أعرفه أنا أيضاً معرفة شخصية.

تابعت السيدة خوخلاكوفا تقول من دون أن تيأس:

- اسمع، اسمع، يجب أن تجيء إليَّ حتماً لتطلعني على ما تكون قد علمته... على الوقائع التي أمكن أن تعرف... وكذلك على العقوبة التي سيُحكم بها. أظن أن الحكم بالإعدام لا وجود له عندنا، أليس كذلك؟ تعال إليَّ حتماً، ولو في الساعة الثالثة من الصباح، أو في الساعة الرابعة، أو حتى في الساعة الرابعة والنصف. اطلب إيقاظي، وليجرّوني من السرير جرّاً إذا تطلّب الأمر، أو إذا أنا أصررت على النوم... رباه! أنَّى لي أن أرقد بعد كل هذا؟ تراودني فكرة: ما رأيك في أن أرافقك إلى عند رئيس الشرطة؟

- لا... لا داعي إلى هذا. ولكن إذا وافقت، في مقابل ذلك، أن تكتبي لي، بخط يدك، تصريحاً في ثلاثة أسطر تشهدين فيه بأنك لم تعطِ دمتري فيدوروفتش مالاً قط، فأعتقد أن هذا يمكن أن يفيدنا... عند الاقتضاء.

صاحت السيدة خوخلاكوفا تقول واثبةً عن مكانها بحماسة، متجهة إلى مكتبها الصغير:

- طبعاً! طبعاً! هل تعلم أنك تدهشني بسداد رأيك، ونفاذ بصيرتك وبما تبرهن عليه في هذا المجال من حذق ومهارة! أأنت تعمل موظفاً في مدينتنا؟ ما أسعدني إذ أعرف أن موظفين أفذاذ مثلك يعملون في مدينتنا أنا معجبة بك أشدّ الإعجاب...

وفيما كانت السيدة خوخلاكوفا تتكلم، خطّت بسرعة، على ورقة رسائل، الأسطر التالية، بأحرف كبيرة:

«لم أقرض دمتري فيدوروفتش كارامازوف، العاثر الحظ، ثلاثة آلاف روبل أبداً (ذلك أنه الآن شقي عاثر الحظ). لم أقرضه كوبيكاً واحداً، لا اليوم، ولا في أية لحظة أخرى، أبداً أبداً. أحلف على هذا بكل ما هو عندي مقدس في هذا العالم.

خوخلاكوفا»

ثم التفتت بقوة نحو بيتر ايليتش فقالت له:

- إليك تصريحي. فأسرع الآن. يجب إنقاذ هذا الرجل. هذا عمل نبيل تقوم به.

ورسمت عليه إشارة الصليب ثلاث مرات، ثم شيعته إلى الدهليز.

- ما أعظم شكري لك! لا تستطيع أن تتصور مدى امتناني لأنك جئت إليَّ أولاً! خسارة أنني لم أعرفك قبل الآن! لسوف يسعدني في المستقبل أن أستقبلك في منزلي. إنه ليسرني أنك تعمل هنا موظفاً دقيقاً هذه الدقة، حصيفاً هذه الحصافة خاصةً... عليهم أن يقدروك حق قدرك. ويفهموك آخر الأمر... واعلم على كل حال أنني مستعدة من جهتي لأن أبذل كل ما في وسعي من أجلك... أوه! إنني أحبّ الشباب، إنني مغرمة بالشباب حقاً! الشبيبة في أيامنا هذه هم قوة بلدنا الشقية روسيا! أنتم أملها... أنتم مَعْقَد رجائنا هيَّا، هيَّا، أسرع...

ولكن بيتر ايليتش كان قد نزل إلى الشارع، وإلا لحبسته زمناً آخر. يجب أن نقول من جهة أخرى إن السيدة خوخلاكوفا قد أحدثت في نفسه أثراً طيباً خفَّف عنه ما كان يشعر به من قلق لتدخله في قضية مزعجة. إنكم تعلمون أن الأذواق في هذا العالم مختلفة متنوعة. قال بيتر ايلتش لنفسه راضياً مسروراً: «ليست متقدمة في

السن كثيراً. كان يمكن بسهولة أن أحسبها ابنتها».

أما السيدة خوخلاكوفا فقد افتتنت به افتتاناً. «ما أروع هذا الحذق وهذه الدقة في شاب، ذلك عدا آدابه الكيِّسة ومظهره اللطيف الجذاب! تلك مزايا نادرة في هذه الأيام! يدعون أن شبابنا اليوم لا قيمة له. فهذا مثال يبرهن على نقيض ما يدعون»، إلخ، إلخ. وقد انتهت السيدة خوخلاكوفا من ذلك إلى نسيان «الحادث الفظيع»، ولم تتذكر إلا على سريرها أنها «لامست الموت ملامسة قريبة». فدمدمت تقول: «شيء رهيب، شيء رهيب»، ثم لم تلبث أن نامت نوماً عميقاً هادئاً. على أنني ما كان لي أن أسهب في ذكر هذه التفاصيل الثانوية، لولا أن هذا اللقاء العجيب الذي يتم بين رجل شاب وأرملة ما تزال نضرة، وهو اللقاء الذي وصفته الآن، إنما كان نقطة انطلاق في حياة هذا الموظف الدقيق المنظم. إن الناس في مدينتنا ما يزالون حتى يومنا هذا يتكلمون عن هذا مندهشين، وربما عرضت لنا فرصة أن نقول بضع كلمات عنه في نهاية هذه القصة الطويلة التي نكتبها عن الإخوة كارامازوف.

– 2 –

التبليغ

إن رئيس شرطتنا ميخائيل ماكاروفتش ماكاروف، وهو مقدم محال على التقاعد ويحمل رتبة «مستشار القصر»، رجل أرمل يمتاز بأنه على جانب عظيم من الشهامة والطيبة. لقد جاء إلى مدينتنا منذ ثلاث سنين واستطاع أن يكسب مودة جميع الناس له، ولا سيما لِما أوتي من موهبة فذة في «جمع وجوه المدينة بمنزله». يظهر أنه ما كان ليستطيع أن يعيش يوماً واحداً دون أن يستقبل في داره عدداً من الأصدقاء. كان لا يخلو بيته يوماً من ضيف على العشاء، ولو كان عدد الضيوف شخصاً أو شخصين؛ وما كان ليجلس إلى المائدة في منزله بغير مدعوين. وكان يتفق له في بعض الأحيان أن يولم ولائم كبيرة، متعللاً بحجج كثيرة متنوعة، حججٍ قد لا تخطر بالبال. ولئن لم تكن أصناف الطعام فاخرة فقد كانت دائِماً وافرة. ومع ذلك كانت فطائر السمك التي تقدَّم في بيته شهيرة ورائعة. وقد لا تكون أنواع الخمور أجود الأنواع، ولكن كثرتها تنوب عن جودتها على كل حال. إن الغرفة الأولى من مسكنه قد هيئت قاعةً للعب البلياردو، وأُثّث تأثيثاً أنيقاً، وازدانت جدرانها بصور مؤطرة بأطر سوداء لخيول سباق إنجليزية، وتلك هي كما تعلمون الزينة المألوفة التي تزّين كلَّ قاعة بلياردو في منزل رجل عازب. وكان لعب الورق يدور كلَّ مساء

في منزل ميخائيل ماكاروفتش، وإن يكن عدد اللاعبين يقتصر أحياناً على الأشخاص الجالسين على منضدة واحدة. على أن الاستقبالات التي تحضرها صفوة المجتمع من مدينتنا في منزله كانت كثيرة، وكانت الأمهات تصطحب إليها بناتها، لأنها كان يُرقص فيها. وكان ميخائيل ماكاروفتش يعيش حياة عائلية رغم أنه أرمل، في صحبة ابنته التي ترمّلت هي أيضاً منذ مدة طويلة، وفي صحبة حفيدتيه اللتين بلغتا مبلغ الرشد وأنهتا تحصيلهما. لم تكن الفتاتان دميمتين البتة، وكانتا بما تنعمان به من مرح الطبع وحسن المزاج تجتذبان شباب المجتمع في مدينتنا، رغم أنه كان معروفاً أنهما لا تملكان مهراً. ولم يكن ميخائيل ماكاروفتش لامع الذكاء، ومع ذلك كان يقوم بمهام عمله كما يمكن أن يقوم بها رجل آخر. وإذا أردنا أن نقول الحقيقة وجب أن نذكر أنه كان ضئيل الحظ من الثقافة، وكان قليل الاهتمام بالحدود الدقيقة التي تقف عندها صلاحياته الإدارية. كان معنى بعض الإصلاحات[27] التي تحققت في النظام الجديد يغيب عنه، وكثيراً ما كان يفسر هذه الإصلاحات تفسيراً يشتمل على أخطاء فادحة مذهلة، لا لعجز منه بل لقلة اكتراث، فإنه لم يكن يجد في وقته متسعاً لدراستها دراسة عميقة. وكان يحب أن يقول عن نفسه: «إن لي أيها السادة روح رجل عسكري لا رجل مدني». ورغم أنه كان من ملاكي الأراضي، فإن ما علق بهذه من معلومات تتعلق بالإصلاح الزراعي قد ظلت غامضة مبهمة، وكانت هذه المعلومات تكتمل سنة بعد سنة، على غير إرادة منه إن صح التعبير، فإنما هي تكتمل بالتجربة الناشئة عن الممارسة العملية. كان بيتر ايليتش يعلم أنه سيلتقي عند رئيس الشرطة في ذلك المساء بضيوف، ولكن كان يجهل من عسى يكون عنده من هؤلاء الضيوف. ومن المصادفات أن ميخائيل

ماكاروفتش كان في ذلك المساء يلعب بالورق مع النائب العام وطبيب المنطقة (الدكتور الشاب فارفنسكي الذي وصل من بطرسبرج مؤخراً وكان من أوائل متخرجي أكاديمية الطب). فأما النائب العام ايبوليت كيريلوفتش - وكان يسمى نائباً من قبيل المجاملة، لأنه لم يكن في الواقع إلا وكيل نيابة - فهو رجل على حدّة، ما يزال شاباً، لم يكد يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره، فيه استعداد للإصابة بمرض السل، متزوج من امرأة سمينة كانت عاقراً. إنه شديد الشعور بكرامته وكبريائه، سريع الغضب والحنق، ولكنه يملك مزايا واضحة من حُسن الذكاء ونُبل القلب. يبدو أن آفة طبعه الأساسية ناشئة عن أنه مبالغ في تقدير قيمته، فهذا التباين بين كفاءاته الواقعية وبين رأيه في نفسه كان يخلق له حالة قلق مستمر. وكانت له مطامح علياً، بل ومطامح فنية، وكان يعتز خاصة بمقدرته في علم النفس، فهو يعتقد أنه أوتي مواهب خاصةً في النفاذ إلى أسرار النفس الإنسانية، وفي اكتشاف البواعث العميقة لدى المجرمين. وكان لهذا السبب يعتقد أنه مجهول القيمة، وكان يعيش على قناعة تامة بأنه لم يقدّر حق قدره، إن هناك أعداء يكيدون له ويعرقلون تقدمه في وظيفته. وكان في ساعات حزنه ويأسه يمضي إلى حد التهديد بالانتقال إلى صف المعارضة، فيعمل محامياً أمام المحاكم الجنائية. وقد استثارته قضية مقتل الأب كارامازوف واستنهضت همته، فحدَّث نفسه قائلاً: «هذه قضية قد تشتهر في روسيا كلها». ولكن أراني أستبق تتمة القصة.

وفي الغرفة المجاورة كان قاضي التحقيق الشاب نيقولاي بارفينوفتش نيلودوف، الذي وصل إلى مدينتنا منذ شهرين من بطرسبرج، يثرثر مع الفتاتين. لقد دُهش الناس بمدينتنا، فيما بعد، من وجود هؤلاء الأشخاص بأعينهم مجتمعين في مساء وقوع

«الجريمة» نفسه، في منزل أحد ممثلي السلطة التنفيذية، كأنما هم اتفقوا على ذلك. والحق أن تعليل هذه المصادفة طبيعي جداً: إن زوجة ايبوليت كيريلوفتش تشكو منذ يومين من آلام شديدة في الأسنان؛ فكان وكيل النيابة المسكين لا يفكر إلا في الهروب من المنزل حتى لا يسمع أنينها. وإلى أين يمكن أن يذهب إذا هو لم يذهب إلى ميخائيل ماكاروفتش أما الطبيب فإنه، بحكم مهنته، كان لا يستطيع أن يقضى سهرته إلا لاعباً بالورق ولذلك كان وجوده في منزل رئيس الشرطة أمر لا بدّ منه. أما نيقولاي بارفينوفتش نيلودوف، فلقد كان ينوي منذ ثلاثة أيام أن يزور ميخائيل ماكاروفتش في ذلك المساء، وأن يجيء إليه «بما يشبه المصادفة»، بغية أن يفاجئ بعد ذلك كبرى الفتاتين، أولغا ميخائيلوفنا، بأنه عالم بسرّها: وهو أن ذلك اليوم هو يوم عيد ميلادها، وأنها أرادت أن تخفي الأمر عن المجتمع حتى لا تقيم حفلة رقصٍ في منزلها. وكان نيقولاى بارفينوفتش يتصور أمازيح كثيرة سيقوم بها في تلك المناسبة، وكان يتلذّذ سلفاً بهذه الأمازيح كالإشارة إلى أنها تخشى أن تعلن عن سنها، وكالتهديد بإذاعة الأمر في المدينة كلها غداً، إلخ. إن هذا الشاب الفتان «عفريت» كبير، حتى إن سيداتنا قد لقبنه بهذا اللقب، وكان هذا يملؤه رضى وارتياحاً فيما يبدو. كان ينتمي من جهة أخرى إلى أسرة ممتازة، وكان جمَّ الكياسة رفيع المشاعر. ورغم أنه كان بطبيعته محباً للمباهج مقبلاً على الملذات، فقد كان كذلك على براءة وكان لا يخلّ بالمواضعات المقررة ولا يسيء إلى الآداب الاجتماعية. وهو قصير القامة، ضعيف البنية، رقيق مرهف، تزين أصابعه النحيلة الشاحبة خواتم كبيرة كثيرة. وكان في قيامه بأعمال وظيفته رصيناً رصانةً عظيمة، قوى الشعور بخطورة الواجبات الملقاة

على عاتقه. وكان يمتاز خاصةً بمهارته في أن يحيِّر القتلة وغيرهم من المجرمين من أبناء الشعب البسيط أثناء استجواباته، وكثيراً ما كان يثير فيهم الدهشة إن لم يثر فيهم الاحترام.

حين وصل بيتر ايليتش إلى منزل رئيس الشرطة صعقه فعلاً أن يعرف أن جميع الحضور كانوا على علم بالأمر. كان اللاعبون بالورق قد كفوا عن اللعب، وأخذوا يتناقشون في الحادث بحرارة، وقوفاً. لقد هرع نيقولاي بارفينوفتش من الغرفة المجاورة عابس الوجه وهو يوشك أن يكون مستعداً للهجوم. وما كان أشدَّ ذهول بيتر ايلتش حين علم بالنبأ الرهيب: وهو أن العجوز فيدور بافلوفتش قد قُتِلَ في منزله فعلاً هذا المساء... قُتل وسُرق. وقد عرفت الجريمة في الظروف التالية:

لا شك في أن مارفا اجناتيفنا، زوجة جريجوري، كانت نائمة نوماً عميقاً في اللحظة التي ضُرب فيها زوجها بمدق الهاون قرب السور. وكان يمكن أن تستمر في نومها وقتاً طويلاً أيضاً. ولكن شاءت المصادفة أن تستيقظ فجأة، وأغلب الظن أنها استيقظت بسبب الصرخة الرهيبة التي أطلقها سمردياكوف الذي يرقد في الغرفة الصغيرة المجاورة مغشياً عليه غائباً عن وعيه. إنها تعرف هذه الصرخة حق المعرفة، فبهذه الصرخة إنما تبدأ نوبات الصرع لدى سمردياكوف. وقد أرعبتها هذه الصرخة طوال حياتها، وخلَّفت في نفسها أثراً مَرَضياً، ولم تستطع أن تعتادها في يوم من الأيام. نهضت مارفا اجناتيفنا منتفضة وهي ما تزال نصف نائمة وأسرعت إلى الغرفة التي يرقد فيها سمردياكوف، على غير شعور منها تقريباً. كان الظلام حالكاً، فلا يُرى شيء، وإنما يُسمع الشخير الرهيب يخرج من صدر المريض الذي يتخبط. أخذت مارفا اجناتيقنا تصرخ هي أيضاً، مناديةً

زوجها، ولكنها أوجست فجأة أن زوجها لم يكن إلى جانبها في السرير حين استيقظت من نومها، فأسرعت إلى السرير وأخذت تجس الغطاء، فأيقنت أن الفراش ليس عليه أحد. تساءلت؛ فإلى أين ذهب؟ وهرعت إلى درجات المدخل وأخذت تناديه وجلى، ولكنها لم تتلق جواباً بالطبع ثم خيل إليها أنها تدرك في سكون الليل أنات مخنوقة كأنها آتية من الحديقة. فأصاخت بسمعها، فتكررت الأنات. فأدركت أنها آتية من الحديقة فعلاً. أخذت تقول في نفسها مضطربة: «رباه! يشبه هذا ما حدث في الماضي يوم موت اليزافيتا سمردياشايا!». وهبطت الدرجات خائفة، فلاحظت أن باب الحديقة مفتوح، فقالت لنفسها: «لا شك أن زوجي الطيب هناك»، فلما اقتربت من باب الحديقة سمعت في هذه المرة زوجها جريجوري نفسه يناديها بصوت ضعيف محتضر مروِّع: «مارفا، مارفا!». فهمست متلعثمة؛ «نجِّنا من الشر يا رب!» واندفعت في الاتجاه الذي كان يصدر عنه النداء. وهكذا اكتشفت جريجوري. ومع ذلك لم تجده قرب السور، في المكان الذي صُرع فيه، بل على بعد عشرين خطوة من ذلك المكان. وقد عُرِف فيما بعد أن جريجوري، حين أفاق من إغمائه وثاب إلى رشده، جرَّ نفسه على الأرض مدة طويلة، فأغمي عليه أثناء ذلك عدة مرات، ولكنه كان يصحو ثم يستأنف زحفه. وسرعان ما لاحظت مارفا أنه كان مضرجاً بدمائه، فأخذت تصرخ. وكان جريجوري يتمتم بصوت واهن جملاً مضطربة لا تسلسل فيها، قائلاً: «قتل... قتل أباه... لماذا تصرخين يا امرأة غبية؟ هلمي! اركضي! نادي!». ولكن مارفا اجناتيفنا لم يهدأ روعها ولم تنقطع عن إطلاق صرخاتها الوحشية. فلما لاحظت فجأة أن نافذة غرفة مولاها مفتوحة ومضاءة، أسرعت إلى هناك تنادي فيدور

بافلوفتش. وإذ لم تسمع جواباً نظرت من النافذة، رأت عندئذٍ مشهداً فظيعاً: رأت فيدور بافلوفتش راقداً على الأرض على ظهره جثةً هامدة؛ وكان الرداء المنزلي والقميص الأبيض مضَرَّجَيْن بالدم على الصدر. وأنارت الشمعة الموضوعة على الطاولة بقع الدم ووجه فيدور بافلوفيتش إنارة ساطعة. بلغت مارفا اجناتيفنا ذروة الهلع، فاندفعت عندئذٍ إلى خارج الحديقة، ففتحت الباب الكبير، وهرعت إلى عند جارتها ماريا كوندراتيفنا. كانت المرأتان، الأم وابنتها، نائمتين حيذاك، ولكنهما لقوة الطرقات العنيفة على النافذة، ولشدة الصرخات الحادة التي كانت تطلقها مارفا اجناتيفنا، استيقظتا من نومهما واقتربتا من النافذة. فقصّت عليهما العجوز ما نزل بدارهم من شقاء وقصّت ذلك بأقوال مضطربة مشوشة تقطعها صرخات حادة. ومن المصادفات أن توما الجوَّال كان يبيت في المنزل في تلك الليلة. فسرعان ما أوقظ من نومه، وخفَّ الجميع إلى مكان الجريمة. وتذكرت ماريا كوندراتيفنا أثناء الطريق أنها قد سمعت في نحو الساعة التاسعة من المساء، عويلاً حاداً رهيباً صادراً من الحديقة. لقد كان ذلك هو الصرخة التي أطلقها جريجوري لحظة أمسك بيديه إحدى ساقي ميتيا الراكب السور، قائلاً: «يا قاتل أبيه».

قالت ماريا كوندراتيفنا شارحةً: «إن أحداً قد صرخ عندئذٍ صراخاً قوياً جداً ثم صمت فجأة». ووصل الثلاثة إلى قرب جريجوري. أنهضته المرأتان بمعاونة فوما، ونقلوه إلى الغرفة. وأشعلوا شمعة ولاحظوا أن سمردياكوف ما يزال يتخبط في تشنجاته وقد جحظت عيناه وخرج الزبد من فمه. غسلوا رأس جريجوري بماء ممزوج بخل، فجعله ذلك يصحو تماماً، وسرعان ما ألقوا عليه هذا السؤال: «أقُتل مولاه أم لا؟». وذهبت المرأتان عندئذٍ بصحبة توما إلى غرفة

فيدور بافلوفتش. فلما اجتازوا الحديقة لاحظوا أن النافذة لم تكن وحدها مفتوحة، وإنما كان باب المسكن مفتوحاً أيضاً، مع أن فيدور بافلوفتش قد أصبح منذ أسبوع يحكم إقفال الباب بالمفتاح كل ليلة، ولا يسمح حتى لجريجوري بأن يدخل عليه لأي سبب من الأسباب، وبأي عذر من الأعذار. فلما رأت المرأتان وفوما هذا الباب مفتوحاً ترددوا عن الدخول إلى غرفة السيد «خشية المضاعفات»، وعادوا إلى غرفتهم، فطلب جريجوري إبلاغ رئيس الشرطة بالحادث فوراً. فتولت ماريا كوندراتفنا القيام بهذه المهمة، فأهاج وصولها ضيوف ميخائيل ماكاروفتش، وأقامهم وأقعدهم. لقد وصلت إلى منزل رئيس الشرطة قبل وصول بيتر ايليتش بخمس دقائق لا أكثر، وهكذا مَثَل بيتر ايليتش أمام هؤلاء الرجال لا مثول إنسان يريد أن ينقل إليهم شكوكه واستدلالته، بل مثول شاهد عيان، فلم تزد التفاصيل التي ذكرها على أن عززت ما كانوا قد تصوروه من فروض عن شخص القاتل (الحق أن بيتر ايليتش نفسه قد ظل إلى آخر لحظة يشك في أن يكون ميتيا هو القاتل).

وقرروا أن يتحركوا بنشاط. وعُهد إلى مفوض الشرطة المساعد بأن يجد أربعة أشخاص ليكونوا شُهوداً، وتم القيام بالتحريات الأول في مكان الجريمة بمنزل فيدور بافلوفتش، وفقاً للأصول القضائية التي لا داعي إلى وصفها هنا. وقد أصر طبيب المجلس المحلي، وهو طبيب مبتدئ وممتلئ همة وحماسة ونشاطاً، أصرَّ على أن يصحب رئيس الشرطة ووكيل النيابة وقاضي التحقيق. وسأقتصر هنا على تلخيص ما شاهدوه: لقد صُرع فيدور بافلوفتش، وكسرت جمجمته، ولكن ما هو السلاح الذي استعمل في قتله؟ لعله ذلك السلاح نفسه الذي استعمله القاتل بعد ذلك في ضرب جريجوري.

واكتشفت أداة الجريمة أخيراً بفضل ما استطاع جريجوري أن يذكره لهم على نحو متسق، ولو بصوت واهن متقطع، بعد أن أُسعف الإسعافات الطبية التي تتطلبها حالته. وأخذوا يستكشفون الأرضَ التي تجاور السور مستعينين بمصباح، فلم يلقوا عناءً في العثور على مدق الهاون النحاسي. وجدوه ملقًى وسط الممر الذي يشق الحديقة، في موضع يلفت الأنظار على الفور. ولم تكن الغرفة التي يرقد فيها فيدور بافلوفتش في حالة فوضى، ولكنهم اكتشفوا على الأرض وراء الحاجز ظرفاً ملقى قرب السرير. وكان ظرفاً كبيراً مصنوعاً من ورق سميك، وقد كتب عليه ما يلي: «هدية صغيرة من ثلاثة آلاف روبل أهديها إلى ملاكي جروشنكا إذا هي رضيت أن تجيء». وفي أسفل الظرف كتبت عبارة أخرى أغلب الظن أن فيدور بافلوفتش أضافها بعد ذلك هو نفسه: «إلى حمامتي». وكان الظرف الذي ختم بالشمع الأحمر ثلاثة أختام كبيرة قد فضَّ وأفرغ مما فيه: لقد سُرق المال الذي كان يضمه الظرف. واكتشفوا كذلك على أرض الغرفة الشريط الوردي اللون الذي كان يلف الظرف. وقد أحدثت أقوال بيتر ايليتش أثراً عميقاً في وكيل النيابة وقاضي التحقيق وهزتهما هزاً قوياً، لا سيما بسبب ما ذكره لهما من أن دمتري فيدوروفتش كان يبدو عازماً عزماً مطلقاً على أن ينتحر قبل طلوع الفجر؛ وأن دمتري فيدوروفتش قد أفهمه ذلك نفسه، حين حشا أحد المسدسين بالرصاص أمامه، وحين كتب بطاقة صغيرة ودسَّها في جيبه، إلخ، حتى إذا قال له بيتر ايليتش الذي لم يشأ أن يصدق قراره أنه سيبلغ البعض ما عزم عليه حتى يمنعوه من إنفاذه، أجابه ميتيا بلهجة ساخرة: «لن يتسع وقتك لهذا». معنى هذا كله أن من الواجب الوصول إلى موكرويه على عجل، حتى يفاجأ القاتل قبل أن ينفّذ ما عقد النية عليه. كان وكيل

النيابة يردد قوله مضطرباً اضطراباً شديداً: «القضية واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار. ذلك بعينه هو ما يفعله جميع هؤلاء العابثين القاصفين الأشقياء حين يقعون في الجريمة. غداً أنتحر، أما الليلة فألهو وأتسلى». وازداد اهتياج وكيل النيابة حين سمع تفاصيل ما حدث في المتجر حين اشترى ميتيا الشمبانيا وأنواع الحلوى. «هل تتذكرون، أيها السادة، ذلك الشاب الذي قتل التاجر اولسوفيف ليسلبه ماله؟ إنه بعد أن استولى على ألف خمسمائة روبل كانت مع ضحيته، فكَّر قبل كل شيء في أن يصفف شعره متموجاً عند حلاق، ثم أسرع إلى البغايا حتى دون أن يكلف نفسه عناء إخفاء المال، فكان يمسكه بيديه تقريباً، مثل هذا القاتل الجديد تماماً». على أن التحقيق وتفتيش منزل فيدور بافلوفتش والإجراءات القانونية الشكلية، كل ذلك قد استغرق وقتاً، لذلك تقرر أن يوفد إلى موكرويه، على جناح السرعة وقبل ساعتين من وصولهم، موظف الشرطة مافريكي مافريكيفتش شمرستوف الذي جاء إلى المدينة في الصباح لقبض مرتبه. أصدرت إليه تعليمات بأن يذهب إلى موكرويه، منتحلاً عذراً من الأعذار بحيث لا يلفت الانتباه، وأن يراقب المجرم في الخفاء دون أن يغيب عن بصره، إلى حين وصول السلطات. وكان على موظف الشرطة هذا أن يجمع الشهود والشرطيين وإلخ. نفَّذ مافريكي مافريكيفتش الأوامر التي تلقاها، ولزم التخفي، واقتصر على أن ذكر لتريفون بوريستش الذي يعرفه منذ عهد بعيد بعض الإيضاحات عن الأسباب الحقيقية لمجيئه. وفي ذلك الوقت إنما التقى ميتيا بصاحب النزل في أسفل السلم المفضي إلى الشرفة، فلاحظ تغيراً غريباً في تعبير وجهه وطريقة كلامه. وعلى هذا النحو لم يستطع أحد، لا ميتيا ولا سائر الضيوف، أن يخطر ببالهم أنهم مراقبون. أما علبة المسدس

فقد أسرع تريفون بوريستش يخفيها في مكان مأمون على الفور. ولم تصل السلطات إلى موكرويه إلا في الساعة الخامسة، عند طلوع الفجر. استقل وكيل النيابة، ورئيس الشرطة، وقاضي التحقيق، وحاشيتهم، عربتي ترويكا ومركبتين. ومكث الطبيب في منزل فيدور بافلوفتش، ليباشر تشريح جثة القتيل منذ الصباح. ولكنه كان مهتماً اهتماماً خاصاً بحالة سمردياكوف. «إن نوبات الصرع التي تبلغ هذه الدرجة من الشدة وتدوم مثل هذه المدة مستمرةً يومين، هي حالات نادرة كل الندرة، حالات يهتم بها العلم ويكبّ على دراستها». كذلك قال الطبيب لصحبه مهتاجاً حين سافروا إلى موكرويه؛ وقد مازحه صحبه وهنأوه على ما أوتي من فرصة مؤاتية وحظ نادر. وقد تذكر وكيل النيابة وقاضي التحقيق تذكراً واضحاً، أن سمردياكوف سيموت قبل طلوع الفجر فيما أكده الطبيب الشاب بلهجة حازمة قاطعة.

بعد هذه الشروح التي كانت طويلة بعض الطول، ولكنها كانت ضرورية ولا غنى عنها، سنستأنف الآن قصتنا من حيث قطعناها في نهاية الباب السابق.

– 3 –

محن نفس

المحنة الأولى

كان ميتيا يتصفح وجوه محدثيه، مجنون العينين، ولا يفهم ما يقال له. وها هو ذا ينهض فجأة، فيرفع ذراعيه إلى السماء ويهتف قائلاً بصوت قوي:

– لست القاتل! أنا لم أسفح ذلك الدم! لم أسفح دم أبي... كنت أريد أن أقتله، ولكنني لم أفعل. لست أنا القاتل!

فما إن قال ميتيا هذه الكلمات حتى اندفعت جروشنكا من وراء الستائر وسقطت عند قدمي رئيس الشرطة، وأعولت تقول بصوت ممزَّق، وهي تبكي بكاء غزيراً وتمد ذراعيها نحو الحضور:

– أنا المذنبة، أنا الشقية المذنبة. بسببي إنما قتل! أنا التي قدته إلى ذلك من كثرة ما عذبته... ولقد عذبت العجوز المسكين الراحل أيضاً، بدافع الشر الذي في نفسي... أنا سبب كل شيء، أنا، أنا وحدي. أنا القاتلة في حقيقة الأمر.

– أما إنك القاتلة فهذا صحيح لا شك فيه! مجرمة كبيرة، أنت امرأة فاسقة ملعونة! أنت المسؤولة عن هذه الجريمة.

كذلك صاح يقول رئيس الشرطة وهو يلوِّح بقبضة يده مهدِّداً.

ولكن سرعان ما حُمل رئيس الشرطة على السكوت، حتى إن وكيل النيابة أحاطه بذراعيه ليتحكم به ويسيطر عليه، قائلاً له بصوت عال وهو يكاد يختنق غيظاً:

- لقد أحدثت فوضى يا ميخائيل ماكاروفتش، هذا لا يجوز! إنك تشوش التحقيق وتفسد كل شيء.

وقال نيقولاي بارفينوفتش مضطرباً بدوره اضطراباً شديداً:

- يجب اتخاذ إجراءات... حالاً... يجب اتخاذ إجراءات، وإلا فلن نفلح أبداً.

واستأنفت جروشنكا كلامها فقالت بحرارة وحماسة وهي ما تزال جاثية على ركبتيها:

- احكموا علينا معاً. اعدمونا معاً، أنا مستعدة لأن أشاركه العقوبة القصوى!

فهتف ميتيا يقول وهو يرتمي على الأرض فيجثو إلى جانب جروشنكا ويعانقها:

- جروشا، حياتي، روحي، دمي، قديستي! لا تصدقوا ما تقوله، إنها ليست مذنبة في شيء، إنها لا تشارك أي مشاركة في المسؤولية عن هذا الدم المسفوح، إنها لم تفعل شيئاً!

تذكر ميتيا فيما بعد أن عدة رجال قد فصلوه بالقوة عن جروشنكا التي أقصيت عن الغرفة، وأنه في اللحظة التي ثاب فيها إلى وعيه، وجد نفسه جالساً أمام المائدة. وكان يقف إلى جانبه ووراءه رجال يضعون على صدورهم صفائح من معدن. وفي الجهة الأخرى من المائدة، كان قاضي التحقيق نيقولاي بارفينوفتش الذي جلس على الكنبة، يلح عليه أن يشرب قليلا من الماء من الكأس الموضوعة على المائدة، قائلاً له بلهجة مهذبة جداً:

- اشرب، الماء ينعشك ويهدئك. لا تخش شيئاً.

خطفت انتباهَ ميتيا، على حين فجأة، الخواتمُ الكبيرة التي كانت في أصابع قاضي التحقيق، إن أحد هذه الخواتم يزدان بالجمشت، والثاني يزدان بحجر أصفر واضح شفاف قوي السطوع. سوف يظل ميتيا يتذكر خلال زمن طويل مدى ما أحدثته هذه الخواتم في نفسه من افتتان حتى إنه طوال الساعات الرهيبة التي استغرقها الاستجواب لم يستطع أن يحول بصره عنها، ولم ينقطع عن النظر إليها وهو فيما هو فيه من ظروف لا تتفق مع اهتمام تافه هذه التفاهة. وإلى يسار ميتيا، في المكان الذي كان يشغله ماكسيموف في بداية السهرة، كان يجلس وكيل النيابة؛ وإلى يمين ميتيا، في المكان الذي جلست فيه جروشنكا بضع ساعات قبل ذلك، كان يجلس شاب زاهي اللون، يرتدي سترة عتيقة جداً مما يلبسه الصيادون، وأمامه محبرة وورقة. ولقد اتضح فيما بعد أنه كاتب قاضي التحقيق. أما رئيس الشرطة فقد كان واقفاً قرب النافذة، في الطرف الآخر من الغرفة، على مقربة من كالجانوف الذي كان جالساً على كرسي.

كرر قاضي التحقيق يقول بلطف ورقة للمرة العاشرة:

- اشرب ماء.

فصاح ميتيا يقول، وهو يثبت على قاضي التحقيق نظرته الجامدة جموداً رهيباً في عينيه الجاحظتين:

- شربت يا سادتي شربت... والآن فاسحقوني، اعدموني، قرروا مصيري!

سأله القاضي بصوت لطيف رقيق ولكنه ملح:

- أأنت تصر إذاً على أنك بريء من مقتل أبيك؟

- بريء! لقد سفحتُ الدم، سفحت دم العجوز الآخر، ولكنني

لم أسفح دم أبي.. آه... لشد ما يؤسفني ما فعلت. لقد قتلت ذلك العجوز المسكين، صرعته. غير أنه يشق عليَّ أن أصبح بسبب هذه الجناية مسؤولاً عن جريمة أخرى، جريمة فظيعة لم أرتكبها... ذلك اتهام رهيب يسقط عليَّ سقوط الصاعقة! ولكن من ذا الذي قتل أبي؟ من هو القاتل؟ من عسى يكون القاتل إذا لم أكن أنا؟ هذا جنون... هذه سخافة... مستحيل...

بدأ قاضي التحقيق يقول:

- أتسأل مَن القاتل؟ سأقول لك...

ولكن وكيل النيابة ايبوليت كيريلوفتش سارع يسكته بنظرة منه، ثم قال مخاطباً ميتيا:

- تخطئ إذا قلقت على مصير الخادم العجوز جريجورى فاسيليف. اعلم أن هذا الخادم لم يمت، وأنه أفاق من إغمائه واسترد وعيه. حتى إن الطبيب يرى أنه ليس في خطر رغم الضربة الفظيعة التي شهد هو واعترفت أنت بأنك أصبته بها.

هتف ميتيا فجأة يقول وهو يضم يديه إحداهما إلى الأخرى وقد أشرق وجهه فرحاً:

- أهو حي؟ اللّهم إني أحمدك على هذه المعجزة العظيمة التي تهبها لي، لي أنا الخاطئ المجرم؛ اللّهمّ إني أحمدك على أنك استجبت لدعائي... ذلك أن دعائي هو الذي قُبل... لقد لبثت أدعو طوال الليل أن لا يموت.

ورسم ميتيا إشارة الصليب ثلاث مرات وهو يكاد يختنق انفعالاً.

استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً:

- من جريجوري هذا نفسه إنما حصلنا على معلومات خطيرة جداً في شأنك...

ولكن ميتيا قاطعه ووثب عن كرسيه قائلاً:

- دقيقة واحدة أيها السادة! اسمحوا لي بدقيقة واحدة، دقيقة واحدة، أناشدكم الله... أريد أن أكلمها هي...

فصرخ نيقولاي بارفينوفتش يقول له بصوت حاد، ناهضاً عن مقعده على حين فجأة هو أيضاً:

- آسف! ذلك مستحيل استحالة مطلقة الآن.

وأمسك الرجال الذين يضعون على صدورهم صفائح معدن، أمسكوا ميتيا، فسرعان ما عاد يجلس دون احتجاج، وقال:

- هذا يؤسفني أسفاً عميقاً يا سادتي، لأنني لم أكن أريد أن أراها إلا لحظة قصيرة... لأبلغها أن ذلك الدم قد مُحيَ من حياتي، ذلك الدم الذي عذبني طوال هذه الليلة، وإنني لست قاتلاً! إنها خطيبتي أيها السادة، هل تعرفون هذا؟ (هكذا صاح يقول فجأة في حماسة وإجلال وهو ينقل بصره على محدثيه). أوه! شكراً لكم أيها السادة! لقد رددتموني إلى الحياة في طرفة عين! إن ذلك العجوز كان يحملني بذراعيه أيها السادة، وكان يغسلني في جرن حين كنت في السنة الثالثة من عمري وتركني الجميع. كان لي بمثابة أب!

همَّ القاضي أن يتكلم قائلاً:

- هكذا، فأنت...

ولكن ميتيا قاطعه وهو يضع كوعيه على المائدة ويغطي وجهه بيديه:

- اسمحوا لي بدقيقة تفكير أيها السادة، دقيقة واحدة. دعوني أتنفس لحظة. لأحاول أن أرى بوضوح، إن هذا الأمر قد هزني هزاً قوياً... قلب نفسيتي رأساً على عقب... ليس يُقرع إنسان كما يقرع طبل أيها السادة!

دمدم نيقولاي بارفينوفتش يقول له:

- عليك أن تشرب جرعة أخرى من الماء.

أبعد ميتيا يديه عن وجهه وأخذ يضحك. إن في نظرته الآن الثقة والحماسة، وقد تبدل تعبير وجهه في طرفة عين. وتغير موقفه كذلك، فهو يتكلم بلهجة غير اللهجة التي كان يتكلم بها من قبل. هو يحسّ الآن أنه عاد نداً لهؤلاء الرجال الذين يعرفهم والذين كان يمكن أن يجتمع بهم، البارحة، في سهرة تضم علية القوم، فكأن شيئاً لم يكن. يحسن أن نشير هنا إلى أن ميتيا كان قد استُقبل استقبالاً حاراً جداً بمنزل رئيس الشرطة، في بداية إقامته بمدينتنا، ولكنه انقطع عن التردد إلى هذا المنزل بعد ذلك، ولا سيما خلال الشهر الأخير. وأصبح رئيس الشرطة، منذ زمن، يقطب حاجبيه حين يرى ميتيا في الشارع، ولا يرد على تحيته إلا من باب الأدب، وقد لاحظ ميتيا هذا. أما وكيل النيابة فقد كانت معرفة ميتيا به أقل من ذلك أيضاً، رغم أن ميتيا قد زار زوجته، وهي امرأة عصبية ذات نزوات وهواجس، عدة زيارات مجاملة واحترام؛ كان يذهب إليها دون أن يعرف لماذا، وكانت تستقبله بكثير من البشاشة والمودة، بل وكانت تبدي شيئاً من الاهتمام به حتى الآونة الأخيرة. وأما قاضي التحقيق، فلم تكن بينه وبين ميتيا معرفة جيدة، واقتصر كل شيء بينهما على حديث أو حديثين تبادلا خلالهما كلاماً عن جنس النساء.

قال ميتيا ضاحكاً ضحكة مرحة:

- أرى يا نيقولاي بارفينوفتش أنك قاضٍ بارع جداً، ولكن أحسب مع ذلك أن عليَّ أن أساعدك. أوه! لقد عادت الحياة إليَّ أيها السادة... لا تؤاخذوني إذا أنا كلمتكم بغير كلفة. ثم إنني ثمل قليلاً، أعترف لكم بذلك صراحة. أظن يا نيقولاي بارفينوفتش أنني

قد سبق لي أن سُررت وشرفت بلقائك، عند ميوسوف، قريبي. . . لست أدعي المساواة بكم الآن أيها السادة، فأنا أعرف موقفي أمامكم حق المعرفة. . . هناك تهمة رهيبة تجثم عليَّ. . . طبعاً. . . إذا كان جريجوري قد شهد عليَّ. . . فلا بد أنكم ترون أن القرائن قويّة في الظاهر. . . أنا موضع شبهة خطيرة! فظيع! فظيع! إنني أفهم هذا حق الفهم، ثقوا من ذلك! ولكن فلنصل إلى الوقائع أيها السادة! إنني مستعد. . . وسنوضح الأمور في بضع دقائق يا سادتي، ما دمت بريئاً. . . اصغوا إليَّ، اصغوا إليَّ! ما دمت أعلم أنني لم أرتكب هذه الجريمة، فسوف نبدد سوء التفاهم في طرفة عين، أليس كذلك أيها السادة؟

كان ميتيا يتكلم متعجلاً متدفقاً على نحو عصبي، وبنوع من الإصرار العنيد على أن يعد محدثيه كأنهم خير أصدقائه.

قال نيقولاي بارفينوفتش بلهجة رصينة:

- سنسجل الآن إذاً أنك تنكر إنكاراً قاطعاً التهمة الموجهة إليك.

ثم التفت نحو الكاتب، وأملى عليه بصوت خافت ما يجب تسجيله.

- آ. . . . أأنتم تسجلون أقوالي؟ أتريدون تدوينها؟ طيب. . . اكتبوا إذا شئتم. . . أوافق على هذا. . . لا أرى في هذا ضيراً أيها السادة. . . ولكن. . . لحظة من فضلكم! أريد أن تكتبوا كما يلي: «ارتكب جرم استعمال العنف، فضرب عجوزاً مسكيناً ضرباً شديداً، وهو يعترف بذلك» ثم إنني في أعماق نفسي، في قرارة ضميري أعترف بذنبي. . . ولكن لا داعي إلى كتابة هذا (هكذا قال ملتفتاً إلى الكاتب). . . تلك حياتي الخاصة التي لا شأن لكم بها أيها السادة، هذه أغوار قلبي. . . أما قتل أبي فأنا بريء منه! تلك تهمة حمقاء!

ذلك افتراض سخيف. . . سأبرهن لكم على هذا، فتقتنعون اقتناعاً تاماً. سوف تضحكون أيها السادة، سوف تضحكون أنتم أنفسكم من الشكوك التي راودتكم، سوف تنفجرون ضاحكين.

تدخل قاضي التحقيق فقال وكأنه يريد أن يضرب بهدوئه هو مثلاً لميتيا المندفع المضطرب:

- هدئ نفسك يا دمتري فيدوروفتش! أحبّ أن أرجوك، قبل أن نتابع الاستجواب، أن تؤكد لي - إذا كنت توافق على ذلك - أنك لم تكن تحب فيدور بافلوفتش كثيراً، وأن مشاجرات كثيرة كانت تقع بينكما. لقد صرحت أنت نفسك، منذ ربع ساعة، في هذا المكان نفسه، إذا لم يخطئ ظني، أنك كنت تنوي أن تقتله. لقد صحت تقول: «كنت أريد أن أقتله ولكنني لم أقتله».

- أقلت أنا هذا؟ أوه! جائز أيها السادة! نعم. . . واأسفاه! لقد تمنيت أن أقتله، وراودتني نفسي على هذا مراراً. . . واأسفاه! واأسفاه!

- كنت تنوي إذاً أن تقتله. فهل تستطيع أن تشرح لنا أسباب هذا الكره الذي كنت تحمله لأبيك؟

قال ميتيا بلهجة متجهمة وهو يرفع كتفيه ويخفض رأسه:

- ليس هناك ما يُشرح أيها السادة! أنا لم أُخفِ عواطفي، والمدينة كلها تعرفها، حتى إن الناس يتحدثون عنها في الحانة. ومنذ بضعة أيام لا أكثر، عبّرت عنها في الدير، في حجرة الشيخ زوسيما. . وفي مساء ذلك اليوم نفسه ضربت أبي وأوشكت أن أقتله، وحلفت أمام شهود لأعودنَّ فأجهز عليه. أوه! في وسعكم أن تجدوا ألف شاهد عليَّ، بغير عناء. صرَّحت بكرهي له طوال هذا الشهر. . . الناس جميعاً يشهدون. . . الوقائع متوفرة. . . الوقائع تتكلم من تلقاء نفسها، بل

هي تصرخ. . . أما عواطفي أيها السادة فأمرها أمر آخر! يخيل إليَّ أيها السادة (وهنا قطب ميتيا حاجبيه) أنه ليس من حقكم أن تسألوني عن عواطفي. إن وظائفكم تخولكم سلطات، أنا أعرف هذا وأفهمه، ولكن عواطفي هي من شأني أنا؛ هي تتصل بحياتي الحميمة. . . على كل حال، ما دمت لم أكتمها حتى الآن. . . لم أكتمها في الحانة مثلاً، وكنت أكاشف بها أول قادم، فليكن ما تريدون! فلن أخفيها عنكم أنتم أيضاً. أيها السادة، إنني أدرك حق الإدراك أن الشبهات كبيرة وأن القرائن قوية: فلقد أعلنت لجميع الناس أنني سأقتله، وها هو ذا يُقتل. فكيف لا أكون أنا القاتل والحالة هذه؟ هأهأ! إنني أعذركم أيها السادة، أعذركم كل العذر. أنا نفسي قد أذهلني هذا الحادث: من عسى يقتله إذا لم أقتله أنا؟ أليس كذلك؟ إذا لم أقتله أنا فمن يقتله؟ من؟ من؟ (ثم صاح فجأة يقول) أريد أن أعرف منكم أيها السادة، أطالبكم بأن تقولوا لي الحقيقة: أين وُجد مقتولاً؟ وكيف قتل، بأي سلاح وفي أية ظروف؟ قولوا لي هذه الأمور! (كذلك ردَّد بسرعة، وهو ينظر إلى وكيل النيابة وقاضي التحقيق واحداً بعد آخر).

أجابه وكيل النيابة قائلاً:

- وجدناه راقداً على ظهره فوق أرض الغرفة، مكسور الجمجمة.

قال ميتيا مرتجفاً وهو يضع كوعيه على المائدة ويخفي وجهه بيده اليمنى:

- هذا فظيع أيها السادة!

وتدخل نيقولاي بارفينوفتش قائلاً:

- لنتابع الاستجواب. لأي سبب كنت تكره أباك؟ لقد صرحت على رؤوس الأشهاد، فيما أظن أنني أعلم، أن الغيرة هي التي كانت تؤلبك عليه، فهل هذا صحيح؟

- هي الغيرة إن شئتم. ولكن الغيرة ليست السبب الوحيد لموقفي منه.

- لعل هناك خصومات على مال؟

- نعم، نعم، مسائل مالية.

- كان الخلاف يدور، إذا لم يخطئ ظني، على ثلاثة آلاف روبل هي من حقك في الميراث ولم يدفعها لك.

قال ميتيا مستاءً:

- ثلاثة آلاف روبل؟ بل أكثر كثيراً، أكثر كثيراً. كان مديناً لي بأكثر من ستة آلاف روبل، وربما بأكثر من عشرة آلاف. قلت هذا لجميع الناس، صحت به في كل مكان! ولكنني كنت مستعداً لقبول ثلاثة آلاف روبل تساهلاً، لأنني كنت في حاجة مستعجلة رهيبة إلى هذا المبلغ... فكان ذلك الظرف الذي يضم ثلاثة آلاف روبل والذي يوجد تحت وسادته، (أنا أعلم ذلك) والذي أعدَّه هو لجروشنكا، كان في نظري مالاً سُرق مني هل تفهمون أيها السادة؟ كنت أعد ذلك المبلغ من حقوقي، وملكاً شرعياً لي.

بادل وكيل النيابة قاضي التحقيق نظرة ذات دلالة، وغمزه بعينه خلسة.

أسرع القاضي يقول:

- سنعود إلى هذه المسألة. واسمح لي أن أسجل هذه النقطة بعينها: وهي أن ذلك المبلغ المودع في الظرف كان في رأيك حقاً مشروعاً لك.

- اكتبوا أيها السادة! إنني أدرك أن هذا قرينة جديدة عليَّ، ولكنني لا أخشى شيئاً، ولسوف أمدكم بقرائن أخرى. سوف أمدكم أنا نفسي بقرائن أخرى، هل تسمعونني؟ يبدو لي أيها السادة أنكم

ترون فيَّ رجلاً مختلفاً كل الاختلاف عمَّا أنا في الواقع (كذلك أضاف يقول حزيناً مظلم الوجه). إن أمامكم أيها السادة إنساناً صادقاً مستقيماً لا يعرف طبعه الالتواء والمخاتلة، إن أمامكم إنساناً - لا يغب هذا عن بالكم - إن يكن قد ارتكب حقارات كثيرة، فإنه ظل دائماً في قرارة نفسه، أعني في أعماق قلبه، طاهراً... الخلاصة... إنني لا أحسن الإفصاح عما بنفسي... لقد تألمت طول حياتي بسبب اندفاعات روحي إلى ما هو خير وسُمُوّ، وكنت أبحث عن نبل الطبيعة الإنسانية بحث ديوجين عنه إن صح التعبير، حاملاً مصباحاً... ورغم ذلك قارفت دناءات في كل خطوة من خطواتي، كما نقارف جميعاً هذه الدناءات أيها السادة... أقصد... لا... ليس كما نقارفها جميعاً، بل كما أقارفها أنا وحدي، لقد أسأت التعبير يا سادتي.. نعم، كما أقارفها أنا وحدي... إن بي صداعاً أيها السادة (كذلك قال فجأة وقد تقبضت قسمات وجهه على ألم)... نعم يا سادتي... كنت أكره مظهره؛ كان في هيئته شيء يوحي بالدنس، كان فيه تبجح واحتقار لكل ما هو عظيم مقدس، كان فيه سخرية وكفر أوه! كان هذا دنيئاً، دنيئاً جداً! ولكنني أفكر الآن غير هذا التفكير بعد أن غاب عن الوجود.

- غير هذا التفكير؟ ماذا تعني؟

- غير هذا التفكير، ذلك أنني آسف لأني كرهته ذلك الكره الشديد كله.

- أأنت نادم إذاً؟

- لا، لا يعني ذلك أنني نادم، لا تكتبوا هذا! أنا نفسي مليء بالعيوب أيها السادة! أنا لست مثال جمال النفس، فلم يكن من حقي إذاً أن أنفر منه ذلك النفور كله... هذا ما تستطيعون أن تكتبوه.

وبدا على ميتيا، بعد هذا الجواب الأخير، أنه قد خارت قواه جداً على حين فجأة. وكان وجهه قد أخذ يزداد اكفهراراً وجهامة كلما تتابع الاستجواب. وهذا مشهد لم يكن في الحسبان أن يقع بغتةً في تلك اللحظة نفسها. كانت جروشنكا قد أبعدت من الغرفة طبعاً، ولكنهم لم يقصوها إلى مكان ناءٍ، وإنما أودعوها في الغرفة الثالثة، وهي غرفة لا يفصلها عن الغرفة الزرقاء التي يجلس فيها ميتيا والقاضي إلا القاعة التي قام فيها الرقص وتم فيها القصف أثناء الليل. هي غرفة صغيرة ذات نافذة واحدة جلست فيها جروشنكا بصحبة ماكسيموف الذي روَّعته الأحداث فكان يتشبث بجروشنكا تشبث الغريق بلوح النجاة. وعلى باب تلك الغرفة كان يرابط فلاح على صدره صفيحة من معدن. كانت جروشنكا تبكي، وها هي ذي تحس فجأة أنها أصبحت لا تقوى على كبح حزنها، فإذا هي تنهض وتضم يديها إحداهما إلى الأخرى، وتصيح قائلة: «يا للشقاء!»، ثم تندفع إلى خارج الغرفة، متجهة إليه، إلى عزيزها ميتيا؛ وقد تم ذلك على نحو بلغ من المباغتة أن أحداً لم يتسع وقته لصدِّها. وقد سمع ميتيا صرختها، فارتعش، ووثب عن كرسيه، وأطلق من صدره نوعاً من العويل، واندفع نحوها طائش العقل، كأنه نسي الوضع الذي هو فيه. لم يُترك لهما أن يلتقيا، وإن تكن نظراتهما قد التقت. أُمسك ميتيا بقوة. فأخذ يصارع حانقاً مسعوراً، ولم تمكن السيطرة عليه إلا بتعاون ثلاثة رجال أو أربعة. وأُمسكت هي أيضاً، ورأى ميتيا كيف كانت تصرخ وتمد إليه ذراعيها في لوعة شديدة بينما كانوا يقتادونها. حتى إذا رجع كل شيء إلى الهدوء وجد ميتيا نفسه مرة أخرى في ذلك المكان نفسه، أمام المائدة، قبالة القاضي، فصاح يسأل القاضي ووكيل النيابة:

- ماذا فعلَتْ لكم؟ لماذا تعذبونها؟ إنها ليست مذنبة، إنها لم تفعل شيئاً. . .

فحاول وكيل النيابة وقاضي التحقيق أن يهدئاه. وانقضت على هذه الحال عشر دقائق. وأخيراً عاد إلى الغرفة ميخائيل ماكاروفتش الذي كان قد غاب؛ وتقدم نحو وكيل النيابة بخطى سريعة وقال له بصوت عال واضطراب شديد:

- أبعدناها من هنا. هي الآن تحت. هل تأذنون لي أيها السادة أن أقول كلمتين لهذا الإنسان العاثر الحظ، كلمتين لا أكثر؟ بحضوركم أيها السادة، بحضوركم. . .

فأجابه القاضي:

- لك ما تشاء يا ميخائيل ماكاروفتش، نحن لا نرى في هذا أي بأس، في هذه الحالة الخاصة.

فبدأ ميخائيل ماكاروفتش يقول مخاطباً ميتيا:

- دمتري فيدوروفتش، بنيَّ المسكين، أصغ إليَّ. . . .

كان وجهه المنفعل يعبِّر عن شفقة على المسكين تشبه أن تكون شفقة أب. وتابع كلامه قائلاً:

- لقد توليت بنفسي أخذ أجرافينا ألكسندروفنا إلى تحت، وعهدت بها إلى بنات صاحب النزل؛ كما أن العجوز الصغير ماسكيموف أصبح لا يتركها. وقد كلمتها، وطمأنتها، هل تسمعني؟ أفهمتها أن عليك أن تدافع عن نفسك، أن تبرئ نفسك، فما ينبغي لها أن تمنعك من ذلك بتشويشك، وإلا فقد تدلي من شدة اضطرابك بأقوال خطأ تشهد عليك، هل تفهمني؟ الخلاصة. . . أقنعتها ففهمت ما أقصد. إنها ذكية وطيبة جداً! كانت تريد أن تقبِّل يديَّ أنا العجوز، وتضرَّعت إليَّ من أجلك؛ وطالبتني ملحةً بأن أجيء إليك

لأطلب منك أن تكون مطمئن البال عليها. وأريد يا عزيزي، أن أعود إليها الآن لأبلغها أنك مطمئن وأنك لا تخشى عليها من شيء. هدئ نفسك، ذلك واجبك. أنا أحسّ بأنني مذنب في حقها. إن لها نفساً مسيحية؛ نعم يا سادتي: هي طفلة وديعة بريئة. هل أستطيع أن أبلغها يا دمتري فيدوروفتش أنك ستهدأ الآن؟

كان الرجل الطيب يخبط في كلامه خبط عشواء. إن ألم جروشنكا، هذا الألم الإنساني، قد نفذ إلى قلبه رأساً، فكان في عينيه دموع. نهض ميتيا واندفع نحوه، وصاح يقول:

- بإذنكم يا سادتي، بإذنكم. إنك يا ميخائيل ماكاروفتش ملاك من ملائكة الخير. شكراً لك من أجلها. نعم، أنا هادئ، قل لها هذا، وسأكون مرحاً... قل لها، بما لك من طيبة وأريحية، إنني مرح، مرح جداً، حتى لأشتهي أن أضحك، لعلمي بأنها في حماية ملاك حارس مثلك. سأنهي هذا الأمر بسرعة، حتى إذا انتهيت، خففت إليها. فلتعتمد عليّ ولتنتظرني واثقة. أيها السادة (كذلك قال يخاطب قاضي التحقيق ووكيل النيابة)، سوف أفتح لكم نفسي كلها، سوف أسرُّ إليكم بكل شيء، فنفرغ من هذا الحادث بسرعة وننتهي منه مرحين ضاحكين، لأننا سنضحك جميعاً في النهاية، أليس كذلك؟ إن هذه المرأة أيها السادة هي ملكة قلبي! أوه! اسمحوا لي أن أقول لكم إنني أشعر بالحاجة إلى أن أفضي إليكم بما في قلبي... لأنني أرى أن أمامي أناساً لهم نفوس نبيلة إنها ضيائي وحياتي أيها السادة! آه... ليتكم تعلمون! هل وحياتي أيها السادة تقول: «سأشاركك العقوبة القصوى!»؟ فماذا أعطيتها أنا الذي لا أملك شيئاً، حتى أستحق منها مثل هذا الحب؟ لست جديراً بهذا الحب، أنا الإنسان السيئ، بوجهي المنفِّر، وسلوكي الأخرق، ومظهري الثقيل. ألأنا جدير بمثل هذا

الحب؟ ماذا فعلت في سبيلها حتى تكون مستعدة لأن تتبعني مجون إلى الأشغال الشاقة؟ لقد ارتمت على أقدامكم منذ هنيهة في سبيلي، هي الشماء التي لم ترتكب ذنباً يمكن أن تلام عليه. فكيف لا أعبدها، كيف لا أندفع نحوها كما اندفعت منذ لحظة؟ اغفروا لي أيها السادة! ولكنني قد تأسّيت وهدأت الآن...

قال ميتيا ذلك وعاد يتهالك على الكرسي، وأخفى وجهه بيديه وأخذ يبكي ناشجاً منتحباً. ولكن دموعه في هذه المرة كانت دموع التخفف والطمأنينة. كان يشعر أنه استرد ذاته ورجع إلى نفسه. وأشرق وجه رئيس الشرطة، وظهر الرضى والارتياح على رجلَيْ القضاء أيضاً: لقد أحسّا أن الاستجواب سيدخل مرحلة جديدة. ورجع ميتيا إليهما بعد أن شيَّع رئيس الشرطة، عاد هادئ النفس مطمئن الجنان. وقال:

- والآن أيها السادة، أضع نفسي تحت تصرفكم. ولكن ليتكم ترضون أن لا ترتبكوا بجميع تلك التفاصيل، فنتفاهم عندئذٍ بسرعة كبيرة. إنني أتيه في تلك التفاصيل. أنا مستعد أيها السادة، ولكن صدقوني إذا قلت لكم: إن الثقة المتبادلة لابد منها ولا غنى عنها في مثل هذه الحالة. يجب أن تصدقوني كما أصدقكم، وإلا فلن نصل أبداً إلى النهاية. أقول لكم هذا لمصلحتكم أنتم. فهيّا بنا أيها السادة، هيا بنا إلى القضية! إلى الوقائع.

ولكن كفوا خاصة عن النبش في نفسي، ولا تعذبوني في سبيل سفاسف وترهات؛ ألقوا عليَّ أسئلةً تتصل بالقضية وحدها دون غيرها. اطلبوا وقائع، وقائع، ولأجيبنّكم بما يرضيكم كل الإرضاء. دعونا من التفاصيل!

كذلك صاح ميتيا، واستؤنف الاستجواب.

– 4 –

المحنة الثانية

بدأ نيقولاي بارفينوفتش كلامه قائلاً:

– لا تستطيع أن تتصور يا دمتري فيدوروفتش إلى أي مدى تشجعنا نيتك الطيبة هذه...

كان الرضى يُقرأ في عينيه الشهباوين الجاحظتين قليلاً الحسيرتين اللتين رفع عنهما النظارتين منذ حين. وتابع يقول في حرارة:

– إن ما قلته عن ضرورة الثقة المتبادلة صحيح كل الصحة. إن هذه الثقة المتبادلة شرط أساسي في قضية لها هذه الخطورة، ولا سيما حين يريد الشخص المتهم أن يبرئ نفسه وحين يكون في إمكانه أن يبرئ نفسه. نحن من جهتنا سنفعل كل ما يتعلق بنا، ولا بد أنك لاحظت بنفسك بأي روح نجري هذا الاستجواب... أنت توافقني على هذا يا ايبوليت كيريلوفتش، أليس كذلك؟ (أضاف هذا مخاطباً وكيل النيابة فجأة).

أجاب وكيل النيابة مؤيداً، ولكن بلهجة جافة بعض الجفاف، لهجة تتعارض مع ما أظهره قاضي التحقيق من اندفاع حار:

– بدون شك.

لنذكر مرةً واحدة وإلى الأبد أن نيقولاي بارفينوفتش الذي وصل إلى مدينتنا منذ زمن قصير والذي هو في بداية عهده بمهنته، قد شعر

دفعةً واحدة باحترام عظيم لشخص وكيل النيابة عندنا ايبوليت كيريلوفتش، فانعقدت بين الرجلين صداقة قوية. وكان على كل حال هو الإنسان الوحيد المؤمن حقاً بالمواهب السيكولوجية والخطابية الفذة التي ينعم بها ايبوليت كيريلوفتش «الذي لم يقدّر حق قدره». وكان يعتقد هو أيضاً، اعتقاداً جازماً، بأن المراجع العليا تظلم وكيل النيابة هذا الذي سمع عنه في بطرسبرج قبل أن يجيء إلى مدينتنا. وكان نيقولاي بارفينوفتش، الشاب جداً، هو كذلك الإنسان الوحيد الذي شعر نحوه صاحبنا «المجهول القَدْر» بعاطفة صادقة. وقد اتسع وقتهما في طريقهما إلى موكرويه، لأن تتفق آراؤهما في هذه القضية، ولأن يُجمعا على الموقف الواجب اتخاذه، والطريقة الواجب تبنيها، بحيث إن الفكر المرهف الذي ينعم به نيقولاي بارفينوفتش يلتقط الآن بسرعة البرق أخفى الخواطر والنوايا التي تجول في ذهن زميله الأكبر منه سناً، ويحزرها بنصف كلمة، بإشارة خاطفة، بحركة في عضلات وجهه، بغمزة من عينيه.

استأنف ميتيا كلامه متحمساً:

– دعوني أتكلم أيها السادة دون أن تقاطعوني مستوضحين تفاصيل تافهة؛ وسأبسط لكم القضية بسرعة.

– موافق. شكراً لك. على أنني قبل أن أسمع ما تريد أن ترويه لنا أحبّ أن أستوضح واقعة صغيرة تهمنا كثيراً، هي مسألة تلك الروبلات العشرة التي اقترضتها أمس مساءً، في نحو الساعة الخامسة، من صديقك بيتر ايلتش برخوتين، وأودعته مسدسيك رهناً.

– صحيح أيها السادة، نعم... رهنتهما! أي شيء خارق في هذا؟ إنني ما إن عدت إلى المدينة بعد تلك الرحلة، حتى رهنت المسدسين... الأمر بسيط جداً.

- بعد تلك الرحلة؟ هل تغيبت إذاً؟

- طبعاً! سافرت إلى خارج المدينة، على مسافة أربعين فرسخاً من هنا. أكنتم تجهلون ذلك إذاً؟

تبادل وكيل النيابة وقاضي التحقيق النظرات.

- لعلك تحسن صنعاً إذا أنت بدأت بسطك للقضية بأن تصف لنا على وجه الدقة كيف أمضيت وقتك بالأمس منذ الصباح. اسمح لي أن أسألك مثلاً، ماذا كان الغرض من تغيبك، ومتى سافرت، وفي أي ساعة رجعت. إن جميع هذه الوقائع...

قاطعه ميتيا وهو ينفجر ضاحكاً:

- كان ينبغي أن تسألني عن ذلك فوراً. بل إنني لأعتقد أنه يحسن أن نبدأ القصة لا من أمس بل من أمس الأول، من صباح أمس الأول، وستفهمون عندئذٍ لماذا قمت بتلك الرحلة، وماذا كان هدفي منها، وما هي الظروف التي أحاطت بها. في صباح أمس الأول، أيها السادة، ذهبت إلى التاجر سامسونوف على نية أن أقترض منه ثلاثة آلاف روبل لقاء ضمانات موثوقة تماماً. ذلك أنني احتجت إلى هذا المبلغ احتياجاً مستعجلاً على حين فجأة، احتياجاً مستعجلاً جداً أيها السادة...

قاطعه وكيل النيابة يسأله بأدب:

- اسمح لي أن أسألك لماذا احتجت فجأة إلى المال، ولأي غرض وجب عليك أن يكون معك ثلاثة آلاف حتماً؟

- ما فائدة هذه التفاصيل كلها أيها السادة؟ لماذا ومتى وكيف وأين... لأن أحتاج إلى ثلاثة آلاف روبل أو إلى أي مبلغ آخر... لن نفرغ من الأمر أبداً إذا نحن تهنا في هذه التفاصيل الدقيقة! لسوف نحتاج عندئذٍ إلى ثلاثة مجلدات على الأقل، عدا المقدمة!...

كان ميتيا يتكلم بلهجة خالية من الكلفة، لهجة إنسان قد نفد صبره ويريد أن يذكر الحقيقة كاملة وتحرِّكه أطيب النوايا. واستأنف كلامه فجأة يقول:

- لا تؤاخذوني أيها السادة على هذه الخشونة. ثقوا أنني أشعر نحوكم بكل الاحترام الواجب لكم عليَّ، وإنني مدرك موقفي تمام الإدراك. لا تظنوا كذلك أنني ثمل. فقد صحوت من سُكري كل الصحو. ولكن حتى لو كنت ثملاً، فإن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً، ولن يكون له أي تأثير في ما سأوضحه لكم. أنا واحد من أولئك الذين يصدق فيهم قول الشاعر:

أنا إن صحوت رأيتني غبياً

فإذا سكرت غدوت عبقرياً!

هأ هأ هأ! ولكنني ألاحظ أيها السادة أنه لا يليق بي الآن المزاح، إلى أن نفرغ من إزالة هذا الالتباس على الأقل. فاسمحوا لي إذاً أن أحافظ على وقاري. إنني أدرك حق الإدراك التفاوت القائم بيننا الآن: فأنا على كل حال إنما أقف أمامكم موقف مجرم، فهيهات أن أكون لكم نداً. إن مهمتكم هي أن تراقبوني. ولا شك أنكم لن تلاطفوني وتلاعبوا بأيديكم شعري وتهنئوني على الحادث الذي وقع لي مع جريجوري. فليس من الجائز للإنسان أن يصرع الشيوخ بغير ذنب جنوه، وأنا أعلم حق العلم أنكم ستطالبون بأن يُحكم عليَّ بالسجن ستة أشهر أو قولوا سنة، معاقبةً لي على هذا الفعل الذي اقترفته، ولكن دون سقوط حقوقي المدنية. انا لست معرَّضاً للحرمان من حقوقي المدنية، أليس كذلك يا وكيل النيابة؟ قلت إذاً أيها السادة إنني أدرك حق الإدراك الفرق بين موقفي وموقفكم... ومع ذلك أرجوكم أن تعترفوا من جهتكم بأن الله نفسه يمكن أن تربكه أسئلة

من هذا النوع: كم خطوة مشيت، في أي لحظة رفعت قدمك اليسرى، في أي لحظة أنزلت قدمك اليمنى، على أي شيء سرت؟ إذا أخذتم تلقون عليَّ مثل هذه الأسئلة، فسأرتبك أخيراً، وستسجلون الخطأ الذي سأقع فيه، وسينشأ عن ذلك أن لا نصل إلى شيء. وما دمت قد بدأت ببعض الكذب، فلا بأس أن أستمر في الكذب، وستغفرون لي كذبي، لأنكم أناس مهذبون مثقفون ثقافة عالية. أحبّ في الختام أن أرجوكم أيها السادة أن تقلعوا عن تلك الأساليب البالية في الاستجواب، أعني البدء بإلقاء أسئلة تافهة: كيف نهضت من نومك هذا الصباح؟ ماذا أكلت؟ أين بصقت؟ ثم المبادرة، بعد «تنويم يقظة المجرم» على هذا النحو، إلى مباغتته فجأة بهذا السؤال: «أين قتلت القتيل وسلبته ماله؟». هأها!... ذلك هو روتينكم، ذلك هو علمكم كله، تلك هي الحيلة الكبرى في أسلوبكم! قد تستطيعون أن تباغتوا فلاحين بمثل هذه الأنواع من المكر، ولكن ذلك لا ينطلي عليَّ أنا! أنا نفسي خبير في هذه الشؤون، لقد عملت أنا أيضاً في هذا المجال.. هأهأها! لا تزعلوا يا سادتي، واغفروا لي هذه الوقاحة (كذلك صاح وهو ينظر إليهما ببشاشة تبعث على الدهشة) فما دام ميتكا كارامازوف هو الذي يتكلم بهذه الطريقة، فإن التسامح والتساهل ممكن، لأن ما لا يمكن غفرانه إذا هو صدر عن رجل ذكي، يجب أن لا يُكترث به حين يكون ميتكا هو الذي يقوله! هأ هأ!...

كان نيقولاي بارفينوفتش يضحك أيضاً وهو يصغي إلى ميتيا، أما وكيل النيابة فلم يضحك ولكنه كان يلاحظ ميتيا بإلحاح، ولايحول عنه بصره النافذ، ويحاول أن يسجل كل كلمة من كلماته بل وأيسر حركة من حركاته، حتى أخفّ الاختلاجات في عضلات وجهه.

قال القاضي وهو ما يزال يضحك:

- يجب أن تنصفنا هذا الإنصاف على الأقل، فتعترف بأننا لم نستعمل معك هذا الأسلوب. إننا لن نحاول أن نربكك بسؤالك كيف نهضت من نومك في الصباح وماذا أكلت، وإنما واجهنا الأمر الأساسي دفعةً واحدة، بسرعة لعلها كانت مفرطة أيضاً.

- إنني أفهم هذا وأقدِّره حق قدره. وأقدِّر كذلك ما أظهرتموه نحوي من طيبة وشهامة تدلان على سمو أخلاقكم. إننا جميعاً، نحن الثلاثة صادقو النية تحركنا أنبل المشاعر. فليجرِ كل شيء بيننا كما ينبغي أن تجري الأمور بين رجال المتجمع الراقي المثقفين الذين يثق بعضهم ببعض، وتربطهم روابط النبالة والشرف! اسمحوا لي على كل حال أن أعدّكم خير أصدقائي في هذه الدقيقة من حياتي، في هذه الساعة التي يُذَلّ فيها شرفي أكبر الإذلال! أرجو أن لا يسوءكم هذا يا سادتي!

قال نيقولاي بارفينوفتش في وقار مؤيداً:

- بالعكس! لقد عبَّرت أحسن تعبير، ووجدت أنسب الكلمات!

صاح ميتيا يقول بحماسة:

- أما التفاصيل، أما تلك التفاصيل الزخرفية السخيفة كلها، فلندعها وشأنها، وإلا لم نعلم إلى أين يمكن أن ينتهي هذا كله، أليس ذلك صحيحاً يا سادتي؟

قال وكيل النيابة يخاطب ميتيا فجأة:

- أنا مستعد كل الاستعداد لأن آخذ بنصائحك السديدة، ولكنني لن أستطيع مع ذلك أن أعدل عن سؤالي. فإنه لعلى جانب عظيم من خطورة الشأن في نظرنا أن نعلم لماذا احتجت ذلك الاحتياج الشديد كله إلى هذا المبلغ، أعني إلى الثلاثة آلاف روبل.

- لماذا احتجت إلى ذلك المبلغ؟ احتجت إليه لأسباب عدة. . . الخلاصة: لأردَّ ديناً عليَّ.

- ديناً لمن؟

- ذلك أرفض أن أقوله لكم رفضاً قاطعاً أيها السادة! أرفض أن أقوله لكم لأنني لا أستطيع أن أقوله لكم، لا عن خوف من أي شيء، بل لأن الأمر في الواقع هو من السفاسف التي لا قيمة لها البتة. ولئن صمتُّ عنه مع ذلك، فلأن القضية قضية مبدأ: إن هذا السؤال يمس حياتي الخاصة، ولن أسمح لكم بالتدخل في حياتي الخاصة. هذا هو مبدئي. إن ما تسألون عنه لا علاقة له بالقضية، وكل ما يتجاوز هذه الحدود فهو من حياتي الخاصة! لقد أردت أن أردَّ ديناً هو دين شرف، ولكنني لن أذكر لكم اسم الشخص الذي كنت أريد أن أردَّ له هذا الدين.

قال وكيل النيابة:

- اسمح لنا بتسجيل تصريحك.

- سجلوا ما شئتم! اكتبوا أنني لن أجيب عن هذا السؤال بحال من الأحوال! اكتبوا أن في الإجابة عن هذا السؤال إخلالاً بشرفي! ليس الوقت هو ما يعوزكم فيما يبدو!

استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً بصوت أصبح قاسياً رصيناً على حين فجأة:

- أعتقد أن من واجبي أن أنبهك أيها السيد الفاضل، إذا كنت تجهل ذلك، أن من حقك طبعاً أن لا تجيب عن الأسئلة التي تلقى عليك، وأننا لا نملك أن نجبرك على الإجابة إذا أنت رأيت لسبب من الأسباب أن تخفي هذه النقطة أو تلك من النقاط. هذا من شأنك. ولكن من واجبنا أيضاً أن نلفت نظرك إلى الأذى الذي يمكن

أن تلحقه بنفسك إذا أنت رفضت الإدلاء بالمعلومات المطلوبة. أرجوك الآن أن تتابع كلامك.

دمدم ميتيا يقول وقد أربكته اللهجة الرصينة التي خاطبه بها وكيل النيابة:

- ولكنني يا سادتي لم أغضب... أنا... أنا.. إن سامسونوف ذاك الذي ذهبت إليه حينذاك... يا سادتي...

لن ننقل هنا سلسلة الوقائع التي ذكرها ميتيا، فإن القارئ يعرفها. لقد أراد ميتيا أن يقدم عرضاً كاملاً ومفصلاً، وكان من جهة أخرى يستعجل إنجاز هذا العرض. لذلك كان يتكلم متسرعاً. غير أن تصريحاته كانت تسجل شيئاً بعد شيء، فكان هذا يضطره إلى التوقف دائماً من حين إلى حين، وكان هذا التوقف يضايقه ويزعجه، فكان يتوقف عن الكلام، ويدمدم متحلحلاً ولكن دون أن يخرج عن طيبته وبساطته. كان يتفق له أن يصيح قائلاً في بعض الأحيان: «أيها السادة، لو كان الله نفسه في مكاني لضاق صدره في هذه الظروف!» أو «لست أرى أيها السادة ما الفائدة من امتحان أعصابي على هذا النحو!»، ولكن دون أن يفسد ذلك من مزاجه الذي كان عندئذٍ منطلقاً ودوداً. روى كيف أن سامسونوف قد خدعه قبل يومين (لقد أخذ يدرك الآن أن سامسونوف ضلّله وغرر به). وذكر أنه باع ساعته بستة روبلات ليتمكن من السفر، وتلك واقعة كان يجهلها وكيل النيابة وقاضي التحقيق، وقد لفتت انتباههما وظهر عليهما أنهما اهتما بها اهتماماً شديداً. فكان من شأن إلحاحهما على هذه النقطة أن أخرج ميتيا عن طوره، لأنهما رأيا أن من الضروري تسجيل هذه الواقعة، دليلاً جديداً على أنه كان عشية وقوع الجريمة لا يكاد يملك قرشاً واحداً. ومنذ تلك اللحظة أخذ يتجهم وجه ميتيا مزيداً من

التجهم شيئاً بعد شيء. وبعد أن روى قصة سفره سعياً إلى لياجافي، وقضائه ليلةً في الكوخ الذي تملؤه غازات الفحم المحترق، وصف عودته إلى المدينة، وأخذ يصوِّر، من تلقاء نفسه في هذه المرة، دون أن يُطلب منه ذلك، جميع تباريح غيرته على جروشنكا. فكان القاضيان يصغيان إليه بانتباه صامتين. وقد سجّلا خاصةً أنه كان قد أنشأ منذ زمن طويل، مركزاً للمراقبة وراء منزل فيدور بافلوفتش في حديقة ماريا كوندراتيفنا، وأنه كان يترصد جروشنكا من هناك، وأن سمردياكوف كان ينقل إليه أخباراً ويطلعه على ما يجري في منزل أبيه. هذه الظروف كلها قد سُجِّلت بكثير من العناية والاهتمام. وتكلم ميتيا عن غيرته بإفاضة وانفعال. ورغم الحرج النفسي الذي شعر به من عرض عواطفه الحميمة وتعرية نفسه أمام الناس، فقد حاول أن يتغلب على الخجل والحرج حرصاً منه على أن يقول الحقيقة صادقاً. غير أن النظرات القاسية الباردة التي كان يصبها عليه قاضي التحقيق ووكيل النيابة خاصةً محدِّقين إليه متفرسين فيه أثناء روايته القصة قد اضطربت منها نفسه آخر الأمر. قال في سرِّه حزيناً: «إن هذا الصبي الغر نيقولاي بارفينوفتش الذي بادلته منذ عدة أيام أحاديث تافهة غثة عن النساء، وإن وكيل النيابة هذا المريض النفس، لا يستحقان أن يسمعا ما أفضي إليهما به من اعترافات نفسي. يا للعار!». ولكنه استرد عزيمته مردداً ذلك البيت من الشعر الذي يقول: «يا قلبُ صمتاً وإذعاناً وتسليماً»[28]. وتابع يروي قصته مجاهداً متجلداً. فلما وصل من حديثه إلى الكلام على زيارته للسيدة خوخلاكوفا انبسطت أساريره من جديد وشاع في نفسه المرح، وأوشك أن يروي الحادث الذي وقع لهذه السيدة منذ حين ولا يعلق بالقضية. لذلك استوقفه القاضي عن الكلام بلطف وكياسة، راجياً منه

أن ينتقل إلى «واقع أهم». حين وصف انصرافه من منزل تلك السيدة واليأس الذي اجتاح نفسه في الشارع، لم يُسقط من حديثه تلك الواقعة، وهي أنه قد خطر بباله «إنه لم يبق له إلا أن يذبح أحداً ويسلبه ماله بأقصى سرعة للحصول على ذلك المبلغ». عندئذٍ طلب منه القاضيان أن يتوقف عن الكلام وأسرعا يسجلان أنه «قد خطر بباله أن يذبح أحداً»، وتركهما ميتيا يسجلان أقواله دون امتعاض أو احتجاج. فلما وصل في حديثه أخيراً إلى اللحظة التي علم فيها فجأة أن جروشنكا قد كذبت عليه حين زعمت له أنها ستبقى عند سامسونوف إلى منتصف الليل، مع أنها في الواقع قد تركت التاجر العجوز بعد أن ودَّعها ميتيا ببضع دقائق أمام باب منزل كوزما كوزمتش، لم يملك أن يمنع نفسه من أن يصيح قائلاً: «لئن لم أقتل فينيا تلك حين علمت النبأ، فإن السبب الوحيد يا سادتي هو أنني قد أعوزني الوقت». سُجِّلت هذه الأقوال كذلك بعناية واهتمام. فكان ميتيا ينتظر، عابسَ الوجه مكفهر الأسارير، أن يفرغ الكاتب من كتابته؛ وهمَّ أن يشرح بعد ذلك كيف أسرع إلى حديقة أبيه، ولكن قاضي التحقيق قاطعه فجأة، إذ فتح محفظة أوراقه الموضوعة على الكنبة قربه، وأخرج منها مدق الهاون النحاسي، وسأله:

– هل تعرف هذه الأداة؟

فقال ميتيا وهو يبتسم ابتسامة متجهمة:

– هذا؟ آ... نعم... طبعاً أعرفها! أرنيها... بل لا داعي لأن أراها... اللعنة!

قال قاضي التحقيق:

– نسيت أن تتكلم عن مدق الهاون هذا.

– اللعنة! ليس في نيتي أن أخفي عنكم هذا فهو لا غنى عنه في

قصتي، أليس كذلك؟ كان ينبغي أن أذكر هذه الواقعة، فلولا هذا المدق لما وقع شيء. كل ما في الأمر أنه قد خرج من ذهني.

- هلا تفضلت فذكرت لنا الظروف التي تسلَّحتَ فيها بهذا المدق؟

- بكل سرور يا سادتي، سأتفضل.

وروى ميتيا كيف تناول مدق الهاون عَرَضاً وأسرع يخرج من مطبخ فينيا.

- ماذا كان هدفك من أخذ هذا السلاح؟

- ماذا كان هدفي؟ لم يكن لي غرض، وإنما أخذته هكذا وركضت. . .

- ما هذا الكلام؟ أكنت تأخذه لو لم يكن لك هدف؟

غلى ميتيا حنقاً. كان يتفرس في «الفتى الغر» مبتسماً ابتسامة عداء وكره. ذلك أنه كان يشعر بمزيد من الخزي والعار، شيئاً بعد شيء، من أنه ارتضى أن يصف «لأناس مثلهم»، بمثل هذا الصدق كله وبمثل هذا الاندفاع العاطفي كله فوق ذلك، مشاعرَ الغيرة التي كانت تعذبه.

- ما لنا ولهذا المدق اللعين؟

- ولكن. . .

- ولكن. . . حسناً، كنت أريد أن أدافع عن نفسي من كلاب الشارع. . . في الظلام. . . احتياطاً للمفاجأة. .

- هل اعتدت، من قبل، حين تخرج ليلاً، أن تتسلح خوفاً من الظلام؟

- تفو! اللعنة! حقاً إنه ليستحيل الحديثَ معكم أيها السادة. . .

كذلك صاح يقول ميتيا وقد بلغ أوج الغيظ والحنق. ثم التفت

نحو الكاتب، فقال له بصوت فيه اهتياج غريب، وقد احمرّ وجهه غضباً:

- اكتب... اكتب حالاً: «إنني أخذت المدق على نية الذهاب فوراً إلى أبي فيدور بافلوفتش.. لقتله.. لتحطيم جمجمته...».

ثم هتف يقول مخاطباً قاضي التحقيق ووكيل النيابة، وهو يرشقهما بنظرة متحدية مستفزة:

- أأنتم راضون الآن أيها السادة؟ هل طبتم نفساً؟ هل اغتبطت قلوبكم؟

فأجابه وكيل النيابة بلهجة جافة:

- نرى أنك قد أعطيت هذا التصريح بسبب حنقك منا وبسبب ضيقك بهذه الأسئلة التي تُلقى عليك والتي تظن أنها تافهة. ولكنها في الواقع هامة جداً.

- رحماكم أيها السادة! أخذت هذا المدق.. طيب!

إن المرء يشعر أحياناً بالحاجة إلى أن يكون في يده شيء... الحق أنني أجهل لماذا أخذته. لقد أخذته راكضاً، هذا كل شيء. ألا تخجلون أيها السادة دعونا من هذا وإلا فيميناً لن أحكي شيئاً بعد الآن!

قال ميتيا ذلك ووضع كوعيه على المائدة، وجعل رأسه في يده. كان جالساً إلى جانب بالنسبة إلى الرجلين، وكان ينظر إلى الحائط محاولاً أن يسيطر على غضبه. وكان يغريه فعلاً أن ينهض وأن يصرح بأنه لن يقول بعد الآن كلمة واحدة «ولو سيق إلى الموت».

قال فجأة وهو يجاهد في سبيل أن لا ينفجر:

- أتعرفون أيها السادة؟ إنني، وأنا أصغي إليكم، أشعر بإحساس غريب... يذكّرني الإحساس بحلم... بحلم ما... يعاودني في

كثير من الأحيان أثناء النوم... أحلم أن أحداً يطاردني في الليل، في الظلام... أحداً أخاف منه خوفاً رهيباً... إنه يبحث عني، وأحاول أنا أن أختبئ منه، أن أغيب عن بصره... فألوذ وراء باب أو وراء خزانة، فأحس بأن هذا يذلني... والرجل الآخر يعرف أين أنا، يعرف مخبئي، ولكنه يتظاهر بأنه يجهله ليطيل عذابي... وليتمتع بهلعي زمناً أطول... ذلك هو بعينه ما تفعلونه أنتم في هذه اللحظة أيها السادة! ذلك هو بعينه تماماً!

سأله وكيل النيابة:

- أتراودك إذاً أحلام من هذا النوع؟

- أي نعم... ألا تريدون أن تسجلوا هذا أيضاً؟ - أجابه ميتيا مبتسماً ابتسامة ساخرة.

- لا... لن نسجله، ولكنه إشارة هامة في الواقع. الحق أنك ترى أحلاماً غريبة...

- غير أن ما أراه الآن ليس حلماً! إنه واقع أيها السادة، هو واقع الحياة الرهيب! أنا ذئب وأنتم الصيادون. فهلموا وراء الذئب!

قاطعه قاضي التحقيق قائلاً له برقة ولطف:

- تخطئ إذ ترى الأمور هذه الرؤية. لماذا هذا التشبيه؟

فقال ميتيا غاضباً:

- بلى أيها السادة! إن هذا التشبيه يصدق على الظرف الحاضر كل الصدق!

غير أن جوابه هذا قد خفف عنه، فهدأ قليلاً، وأخذت الطيبة تغزوه من جديد، فتابع كلامه قائلاً:

- من حقكم أن تشكوا في مجرم أو متهم تعذبونه باستجوابكم، ولكن حين يكون أمامكم إنسان مستقيم نبيل أيها السادة، وحين

يكلمكم هذا الإنسان مستسلماً لأصدق اندفاعات قلبه (وأقول هذا بصراحة) فما ينبغي لكم عندئذٍ أيها السادة أن تشكوا في كلامه... لا يحق لكم أن لا تصدقوه... لا يحق لكم ذلك حينذاك... ولكن...

يا قلب صمتاً وإذعاناً وتسليماً!

ثم سألهم فجأة وقد أظلم وجهه:

- أأستأنف سرد قصتي؟

فأجابه نيقولاي بارفينوفتش:

- طبعاً! أرجوك أن تفعل!

- 5 -

المحنة الثالثة

استأنف ميتيا سرد قصته بصوت كالح، ولكنه كان يحاول الآن، أكثر مما قبل ذلك، أن لا يُسقط أي واقعة من الوقائع التفصيلية. روى كيف وثب فوق السور ليدخل إلى حديقة أبيه، ووصف مشيته الصامتة للاقتراب من النافذة، عرض عرضاً دقيقاً ما جرى أثناء اللحظات التي ظل فيها متربصاً مراقباً وراء الشجيرات، وصوَّر تصويراً واضحاً - وهو يفصِّل كلماته - العواطف التي هزت نفسه حين كان يحاول قلقاً أن يعرف هل جروشنكا عند أبيه أم لا. ولكنه استغرب أن يرى أن وكيل النيابة وقاضي التحقيق يصغيان إليه في هذه المرة بتحفظ شديد وقد ظهرت في وجهيهما قسوة، وأصبحت أسئلتهما قليلة. كان يستحيل عليه أن يدرك من تعبير وجهيهما ما كانا يفكران فيه. قال في نفسه: «لا شك أنهما غاضبان مستاءان؛ فليكن ما يكون!». حتى إذا وصل من حديثه إلى الإشارة التي قرر أن يستعملها حتى يظن أبوه أن جروشنكا وصلت فيفتح النافذة، لاحظ أن قاضي التحقيق ووكيل النيابة لا يوليان هذا الأمر أي انتباه، فكأنهما لا يدركان خطورته ولا يفهمان ما هي تلك الإشارة التي يتحدث عنها، فاستغرب ميتيا ذلك أشد الاستغراب. فلما وصل أخيراً إلى اللحظة

التي رأى فيها أباه يميل من على النافذة، فشعر بتأجج كرهه له وأخرج مدق الهاون من جيبه، توقف ميتيا عن الكلام كأنه تعمد ذلك، وأخذ يحدق إلى الجدار، ولكنه أحسّ أن الرجلين يرقبانه بانتباه شديد. قال وكيل النيابة:

- هيه، أخرجت السلاح من جيبك... ثم... ثم... ماذا حدث بعد ذلك؟

- بعد ذلك؟ قتلته... ضربته على رأسه وكسرت جمجمته.. هذا ما حدث في زعمك وظنّك، أليس كذلك؟

هكذا صاح ميتيا وقد قدحت عيناه شراراً. لقد تأجج الغضب في نفسه من جديد، بعنف متزايد.

قال نيقولاي بارفينوفتش:

- ذلك في زعمنا نحن. طيب. فماذا في زعمك أنت؟

خفض ميتيا عينيه. وخيَّم صمت طويل.

ثم استأنف ميتيا كلامه قائلاً بصوت هادئ:

- في زعمي أنا، إليكم ما حدث أيها السادة. لا أدري ابتهلت أمي إلى الله في تلك اللحظة، أم انسكبت دموع بريئة طاهرة لإبعاد الشر، أم أمسكني من يدي ملاك لا يُرى؟ المهم أن الشيطان قد غُلِبَ. ابتعدت عن النافذة، وركضت متجهاً نحو السور.. ذعر أبي، وعرفني فجأة، وأطلق صرخته، وغاب عن النافذة... أتذكر هذا تذكراً واضحاً. اجتزت الحديقة، وأسرعت أبلغ السور، وفي تلك اللحظة إنما ظهر جريجوري الذي أدركني حين كنت قد راكباً على السور.

قرر ميتيا أخيراً أن يرفع عينيه نحو محدِّثيه. فلاح له أنهما كانا ينظران إليه بغير اكتراث. فألمّت به رعدة من غضب. وقال لهما:

- ألاحظ يا سادتي أنكم تسخرون مني!

فسأله نيقولاي بارفينوفتش:

- ما سبب خطور هذه الفكرة ببالك؟

- إنكم لا تصدِّقون كلمة واحدة مما أقول، أنا أدرك هذا. فهمت: لقد وصلت إلى عقدة القضية. العجوز يرقد الآن جثةً هامدة محطم الجمجمة، وأنا، بعد أن وصفت لكم وصفاً فاجعاً كيف أردت أن أقتله، وكيف أخرجت مدق الهاون من جيبي لهذا الغرض، أصرِّح لكم فجأة بأنني لم أزد على أن ابتعدت عن النافذة!.. هذه قصيدة حقاً، أليس كذلك؟ كان ينبغي أن يقال هذا الكلام كله شعراً! كيف يمكن أن يُصدَّق رجل مثلي؟ هاها!... إنكم تسخرون مني أيها السادة!

قال ميتيا هذا الكلام، واستدار ثقيلاً على كرسيه فقرقع الكرسي.

قال وكيل النيابة عندئذٍ دون أن يبدو عليه الاكتراث باضطراب ميتيا:

- هل لاحظت أثناء ابتعادك عن النافذة أكان الباب المفضي إلى الحديقة في الطرف الآخر من المبنى مفتوحاً أم كان مغلقاً؟

- كان مغلقاً.

- مغلقاً؟ أأنت متأكد؟

- كل التأكد. كان ذلك الباب مغلقاً. ثم إنه ما كان لأحد أن يستطيع فتحه... هذا... هذا الباب... لحظة! (كذلك صاح ميتيا يقول مرتعشاً، كأن فكرةً قد ومضت في ذهنه فجأة). ألعلكم وجدتم ذلك الباب مفتوحاً؟

- نعم، كان مفتوحاً.

- فمن عسى يفتحه إن لم تفتحوه أنتم؟

كذلك قال ميتيا مندهشاً كل الاندهاش.

فقال وكيل النيابة بصوت رصين بطيء، مقطعاً كلماته:

- كان الباب مفتوحاً، ومن المؤكد أن قاتل أبيك قد دخل المنزل من هناك؛ حتى إذا أتم جريمته خرج من ذلك الباب نفسه أيضاً. تلك نقطة نعدّها مفروغاً منها. فمما لا يخالجنا فيه ريب أن القاتل قد ارتكب جريمته في الغرفة وليس من خلال النافذة. إن هذه النتيجة يدلّ عليها جميع ما شاهدناه، يدلّ عليها وضع الجثة وتدلّ عليها مجموعة من القرائن الأخرى. لم يبق أي شك من هذه الناحية.

عبَّر وجه ميتيا عن دهشة عميقة. وصاح يقول مرتبكاً:

- ولكن هذا مستحيل كل الاستحالة يا سادتي. أنا... أنا لم أدخل البيت! أؤكد لكم جازماً أن الباب ظل مغلقاً أثناء وجودي في الحديقة، وأنه كان مغلقاً أيضاً حين هربت. إنني لم أتحرك من مخبئي؛ ومن النافذة وحدها إنما رأيت... من النافذة وحدها... إنني أتذكر جميع التفاصيل. وهبني لا أتذكرها، فإنني على يقين من أن الباب كان مغلقاً، لأن أحداً لم يكن يعرف الإشارات إلا أنا وسمردياكوف، والمتوفى طبعاً؛ وبدون الإشارة المتفق عليها لا يمكن أن يفتح العجوز الباب.

- الإشارات؟ عن أي إشارات تتكلم؟

كذلك سأله وكيل النيابة بفضول شره محموم أفقده وضع الرصانة والوقار في لحظة. كان في نبرة سؤاله شيء من ضراعة ووجل، ذلك أنه قد أحسّ أن هناك واقعة هامة كان ما يزال يجهلها، وهو يخشى خشية شديدة أن يرفض ميتيا أن يكشفها له بأكملها.

أجابه ميتيا وهو يغمز بعينه ويبتسم ابتسامة ساخرة حانقة:

- آ... أنت لا تعلم؟ فما رأيك إذا لم أشأ أن أقول لك شيئاً

عن أمر تلك الإشارات؟ من عسى يطلعك على ذلك في هذه الحالة؟ ذلك أن هذه الإشارات لا يعرفها أحد إلا أنا وسمردياكوف والمتوفى. إن أحداً لم يُطْلعَ على السرّ، فليس يعرفه، عدانا، إلا الله... ولكن الله لن يقول لك شيئاً عن هذا الأمر؛ وهو أمر هام إلى أبعد الحدود، لا يعرف إلا الشيطان جميع النتائج التي يسمح بالوصول إليها. هأ هأ هأ، اطمئنوا يا سادتي سأكاشفكم بالأمر، مخاوفكم حمقاء! إنكم لا تعرفون الإنسان الذي تخاطبونه. إن أمامكم متهماً يتلذذ بجمع القرائن التي تشهد عليه!... نعم! ذلك أنني أنا فارس شرف، ولكنني لن أقول مثل هذا الكلام عنكم أنتم!

تغاضى وكيل النيابة عن هذه الأقوال الجارحة، لأنه كان يحترق رغبةً لمعرفة الواقعة الجديدة. تكلم ميتيا بإفاضة ودقة عن كل ما يتصل بالإشارات التي تصورها خيال فيدور بافلوفتش لاستعمال سمردياكوف، وأوضح معنى كل طريقة من تلك الطرق المختلفة في قرع النافذة، ومثّلها هو نفسه بالضرب على المائدة. فسأله نيقولاي بارفينوفتش عندئذٍ هل قرع النافذة بالإشارة المتفق عليها لينبئ فيدور بافلوفتش بأن «جروشنكا وصلت»، فأجابه ميتيا بأنه قد قرع النافذة فعلاً بعدد الضربات المتفق عليها لإعلان وصول جروشنكا. وختم ميتيا كلامه قائلاً:

- فها أنتم أولاء اطلعتم على الأمر. هلموا اجمعوا القرائن فوق القرائن، واستخرجوا نتائجكم.

ثم حول وجهه عن الرجلين باحتقار.

سأله نيقولاي بارفينوفتش مرة أخرى:

- أنت تؤكد إذاً أنه لم يكن أحد غيركم، أنت وأبوك والخادم سمردياكوف، يعرف هذه الإشارات، أليس كذلك؟ ألم يطلع عليها أحد غيركم البتة؟

- لم يطلع عليها أحد غير سمردياكوف والله. لا تنسوا أن تسجلوا أن الله كان على علم بالسر. قد يكون العون الإلهي ضرورياً لكم أنتم أيضاً في هذه القضية.

أسرعوا يسجلون جميع هذه التفاصيل. ولكن بينما كان الكاتب يكتب، قال وكيل النيابة فجأة كأن افتراضاً جديداً قد ومض في ذهنه على حين بغتة:

- ولكن إذا كان سمردياكوف يعرف هذه الإشارات هو أيضاً، وإذا كنت تنكر من جهة أخرى أن تكون أنت قاتل أبيك، أفلا يمكن أن يكون هذا الخادم نفسه قد قرع الإشارة المتفق عليها، فاستدرج أباك إلى فتح الباب، ثم... ارتكب الجريمة؟

فرشقه ميتيا بنظرة فيها سخرية شديدة وكره عنيف في آن واحد؛ وظل يحدِّق إليه مدة طويلة دون أن ينطق بكلمة واحدة، حتى إن عيني وكيل النيابة أخذتا تطرفان. ثم انفجر ميتيا يقول أخيراً:

- تريد أن تقبض على الثعلب من جديد بإمساك ذيل هذا الملعون؟ هأ هأ هأ!.. لقد أدركت لعبتك يا وكيل النيابة! خيِّل إليك أنني سأثب على هذا «الطُعم» الذي تمده إليَّ، وأنني سأتبنى هذا التعليل الجميل الذي توحي به، أليس كذلك؟ لا شك أنك كنت تتوقع أن أصيح ملء حنجرتي قائلاً: «نعم، نعم، هو سمردياكوف؛ سمردياكوف هو القاتل» اعترف بأن هذه هي فكرتك الخفية، اعترف بذلك، فأتابع قصتي.

ولكن وكيل النيابة لم يعترف، بل ظل ينتظر صامتاً. قال ميتيا:

- خطأ! لن أتهم سمردياكوف.

لا ولا يساورك أي شك فيه؟

- وأنت هل يساورك هذا الشك؟ هل تشتبه فيه؟

- لقد تصورنا هذا الاحتمال أيضاً.

أطرق ميتيا إلى الأرض. ثم استأنف يقول وقد أظلم وجهه على حين فجأة:

- كفى مزاحاً. وإليكم ما أريد أن أقوله لكم. إذا شئتم الجد إنني منذ البداية، وفي اللحظة التي أزحت فيها الستائر متقدماً نحوكم، في تلك اللحظة تقريباً، ومضت في ذهني هذه الفكرة: «أيكون هو سمردياكوف؟...». ثم، حين جلست أمامكم، وبينما كنت أصيح قائلاً إنني لم أسفح دم أبي، كنت أقدر في قرارة نفسي أن سمردياكوف قد يكون هو القاتل، ولم يبارح هذا الافتراض ذهني بعد ذلك. وفي هذه الدقيقة نفسها، بينما كنتَ تلقي عليَّ هذا السؤال، قلت لنفسي مرة أخرى: «إنه سمردياكوف!»، ولكنني سرعان ما انتهيت إلى هذه النتيجة قائلاً في سري: «لا... ليس هو سمردياكوف!». ليست هذه الجريمة من صنعه.

سأل نيقولا بارفينوفتش محاذراً:

- هل تشتبه إذاً في شخص آخر؟

فقال ميتيا جازماً:

- لا أدري من عسى يكون القاتل، اللّهم إلا أن يكون الله أو أن يكون الشيطان هو الذي تدخل في الأمر... ولكن لا يمكن أن يكون سمردياكوف هو القاتل.

- ما الذي يدفعك إلى أن تؤكد جازماً هذا الجزم، ملحاً هذا الإلحاح، أن القاتل ليس سمردياكوف؟

- هو اقتناع داخلي يستند إلى إحساسات كثيرة. إنني أعتقد أنه ليس القاتل، لأنه إنسان ذو طبيعة حقيرة جداً، ولأنه رعديد فوق كل شيء. ليس سمردياكوف رجلاً جباناً بل هو جميع أنواع الجبن في

هذا العالم قد تجسدت كائناً حياً يسعى، إن هذا الرجل هو الخوف نفسه متجسداً أيها السادة؛ لقد ولد هذا الرجل في خم! كان، كلما كلّمته، يرتجف خوفاً من أن أقتله، مع أنني لم أكن أرفع يدي عليه. كان يرتمي على قدميَّ باكياً ويقبل حذاءيَّ ضارعاً إليَّ أن لا «أخيفه». هل تسمعون؟ «أن لا أخيفه!» ماذا تعني هذه الكلمة؟ ومع ذلك كنت لطيفاً معه على الدوام، وكنت أهدي إليه الهدايا. هذا فرخ ممروض مصاب بالصرع متأخر العقل يستطيع أن يضربه طفل في الثامنة من عمره. أهذا رجل؟ لا يا سادتي، ليس لسمردياكوف ضلع في هذا الأمر. ثم إنه لا يحب المال، ولقد كان يرفض المكافآت التي كنت أريد أن أهبها له. وما عسى يكون الباعث له على قتل العجوز؟ ربما كان سمردياكوف ابن العجوز، ابنه غير الشرعي، هل تعرفون هذا؟

- نعرف هذه الشائعة. ولكنك أنت أيضاً ابن فيدور بافلوفتش، ثم لم يمنعك ذلك من أن تعلن في كل مكان أنك تنوي قتله.

- وهذا حجر آخر في حديقتي! إنها لحقارة وحطة منكم أن تأخذوا عليَّ هذا أيها السادة! ومع ذلك أنا لا أخشى غمزاتكم ولمزاتكم! ولكن ألستم ترون أيها السادة أنه ليس لائقاً أن ترموا وجهي بما أسررت به إليكم أنا نفسي؟ أنا لم أشأ أن أقتله فحسب، بل كان في وسعي أن أفعل، وقد اتهمت نفسي أمامكم بأنني أوشكت أن أصرعه ذات يوم. غير أنني لم أقتله، فإن ملاكي الحارس قد حماني من ارتكاب هذه الجريمة... ولكنكم لا تعتقدون أن عليكم أن تقيموا وزناً لهذا الكلام. ذلك هو الشر في موقفكم، ذلك هو في موقفكم ما يستحق الاحتقار! إنني لم أقتله، إنني لم أقتله، لا، لم أقتله، هل تسمع يا وكيل النيابة؟ أنا لم أقتله!

كان ميتيا يوشك أن يختنق. إنه لم يضطرب هذا الاضطراب الشديد كله في أية لحظة أخرى أثناء الاستجواب. وسأل بعد صمت:

- فما الذي قاله لكم صاحبنا سمردياكوف؟ هل يجوز لي أن أسألكم عن هذا؟

فأجابه وكيل النيابة قائلاً بلهجة قاسية جافة:

- من حقك أن تلقي علينا ما تشاء من أسئلة. إنني أسمع لجميع الأسئلة التي تتصل بالظروف المادية للقضية. أعود فأقول لك إن من واجبنا أن نطلعك على جميع النقاط التي قد تثيرها. لقد وجدنا هذا الخادم سمردياكوف الذي سألت عنه الآن راقداً على سريره مغشياً عليه يعاني من نوبة صرع شديدة، هي النوبة العاشرة فيما أظن، لأن النوبات تتلاحق بلا انقطاع، حتى لقد صرَّح الطبيب الذي رافقنا صرَّح، بعد أن فحصه، أن أغلب الظن أنه لن يعيش بعد هذه الليلة.

- فالشيطان هو الذي قتل أبي إذن!

بهذا هتف ميتيا، كأنه لا يزال يتساءل حتى تلك اللحظة: «أهو سمردياكوف أم لا؟».

قال نيقولاي بارفينوفتش حاسماً المناقشة:

- سنعود إلى هذه المسألة فيما بعد. هل يمكنني أن أرجوك أن تستأنف سرد الوقائع؟

طلب ميتيا أن يؤذن له بأن يستريح بضع لحظات، فوافق رجال القضاء على ذلك بلطف وكياسة. وتابع ميتيا كلامه بعد انقطاع قصير، ولكن كان واضحاً أنه أصبح خائر القوى، وأن الاستجواب قد أرهقه وأهانه، وأن نفسه كانت مهتزة مستاءة. ثم إن وكيل النيابة كان يبدو أنه يتعمّد الآن أن يثير أعصابه بتصديعه في كل لحظة بأسئلة

تتناول أموراً تافهة لا قيمة لها. من ذلك مثلاً أنه ما كاد ميتيا يصف كيف جثم على السور وكيف ضرب بمدق الهاون الخادم جريجوري الذي تشبث بساقه اليسرى وكيف سارع يثب إلى الحديقة بعد ذلك ويميل على الضحية، حتى استوقفه وكيل النيابة راجياً منه أن يوضح طريقة جلوسه على السور. فدهش ميتيا من هذا الإلحاح، وقال يجيبه:

- جلست... هكذا... راكباً... كركوبي على حصان... في كل جهة ساق.

- ومدقّ الهاون؟

- مدقّ الهاون؟ كنت أمسكه بيدي.

- لا في جيبك؟ هل تتذكر هذا تذكراً تاماً؟ هل اندفعت اندفاعة قوية لتضربه؟

- لا بد... ما دمت قد ضربت ضربة قوية. لماذا هذا السؤال؟

- هل لك أن تجلس على هذا الكرسي بالطريقة التي جلست بها على السور، وأن تقلد الحركة التي قمت بها، والاندفاعة التي اندفعتها بذراعك، والجهة التي سددت إليها الضربة، زيادةً في الإيضاح؟

سأل ميتيا محدِّثه وهو يرشقه بنظرة متكبرة:

- أتراك تسخر مني؟

ولكن وكيل النيابة لم تطرف عينه. فاستدار ميتيا فوق كرسيه بحركة عصبية، وجلس عليه راكباً ركوبه على حصان، ورفع ذراعيه، وقال:

- انظروا كيف ضربته، انظروا كيف قتلته! أأنتم راضون الآن؟ ماذا تريدون أيضاً؟

- شكراً. هلا شرحت لنا الآن لماذا وثبت بعد ذلك إلى الحديقة، وماذا كان هدفك من هذا؟ ماذا كانت نيتك؟

- عجيب... هل أعرف لماذا؟ وثبت لأنظر إلى الرجل المصروع.

- لقد قفلتَ راجعاً إلى الحديقة مع أنك كنت تعاني انفعالاً شديداً وكنت تريد أن تهرب. فهلَّا شرحت لنا هذا؟

- نعم، كنت منفعلاً وكنت أريد أن أهرب.

- فهل كان في نيتك أن تسعفه؟

- لا... على كل حال، لا أدري. ولكن... أردت أن أسعفه، ولعلّني أشفقت عليه. لا أتذكر الآن.

- لا تتذكر؟ أكنت قد أصبحت لا تعرف ماذا تفعل؟

- بل كنت واعياً كل الوعي، وإني لأتذكر أيسر التفاصيل. لقد أردت أن أرى الحالة التي كان عليها، وأن أمسح دمه بمنديلي.

- عثرنا على المنديل. هل كنت تأمل إنقاذ حياة الإنسان الذي صرعته؟

- لا أدري هل كنت آمل ذلك. لقد أردت، بكل بساطة، أن أعرف أهو ما يزال حياً أم لا؟

- ها؟ أردت أن تعرف أهو ما يزال حياً أم لا؟ فماذا وجدت عندئذٍ؟

- لم أستطع التأكد، لأنني لست طبيباً. ثم هربت معتقداً أنني قتلته. وها هو ذا صحا من إغمائه...

قال وكيل النيابة أخيراً:

- عظيم. شكراً. ذلك بعينه ما كنت أريد أن أعرفه. هلَّا تفضلت فتابعت سرد الوقائع؟

وأسفاه! لم يخطر ببال ميتيا - رغم أنه يتذكر تذكراً واضحاً - أن يذّكر أنه إنما وثب إلى الحديقة بدافع الشفقة، وأنه حين مال على العجوز جريجوري قد نطق بكلمات تعبِّر عن الشفقة على ذلك العجوز الذي آلمه أن يراه مجندلاً في هذا المكان. إن كل ما حفظه وكيل النيابة من أقوال ميتيا هو أنه وثب عن السور «في لحظة كتلك اللحظة، رغم الاضطراب الشديد الذي كان يعانيه»، دون أن يكون له من هدف إلا أن يعرف هل الشاهد الوحيد على جريمته ما يزال حياً أم أنه مات. واستخلص وكيل النيابة أن هذا السلوك يدل على قدر كبير من هدوء الأعصاب وقوة التصميم ودقة الحساب لدى هذا الرجل حتى في اللحظة وإلخ.. وإلخ. وكان وكيل النيابة راضياً وهو يقول لنفسه: «لقد استطعت أن أنهك قواه بهذه «السفاسف»، فإذا هو يفضح نفسه».

وتابع ميتيا سرد قصته في عناء ومشقة، ولكن نيقولاي بارفينوفتش استوقفه عن الكلام من جديد. سأله:

- كيف ذهبت إلى الخادمة فيدوسيا ماركوفنا مع أن الدم كان ما يزال يلطخ يديك وحتى وجهك، كما ثبت ذلك فيما بعد؟

- لم ألاحظ عندئذٍ أنني كنت مضرجاً بالدم.

قال وكيل النيابة وهو ينظر إلى قاضي التحقيق:

- إنه يقول الحقيقة الآن، فذلك ما يحدث عامة في مثل هذه الحالة.

فقال ميتيا مؤيداً كلامه بحرارة:

- لم ألاحظ ذلك عندئذٍ، نحن الآن متفقان كل الاتفاق يا سيادة وكيل النيابة!

بقي عليه أن يروي كيف قرر فجأة أن «يتنحى عن الطريق»، وأن

«يخلي الدرب للحبيبين السعيدين». ولكنه أحسّ أنه لا يملك الآن، كما كان يملك في بداية الاستجواب، القدرة على أن يفتح قلبه، وأن يتحدث عن «ملكة قلبه» حديثاً طلقاً حراً. إن شعوراً بالاشمئزاز أمام هذين الإنسانين الفاترين اللذين يثبتان عليه أعينهما، «بل يغرسانها في لحمه غرساً كحشرات تمص دمه»، إن شعوراً بالاشمئزاز كان يصدّه عن الانطلاق في الكلام. فاقتصر على بضعة أجوبة مقتضبة جافة عن أسئلة مكرّرة ألقيت عليه حول هذه النقطة.

- نعم قررت أن أنتحر. لم يبق ثمة ما يربطني بالحياة ويشدني إليها، وكان هذا الحل يفرض نفسه بنفسه. إن صديقها القديم الذي لا يمكن جحوده والذي أهانها في الماضي قد عاد إليها بعد خمس سنين ممتلئ القلب حباً، ليتزوجها فيصلح بذلك ما أفسد من أمرها، ويزيل عنها الأذى الذي ألحقه بها. أدركت عندئذٍ أن كل شيء قد انتهى... وعدا هذا كان يلاحقني ذلك العار، وكان ورائي دم جريجوري هذا... ففيم الحياة بعد ذلك كله؟ هكذا ذهبت إلى ذلك الموظف لأستردّ منه المسدسين، وحشوت أحدهما على نية أن أطلق في رأسي رصاصة منذ الفجر...

- وبانتظار ذلك، قررتَ أن تلهو وأن تعبث وأن تقصف طوال الليل؟

- نعم، نعم، قررت ذلك! هلاّ انتهينا من هذا أيها السادة! لقد عزمت عزماً أكيداً على أن أنتحر في مكان غير بعيد من هنا، في أقصى هذه القرية، وكان ينبغي أن أنفّذ عزمي هذا في الساعة الخامسة من الصباح. وقد هيأت كلمة أشرح فيها السبب، ووضعتها في جيبي. لقد كتبتها عند برخوتين حين حشوت مسدسي. إليكم الورقة التي كتبت عليها تلك الكلمة، اقرأوها إن شئتم.

وأضاف يقول فجأة باحتقار:

- ولست أروي هذا كله من أجلكم أنتم.

ثم سلَّ من جيب صديرته ورقة ورماها على المائدة. قرأ وكيل النيابة وقاضي التحقيق الورقة باستطلاع شديد، وضمّاها إلى الملف وفقاً للأصول.

- ألم يخطر ببالك أن تغسل يديك قبل أن تذهب إلى السيد برخوتين؟ ألم تكن تخشى إذاً أن توقظ شبهات وشكوكاً؟

- شبهات وشكوكاً؟ بماذا يهمني هذا؟ كنت سأجيء إلى هذا المكان لأطلق على رأسي رصاصة في الساعة الخامسة من الصباح ولو لم تَحُم حولي شبهة ارتكاب جريمة. وما كان لوقتكم أن يتسع عندئذٍ لتدخلكم. فلولا المصيبة التي حلت بأبي، لما عرفتم شيئاً ولما وُجدتم الآن هنا. ذلك من صنع الشيطان. إن الشيطان هو الذي قتل أبي وتولى مهمة إبلاغكم بهذه السرعة! ماذا فعلتم حتى استطعتم أن تصلوا إلى هنا في زمن قصير هذا القصر؟ ذلك أمر لا يصدَّق!

- ذكر لنا السيد برخوتين أنك حين دخلت عليه كنت تمسك بيديك... بيديك الداميتين... أوراقاً مالية... مبلغاً ضخماً.. حزمة من الأوراق المالية من فئة المائة روبل؛ ويظهر أن خادمه الصبي قد رأى هذه الأوراق المالية أيضاً.

- صحيح. فعلاً. أظن أنني أتذكر هذا.

قال نيقولاي بارفينوفتش بصوت رقيق جداً:

- هنا ينبثق سؤال صغير. ألا تستطيع أن تقول لنا من أين جاءك هذا المال، مع أن جميع الظروف تدل على أنك لم يتسع وقتك حتى للمرور بمنزلك؟

انتفض وكيل النيابة قليلاً حين سمع هذا السؤال يلقى دفعةً واحدة

بهذه الطريقة المباشرة، ولكنه لم يقاطع قاضي التحقيق.

أجاب ميتيا قائلاً بهدوء ظاهر، ولكن مطرقاً إلى الأرض:

- لم أمر ببيتي فعلاً!

فعاد نيقولاي بارفينوفتش يقول برفق مَنْ يزحف نحوضحيته:

- فاسمح لي إذاً أن أكرر سؤالي: من أين جئت بهذا المبلغ ما دام ينتج من تصريحاتك نفسها أنك في الساعة الخامسة بعد الظهر كنت. . .

ولكن ميتيا قاطعه قائلاً بصوت جاف:

- كنت في حاجة ملحة إلى عشرة روبلات، فرهنت مسدسيَّ عند برخوتين، ثم ذهبت إلى السيدة خوخلاكوفا لأقترض منها ثلاثة آلاف روبل، فرفضت أن تقرضني، وهلم جرا. . . أعرف القصة. كنت لا أملك قرشاً واحداً، أليس كذلك أيها السادة، ثم إذا بي أملك ألوف الروبلات على حين فجأة، هه؟ أحسب أيها السادة أنكم ترتجفون خوفاً من أن أرفض أن أذكر لكم مصدر هذا المال، أليس كذلك؟ طيب. . أنا أرفض، نعم أرفض أن أشير لكم إلى مصدر المال. لقد حزرتم. لن أتكلم، ولن تعرفوا شيئاً عن هذه النقطة.

كذلك حسم ميتيا الكلام بلهجة قاطعة وهيئة حازمة. وساد صمت. واستأنف نيقولاي بارفينوفتش حديثه يقول بلهجة فيها رفق وإذعان:

- اعلم يا سيد كارامازوف أنه لا غنى لنا عن معرفة مصدر المال.

- أدرك ذلك، ولكنني مع هذا لن أقول لكم شيئاً.

وتدخل وكيل النيابة هو أيضاً، فذكَّر ميتيا مرةً أخرى بأن من حق المتهم أن لا يجيب عن الأسئلة الملقاة عليه إذا هو قدر أن الصمت

أنفع له وأجدى، ولكن لما كان يتعرض باتخاذ مثل هذا الموقف لأن يلحق بنفسه أذى، ولا سيما حين يكون الأمر أمر وقائع لها مثل هذه الخطورة. . .

فقاطعه ميتيا قائلاً بفظاظة:

- وهلمَّ جرا أيها السادة، وهلمَّ جرا! كفى! لقد سبق أن سمعت هذه الأقوال المعادة المكرورة! ثم إنني أدرك أنا نفسي خطورة هذه الظروف، وأعلم أنها النقطة الرئيسية في القضية، ولكنني مع ذلك لن أتكلم.

فقال نيقولاي بارفينوفتش بلهجة عصبية:

- هي مصلحتك أنت لا مصلحتنا نحن على كل حال! لك أن تفاقم حالتك ما دمت حريصاً على ذلك!

رفع ميتيا عينيه، ونظر إليهما بصلابة وثبات قائلاً:

- اسمعوا أيها السادة. كفى مزاحاً. لقد أحسست منذ البداية أننا سنصطدم عند هذه النقطة. ولكن حين بدأت قصتي هذه كان هذا الحاجز ما يزال يبدو لي في مكان بعيد غائم، كأنه غارق في الضباب، حتى لقد بلغت من السذاجة في تلك اللحظة إنني اقترحت عليكم أن نقف دفعة واحدة على «أرض الثقة المتبادلة». وإني لأدرك الآن أن هذه الثقة كانت مستحيلة، لأننا كنا سنصطدم بهذا الجدار عاجلاً أو آجلاً. . . وها نحن أولاء نصطدم به. . . فمن المستحيل أن نستمر. هذا كل شيء. ولست ألومكم على كل حال، فإنني أفهم حق الفهم أنكم ليس في وسعكم أن تصدقوا ما أذكره لكم على عهد الشرف.

قال ميتيا ذلك وصمت مظلمَ الوجه.

- ألا تستطيع على الأقل، دون أن تتزحزح عمَّا عزمت عليه من

صمت حول النقطة الأساسية، أن تذكر لنا ولو بإشارة يسيرة البواعث القوية التي أمكنها أن تحملك على أن لا تجيب عن سؤالنا في ساعة خطيرة وخطرة إلى هذا الحد بالنسبة إليك؟

ابتسم ميتيا حزيناً واجماً مفكراً.

- أنا خير مما تتصورون أيها السادة، سأشرح لكم هذه البواعث، سأذكر لكم ما تطلبونه، رغم أنكم لا تستحقون ذلك كثيراً! إنني أرفض أن أتكلم لأنني أخشى العار. إن الجواب على السؤال عن مصدر ذلك المبلغ من المال يشتمل بالنسبة إليَّ على دناءة إذا قيست بها جريمة قتل أبي وسلبه المال بدت أمراً هيناً يسيراً، حتى ولو كنت أنا المجرم. ذلك هو سبب اضطراري إلى الصمت. إن الشعور بالعار يخنقني. ماذا تفعلون أيها السادة؟ أتريدون أن تسجلوا هذه الأقوال أيضاً؟

تمتم نيقولاي بارفينوفتش يقول:

- نعم، سنسجلها.

- ما ينبغي لكم أن تسجلوا ما قلته عن «الدناءة والعار». لقد أوضحت الأمر لكم لأنني أملك قلباً طيباً. كان يمكنني أن أمنع عنكم هذا الإيضاح. لقد قدمت إليكم هذا الإيضاح بغير داعٍ إلى ذلك، فهل تسارعون إلى تسجيله أيضاً؟ ليكن أيها السادة! اكتبُوا ما شئتم أن تكتبوا، أنا لا أخشاكم، ولن أطأطئ رأسي أمامكم.

بهذا ختم ميتيا كلامه في احتقار واشمئزاز.

دمدم نيقولاي بارفينوفتش يسأله:

- هل تقبل أن تقول لنا ما نوع الدناءة التي تعنيها؟

تجهم وجه وكيل النيابة تجهما شديداً.

-C'est fini[29] لا تلحوا! إنني إذ تكلمت أمامكم قد دنست نفسي بما فيه الكفاية، فعلام أدنس نفسي مزيداً من الدنس؟.. أنتم

لا تستحقون صراحتي، لا أنتم ولا أحد غيركم. كفى أيها السادة، لن أقول بعد هذه اللحظة كلمة واحدة.

تكلم ميتيا بلهجة قاطعة جداً؛ فاعتقد نيقولاي بارفينوفتش أنه لا جدوى من الإلحاح، ولكنه سرعان ما أدرك من نظرة ايبوليت كيريليوفتش أن هذا لم ييأس بعد.

- قل لنا على الأقل مقدار المال الذي كان بيديك حين وصلت إلى السيد برخوتين. كم روبلاً كان المبلغ؟

- لا أستطيع أن أقول.

- ألم تتحدث إلى السيد برخوتين عن ثلاثة آلاف روبل زعمت أنك اقترضتها من السيدة خوخلاكوفا؟

- ربما ذكرت له شيئاً من هذا القبيل. كفى أيها السادة، لن أقول بعد هذا كلمة واحدة.

- أوضح لنا إذاً كيف جئت إلى هنا، وماذا فعلت منذ وصولك إلى موكرويه؟

- ستعرفون ذلك بسهولة متى سألتم الأشخاص الآخرين الموجودين هنا. على كل حال، لا أرى بأساً في أن أروي لكم هذا.

وقص عليهم ميتيا قصة هذه الليلة التي يعرف القارئ جميع تفاصيلها. وكان يتكلم هذه المرة في جفاف، مقتصراً على إشارات مقتضبة، فلم يتحدث عن اندفاعات حبه الحارة. ومع ذلك ذكر أن عزمه على الانتحار قد زال بسبب «ظروف جدية». ولم يتحدث عن دوافعه، بل اقتصر على الوقائع الأساسية وحدها. ولم يزعجه أحد بالأسئلة أثناء ذلك، فلقد كان واضحاً في نظر وكيل النيابة وقاضي التحقيق أن الأمر الأساسي ليس هنا.

قال نيقولاي بارفينوفتش ليختم الاستجواب:

- سنتحقق من صدق أقوالك، وسنعود إليها حين نسمع أقوال الشهود، بحضورك طبعاً. أحبّ أن أرجوك الآن أن تضع على هذه المائدة جميع الأشياء التي معك، ولا سيما الأموال... جميع المبالغ التي هي في حوزتك الآن.

- المال أيها السادة؟ طيب، طيب... أنا أفهم أن هذا لا بد منه، بل إنني لأستغرب أنكم لم تظهروا هذا الفضول قبل الآن. وما كان لي أن أتهرب طبعاً، ما دمتم تراقبونني. إليكم المال. عدُّوه. خذوا. أحسب أن هذا كل شيء...

أفرغ ميتيا جيوبه إفراغاً كاملاً، وأخرج حتى النقود الصغيرة، ومنها قطعتان نقديتان من فئة العشرة كوبكات، أخرجها من جيب صديرته. وجُمعت الأموال، فبلغت ثمانمائة وستة وثلاثين روبلاً وأربعين كوبيكاً.

سأله القاضي:

- أهذا كل شيء؟

- نعم.

- لقد تفضلت فقلت لنا منذ قليل، أثناء سرد الوقائع، أن ثمن ما اشتريته من متجر آل بلوتنيكوف قد بلغ ثلاثمائة روبل، فإذا أضفنا إليها العشرة روبلات التي رددتها إلى برخوتين، والعشرين روبلاً التي أعطيتها للحوذي، والمائتي روبل التي خسرتها في اللعب بالورق أثناء الليل، ثم...

أجرى نيقولاي بارفينوفتش الجمع تفصيلاً، وكان ميتيا يساعده راضياً، ووُضعت قائمة دقيقة بجميع النفقات، وحسب نيقولاي بارفينوفتش الحاصل، فقال:

- فإذا حسبنا الثمانمائة روبل التي بقيت لك، كان معنى هذا إنك كنت تملك ألفاً وخمسمائة روبل، أليس كذلك؟

- ممكن.
- فكيف يُجمع الشهود إذاً على أن المبلغ أكبر من ذلك؟
- لهم أن يقولوا ما يشاؤون.
- لقد أكدت أنت نفسك أنك كنت تملك أكثر من هذا.
- لعلني أكدت ذلك.
- سنمتحن هذه الوقائع على ضوء شهادات الشهود الآخرين. أما المال فلا تخشى عليه. سنحتفظ به في مكان مأمون، وسيُردُّ إليك في نهاية.. هذا التحقيق... إذا ظهر عندئذٍ أو قل إذا ثبت عندئذٍ ثبوتاً قاطعاً أنه لك أنت بغير شك... أما الآن...

قال نيقولاي بارفينوفتش هذا، ونهض فجأة، وأعلن لميتيا بصوت قاطع أنه يرى نفسه «مضطراً» إلى أن «يفتش ملابسه وكل ما معه تفتيشاً دقيقاً».

- افعلوا أيها السادة. سأقلب جيوبي إن شئتم.

وأخذ يقلب جيوبه.

- ليس هكذا. لا بد من أن تخلع ملابسك.
- ماذا؟ أخلع ثيابي؟ اللعنة... الا يكون نبش جيوبي أسهل من ذلك؟ أهذا غير ممكن؟
- غير ممكن يا دمتري فيدوروفتش. يجب أن تخلع ثيابك.

قال ميتيا عابساً مذعناً:

- كما تشاؤون. ولكن ليس هنا، بل وراء الستائر... أرجوكم... من يتولى التفتيش؟

قال قاضي التحقيق وهو يحني رأسه موافقاً:

- طبعاً وراء الستائر.

وطاف بوجهه الصغير عندئذٍ تعبير عن وقار خاص.

- 6 -

وكيل النيابة يشوش ميتيا

إن ما حدث عندئذٍ لم يكن في حسبان ميتيا أبداً. ما كان له أن يتخيل، قبل دقيقة واحدة، أن من الممكن أن يعاملوه هذه المعاملة، هو، دمتري كارامازوف! إن في هذا إذلالاً له، «وازدراء متعالياً» منهم! وليتهم لم يطلبوا منه أن يخلع إلا سترته. لقد رجوه أن يخلع ملابسه كلها... بل لم يكن هذا منهم رجاءً، وإنما كان في الواقع أمراً، وقد فهم هو ذلك، فخضع للأمر دون أن يتذمّر أو ينطق بكلمة واحدة، كبرياءً واشمئزازاً! وقد دخل إلى ما وراء الستائر، عدا وكيل النيابة وقاضي التحقيق، عددٌ من الفلاحين أيضاً، فقال ميتيا يحدث نفسه: «لقد دخل هؤلاء للمساعدة في إجباري على خلع ملابسي، وربما لبواعث أخرى كذلك».

سأل ميتيا بخشونة:

- هه! هل أخلع القميص أيضاً؟

ولكن نيقولا بارفينوفتش لم ير داعياً إلى الإجابة. لقد كان مشغولاً مع وكيل النيابة بتفتيش السترة والسروال والصديرة والقبعة. وكان يبدو على الرجلين أن هذا التفتيش يهمهما إلى أقصى حد. قال ميتيا في نفسه: «أصبحا لا يتحرّجان من شيء، ولا يراعيان أبسط قواعد الأدب واللياقة!» وقال يسألهما بلهجة أشد خشونة وحدة:

- أسألكم مرة أخرى: أيجب أن أخلع القميص أم لا؟

فأجابه نيقولا بارفينوفتش قائلاً بلهجة آمرة (كان هذا إحساس ميتيا على الأقل):

- لا تقلق، سنقول لك ذلك في حينه.

كان وكيل النيابة وقاضي التحقيق يتبادلان الرأي بصوت خافت. إن هناك بقع دم، متخثرة جافة واضحة كل الوضوح، تظهر على السترة، ولا سيما في الظهر وفي الحافة اليسرى. وإن هناك بقع دم أخرى تُرى على السروال أيضاً. وعدا ذلك أخذ نيقولا بارفينوفتش، بحضور الفلاحين المكلفين، يجس الياقة وطيات الأكمام، ويجس كذلك مختلف ثنيات الثياب، كأنه يقدِّر أن يكتشف فيها شيئاً... هو المال طبعاً.. وأخطر ما في الأمر أن الرجلين كانا يدلان بذلك، بحضور ميتيا، على أنهما يريان أن من الجائز جداً أن يكون قد أخفى المال المسروق في بطانات الثياب. فجمجم ميتيا يقول: «إنني أعامل الآن معاملة لص، لا معاملة ضابط». لقد كانا يتبادلان الآراء بصوت عال وصراحة تامة دون اكتراث بوجوده. من ذلك مثلاً أن الكاتب، الذي كان كثير الحركة هو أيضاً وبدت عليه الرغبة في أن يخدم، قد لفت انتباه نيقولا بارفينوفتش إلى القبعة التي جُست أيضاً، قائلاً له: «تذكروا الكاتب جريدنكا. لقد أوفد في هذا الصيف ليتسلم رواتب جميع موظفي الدائرة، فلما عاد صرَّح بأنه فقد المال وهو في حالة سكر. فأين وجدوا المال بعد ذلك؟ وجدوه في شريط قبعته! لقد صنع من أوراق المائة روبل لفات صغيرة استطاع أن يدسّها تحت الشريط، ثم خاط الشريط». لم يكن وكيل النيابة وقاضي التحقيق قد نسيا قضية جريدنكا، فوضعا قبعة ميتيا في جانب وفي نيتهما أن يفتشا ملابسه بعد ذلك بمزيد من التدقيق أيضاً.

ورأى نيقولا بارفينوفتش طرف الكم اليمنى من قميص ميتيا ملطخاً بالدم ومقلوباً، فهتف يقول فجأة:

- هذا دم أيضاً إن لم يخطئ ظني.

فأجاب ميتيا قائلاً بصوت قاطع:

- نعم، هو دم.

- دم؟ أي دم؟.. ولماذا قلبت الكم؟

فذكر ميتيا أنه بعد أن تلطخ كمه أثناء اهتمامه بجريجوري، قد شمّره له برخوتين الذي غسل يديه عنده أيضاً.

قال نيقولا بارفينوفتش:

- سيجب أن تنزع قميصك أيضاً.. هذا أمر هام جداً لاستكمال الأدلة المادية.

فاحمر وجه ميتيا وصاح غاضباً:

- أأصبح عارياً الآن؟

- اطمئن... سنرتب هذا. والآن، أنزع جوربيك من فضلك.

سأل ميتيا وقد سطع في عينيه حنق:

- أأنتم تمزحون؟ أهذا ضروري حقاً؟

فأجابه القاضي قائلاً بلهجة قاسية:

- ما نحن في موقف مزاح!

غمغم ميتيا يقول وقد جلس على السرير وأخذ يخلع جوربيه:

- ليكن.. ما دام هذا ضرورياً... أنا...

كان يشعر بخزي لا يطاق، إذ يرى نفسه خالعاً ثيابه هكذا بين أناس يظلون مرتدين ثيابهم. شيء غريب: إنه حين خلع ثيابه شعر فجأة بأنه مذنب في حقهم. كاد يسلّم هو نفسه عندئذٍ بأنه أصبح دون الآخرين قيمةً على حين بغتة، وأنه أصبح من حق هؤلاء أن

يحتقروه. قال يحدّث نفسه: «حين يكون الجميع عراة فلا عار، أما حين أكون وحدي عارياً فذلك هو العار! لكأنني في حلم! لقد سبق أن عانيت في الحلم انحطاطات من هذا النوع». وقد شق عليه كثيراً أن يخلع جوربيه: إنهما وسخان، كسائر ملابسه الداخلية أيضاً، ففي وسع الجميع يلاحظوا هذا الآن. ذلك عدا أن ميتيا كان طوال حياته يكره قدميه ويعد أصبعيهما الكبيرتين بشعتين، ولا سيما الأصبع الكبيرة في قدمه اليمنى التي كان ظفرها مسطحاً تاماً فلا ينحني إلا في نهايته. سوف يراه الجميع الآن. اجتاحه الشعور بالخزي والعار، ففارت نفسه، وأصبح فظاً عن عمد. قال:

- ألا تحبون أن تلاحقوا تحرياتكم إلى أبعد من هذا إذا كان الحياء لا يصدكم؟

- لا، لا داعي إلى ذلك الآن.

وسأل ميتيا بلهجة حانقة:

- هل عليَّ أن أنتظر عارياً؟

- لا بد من ذلك. تفضل اجلس هنا. في إمكانك أن تتدثر بغطاء السرير... وسأحاول أن أتدبر الأمر.

أُظهر الفلاحون على ملابسه ليكونوا شهوداً. حتى إذا انتهى تحرير المحضر خرج نيقولاي بارفينوفتش. وأُخذت الملابس، وانصرف وكيل النيابة أيضاً. لبث ميتيا وحده مع الفلاحين الذين كانوا يرقبونه صامتين ولا يحوّلون عنه أبصارهم. تدثر ميتيا بالغطاء، لأنه كان يحسّ ببرد شديد، ولكنه لم يستطع أبداً أن يلف الغطاء على قدميه العاريتين ليحميهما. وتأخر نيقولاي بارفينوفتش عن العودة، كأنه يريد «إطالة تعذيبي» جمجم ميتيا يقول وهو يكز بأسنانه: «يحسبني صبياً! وقد انصرف الوغد وكيل النيابة كذلك... احتقاراً في أغلب

الظن. . . واشمئزازاً من رؤية رجل عار».

وكان ميتيا يقدر مع ذلك أنهم سيرجعون إليه ثيابه بعد تثبت جديد. فما كان أشد استياءه حين رأى نيقولاي بارفينوفتش يعود إليه ووراءه فلاح يحمل ثياباً أخرى غير ثيابه. قال له القاضي بلهجة ودود طلقة:

- إليك هذه الثياب التي حصلنا لك عليها أخيراً.

وكان واضحاً أنه سعيد بالنتائج التي وصلت إليها مساعيه، وتابع كلامه يقول:

- إن السيد كالجانوف هو الذي تفضل، في هذا الظرف الغريب، فقدم إليك هذا الرداء وقميصاً نظيفاً كان يحملهما في حقيبته من حسن الحظ. أما ملابسك الداخلية وجورباك ففي إمكانك أن تحتفظ بها.

انفرج ميتيا فزأر يقول بصوت مهدد متوعد:

- لا أريد هذا الرداء الذي ليس لي. ردوا إليَّ ردائي.

- مستحيل.

- أريد ردائي أنا. شيطان يأخذ كالجانوف وثيابه!

ولم يمكن ردُّه إلى الصواب إلا بكثير من العناء بعد أن شرحوا له ضرورة «ضمِّ الثياب إلى وثائق الإثبات ما دامت ملطخة بالدم». وحرص قاضي التحقيق على أن يوضح له «أنه لم يكن من حقهم أن يَدَعوا له ملابسه الخاصة، فليس يدري أحد ما هو المجرى الذي قد تجري فيه القضية». اقتنع ميتيا أخيراً بهذه الحجج، وأخذ يرتدي الثياب الجديدة في تعجّل، مع محافظته على صمت متجهّم عابس. واكتفى بأن قال وهو يلبس رداء كالجانوف «إن هذا الرداء أثمن كثيراً من ردائه، وإنه يكره أن يستفيد منه؛ ثم إنه ضيِّق عليَّ فهو يجعلني

مضحكاً. هل عليَّ أن أظهر للناس مضحكاً... لتتسلوا أنتم؟».

وحاولوا أن يقنعوه من جديد بأنه يبالغ، وبأن قامة السيد كالجانوف كقامته هو، وإن يكن السيد كالجانوف أطول منه قليلاً، وبأن السروال وحده سيكون طويلاً عليه بعض الطول. ولكن اتضح أن السترة مشدودة جداً عند الكتفين، فجمجم ميتيا قائلاً من جديد:

- اللعنة! يستحيل عقد أزرارها. أرجوكم أن تبلغوا السيد كالجانوف أنني لست أنا الذي رغبت في أخذ ثيابه، وأنني أُكرهت على ارتدائها كمهرِّج!

فعلّق قاضي التحقيق:

- هو يفهم هذا، وهو يأسف... لا يأسف على حرمانه من ثيابه... لا... بل يأسف لما وقع لك.

- لا حاجة بي إلى أسفه! أين يجب أن أذهب الآن؟ أم أنا مضطر إلى البقاء هنا؟

رجوه أن ينتقل إلى «الغرفة الأخرى» من جديد. دخل ميتيا إلى هناك متقبض الوجه غَضَباً، يحاول أن لا ينظر إلى أحد. كان يحسّ وهو في ثيابه المستعارة أنه مذل حتى في نظر الفلاحين، وفي نظر تريفون بوريستش الذي لاح وجهه خلسةً من خلال باب ثم أسرع يغلقه. قال ميتيا في نفسه: «أراد أن يتأملني وأنا في هذا الزي المضحك». وجلس على الكرسي الذي كان يشغله منذ قليل. كان يبدو له أنه يعيش حلماً ثقيلاً، يعيش كابوساً، وكان يتساءل: ألم يفقد عقله؟

التفت ميتيا نحو وكيل النيابة متقبض الفكين:

- هيه، والآن، هل تأمرون بجلدي؟ لم يبق لكم إلا هذا!

لم يشأ أن يخاطبْ نيقولا بارفينوفتش، لأنه أصبح يعده غير جدير

بانتباهه بعد الآن. وقال يحدث نفسه: «لقد تلذذ بتأمل جوربيّ زمناً طويلاً جداً، حتى لقد أمر بقلبهما عامداً - يا للشقي! - بغية أن يُطلِع الجميع على أن ملابسي الداخلية قذرة جداً!».

قال نيقولا بارفينوفتش وكأنه يجيب عن سؤاله:

- سنبدأ الآن استجواب الشهود.

فقال وكيل النيابة يؤيد كلام القاضي ساهماً:

- نعم، نعم.

لقد كان يبدو على وكيل النيابة أنه يفكر في أمرٍ ما. وتابع القاضي كلامه فقال:

- لقد بذلنا قصارى جهدنا يا دمتري فيدوروفتش لنساعدك في موقفك. ولكن بعد أن رفضت رفضاً خشناً أن تلبي طلبنا فتقدم لنا بعض الإيضاحات عن مصدر المبلغ الذي في حوزتك، فإننا نرى أنفسنا ملزمين الآن بأن...

قاطعه ميتيا سائلاً:

- من أي نوع من أنواع الحجارة الكريمة صُنع هذا الخاتم؟

كان ميتيا يتكلم كمن أفاق للتو من حالة الشرود، مشيراً إلى واحد من الخواتم الثلاثة التي تزين يد القاضي اليمنى. فسأله القاضي في دهشة:

- خاتمي أنا؟

- نعم، هذا الخاتم... ذلك الذي يزين الأصبع الوسطى... ما هذا الحجر الكريم؟

كذلك قال ميتيا ملحاً بلهجة فيها غير قليل من نفاد الصبر، كطفل عنيد ذي نزوات. فأجابه نيقولا بارفينوفتش مبتسماً:

- هو زمرد أدكن! هل تريد أن تراه؟ سوف أنزعه ف....

فصاح ميتيا يقول بعنف وقد ثاب إلى رشده، واضطرب وثار على نفسه:

- لا... لا تنزعه... ليس يعنيني هذا... اللعنة.. لقد دنستم نفسي أيها السادة! هل تظنون إذاً أنني كان يمكن أن أكذب عليكم لو أنني قتلت أبي فعلاً، هل تظنون أنني كان يمكن أن أرتضي لنفسي هوان الإنكار وتمثيل دور البراءة وبراعة التهرب من أسئلتكم؟ إنكم لا تعرفون دمتري كارامازوف! ما كان له أن يمثل مهزلة كهذه المهزلة! يميناً، لو كنت مجرماً لما انتظرت أن تصلوا إلى موكرويه، ولما بقيت حياً إلى الفجر كما كنت أنوي ذلك، وإنما كنت أقتل نفسي فوراً! لقد تعلمت في هذه الليلة الواحدة المنحوسة أكثر مما كان يمكن أن أتعلم على مدى عشرين عاماً من الحياة! أكان يمكن أن أتصرف كما تصرفت هذه الليلة، أكان يمكنني في هذه الدقيقة نفسها أن أخاطبكم كما أخاطبكم الآن، أكنت أجد هذه اللهجة، أكنت أقوم بهذه الحركات، أكنت أستطيع أن أنظر إليكم وجهاً لوجه، أنتم والعالم بأسره، لو كنت قاتل أبي حقاً؟ على أن مجرد تصوري أنني ارتكبت جريمة قتل جريجوري عرضاً قد ظل يعذبني طوال الليل، لا خوفاً.. أبداً... وليس خشية من عقابكم!... يا للعار! ثم تريدون بعد ذلك أيها العائبون الهازلون أن أفضي إلى أناس مثلكم، أناسٍ لا يصدقون شيئاً ولا يرون شيئاً، تريدون أن أحكي لكم، أيها المناجذ العمي، دناءةً أخرى ارتكبتها، حتى يزداد عاري؟ أبداً... لن أفعل ذلك ولو أدى إلى تبرئتي من اتهاماتكم... أبداً، أبداً... إني لأوثر على هذا الأشغال الشاقة! إن القاتل هو الشخص الذي فتح الباب ودخل إلى بيت أبي من ذلك الباب... إنه ذلك الشخص هو الذي سرق مال أبي! من هو ذلك الشخص؟ إنني أتيه

في مجاهل الظن والتخمين، وألقى عناء كبيراً في محاولة حزره. ولكن ذلك الشخص ليس هو دمتري كارامازوف على كل حال، فاعلموا هذا... ذلك كل ما أستطيع أن أقوله لكم... وهو كافٍ، فلا تلحوا... اصنعوا ماشئتم بي أرسلوني إلى الأشغال الشاقة، أو نفذوا فيَّ الحكم بالإعدام، ولكن لا تهيجوا حنقى وغيظي بعد الآن. ها أنذا أسكت. أدخلوا شهودكم.

ختم ميتيا كلامه المستفيض وقد بدا في وجهه أنه عازم عزماً مطلقاً على أن لا ينطق بعد الآن بكلمة واحدة. وكان وكيل النيابة يرقبه بانتباه، منتظراً أن ينهي كلامه، فما إن ختم ميتيا قوله قال له بهدوء بارد، كأنما يتحدث عن أمر بسيط جداً.

- في موضوع ذلك الباب بعينه، ذلك الباب المفتوح الذي جئت على ذكره الآن، نستطيع أن نطلعك - وهذا هو الوقت المناسب لذلك فيما أظن - على واقعة من أغرب الوقائع ومن أخطرها شأناً كذلك، بالنسبة إليك وبالنسبة إلينا معاً، وهي واقعة تنتج من أقوال العجوز جريجوري فاسيليف الذي جرحته. لقد صرَّح هذا العجوز، بعد أن أفاق من إغمائه وثاب إلى وعيه، صرّح على نحو واضح جازم قاطع، في الإجابة على أسئلة ألقيناها عليه، أنه حين خرج من باب مسكنه سمع ضجة مشبوهة، فقرر أن يدخل الحديقة ماراً ببابها الذي لم يكن مغلقاً؛ ولكنه قبل أن يلمحك في الحديقة أثناء هروبك في الظلام مبتعداً عن النافذة التي رأيت فيها أباك كما قلت لنا منذ قليل، قد لاحظ أيضاً، من مكان أقرب إليه كثيراً، لاحظ أيضاً ذلك الباب الذي تزعم أنه ظل مغلقاً طوال مدة وجودك في الحديقة، فرأى أنه كان مفتوحاً على مصراعيه خلافاً لدعواك. ولا أستطيع أن أكتمك أن فاسيليف يستنج من ذلك ويؤكد جازماً أنك لا بد أن

تكون قد هربت من هذا الباب، رغم أنه لم يرَ هروبك بعينيه وإنما لمحك حين كنت قد أصبحت على مسافة من الباب، وسط الحديقة، راكضاً نحو السور...

وثب ميتيا عن كرسيه دون أن يدع لوكيل النيابة أن يُتمّ كلامه، وأعول يقول خارجاً عن طوره:

- هذا كذب. هذا كذب دنيء! لا يمكن أن يكون قد رأى الباب مفتوحاً، لأن الباب كان مغلقاً في تلك اللحظة... إنه يكذب!

- من واجبي أن ألفت انتباهك إلى أن أقواله واضحة جداً في هذه النقطة، وأن شهادته لم تختلف ولم تتناقض، بل هو ظل مصراً عليها بإلحاح، لأننا سألناه عن هذا الأمر مراراً كثيرة.

قال نيقولا بارفينوفتش مؤكداً كلام زميله بشيء من الحماسة:

- أنا نفسي سألته مراراً كثيرة.

فأستأنف ميتيا كلامه صارخاً:

- هذا كذب! هذا كذب! لا يمكن أن يكون هذا إلا وشاية تستهدف الإيقاع بي، أو أوهامَ رجلٍ يهذي. لا بد أن العجوز قد رأى حلماً أثناء هذيانه بسبب جرحه وانسكاب دمه... فقصَّ عليكم ما رآه في الحلم حين صحا من إغمائه... وأغلب الظن أنه ما يزال يهذي.

- ولكن العجوز لم ير الباب مفتوحاً بعد أن أفاق من إغمائه، وإنما لاحظه قبل أن يُجرح، لحظة دخوله الحديقة.

- هذا كذب، هذا كذب، ذلك لا يمكن أن يكون! إن الكره هو الذي يدفعه إلى اتهامي.. لا يمكن أن يكون قد رأى ذلك الباب... أنا لم أهرب من الباب!

هكذا صاح ميتيا مختنقاً.

فالتفت وكيل النيابة إلى نيقولا بارفينوفتش وقال له بلهجة رصينة:

- أره الظرف.

فإذا بالقاضي يضع على المائدة ظرفاً كبيراً من ورق مقوًى، تُرى عليه ثلاثة أختام من شمع لم تمس، وقد أُفرغ الظرف بتمزيقه من أحد أطرافه؛ قال القاضي يسأل ميتيا:

- هل تعرف هذا؟

فدمدم ميتيا يقول:

- لا شك أنه الظرف الذي كان عند أبي... الظرف الذي كان يضم ثلاثة آلاف روبل، إذا كان عليه كتابة... هل تسمح لي بأن أرى؟ نعم، هذه هي الكتابة: «إلى حمامتي»، وهنا: «ثلاثة آلاف روبل».

وصاح ميتيا:

- ثلاثة آلاف روبل... أرأيتم؟

- طبعاً رأينا... ولكننا لم نعثر على ذلك المبلغ. كان الظرف ممزقاً ملقى على الأرض قرب السرير وراء الحاجز.

لبث ميتيا بضع ثوان كالمصعوق. ثم صاح يقول بغتةً بكل ما أوتي من قوة:

- هو سمردياكوف، أيها السادة! إنه هو القاتل والسارق. إنه الإنسان الوحيد الذي كان يعرف الموضع الذي خبأ فيه العجوز الظرف. إنه هو، كل شيء واضح الآن!

- ولكنك كنت أنت أيضاً تعلم بوجود هذا الظرف، وتعرف أنه موضوع تحت الوسادة.

- بل كنت أجهل ذلك كل الجهل. لم أر هذا الظرف حتى الآن، هذه أول مرة أراه فيها، ولم أكن أعلم بوجوده إلا من مسارّات

سمردياكوف... كان سمردياكوف وحده يعرف أين خبأ العجوز الظرف... أما أنا فكنت لا أعرف...

كذلك قال ميتيا متقطع الأنفاس.

- عجيب! لقد أكدت أنت نفسك منذ قليل أن هذا الظرف كان موجوداً تحت وسادة أبيك. لقد حدَّدت بنفسك أنه كان مخبأً تحت الوسادة. معنى هذا أنك كنت تعرف المخبأ!

وأمَّن نيقولا بارفينوفتش على كلام زميله قائلاً:

- لقد سُجِّلت تصريحاتك في محضر الاستجواب.

- سخف... جنون!... لم أكن أعرف أنه تحت الوسادة... ولعله كان في موضع آخر. لقد ذكرت الوسادة مصادفة... ماذا قال لكم سمردياكوف؟ هل سألتموه أين كان الظرف مخبأ؟ فماذا قال لكم؟ تلك هي النقطة الرئيسية!... أما أنا فقد كذبت عامداً... كذبت وكنت لا أعرف أن الظرف كان تحت الوسادة، وها أنتم أولاء سوف... كثيراً ما يقول المرء بعض الأمور مصادفة وعرضاً... يخطر بباله أن يقولها... لقد كان سمردياكوف وحده عارفاً بالأمر، ولم يكن يعرفه أحد سواه! حتى أنا رفض أن يكشف لي عن المخبأ. إنه هو، هو القاتل! هو القاتل لا محالة، لقد وضح الأمر الآن وضوح النهار.

كذلك صاح ميتيا مضطرباً اضطراباً ما ينفك يزداد، وقد أصبحت عباراته مفككةً غير متماسكة وهو يكررها بحرارة واهتياج:

- افهموا أخيراً واعتقلوه فوراً دون أن تضيعوا لحظة واحدة!... لقد أصبح واضحاً أنه قتل أبي بينما كنت أنا أهرب وكان جريجوري راقداً في الحديقة فاقد الوعي. أصبح كل شيء واضحاً... قرع الباب بالإشارة المتفق عليها، ففتح له أبي الباب... ذلك أنه

الشخص الوحيد الذي كان على علمٍ بالإشارات التي ما كان لأبي أن يفتح لولا أن سمعها.

استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً بتلك اللهجة الموزونة نفسها على شيء من التعبير عن الانتصار في نبرة صوته:

- يظهر أنك تنسى من جديد أن الإشارات تصبح زائدة لا داعي إليها ولا ضرورة لها ما دام أن الباب كان مفتوحاً من قبل، بينما كنت أنت ما تزال في المكان، أعني في الحديقة...

قال ميتيا متلعثماً:

- الباب... الباب...

وسكت، وحدَّق إلى وكيل النيابة بنظرة طويلة. ثم تهالك على الكرسي كالمنهار. وساد صمت. ثم هتف يقول دون أن يعي ما يقول زائغ الوجه ويحدق إلى الأمام:

- نعم... الباب!... كان هذا شبحاً! الله ضدي!...

قال وكيل النيابة بلهجة رزينة:

- أرأيت؟ فاحكم الآن بنفسك يا دمتري فيدوروفتش. هناك من جهة أولى هذه الشهادة القوية الدامغة، في نظرك وفي نظرنا، أعني الشهادة بأن الباب كان مفتوحاً وأنك هربت منه. وهناك من جهة ثانية هذا الصمت العنيد الذي لا يُفهم، هذا الصمت الذي تلوذ به عن مصدر المال الذي أصبح في حوزتك فجأة بينما كنت قبل ذلك بثلاث ساعات، كما صرحت أنت نفسك، مضطراً إلى رهن مسدسيك للحصول ولو على عشرة روبلات. فماذا نصدق وعلى أي شيء نستند؟ هلاَّ قلت لي... فلا تأخذ علينا، ظلماً وعدواناً، أننا «أناس مستهزئون باردون مستهترون»، عاجزون عن أن نفهم ما في نفسك من اندفاعات نبيلة، بل ضع نفسك في مكاننا.... وحاول أن تفهمنا أنت أيضاً...

كان ميتيا مضطرباً اضطراباً لا يوصف. وشحب لونه. ثم هتف يقول فجأة:

- طيب! سأكشف لكم عن سري، سأطلعكم على مصدر المال... سأكشف عن عاري، حتى لا ألوم نفسي ولا ألومكم في المستقبل.

قال نيقولا بارفينوفتش بفرح يوشك أن يكون فيه حنان:

- ثق يا دمتري فيدوروفتش أن اعترافاً صادقاً كاملاً منك الآن قد يخفف عنك كثيراً في المستقبل، حتى لقد...

ولكن وكيل النيابة لكزه بقدمه لكزةً خفيفة من تحت المائدة فصمت القاضي في الوقت المناسب. وكان ميتيا لا يصغي إليه على كل حال.

- 7 -

السر الكبير الذي يحتفظ به ميتيا يتخذ هزأة

بدأ ميتيا كلامه فقال منفعلاً أشد الانفعال:

- أيها السادة... أريد أن أعترف بالحقيقة كلها... كان هذا المبلغ لي أنا...

استطال وجها وكيل النيابة وقاضي التحقيق. لقد خاب فألهما وأخفق انتظارهما، لأنهما كانا يتوقعان اعترافاً يختلف عن هذا الاعتراف كل الاختلاف.

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول:

- كان ذلك المال لك أنت؟ كيف هذا؟ أنت تقول في اعترافاتك نفسها أنك في الساعة الخامسة بعد الظهر...

- سحقاً للساعة الخامسة ولاعترافاتي! ليس هذا هو الموضوع الآن! لقد كان ذلك المال لي أنا... أقصد أنني استوليت عليه، سرقته، نعم، سرقته. هو مبلغ ألف وخمسمائة روبل... كنت أحملها دائماً معي، معي...

- من أين أخذتها؟

- من صدري، أيها السادة، من هذا الصدر الذي ترون.. كنت أخبئها هنا، معلقةً بعنقي، مخيطة في خرقة... هكذا كنت أحمل

عاري وخزيي منذ زمن طويل، منذ شهر...

- ولكن من عند مَنْ... استوليت... على هذا المبلغ؟

- تريدون أن تقولوا من عند مَنْ «سرقته»، أليس كذلك؟ سمّوا الأشياء بأسمائها! أنا أعتقد فعلاً أنني سرقت هذا المال، أنني «استوليت» عليه إذا كنتم تؤثرون هذا التعبير. وأنا أرى أنه سرقة. وأمس مساء، اكتملت السرقة.

- أمس مساء؟ ولكنك قلت إنك... حصلت على هذا المال منذ شهر.

- نعم، ولكن ليس من عند أبي، ليس من عنده، اطمئنوا! لم أسرقه من عند أبي، بل من عندها. دعوني أروي لكم الوقائع دون أن تقاطعوني. إنه لأمر قاس على نفسي أن أتكلم هل تفهمون؟ منذ شهر، نعم منذ شهر استدعتني كاترينا إيفانوفنا فرخوفتسيفا، خطيبتي السابقة... هل تعرفونها؟

- كيف لا؟

- أعلم أنكم تعرفونها. هذه إنسانة ذات نفس نبيلة، لا يضارعها في نبلها أحد.. ولكنها كانت تكرهني منذ زمن طويل... طويل جداً... وكان من حقها أن تكرهني على كل حال... هناك أسباب تحملها على كرهي.

سأله القاضي مندهشاً:

- كاترين إيفانوفا؟

وظهر الاستغراب على وكيل النيابة أيضاً.

قال ميتيا:

- أوه! لا تذكروا اسمها بغير داع إلى ذلك! ما كان أشقاني حين ذكرت اسمها هنا... نعم، كنت أعلم أنها تكرهني... منذ زمن

طويل.. منذ اليوم الأول، في مسكني هناك... ولكن كفى! كفى حديثاً في هذا الأمر! إنكم لا تستحقون أن تعلموا هذه الأشياء، ولا داعي إلى ذكر هذه الأشياء على كل حال.. يكفيكم أن تعلموا أنها استدعتني منذ شهر وأعطتني ثلاثة آلاف روبل كلفتني بأن أرسلها إلى أختها وإلى قريبة أخرى لها بموسكو (أما كانت تستطيع أن تتولى ذلك بنفسها؟)... وأنا... كانت تلك الساعة هي بعينها الساعة الحاسمة في حياتي، كانت تلك اللحظة هي اللحظة التي... الخلاصة... هي اللحظة التي كنت قد أحببت فيها امرأة أخرى، هي اللحظة التي كنت فيها قد أحببتها هي.. امرأة هذا اليوم... تعلمون... تلك التي أودعت تحت، جروشنكا... فجئت بها إلى هنا، إلى موكرويه، أعني ألفاً وخمسمائة روبل، واحتفظت بالنصف الآخر. فهذه الألف وخمسمائة روبل الباقية هي ما احتفظت به منذ ذلك الحين معلقاً بعنقي مخيطاً في كيس. وقد فتحت الكيس أمس، فأنفقت هذا المال في القصف هنا. والثمانمائة روبل التي أخذتها يا نيقولا بارفينوفتش هي كل ما بقى من الألف وخمسمائة روبل التي أخرجتها من الكيس أمس.

- اسمح لي! هناك شيء ليس واضحاً. في المرة الماضية، أعني في الشهر الماضي، أنفقت هنا ثلاثة آلاف روبل لا ألفاً وخمسمائة. ذلك أمر يعرفه جميع الناس.

- من أين عرفوه؟ من ذا الذي حسب نفقاتي؟ أنا لم أطلع أحداً على ذلك.

- كيف؟ لقد حكيت لكل إنسان أنك أنفقت ثلاثة آلاف روبل.

- صحيح، حكيت هذا، بل لقد حكيته للمدينة كلها، والناس يتحدثون عنه في كل مكان، وما من أحد إلا ويعتقد اعتقاداً جازماً

بأنني أنفقت ثلاثة آلاف روبل. وأهل موكرويه مقتنعون بهذا أيضاً. ولكنني، مع ذلك، لم أنفق في الواقع إلا ألفاً وخمسمائة روبل، ثم خبّأت باقي المبلغ في كيس. تلك هي الحقيقة أيها السادة، ذلك هو مصدر المال الكثير الذي كان في حوزتي أمس.

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول:

- يشبه هذا أن يكون من المعجزات.

وتدخل عندئذٍ وكيل النيابة فقال يسأل ميتيا:

- اسمح لي أن أسألك هل أفضيت بهذا السر إلى أحد قبل هذا اليوم... أعني: هل يعرف أحد أنك احتفظت بمبلغ الألف وخمسمائة روبل هذا؟

- لم أفض بذلك إلى أحد.

- غريب... لم تذكره لأحد في العالم كله؟

- في العالم كله. لم أذكره لأحد البتة. أؤكد لك ذلك.

- فلماذا هذا السكوت؟ ما هي الأسباب التي دفعتك إلى الاحتفاظ به سراً لا يذاع؟ سأشرح ما أريد أن أقوله. لقد كشفت لنا أخيراً عن سرّك الذي تراه «مخزياً» إلى هذا الحد في نظرك، رغم أن هذا الفعل ليس في الواقع - إذا قيس بغيره طبعاً - إلا هفوة صغيرة. إن استيلاءك على مبلغ الثلاثة آلاف روبل التي عهد بها إليك كأمانة فاحتفظت بها لنفسك... مؤقتاً... أنا متأكد من هذا... إنما ينبغي أن يعَد طيشاً، ولكنه ليس فعلاً يدنس الشرف، ولا سيما إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى طبعك... فلنفرض أن هذا الفعل فعل يؤسف له... وأنا أسلم بذلك... ولكنه ليس دناءة أو حقارة أو حطة أو ما أشبه ذلك... واعلم على كل حال أن كثيراً من الناس، في هذه المدينة، قد حزروا، أثناء هذا الشهر، أنك بددت الثلاثة آلاف روبل

التي ائتمنتك عليها السيدة فرخوفتسيفا، رغم أنك لم تذكر ذلك لأحد، حتى لقد وصلت هذه الشائعة إلى أسماعي، وعلم بها ميخائيل ماكاروفتش أيضاً، فليس الأمر أمر سر إذن، وإنما هو كلام يقال ويُرَدّد في كل مكان.. ويبدو من جهة أخرى كذلك أنك اعترفت أنت نفسك ذات مرة، أثناء حديث خاص، إذا لم يخطئ ظني، بأن ذلك المبلغ مصدره السيدة فرخوفتسيفا... لذلك أستغرب أشد الاستغراب حين أرى حتى هذه الدقيقة أنك تولي هذه الألف وخمسمائة روبل، فيما تدّعي، اهتماماً خارقاً وتضفي عليها خطورة عظيمة، ولا أفهم البتة أن تجعلها سراً لا تتكلم عنه، سراً مصحوباً بنوع من الهلع... ليس من المعقول أن يسبب لك سر من هذا النوع عذاباً كهذا العذاب، وأن يبدو لك الاعتراف به صعباً إلى هذا الحد... ألم تعلن منذ قليل أنك تؤثر الأشغال الشاقة على مجرد الاعتراف بالحقيقة؟

سكت وكيل النيابة. وكان قد تحمس أثناء الكلام، واشتعل فيه استياء متزايد يشبه أن يكون غضباً، وساق كلامه دون اهتمام بالخطابة، ودون كثير من التسلسل أيضاً، وإنما كان يدع لأفكاره أن تنفجر انفجاراً في جمل مقطّعة.

قال ميتيا بصوت جازم:

- ليس العار في سرقة الثلاثة آلاف روبل، بل العار في أنني ادّخرت نصف هذا المبلغ، أي الألف وخمسمائة روبل.

فقال وكيل النيابة وهو يضحك ضحكة غيظ:

- حقاً؟ هلاّ قلت لي أين العار في أن تحتفظ بنصف مبلغ كنت قد استوليت عليه استيلاء غير لائق، أو استيلاء مخزياً إن كنت تؤثر أن تصفه بهذه الصفة؟ إن الأمر الهام هنا هو أنك استوليت على هذا

المبلغ، لا في أنك تصرفت في المال على هذا النحو أو ذاك من الأنحاء! بالمناسبة: هل تستطيع أن تقول لنا لماذا قسمت المبلغ نصفين، وماذا كان هدفك من ادخار أحد النصفين؟

صاح ميتيا يقول:

- ذلك بعينه هو لب المسألة كلها! لقد قسمت هذا المبلغ عن حقارة ودناءة، أي عن حساب. ذلك أن الحساب هو بعينه الدناءة والحقارة في مثل هذه الحالة. . . وقد امتدت هذه الدناءة وهذه الحقارة على مدى شهر بأسره!

- كلام لا يُفهم!

- أستغرب هذا منكم. ولكنني سأشرح ما أريد قوله. إنني أسلِّم بأن كلامي قد يبدو لأول وهلة أنه لا يُفهم. فاصغوا إليَّ وتابعوا ما أقول: لنفرض أنني استوليت على ثلاثة آلاف روبل سلّمت إليّ كأمانة عليها، فأنفقتها في القصف إلى آخر كوبيك منها. إن في إمكاني أن أذهب إلى صاحبة المال في الغد وأن أقول لها: «كاتيا، اغفري لي، لقد بددت الثلاثة آلاف روبل التي ائتمنتني عليها». ليس هذا خيراً بطبيعة الحال، وإنما هو سوء أمانة، وضعف خلق؛ هو سلوك إنسان لا يستطيع أن يسيطر على اندفاعاته. ولكنني في هذه الحالة لن أكون سارقاً، لن أكون لصاً. لن أكون لصاً بالمعنى الشائع لهذه الكلمة. هل توافقونني على هذا؟ لقد بددت المال، ولكنني لم أسرقه. فلنفرض الآن فرضاً ثانياً، فرضاً أفضل من الأول أيضاً. تابعوا ما أقول، وإلا فقد أرتبك من جديد. إن رأسي يدور قليلاً. . . إليكم الفرض الثاني: لنفرض أنني أنفقت في القصف نصف المبلغ فقط، أي ألفاً وخمسمائة روبل، ولنفرض أنني ذهبت إليها في الغد حاملاً ما بقي من مال، وقلت لها: «استردي مني المال يا كاتيا لأنني

لست إلا إنساناً شقياً طائش العقل محموم الرأس. استردي نصف المبلغ الذي ائتمنتني عليه، وإلا فقد أبدده كما بددت نصفه الأول. إنني لا أريد أن اتعرض لهذه الغواية!». فماذا أكون عندئذٍ؟ أكون ما شئتم، أكون شيطاناً وأكون شقياً، ولكنني لن أكون لصاً، لن أكون قد أصبحت لصاً حقيقياً. لأنني لو أردت أن أسرق لما رددت الألف وخمسمائة روبل الباقية، وإنما كنت أحتفظ بها لنفسي. كانت ستدرك هي عندئذٍ أنني ما دمت أرد إليها نصف المبلغ، فسأرد إليها النصف الثاني آخر الأمر، في يوم من الأيام وأنني قد أظل أعمل عند الضرورة طوال حياتي مدخراً قرشاً فوق قرش لأجمع المال الذي أنفقته في القصف فأرده إليها في ذات يوم. صحيح أنني أكون في هذه الحالة رجلاً حقيراً، ولكنني لا أكون لصاً؛ أكون ما شئتم، ولكنني لا أكون سارقاً على الأقل.

قال وكيل النيابة بلهجة فيها سخرية باردة:

- لنسلِّم بأن هناك مجالاً للتمييز فعلاً. إنني أظل أستغرب أن تضفي على هذا الفرق الزهيد دلالة تبلغ هذا المبلغ من شدة الخطورة وصفة المأساة!

- ليس هذا الفرق زهيداً بل هو أكثر من رئيسي. إن أي إنسان يمكن أن يكون وغداً، ولا شك أننا جميعاً أوغاد بدرجات متفاوتة. ولكن ليس كل إنسان لصاً. لا بد من حقارة خاصة حتى يكون المرء لصاً. أحسب أنني لا أجيد التعبير لأنني تعوزني الرهافة... ولكن اللص أحقر الحقراء وأدنأ الأوغاد. تلك هي قناعتي العميقة! اصغوا إليَّ. لقد حملت هذا المال في عنقي مدة أربعة أسابيع، وكنت أستطيع في كل لحظة أن أذهب فأرد إليها هذا المال، فلو فعلت لما كنت وغداً حقيراً، أما وأنني لم أستطع أن أتخذ هذا القرار، فذلك

هو الأمر الخطير! كنت كلَّ يوم أفكر فأقول لنفسي: «قرر أيها الشقي، يجب أن ترد المال». ولكني لم أنفّذ ذلك، وطالت القضية شهراً بأكمله. فما رأيكم؟ ألعلكم ترون هذا جميلاً؟

أجابه وكيل النيابة بصوت مكظوم.

- أعترف بأن ذلك شر. أنا أفهم هذا حق فهمه، ولا يخطر ببالي أن أجحده قيمة ذلك. ولكنني أقترح عليك مع ذلك أن تدع الكلام عن هذه الفروق، وأن تدع هذه الرهافة في التمييز بين الأمور، وأن تعود إلى جوهر القضية. لأنك لم تقبل حتى الآن أن تشرح لنا، في الإجابة عن سؤالي، السبب الذي دفعك إلى أن تقسم هذا المبلغ نصفين فتنفق النصف الأول منه في القصف وتحتفظ بالنصف الثاني معك. ماذا كان هدفك من ذلك. وعلى أي غرض وقفت هذه الألف وخمسمائة روبل التي احتفظت بها؟ إنني أصرُّ على هذا السؤال يا دمتري فيدوروفتش!

صاح ميتيا وهو يلطم جبينه:

- ها... ولكن... هذا صحيح... معذرة.. إنني أعذبكم بهذه المناقشات بدلاً من أن أشرح لكم جوهر الأمر. سأقول لكم الآن فسرعان ما تفهمون. ذلك أن العار كله يكمن هنا. اسمعوا: لقد كان العجوز، المتوفى، يلاحق أجرافينا ألكسندروفنا بإلحاحه ولجاجته، وكنت أشعر أنا بغيرة شديدة. وكنت أتخيل في ذلك الحين أنها مترددة بيني وبينه لا تعرف أتختارني أم تختاره، فكنت أتساءل كل يوم: «ما عسى يحدث إذا هي حزمت أمرها فجأة وكفت أخيراً عن تعذيبي وصارحتني قائلة: «أنت الذي أحبه لا هو، فلنسافر... خذني إلى آخر الدنيا!». كنت أتساءل ما عسى يحدث عندئذٍ وأنا لا أملك في جيبي إلا بضعة كوبيكات! من أين لنا المال

الذي نسافر به؟ ما عساي فاعلاً حينذاك؟ كان ذلك هو النهاية الفاشلة. لاحظوا أنني لم أكن قد عرفتها حق معرفتها في ذلك الأوان. كنت أظن أنها لا تستغني عن المال، وأنها لن تغفر لي فقري. ذلك هو السبب الذي من أجله قررت، أن أحتفظ بنصف الثلاثة آلاف روبل، وأن أخيط المبلغ في كيس. وذلك ما فعلته ببرود، بحساب، من قبل أن أسكر! وبعد ذلك، بعد أن خبّأت الكيس، إنما سافرت ألهو وأقصف بالألف وخمسمائة روبل الأخرى. لا... لا... لقد كان ذلك حقارة ودناءة وخسة. هل فهمتم الآن؟

انفجر وكيل النيابة وقاضي التحقيق في ضحك صاخب. وقال نيقولا بارفينوفتش ساخراً:

- في رأيي إن قرارك كان عين العقل، بل وعين الأخلاق، على عكس ما تقول، ما دمت قد عرفت كيف تعتدل فلا تنفق المال كله دفعةً واحدة. أين في هذا ما يشبه عاراً؟

- إنني سرقت، هنا الحقارة! آه... يا رب! إن عجزكم عن الفهم يروعني! كنت أثناء حملي هذه الألف وخمسمائة روبل في عنقي، أردد على نفسي كل يوم وكل ساعة: «أنت لص، أنت لص!». وبسبب هذا العار الذي يرهقني، بسبب هذا الشعور بأنني سارق، إنما كنت شرساً تلك الشراسة كلها عنيفاً ذلك العنف كله خلال هذا الشهر الأخير. ذلك هو السبب في أنني تشاجرت واقتتلت في الحانة، وأنني ضربت أبي. وحتى أليوشا أخي لم أجرؤ على أن أعترف له بالحقيقة في موضوع الألف وخمسمائة روبل، فإلى ذلك الحد كنت أشعر بالحقارة والدناءة! ولاحظوا أيضاً أنني طيلة مدة احتفاظي بالمال المودع في الكيس سليماً لا أمسه، كنت أستطيع أن

أقول لنفسي كل يوم وكل ساعة: «لا يا دمتري فيدوروفتش، ربما لم تكن لصاً!». لماذا؟ لأنني كنت أستطيع في كل لحظة أن أذهب إلى كاتيا فأرد إليها هذا المال. وأمس فقط، بعد أن تركت فينيا، وفي طريقي إلى منزل برخوتين، إنما قررت أن أفضّ الكيس. أما قبل ذلك فلم أستطع أن أحزم أمري. ولكنني منذ تلك اللحظة قد أصبحت لصاً بالفعل، لصاً لا يمكن إنكار أنه لص؛ أصبحت رجلاً فقد شرفه إلى آخر الحياة. لأنني حين مزقت الكيس قد مزقت في الوقت نفسه أملي في أن أذهب إلى كاتيا وأن أقول لها: «أنا وغد... هذا صحيح... ولكنني لست لصاً». هل تفهمونني الآن؟

قاطعه نيقولاي بارفينوفتش:

– فلماذا اتخذت قرارك هذا أمس؟

– لماذا؟ يدهشني سؤالكم! لقد اتخذت قراري لأنني عزمت على الانتحار، في هذا المكان، عند الفجر. قلت لنفسي: «ما قيمة أن أموت شريفاً أو وغداً؟». ولكنني أدركت أن الأمرين لا يستويان.. صدقوني أيها السادة! إن العذاب الأكبر الذي عانيته في هذه الليلة الرهيبة لم يكن شعوري بأنني قتلت الخادم العجوز، ولا تصوري أنني سأُحكم بالأشغال الشاقة في اللحظة التي أخذ فيها حبي ينتصر، في اللحظة التي انفتحت فيها سماوات السعادة أمامي... لم يكن ذلك عذابي الأكبر... ولا كان يساوي، على الأقل، عذابي من تصوّر أنني فتحت ذلك الكيس اللعين، وأتلفت ذلك المبلغ المنحوس، وأصبحت بهذا لصاً إلى الأبد! أيها السادة، إنني وقد تهدمت إلى أعمق أعماق كياني، أعود فأقول لكم: لقد تعلمت أشياء كثيرة في هذه الليلة. لم أتعلم فقط أنه أمر لا يطاق أن يعيش المرء وغداً، وإنما تعلمت أيضاً أنه أمر مستحيل أن يموت المرء وغداً

حقيراً. . . لا، لا يمكن أن يموت المرء إلا وهو يشعر أنه إنسان شريف!. . .

كان ميتيا شاحب اللون، وكان وجهه المتقبض على ألم يبدو كأنه خلا من الدم، رغم أنه قد تحمس أثناء الكلام.

قال وكيل النيابة ببطء بلهجة ملطفة فيها شيء من عطف:

- بدأت أفهمك يا دمتري فيدوروفتش. ولكنني أعتقد أن أعصابك، أعصابك المريضة، هي السبب الحقيقي لعذابك. . . هِمْ. . . فمثلاً: لماذا لم يخطر ببالك، حتى تتخلص من الآلام النفسية التي قاسيت منها خلال شهر بأكمله، لماذا لم يخطر ببالك أن تذهب إلى تلك الإنسانة التي ائتمنتك على ذلك المبلغ لترد إليها الألف وخمسمائة روبل؟ ألا يكون أبسط من هذا كله، بعد أن تشرح لها الخطيئة التي ارتكبتها في لحظة ضلال، أن تعمد إلى حل يخطر على البال من تلقاء نفسه، وكان يمكن أن يخرجك من المأزق الذي كنت فيه كما تقول؟ لقد كان في وسعك، بعد أن تعترف لها اعترافاً مليئاً بالنبل، أن تطلب إليها أن تقرضك المبلغ الذي كنت في حاجة إليه؛ وإني لعلى يقين، لمعرفتي بسمو نفسها، أنها ما كان لها أن ترفض إقراضك ذلك المبلغ، ولا سيما وأنت ما أنت عليه من ضياع نفسي. . . خاصةً وأنك كنت تستطيع أن توقّع لها سنداً أو أن تقدم لها الضمانات التي عرضتها على التاجر سامسونوف، وعلى السيدة خوخلاكوفا أيضاً! أظن طبعاً أنك ما تزال تعد تلك الضمانات موثوقة تماماً.

احمر وجه ميتيا فجأة. ثم هتف يقول مستاءً وهو يحدّق إلى عيني وكيل النيابة تحديق من يشك في أن يكون وكيل النيابة قد فهم الموضوع:

- هل يُعقل أن تتصوروني منحطاً إلى هذه الدرجة؟ أنا لا أستطيع أن أصدق أنكم تتكلمون جادين!

فدهش وكيل النيابة هو أيضاً، وانبرى يقول له:

- أؤكد لك أنني جاد كل الجد. لماذا تشك في ذلك؟

- لو قد فعلت ذلك لكان حطةً ما بعدها حطة! هل تعلمون أيها السادة أنكم تعذبونني تعذيباً رهيباً؟ طيب! سأقول لكم كل شيء. إنني أذعن لإرادتكم سأتيح لكم أن تروا الحقيقة الجهنمية؛ فتعرفوا، لتشعروا أنتم أنفسكم بالعار والخزي، إلى أي دناءة يمكن أن ينحدر ضمير إنسان. إن هذا الحل الذي ذكرته الآن يا سيادة وكيل النيابة قد خطر ببالي. نعم يا سادتي! لقد فكرت في هذا الحل أيضاً خلال هذا الشهر المنحوس، وكنت على وشك أن أذهب إلى كاتيا من فرط حطتي وحقارتي، أذهب إليها فأعترف لها بخيانتي، ثم أطلب إليها بعد ذلك الاعتراف، أن تقرضني مالاً لأنفذ هذه الخيانة، لأسدد النفقات التي كانت ستقتضيها هذه الخيانة. أطلب مالاً منها هي، كاتيا، أطلب، أتضرّع، هل تسمعون؟ ثم أهرب مع امرأة أخرى، مع غريمتها، مع امرأة تكرهها، امرأة أساءت إليها وأهانتها. ألا إنك لمجنون يا وكيل النيابة!

- قد أكون مجنوناً، وقد لا أكن مجنوناً؛ ولكنني أثناء احتدام النقاش لم يخطر ببالي عنصر الغيرة النسوية، هذا إذا افترضنا أن من الممكن أن يكون ثمة غيرة في هذه الحالة كما تقول. . . والحق أنه على المرء ألا يغفل عن هذا النوع من الغيرة.

كذلك ختم وكيل النيابة كلامه بلهجة ساخرة.

زأر ميتيا يقول وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية:

- إن عملاً كهذا العمل يكون فيه من الحطة والدناءة، ويبلغ من

شدة ما يبعثه في النفس من اشمئزاز، حداً لا أستطيع أن أجد كلمات تعبّر عنه! هل تعلمون أنه كان يمكن جداً أن تعطيني ذلك المال؟ أنا على يقين من أنها كانت ستعطيني ذلك المال، بدافع الانتقام، لتتلذذ بالثأر، لتظهر لي احتقارها، لأنها هي أيضاً لها نفس جهنمية عنيفة غضوب! وكنت سآخذ منها المال، هذا أكيد، فأظل طول حياتي. . . أوه. . . رباه! معذرة يا سادتي! لئن صرخت الآن، فلأن هذه الفكرة الكريهة قد ساورتني، ساورتني أمس الأول، بينما كنت أتخبط ليلاً قرب لياجافي. . . وعاودتني أمس مرة أخرى. . . نعم. . . إنني أتذكر هذا. . . وحاصرتني طول النهار إلى حين وقوع ذلك الحادث. . .

- أي حادث؟

كذلك تدخل يسأله نيقولا بارفينوفتش مستطلعاً، ولكن ميتيا لم يأبه لسؤاله وختم كلامه يقول مظلم الوجه:

- لقد قدمت إليكم اعترافاً رهيباً، فلتقدروه حق قدره أيها السادة، بل إنه لقليل أن تقدروه حق قدره فحسب، وإنما ينبغي لكم أن تعترفوا بقيمته. . . وإلا. . . إذا انزلق هذا الاعتراف على صفحة نفوسكم دون أن يؤثر فيكم، فيجب أن نسلم عندئذٍ بأنكم لا تضمرون لي أي احترام، ولأموتنَّ من شعوري بالعار لأنني فتحت قلبي لأناس مثلكم. لأطلقنَّ عندئذٍ رصاصةً في رأسي! ولكنني أرى أنكم لا تصدقونني، أرى ذلك! ماذا؟ أتريدون أن تسجلوا هذه الأقوال أيضاً؟

هكذا صاح ميتيا مروَّعاً جداً. فأجاب نيقولاي بارفينوفتش يقول وقد أدهشه قلق ميتيا:

- لن نسجل إلا التصريح الذي أدليت به الآن. . . سنسجل أنك كنت تنوي، حتى الدقيقة الأخيرة، أن تذهب إلى السيدة فرخوفتسيفا

لتقترض منها هذا المبلغ. . . تلك واقعة هامة جداً بالنسبة إلينا يا دمتري فيدوروفتش. . . صدقني. . . هذه التفاصيل كلها هامة. . . . ولا سيما بالنسبة إليك، إليك أنت.

هتف ميتيا يقول وهو يضم يديه متوسلاً:

- أتضرع إليكم يا سادتي! اعدلوا عن تسجيل ما ذكرته لكم الآن، اعدلوا عنه من باب الحياء على الأقل! لقد فتحت لكم نفسي، فإذا أنتم تسرعون فتغمسون فيها أيديكم لتنبشوا آلامي. آه. . . رباه!

قال ذلك وأخفى وجهه بيديه قنوطاً!

فتدخل وكيل النيابة يقول:

- اطمئن يا دمتري فيدوروفتش. إن كل ما نسجله الآن سيُقرأ عليك بعد ذلك، وسنعدِّل عندئذٍ الفقرات التي لا توافق عليها متقيدين بما تذكره. ولكن يجب عليَّ الآن، مرةً ثالثة، أن ألقي عليك سؤالاً صغيراً: هل يُعقل فعلاً أن لا يكون أحد على الإطلاق، قد علم بوجود ألف وخمسمائة روبل مخيّطة في الكيس؟ أعترف لك بأن هذا يبدو لي غير معقول كثيراً. . .

- قلت لكم إن أحداً لم يعلم بهذا الأمر. لم أحك هذا الأمر لأحد. إذاً لم تفهموا شيئاً البتة! دعوني وشأني أخيراً.

- سيكون علينا أن نوضح هذه النقطة، ولكن ما يزال لدينا وقت كثير. على أنني أرجوك أن تفكر فيما يلي: إن عندنا عشرات من الشهود سيشهدون جميعاً بأنك كنت تروي أنت نفسك، حتى لتكاد تصيح بذلك صياحاً في كل مكان، أنك قد أنفقت في القصف في المرة الماضية مبلغ ثلاثة آلاف روبل، لا ألف وخمسمائة. وحتى في هذه المرة، قلتَ لعدة أشخاص بصدد المال الذي أصبح في حوزتك فجأة، إنه يبلغ ثلاثة آلاف روبل أيضاً. . .

صاح ميتيا يقول:

- الشهود؟ ستجدون من الشهود مئات لا عشرات! سيجيء مائتا شخص يؤكدون ذلك، وربما جاء ألف شخص. ستجدون من الشهود ما تشاؤون.

- ها أنت ذا ترى إذاً. لقد سمعك جميع الناس تقول هذا الكلام. وهم جميعاً يؤكدونه اليوم. هل تفهم ماذا تعني كلمة جميع الناس هذه؟

- لا تعني شيئاً! أنا كذبت وكرر الناس كذبتي..

- فلماذا «كذبت» على حد تعبيرك؟..

- لا يعلم ذلك إلا الشيطان! لعلني كذبت افتخاراً... لأفتخر بالكلام بقصف بلغ ذلك المبلغ من البذخ... أو لأنسى ذلك المال المخيط في الكيس... نعم، ذلك هو، ذلك هو الباعث الحقيقي الذي دفعني إلى الكذب... أنا أحسّ هذا!... إلى الشيطان على كل حال! إنكم تعودون فتلقون عليَّ نفس الأسئلة. لقد كذبت وكفى! لقد كذبت مرة واحدة ولم أُرد أن أعدل عن كذبتي. هل يعلم أحد ما الذي يمكن أن يدفع الإنسان إلى الكذب، في بعض الأحيان؟

قال وكيل النيابة بصوت رزين:

- حقاً إن من الصعب أن يعرف المرء ما قد يدفع الإنسان إلى الكذب. ولكن قل لي: ماذا كانت أبعاد الكيس الذي كنت تحمله معلقاً برقبتك؟ هل كان كبيراً؟

- لا، لم يكن كبيراً البتة.

- ماذا كانت أبعاده تقريباً؟

- أبعاد ورقة المائة روبل حين تطوي الورقة نصفين.

- هل بقيت لك منه قطع؟ هل تستطيع أن ترينا تلك القطع؟
- قطع الكيس؟ يا للغباوة! إنني لا أدري ما الذي صارت إليه.
- عجيب! أين ومتى نزعت الكيس عن عنقك؟ لقد صرَّحت أنت نفسك بأنك لم ترجع إلى منزلك.
- نزعته أثناء الطريق بعد أن تركت فينيا لأذهب إلى برخوتين. نزعته عن عنقي وأخرجت منه المال.
- في الظلام؟
- هل كان عليَّ أن أشعل شمعة؟ لقد توصلت إليه باللمس في مثل لمح البصر.
- في الشارع؟ بدون مقص؟
- نعم. تمَّ ذلك في الميدان إذا لم يخطئ ظني. ما الداعي إلى مقص حين يراد تمزيق خرقة عتيقة بالية؟ لقد تمزقت من تلقاء نفسها.
- ماذا فعلت بتلك الخرقة بعدئذٍ؟
- رميتها.
- أين؟
- عجيب! في الميدان! أنَّى لي أن أتذكر المكان الذي رميت فيه الخرقة على وجه التحديد؟ لماذا هذه الأسئلة؟
- ذلك هام جداً يا دمتري فيدوروفتش. ألا تفهم أن هذه الخرقة يمكن أن تكون دليلاً مادياً لصالحك؟ من ساعدك في خياطة الكيس على المال، منذ شهر؟
- لم يساعدني أحد. قمت بذلك وحدي.
- ألنت تعرف إذاً أن تخيط؟
- لا بد أن يعرف الجندي كيف يخيط. ثم إن هذا لا يحتاج إلى أي براعة.

- أين وجدت القماش، أعني تلك الخرقة التي خطتها على المال؟

- أأنتم تسخرون مني؟

- أبداً. ثق أننا لا نرغب في الضحك أي رغبة يا دمتري فيدوروفتش!

- لا أتذكر من أين أخذت تلك الخرقة. لا بد أني لممتها من مكان ما.

- كيف يمكن أن تنسى ذلك؟

- أحلف لكم أنني لا أعرف. لعلني قد مزقت أحد الملابس.

- هذا شيء هام. قد نعثر غداً في منزلك على ذلك اللباس الممزق الذي انتزعت منه قطعة، وربما كان قميصاً من قمصانك... ما نوع نسيج تلك الخرقة؟ أكانت من كتان أم كانت من قطن؟

- أأنا أعرف؟ لحظة... لا... لم تكن قطعة قماش منتزعة من أحد الملابس... كانت الخرقة من قماش خاص.. أظن أنني خطت المال في طاقية لصاحبة المنزل الذي أقيم فيه.

- لصاحبة المنزل الذي تقيم فيه؟

- نعم، اختلست هذه الطاقية من عندها.

- اختلستها؟

- أظن. أتذكر فعلاً أنني في ذات يوم أخذت طاقية من عندها. كنت في حاجة إلى خرقة، ربما لأمسح قلمي، فأخذت تلك الخرقة دون أن أقول لأحد، لأنها طاقية لا قيمة لها... خرقة عتيقة غُسلت وأعيد غسلها مائة مرة... وظلت الطاقية ملقاةً في غرفتي منذ ذلك الحين... فلما أردت أن أخبئ تلك الألف وخمسمائة روبل، تناولت الطاقيّة وخطتها على المال...

- هل تتذكر هذا تذكراً واضحاً؟
- لا أدري هل هذه الذكرى واضحة جداً. يخيَّل إليَّ أنها الطاقية... ولكن ما قيمة هذا!
- في هذه الحالة ستستطيع صاحبة المنزل أن تذكر أنها افتقدت طاقية، أليس كذلك؟
- لا... أبداً. إنها لم تلاحظ غياب الطاقية. تلك خرقة عتيقة غير ذات قيمة...
- والإبرة؟ من أين أخذت الإبرة؟ والخيط؟
- أتوقف عن الكلام. أرفض الجواب عن مثل هذه الأسئلة. كفى!
كذلك حسم ميتيا المناقشة غاضباً وقد نفد صبره.
- إنه لغريب حقاً أن تنسى في أي مكان على وجه الدقة رميت ذلك الكيس في الميدان!
- ليس عليكم إلا أن تأمروا بكنس الميدان غداً، فربما عثرتم عليه.
بهذا أجاب ميتيا ساخراً. ثم أردف يقول بصوت متعب مكدود:
- هذا يكفي أيها السادة، يكفي ويزيد. إنني لأرى رؤية واضحة أنكم لا تصدقونني! إنكم لم تصدقوا كلمة واحدة مما كنت أقول. وذلك خطئي أنا لا خطؤكم أنتم: كان عليَّ أن أصمت بدلاً من أن أفضي بما في نفسي أمامكم في غباء وبلاهة... آهٍ... لماذا، لماذا أسففت ذلك الإسفاف فكشفت لكم عن سرِّي؟ إنكم لا تزيدون على أن تضحكوا من ذلك، أنا أقرأ هذا في نظراتكم. أنت الذي دفعتني إلى الكلام يا وكيل النيابة. في وسعك أن تفخر بنفسك. اللعنة عليكم أيها الجلادون المناحيس!

قال ميتيا ذلك، وخفض رأسه وأخفى وجهه في يديه. وصمت وكيل النيابة وقاضي التحقيق. وبعد دقيقة، رفع ميتيا رأسه ونظر إليهما فارغ العينين. إن قسمات وجهه تعبّر في هذه المرة عن يأس كامل لا برء منه؛ وظل جامداً على كرسيه لا ينطق بكلمة واحدة كأنه غائب عن نفسه. وكان الوقت أثناء ذلك ينقضي، فلا بد من الانتهاء، ولا يمكن تأخير سماع الشهود مزيداً من التأخير. لقد دقت الساعة الثامنة من الصباح، وذابت الشموع منذ زمن طويل. وهذا ميخائيل ماكاروفتش وكالجانوف اللذان غاباً عن الغرفة مراراً أثناء الاستجواب، يخرجان الآن من جديد. وإن وكيل النيابة وقاضي التحقيق يبدوان متعبين هما أيضاً إلى أقصى حدود التعب. والصباح كالح مكفهر، والسماء تغطيها الغيوم، والأمطار تهطل سيولاً غزيرة. وميتيا ينظر إلى النافذة كالآلة.

قال ميتيا يسأل نيقولا بارفينوفتش فجأة:

- هل أستطيع أن ألقي نظرة من النافذة؟

فأجابه هذا بقوله:

- ما شئت أن تنظر...

فنهض ميتيا واقترب من النافذة. المطر ينهمر على الزجاج انهماراً قوياً. وأمام المنزل يُرى طريق موحل؛ وبعد الطريق، في الضباب الماطر، تُلمح الكتل السوداء البائسة، كتل الأكواخ التي تبدو في المطر ملفعة بمزيد من الجهامة والبؤس. فكر ميتيا فجأة في «فيبوس ذي الضفائر الذهبية»، وفيما كان قد عقد عليه عزمه من انتحار عند الفجر. فقال في نفسه وهو يبتسم ابتسامة مرة: «هذا صباح كان يناسب مشروعي جداً» ثم طرد هذه الرؤيا بحركة عريضة من يده، والتفت إلى «جلاديه» وقال:

- أيها السادة، أرى أنني ضعت. ولكن ماذا عنها هي؟ قولوا لي، أتضرع إليكم، هل سيكون عليها أن تهلك معي؟ إنها لا شأن لها بالأمر؛ وفي لحظة من ضلال إنما اتهمت نفسها أمس بأنها «مسؤولة عن كل شيء». هي لم ترتكب أي خطيئة، هي بريئة كل البراءة. لقد تألمتُ طوال الليل وأنا أفكر فيها بينما كنتم تستجوبونني.. ألا تستطيعون أن تقولوا لي ما هو المصير الذي ينتظرها؟

بادر وكيل النيابة يجيبه:

- اطمئن عليها يا دمتري فيدوروفتش. ليس هناك حتى الآن أي سبب يدعونا إلى إقلاق الإنسانة التي تهتم بها هذا الاهتمام كله، وأرجو أن تضعها نهاية التحقيق في خارج القضية نهائياً... وسنعمل من جهتنا كل ما في وسعنا في سبيلها. فلا تخش عليها شيئاً!

- شكراً يا سادتي. كنت أعلم حق العلم في الواقع أنكم رغم الظروف أناس عادلون شرفاء. لقد أزحتم عن صدري عبئاً ثقيلاً... ماذا أنتم صانعون بي الآن؟ إنني مستعد.

- لم يبق لنا وقت نضيعه. يجب أن نبادر إلى سماع الشهود حالاً، وهذا لا يكون إلا بحضورك. لذلك...

قاطع نيقولا بارفينوفتش قائلاً:

- ألا يكون من الأفضل أن نحتسى فنجاناً من الشاي أولاً. أحسب أننا نستحق فنجاناً من الشاي!

وتقرر احتساء شيء من الشاي إذا وجد شاي ساخن تحت (وهذا مرجح، وإلا فهل كان يغيب ميخائيل ماكاروفتش إلا لطلب الشاي؟). وبعد الشاي يُستأنف الاستجواب «ويتابع بلا كلال». أما الإفطار بمعنى كلمة الإفطار، الإفطار مع «الزاكوسي»[30] (المقبّلات)، فيؤجل إلى ما بعد. واتضح أن هناك شاياً مهياً بالفعل

تحت، فجيء بالشاي إلى الغرفة. رفض ميتيا في أول الأمر أن يتناول الكوب التي مدها إليه نيقولا بارفينوفتش بكثير من اللطف والمودة، ولكنه عدل عن رأيه بعد لحظة فتناولها واحتسى الشاي بشراهة. كان يبدو مرهقاً إرهاقاً غريباً. ما كان لليلة قصف، ولو حفلت بانفعالات عنيفة، أن تهدم هذا التهديم رجلاً له مثل قوة جسمه. ولكن ميتيا كان لا يكاد يستطيع الثبات على كرسيه، وكانت الأشياء الموجودة في الغرفة تدور أمام عينيه في بعض اللحظات. قال يحدث نفسه: «لحظات ثم أهذي».

- 8 -

أقوال الشهود ـ الصبي

بدأ استجواب الشهود. ولكننا لن نذكر هنا جميع تفاصيله، كما فعلنا باستجواب ميتيا. لن نحكي إذاً كيف أوضح نيقولا بارفينوفتش لكل شاهد أن من واجبه أن يقول الحقيقة كاملةً، وأنه سيحمل فيما بعد على أن يكرر أقواله معززة بحلف اليمين؛ لا ولن نصف الشكليات الإجرائية، كتذييل الشهود لمحضر استجوابهم بتواقيعهم. وحسبنا أن نشير إلى أن الأسئلة التي ألقاها رجال القضاء إنما دارت في الدرجة الأولى على الثلاثة آلاف روبل: لقد طُلب من الشهود أن يقولوا هل أنفق دمتري فيدوروفتش، في موكرويه، أثناء سهرة القصف السابقة، في الشهر الماضي، ثلاثة آلاف روبل أم هو أنفق ألفاً وخمسمائة فحسب، وفي ليلة البارحة، في أول سهرة القصف الثانية هذه، هل كان معه ثلاثة آلاف أم كان معه ألف وخمسمائة. واحزناه! لقد شهدوا جميعاً عليه ولم يشهد أحد له. حتى إن عدداً منهم ذكروا قرائن جديدة قوية تكذّب دعواه. وكان تريفون بوريستش أول من سُمعت شهادته. تقدم أمام القضاة دون أن يبدو عليه أي خوف أو خجل، فهيئته هيئة رجل مستاء أعمق الاستياء من سلوك المتهم، وهذا ما أضفى على تصريحاته طابعاً قوياً من الصدق، وأتاح له أن يصطنع أوضاعاً فيها كثير من الكرامة والمهابة

والوقار. وكان موجزاً في كلامه، متحفظاً في أقواله، ينتظر الأسئلة بدلاً من أن يستبقها، ولكنه أجاب عن كل سؤال بكثير من الدقة والروية والتأمل. وقد أكد بلا تردد أن المبلغ الذي أُنفق في الشهر الماضي لا يمكن أن يقل عن ثلاثة آلاف روبل، وأن جميع فلاحي المنطقة قد سمعوا رقم الثلاثة آلاف ينطقه «دمتري فيدوروفتش» بلسانه نفسه، وأنه يكفي أن يُسألوا عن ذلك. وختم صاحب النزل كلامه بقوله: «لقد أنفق على الغجر وحدهم ثروة طائلة، أعطى النساء ألف روبل في أقل تقدير».

فعلّق ميتيا على ذلك قائلاً وهو مظلم الوجه:

- لم أكد أعطيهم خمسمائة روبل. من المؤسف إنني لم أحسب، لأنني كنت ثملاً، ولولا ذلك...

كان ميتيا جالساً عندئذٍ في جانب، جاعلاً ظهره إلى الستائر، وكان يبدو كالح الوجه حزين النفس متعب الجسم، يستمع إلى أقوال الشهود مستسلماً مذعناً بغير انفعال، فكأنه يقول لهم: «هيًا... قولوا ما شئتم... يستوي عندي كل شيء بعد الآن!».

ردَّ عليه تريفون بوريستش قائلاً بلهجة حازمة:

- لقد كلفوك أكثر من ألف روبل يا دمتري فيدوروفتش. كنت ترمي إليهم المال من دون حساب، كانوا يلتقطونه من الأرض. إن هؤلاء الغجر أوغاد... ذلك معروف... هم لصوص خيل... وقد طُردوا من المنطقة، ولولا ذلك لكان يمكن أن يؤتى بهم ليقولوا كم سلبوك في تلك الليلة. لقد رأيت بعيني الحزمة التي كنت تمسكها بيديك. ولئن لم أعدَّ الأوراق المالية التي كانت تضمها الحزمة، لأنك لم تتح لي ذلك، فإنني أتذكر أنها كانت تضم أكثر كثيراً من ألف وخمسمائة روبل، إذا صدق النظر. أكثر كثيراً على كل حال!

إننا قد رأينا أيضاً مبالغ ضخمة في حياتنا. . . إننا نستطيع نحن أيضاً أن نقدّر ما تضمه حزم الأوراق المالية. . .

أما عن المبلغ الذي جاء به ميتيا في الليلة البارحة فقد صرح تريفون بوريستش بلهجة قاطعة لا تقبل الجدل بأن دمتري فيدوروفتش ما إن نزل من عربة الترويكا حتى قال له إن معه ثلاثة آلاف روبل.

فحاول ميتيا أن يحتج قائلاً:

- ما هذا يا تريفون بوريستش؟ أأنا زعمت بمثل هذا القطع والجزم أن معي ثلاثة آلاف روبل؟

- أنت قلت ذلك يا دمتري فيدوروفتش! وقد قلته بحضور أندريه. وهو ما يزال هنا لم ينصرف، فاسألوه. وبعد ذلك بقليل صحت تقول في القاعة، وأنت تغدق على أفراد الجوقة، إنك تنفق هنا الألف السادس من الروبلات، جاعلاً الثلاثة آلاف الأولى في حسابك طبعاً. ولقد سمع كلامك ستيبان وسيمون، وسمعه بيتر فومتش كالجانوف الذي كان إلى جانبك عندئذٍ، فلعله يتذكره هو أيضاً. . .

اهتم القضاة بهذا التصريح المتعلق بالألف السادس من الروبلات اهتماماً شديداً. إن هذه المعادلة الجديدة تخلب عقولهم: ثلاثة آلاف في المرة الأولى + ثلاثة آلاف في هذه المرة = ستة آلاف فعلاً.

واستجوب الفلاحان اللذان ذكرهما تريفون بوريستش، وهما ستيبان وسيمون، واستجوب الحوذي أندريه، واستجوب كذلك بيتر فومتش كالجانوف. فأما الفلاحان والحوذي فقد أيّدوا تصريحات صاحب النزل بلا تردد. وقد سُجّلت، بوجه خاص، التفاصيل التي أوردها أندريه عن الحديث الذي جرى بينه وبين ميتيا أثناء الطريق حين سأله ميتيا: «هل سيذهب، هو دمتري فيدوروفتش، إلى جهنم

أم إلى الجنة، وهل سيُغفر له في السماء أم لا». وقد تذكر ايبوليت كيريلوفتش في هذه المناسبة مواهبه الرفيعة في «النفاذ السيكولوجي»، فاستقبل ما رواه أندريه بابتسامة مفهومة، وأمر «بضم هذا التصريح إلى ملف القضية».

واستُدعي بعد ذلك كالجانوف، فدخل القاعة وقد بدا في وجهه التململ والضجر والتجهم، وأظهر أثناء الاستجواب كثيراً من النزوات وأبدى كثيراً من سرعة الغضب. تحدث مع وكيل النيابة وقاضي التحقيق حديثه مع أناس يراهم لأول مرة، مع أنه يعرفهما منذ زمن طويل، ومع أنه التقى بهما مراراً في المجتمع. وقد بدأ كلامه بقوله: «إنه يجهل كل شيء عن هذه القضية، ولا يحب أن يقحم نفسه فيها». ولكنه اضطر أن يوافق على أنه سمع صيحة ميتيا في موضوع الألف السادس من الروبلات، وأنه كان إلى جانبه في تلك اللحظة. فلما سئل كم كان مع ميتيا من المال قال: «لا أعرف عن هذا شيئاً». وأكد في مقابل ذلك أن الرجلين البولنديين قد غشًا أثناء اللعب بالورق. وذكر كذلك، بعد إلحاح القضاة عليه إلحاحاً متكرراً، أن ميتيا قد حظي، بعد طرد البولنديين، برضى أجرافينا ألكسندروفنا، وأن أجرافينا ألكسندروفنا قد أكدت أنها تحبه. وقد تكلم كالجانوف عن أجرافينا ألكسندروفنا بلهجة فيها احتشام واحترام كأنها كانت سيدة من صفوة المجتمع، ولم يسمح لنفسه مرةً واحدة بأن يسميها «جروشنكا». ورغم الانزعاج الواضح الذي كان يحسه هذا الشاب لاضطراره إلى الإدلاء بشهادته، فإن ايبوليت كيريلوفتش ظل يستجوبه مدة طويلة، حتى علم منه جميع التفاصيل التي تألفت منها خلال الليل «رواية» ميتيا. وقد ترك ميتيا للشاب كالجانوف أن يتكلم دون أن يقاطعه، وصُرف الشاب أخيراً. فابتعد دون أن يخفي استياءه وامتعاضه.

واستجوب البولندیان أيضاً. كانا قد استقرا للنوم في الغرفة التي حُبسا فيها، ولكن لم يغمض لهما جفن طوال الليل، وأسرعا يرتديان ثيابهما حين سمعا وصول القضاة، لأنهما كانا يقدِّران أنهما سيُستدعيان للإدلاء بشهادتيهما. تقدما نحو القضاة برصانة ووقار، ولكن بشيء من الخوف والخشية مع ذلك وعُرف عندئذٍ أن السيد الصغير الذي كان يبدو أنه هو الشخصية الهامة من الشخصيتين، موظف محال على التقاعد من الدرجة الثانية عشرة، قد خدم في سيبريا طبيباً بيطرياً. وأن اسمه موزيالوفتش. أما السيد فروبلفسكي فقد صرح بأنه «طبيب أسنان حر». منذ أن دخل البولنديان الغرفة التفتا نحو ميخائيل ماكاروفتش ليجيبا عن الأسئلة التي كان يلقيها عليهما نيقولا بارفينوفتش. كان واضحاً أنهما يتصوران أن رئيس الشرطة، المنتحي قليلاً، هو أرفع الشخصيات الموجودة في الغرفة رتبةً، فكانا لا ينفكان يخاطبانه بقولهما: «السيد العقيد». ولم يعزما أمرهما على الاتجاه بحديثهما إلى نيقولا بارفينوفتش إلا بعد احتجاجات كثيرة من ميخائيل ماكاروفتش، مصحوبة بايضاحات وتعليمات. وقد تبيَّن أنهما يجيدان الكلام باللغة الروسية إجادة تامة، بصرف النظر عن بعض عيوب النطق. عرض البان موزيالوفتش علاقاته الحاضرة والماضية بجروشنكا، متكلماً بلهجة مسرحيّة مظهراً كبيراً من الحرارة والكبرياء، فكان من شأن ذلك أن أحنق ميتيا وأخرجه عن طوره فصاح يقول إنه لا يحتمل أن يتحدث إنسان «حقير» على هذا النحو أمامه. فسرعان ما ألحَّ البان موزيالوفتش على أن يُسجَّل في المحضر أن ميتيا استعمل كلمة «حقير». فصاح ميتيا يقول في اهتياج ووجد:

- حقير... نعم... حقير! سجلوا هذا الكلام، وسجلوا أيضاً

أنني لا أعبأ بالمحضر. ولن يمنعني المحضر من أن أصرخ في وجهك مرة أخرى قائلاً: أنت حقير!

أمر نيقولا بارفينوفتش بتسجيل الإهانة، ولكنه عرف بعد ذلك كيف يختم هذا الحادث الأليم ببراعة عظيمة وحنكة مهنية فائقة. دعا ميتيا إلى التزام الهدوء بلهجة قاسية، وعدل بعد ذلك فوراً عن إلقاء أسئلة جديدة تتناول الجانب العاطفي من القضية. وعلى وجه الإجمال، كان في أقوال «البانين» البولنديين نقطة لفتت انتباه القاضيين على نحو خاص، وأثارت فيهما اهتماماً شديداً، ألا وهي محاولة ميتيا أن يتخلص من السيد موزيالوفتش بأن يعطيه ثلاثة آلاف روبل ثمناً لتنازله عن جروشنكا، منها سبعمائة روبل ينقده إياها فوراً، والباقي وهو ألفان وثلاثمائة روبل، يدفعه له «منذ صباح الغد في المدينة». وقد ذكر السيد البولندي أن ميتيا حلف له أنه لا يملك المبلغ كاملاً في موكرويه، ولكنه يملكه مخبأً في المدينة. احتد ميتيا حين سمع هذا التصريح وأنكر أن يكون قد وعده بإكمال المبلغ منذ الصباح في المدينة. غير البان فروبلفسكي أيد أقوال رفيقه. ففكّر ميتيا قليلاً، ثم وافق مقطباً، على أن من الجائز فعلاً أن تكون الأمور قد جرت على هذا النحو الذي يذكر البولنديان، وقال إنه كان مهتاجاً أشد الاهتياج أثناء ذلك الحديث، فمن الممكن أن يكون قد قال ذلك الكلام. وأبدى وكيل النيابة اهتماماً خاصاً بهذه الأقوال إذ إنها توضح الآن (وذلك ما لم يَفُتهم الاستناد إليه إلا فيما بعد) أن نصف الثلاثة آلاف روبل التي صارت إلى يدي ميتيا أو جزءاً منها إنما هو مخبأ في المدينة، وربما في موكرويه نفسها. بذلك تبدد ذلك الظرف الذي كان غامضاً بالنسبة للتحقيق، أعني كون ميتيا لا يحمل إلا ثمانمائة روبل، وهذا أمر كان إلى ذلك الحين، هو العنصر الوحيد الذي يمكن

الاعتماد عليه في دعم صدق أقواله، وإن تكن دلالة هذا العنصر ضعيفة. هكذا انهار الدليل الوحيد الذي كان يمكن أن يدافع عن ميتيا. فلما سأل وكيل النيابة ميتيا من أين كان يأمل أن يحصل على ما ينقصه، وهو ألفان وثلاثمائة روبل، من أجل أن يدفع للبان البولندي، ما دام جميع ما يملكه هو ألف وخمسمائة، وما دام قد وعد بإكمال المبلغ في الغد، أجاب ميتيا جازماً بأنه كان لا ينوي أن يعطي البولندي المبلغ مالاً سائلاً، بل تنازلاً خطياً عن حقوقه في قرية تشرماشنيا، وهي الحقوق التي سبق أن أراد التنازل عنها للتاجر سامسونوف وللسيدة خوخلاكوفا. فابتسم وكيل النيابة من «سذاجة هذا التملّص».

– هل تظن جاداً أنه كان سيرضى بهذه الحقوق بديلاً عن ألفين وثلاثمائة روبل عداً ونقداً؟

أجاب ميتيا قائلاً بحرارة:

– طبعاً كان سيقبل. ذلك أنه يربح بذلك أكثر من ألفي روبل. إن في وسعه أن يقبض بهذه الطريقة أربعة آلاف روبل على الأقل، وربما قبض ستة آلاف. كان سيسرع إلى توكيل بعض المحامين، اليهود أو البولنديين، فيجبر العجوز على التخلي لا عن ثلاثة آلاف روبل بل عن قرية تشرماشنيا!

سُجِّلت أقوال البان موزيالوفتش طبعاً، بجميع تفاصيلها، ثم صُرف البولندیان. ولم يزعجهما أحد بموضوع الغش في اللعب بالورق. لقد كان نيقولا بارفينوفتش شاكراً لهما تصريحاتهما فلم يشأ أن يصدِّعهما بسفاسف وترهات، ولا سيما وأن الأمر لا يعدو أن يكون بعد كل شيء خلافاً في اللعب بين قاصفين سكارى. ألم تكن الليلة كلها حافلة بفضائح وحوادث شتى؟ هكذا بقيت المائتا روبل ملكاً حلالاً للبانين البولنديين.

وجاء بعد ذلك دور العجوز ماكسيموف. بدا عند وصوله وجلاً كل الوجل، واقترب من القضاة بخطى صغيرة، حزين الوجه شديد الارتباك. كان قد ظل طوال الوقت في صحبة جروشنكا، لاطياً بها كأنما لتحميه. وكان جالساً بالقرب منها في صمت، ينفجر باكياً أحياناً، ويمسح عينيه بمنديل أزرق ذي مربعات، كما روى ذلك ميخائيل ماكاروفتش فيما بعد. وقد بلغ من فرط الكرب واليأس أن جروشنكا اضطرت أن تهدئه وأن تواسيه مراراً. اعترف العجوز دفعةً واحدة، والدموع في صوته، أنه يعد نفسه مذنباً لأنه اقترض من دمتري فيدوروفتش عشرة روبلات «بسبب شدة فقره»، وأنه مستعد لردِّها. . . فلما سأله نيقولا بارفينوفتش هل يعلم كم كان في يدي ميتيا من مال، لأنه استطاع أكثر من أي شخص آخر أن ينعم النظر في الحزمة حين تناول العشرة روبلات، أجاب على الفور باقتناع أن الحزمة كانت تضم نحو «عشرين ألف روبل».

فسأله نيقولا بارفينوفتش مبتسماً:

- هل أتيح لك قبل ذلك أن ترى مبلغ عشرين ألف روبل؟

- هل رأيت؟ طبعاً رأيت، ولكنني لم أر عشرين ألفاً بل رأيت سبعة آلاف، وذلك حين رهنت زوجتي قريتنا الصغيرة. لقد تباهت أمامي بالمبلغ الذي أُعطيته، وأذنت لي أن أنظر إلى الحزمة، ولكن من بعيد. كانت حزمةً كبيرة من أوراق نقدية كالأوراق التي كانت مع دمتري فيدوروفتش.

ولم يطيلوا استجوابه. واستدعيت أخيراً جروشنكا. كان القضاة يخشون ما قد يرد به ميتيا حين يراها، حتى لقد اعتقد نيقولا بارفينوفتش أن من الضروري أن يقول له بضع كلمات من باب النصح. ولكن ميتيا اقتصر جوابه كله على أن حنى رأسه قليلاً، كأنه

يريد أن يقول: «لن يحدث اضطراب!». إن ميخائيل ماكاروفتش هو الذي أدخل جروشنكا. وقد دخلت عابسةً مقطبة، ولكن على هدوء ظاهر، وجلست بغير ضجة على كرسي أشار لها إليه نيقولا بارفينوفتش أمامه. وكانت شاحبة الوجه جداً، وكان يبدو أنها تشعر ببرد شديد، وتتلفع بشالها الأسود الرائع. والحق أنها كانت تشعر برعدات حمى هي بداية ذلك المرض الطويل الذي أصيبت به منذ تلك الليلة. وكان من شأن هيئتها الرصينة ونظرتها الجادة الصريحة ووضعها الهادئ أن أحدثت في نفوس الجميع أثراً طيباً. حتى لقد «فتن» بها نيقولا بارفينوفتش بعض الشيء. فقد روى فيما بعد، حين وصف مشاعره في ندوة من الندوات، أنه أدرك مدى جمال تلك المرأة لأول مرة حينذاك. وقال إنه لم يكن يرى فيها حتى ذلك الحين إلا «غانية ريفية». وقد صاح يقول ذات مرة بحرارة في مجتمع نسوي: «إن لها آداباً عظيمة كآداب امرأة من صفوة المجتمع»، فأحدثت هذه الصيحة استياء شديداً في نفوس سامعاته، وسرعان ما وصفته بأنه «فاسق»، فسرَّ هو بهذا الوصف سروراً عظيماً. حين دخلت جروشنكا الغرفة ألقت على ميتيا نظرة خاطفة، فتأملها قلقاً، غير أن منظر هدوئها لم يلبث أن طمأنه. سألها نيقولا بارفينوفتش، بعد الإجراءات الشكلية وبعد بضع نصائح، سألها متردداً بعض التردد، ولكن بكثير من الأدب والتهذيب «ماذا كانت علاقاتها بالملازم المتقاعد دمتري فيدوروفتش كارامازوف»، فأجابته جروشنكا بصوت حازم رقيق:

- كان واحداً ممن أعرف من الناس، وبهذه الصفة إنما كنت أستقبله في بيتي أثناء الشهر الأخير.

وأُلقيت عليها أسئلة أخرى كان بعضها دقيقاً محرجاً، فكانت

تجيب في كل مرة بصراحة تامة. وهكذا اعترفت بأن ميتيا كان قد أعجبها «في بعض الساعات» ولا شك، غير أنها لم تكن قد أحبته، وإنما كانت تلعب به لعباً «بدافع الخبث المنحط وحده»، كما كانت تلعب «بالعجوز» من جهة أخرى؛ وكانت قد لاحظت أن ميتيا يغار جداً من فيدور بافلوفتش، ومن رجال آخرين أيضاً، ولكن ذلك لم يكن عندها إلا موضوعاً جديداً للتسلي والضحك. أما فيدور بافلوفتش فإنها لم تزره في يوم من الأيام، لأنها لم تزد على السخرية منه طول الوقت. وختمت كلامها قائلةً: «ثم إنني قد كانت لي خلال هذا الشهر الأخير مشاغل أخرى مختلفة عن ذلك كل الاختلاف. فقد كنت لا أفكر فيهما، لأنني كنت أنتظر وصول رجل أعده آثماً في حقي.. ومهما يكن من أمر، فإنني أحسب أنه ليس لكم أن تتدخلوا في هذا الشأن، وليس عليَّ أن أروي هذه التفاصيل، لأن هذا من حياتي الخاصة».

أسرع نيقولا بارفينوفتش يخضع أمام هذه الحجة، فكفّ عن سؤال جروشنكا عن العناصر العاطفية في القضية، وبادر يواجه النقطة الأساسية رأساً، أعني مسألة الثلاثة آلاف روبل. فأيدت جروشنكا أن المال الذي أُنفق من موكرويه في الشهر الماضي يرتقي إلى ثلاثة آلاف روبل. فلئن لم تعدَّ المال، لقد سمعت دمتري فيدوروفتش نفسه يذّكر هذا الرقم.

سألها وكيل النيابة:

- هل أسرَّ إليك بهذ الرقم على انفراد أم بحضور أشخاص آخرين؟ أم هل عرفته لأنك سمعته يُذكر لآخرين؟

فأوضحت جروشنكا أنها سمعت ميتيا يذكر هذا الرقم لأشخاص آخرين، ولكنه حدثها عنه أيضاً، على انفراد وبحضور آخرين.

فسألها وكيل النيابة مرة أخرى:

- هل سمعته يذّكر هذا الرقم مرة واحدة أم عدة مرات؟

فأجابت:

- بل عدة مرات.

رضي إيبوليت كيريلوفتش عن هذه التصريحات رضىً عظيماً. وقد أتاحت تتمة الاستجواب أن يعرف، عدا ذلك، أن جروشنكا كانت على علم بمصدر هذا المبلغ، وأنها كانت لا تجهل أن ميتيا قد أخذه من كاترينا إيفانوفنا.

- ألم تسمعي أبداً أن المبلغ الذي أُنفق في القصف في الشهر الماضي لم يكن ثلاثة آلاف روبل، بل دون ذلك كثيراً، وأن دمتري فيدوروفتش قد احتفظ بنصف المال؟

- لا، أبداً. لم أسمع هذا في يوم من الأيام.

وإذ طلبوا إلى جروشنكا أن توضح أكثر هذه النقطة، فقد أدى ذلك بها إلى أن تصرّح أن ميتيا، خلافاً لذلك، قد أكد لها طوال هذا الشهر أنه لم يبق معه كوبيكاً واحداً. وختمت جروشنكا كلامها قائلة: «وكان يأمل دائماً أن يأخذ مالاً من أبيه».

هنا سألها نيقولا بارفينوفتش على حين فجأة:

- هل اتفق له أن قال بحضورك أو ذكر عَرَضاً أو صاح وهو في ثورة من غضب أنه ينوي أن يقتل أباه؟

فأجابت جروشنكا متنهدة:

- قال ذلك واأسفاه!

- أقالها مرةً واحدة أم قالها مراراً؟

- قالها مراراً، ولكن في لحظات الغضب دائماً.

- هل صدقت أنه سيقدم على تنفيذ نواياه؟

- لا، لم أصدق هذا في يوم من الأيام، لأنني كنت على ثقة بنبل خلقه.

كذلك قالت جروشنكا بلهجة حازمة.

فصاح ميتيا يقول فجأة:

- اسمحوا لي أيها السادة! هل أستطيع أن أقول كلمة، كلمة واحدة، بحضوركم، لأجرافين ألكسندروفنا؟

قال نيقولا بارفينوفتش:

- قل ما تريد!

فقال ميتيا وهو ينهض عن كرسيه:

- أجرافينا ألكسندروفنا، صدقيني، فإن الله على ما اقول شهيد: أنا لم أسفح دم أبي!

قال ميتيا تلك الكلمات وعاد يتهالك على كرسيه. فنهضت جروشنكا، ورسمت إشارة الصليب بخشوع وتقى وهي تتجه إلى أيقونة، وقالت بصوت حار مؤثر:

- الحمد لله!

ثم أضافت تقول مخاطبةً نيقولا بارفينوفتش قبل أن تعود لتجلس:

- إن ما قاله هو الحقيقة، وعليكم أن تصدقوه. أنا أعرفه. قد يمزح لعباً أو عناداً، ولكنه لن يكذب في يوم من الأيام مخالفاً ضميره. سيقول الحق دائماً في الأحوال الخطيرة. كونوا من هذا على يقين!

قال ميتيا بصوت يهدِّجه الانفعال:

- شكراً أجرافينا ألكسندروفنا! إن أقوالك قد واست قلبي.

وفي موضوع المال الذي كان مع ميتيا في الليلة البارحة، صرحت جروشنكا بأنها لا تعرف مقداره، ولكنها اعترفت بأن ميتيا قد أكد لعدة أشخاص أنه جاء بثلاثة آلاف روبل. وأما عن مصدر ذلك المال

فقد قالت جروشنكا إن ميتيا اعترف لها، لها وحدها، بأنه «سرقه» من كاترينا إيفانوفنا، وأنها أجابته على ذلك بأن هذا ليس سرقة، وأن عليه أن يرد إليها المال منذ الغد. فلما ألحّ وكيل النيابة على أن يعرف ما هو المبلغ الذي يدعي ميتيا أنه سرقه من كاترين إيفانوفنا - أهو الثلاثة آلاف روبل التي كانت معه في الليلة البارحة، أم هو الثلاثة آلاف روبل التي أنفقها بموكرويه في الشهرالماضي - أجابت بأن ميتيا قد تكلم عن الثلاثة آلاف روبل التي أنفقت في الشهر الماضي، وأن هذا ما فهمته هي من كلامه.

هنا انتهى استجواب جروشنكا. وأسرع نيقولا بارفينوفتش يعلن لها أنها حرة تستطيع أن ترجع إلى المدينة، فإذا كان في وسعه أن يعمل شيئاً من أجلها، كأن يأمر لها بخيل أو أن يهيئ لها خفراً، فإنه سوف يسعده أن. . .

فقاطعته جروشنكا تقول وهي تنحني انحناءة توديع يسيرة:

- أشكر لك لطفك. ولكنني أنوي الذهاب في صحبة هذا الملاك العجوز الذي أرغب في أن أوصله إلى منزله. وبانتظار ذلك أؤثر أن أبقى تحت، إذا أذنتم بذلك، ريثما تقرروا مصير دمتري فيدوروفتش.

وخرجت جروشنكا من الغرفة. كان ميتيا هادئاً، حتى لقد كان وجهه يعبر عن رباطة جأش وطمأنينة البال، ولكن ذلك لم يدم إلا لحظة قصيرة. إن وهناً جسمياً شديداً غريباً كان يغزوه شيئاً بعد شيء، وأن عينيه كانتا تغمضان من فرط التعب؛ ولم يكن قد بقي شهود يُستمع إلى شهاداتهم، وقد بدأت كتابة المحضر في صورتها الأخيرة. فها هو ذا ميتيا ينهض عن كرسيه، ويتجه إلى زاوية الغرفة قرب الستارة، ويتمدد على صندوق كبير مغطى بسجّادة، فسرعان ما ينام، فيرى في منامه حلماً غريباً لا يتفق مع هذه الظروف في شيء

من الأشياء - رأى نفسه في عربة تجتاز سهوباً في المنطقة التي كان قد خدم فيها ضابطاً، والعربة يقودها خلال السهل الموحل فلاح يعمل حوذياً. إن ميتيا يشعر ببرد. هذه أوائل شهر نوفمبر. الثلج يتساقط سبائخ كبيرة رطبة ما إن تلامس الأرض حتى تذوب. الفرح يستحث الخيل ويشجعها على أن تسرع العدو ملوّحاً بسوطه. إن له لحية صهباء طويلة جداً. ما هو بالعجوز. قد يكون في الخمسين من عمره. إنه فلاح بسيط يرتدي قفطاناً فقيراً. وهذه قرية صغيرة تتراءى في مكان قريب. إن الناظر يلمح أكواخها السوداء الحزينة وقد احترق نصفها ولم يبق منها إلا هياكل محترقة. وعند مخرج القرية تصطف نساء، تصطف كثرة من النساء إنهن هزيلات هزالاً رهيباً. وجوههن بلون التراب. بينهن واحدة تلفت النظر خاصة، وقد وقفت على حافة الطريق. هي امرأة بارزة العظام طويلة القامة، تبدو في الأربعين ولكن ربما كان عمرها لا يزيد على عشرين. وجهها مستطيل جاف. وعلى ذراعيها طفل يبكي. لا شك أن ثدييها قد نضبا، فلم يبق فيهما قطرة من لبن. الطفل يبكي، وما ينفكّ يبكي بلا انقطاع، ماداً ذراعيه الصغيرتين، ذراعيه العاريتين اللتين ازرقت قبضاتهما من شدة البرد.

سأل ميتيا حين مرت العربة أمامه مسرعة:

- لماذا يبكون؟ لماذا؟

فأجابه الحوذي:

- الصبي هو الذي يبكي.

فوجئ ميتيا من قول الفلاح: «الصبي»، بدلاً من أن يقول «الطفل». أعجبه من الفلاح أن يستعمل هذه التسمية. إن في كلمة «الصبي» من العطف والشفقة ما ليس في كلمة «الطفل».

ألحّ ميتيا يسأل الفلاح رغم شعوره بغباوة سؤاله:

- ولكن لماذا يبكي؟ لماذا ذراعاه عاريتان؟ لماذا لا يغطون جسمه؟
قال الفلاح:
- الصبي قد تخدّر من البرد؛ تجلّدت ثيابه فأصبحت لا تقيه.
ظلّ ميتيا يسأل في غباء:
- ولكن لماذا؟ لماذا؟
- هؤلاء نساء فقيرات، احترقت دورهن، ولم يبق معهن خبز، فهن يستجدين.
قال ميتيا وكأنه لا يفلح في أن يفهم:
- لا، لا. قل لي: لماذا هن هنا، تلك الأمهات اللواتي احترقت دورهن، لماذا هن فقيرات إلى هذه الدرجة من الفقر، لماذا هذا الصبي يبكي، ولماذا هذه السهوب عارية كل هذا العري؟ نعم، لماذا لا يتعانقن جميعاً؛ لماذا لا يرتمي بعضهن في أذرع بعض منشدات أغنية فرح؟ لماذا أصحبت وجوههن بلون التراب من شدة الفقر والبؤس، لماذا لا يطعمن الطفل؟

إن ميتيا يحسّ في قرارة نفسه أن هذه الأسئلة بلهاء سخيفة، ولكنه يشعر بحاجة قوية إلى إلقائها، ويعلم أنها يجب أن تلقى. وهو يشعر كذلك بشفقة كبيرة في قلبه، شفقة لا عهد له بمثلها من قبل، وهو يريد أن يبكي، ويتمنى أن يفعل شيئاً ليساعدهن جميعاً، حتى يكف الصبي عن الأنين، وحتى تنقطع عبرات أمه ذات الوجه الهزيل المغبّر، وحتى لا يبكي أحد في هذا العالم بعد اليوم. إنه يريد أن يعمل شيئاً على الفور، بغير انتظار، وبدون أن يحسب حساب أي شيء، مندفعاً ذلك الاندفاع الجامح الذي يتميز به آل كارامازوف.
- سأكون معك، لن أتركك بعد الآن، سأبقى إلى جانبك مدى الحياة.

كذلك قال على مقربة منه صوت جروشنكا الرقيق الحنون المتأثر. اشتعل قلبه مندفعاً نحو ضياء ما. إنه يريد أن يحيا، أن يحيا، أن يمشي، أن يمشي بلا توقف نحو ذلك الضياء الجديد الذي يناديه، أن يمشي حالاً، بمزيد من السرعة، على الفور، على الفور!

هتف فجأة وهو يفتح عينيه ويجلس على الصندوق، كأنه يصحو من غيبوبة:

- أين؟ كيف؟

وكانت بسمة مشرقة تضيء وجهه. كان نيقولا بارفينوفتش واقفاً أمامه يدعوه أن يسمع قراءة المحضر وأن يوقعه. أدرك ميتيا أنه نام ساعة أو أكثر. ولم ينتبه أي انتباه إلى كلام نيقولا بارفينوفتش، لأنه لاحظ مندهشاً أن وسادةً كانت موضوعة تحت رأسه، مع أنه لم يكن ثمة وسادة حين استلقى على الصندوق مهدود القوى. هتف يسأل وهو يشعر بامتنان متحمس، وفي صوته دموع، كأنه قد مُنَّ عليه بفضل عظيم:

- من وضع وسادة تحت رأسي؟ من عطف عليَّ هذا العطف النبيل؟

غير أن الإنسان الذي قام ببادرة العطف هذه قد ظل مجهولاً. لعل أحد الشهود أو لعل كاتب نيقولا بارفينوفتش هو الذي أمر بإحضار الوسادة. أحسّ ميتيا بتأثر شديد يرقرق الدموع في العينين. واقترب من المائدة، وأعلن أنه سيضع توقيعه على كل ما يشاؤون أن يضع توقيعه عليه.

وقال بصوت غريب:

- رأيت حلماً جميلاً يا سادتي.

إن قسمات وجهه قد تبدلت واكتسبت تعبيراً جديداً فيه شيء من الفرح. إن محيَّاه غارق في ضياء مشرق.

- 9 -

اقتياد ميتيا

حين تم توقيع المحضر التفت نيقولا بارفينوفتش نحو ميتيا في أبهة، وقرأ عليه نص «قرار» يتضمن أنه في يوم كذا، سنة كذا، وفي مكان كذا، استجوب قاضي التحقيق فلاناً (أي ميتيا)؛ وحيث إن المتهم، رغم إنكاره التهم المنسوبة إليه (وتُليت كل التهم بدقة) لم يكن قادراً على أن يبرئ نفسه؛ ونظراً للتهم المنسوبة إليه من الشهود (وتُليت قائمة بأسماء الشهود وشهاداتهم)، ونظراً لظروف القضية، فقد قرر قاضي التحقيق، بالاستناد إلى مواد قانون العقوبات (وتُليت أرقام المواد) أن يودع المتهم السجن الفلاني حتى لا يستطيع الفرار من وجه العدالة، وأن تبلغ صورة من هذا الحكم لوكيل النيابة، إلخ، الخلاصة: أُعلم ميتيا أنه معتقل، وأنه سينقل إلى المدينة ليسجن في مكان ليست الإقامة فيه بالممتعة. وقد أصغى ميتيا إلى قراءة هذه الورقة بانتباه، ولكنه لم يزد على أن رفع كتفيه قائلاً:

- ليكن ما تشاؤون يا سادتي... لست أؤاخذكم، أنا مستعد... إنني لأدرك حق الإدراك أنكم ما كان في وسعكم أن تفعلوا غير ما فعلتم.

فشرح له نيقولا بارفينوفتش، في لين ورفق، أن مافريكي

مافريكيفتش الذي كان في المكان بما يشبه المصادفة، هو الذي سيقتاده.

هتف ميتيا يقول فجأة في ثورة جامحة لا تقاوم، متجهاً بكلامه إلى جميع الحضور في القاعة:

- لحظة أيها السادة! نحن جميعاً قساة، نحن جميعاً وحوش مفترسة، نحن سبب الدموع التي تسكبها الأمهات ويسكبها الأطفال الرضَّع، ولكنني أنا - أقول هذا جهاراً على رؤوس الأشهاد هنا - أنذل الناس، وأدنأهم طراً. إنني أسلِّم بهذا. وما من يوم انقضى في حياتي إلا وحلفت فيه، وأنا ألطم صدري، لأصلحنّ أمري ولأقوِّمنَّ عَوَجي، ولكنني كنت أهوى إلى أخطائي منذ الغد. إنني أدرك اليوم أن رجالاً مثلي محتاجون إلى أن يضربهم القدر، محتاجون إلى أن يضربهم القَدَر ضربة تهزّ كيانهم وتوقظ في أنفسهم قوى الحقيقة العليا. ما كان لي أبداً، أبداً، أن أستطيع النهوض من تلقاء نفسي! ولكن الصاعقة قد نزلت عليَّ. وأنا أقبل عذاب الاتهام الموجه إلي، وأقبل العار الذي تلطخ به شرفي أمام الناس. أريد أن أتألم، وأن أتطهر بالألم. لأنني سأفدي نفسي بالألم، أليس هذا صحيحاً أيها السادة؟ ولكنني أؤكد لكم آخر مرة: أنني لم أسفح دم أبي! إنني أقبل العقاب لا على قتله، بل على أنني أردت أن أقتله، وربما كنت سأقتله في النهاية. . . ولكنني سأكافح لدفع التهمة عن نفسي، فاعلموا هذا! سأدافع عن نفسي حتى النهاية، وسيقرر الرب مصيري. إلى اللقاء أيها السادة. واغفروا لي ما ظهر مني من غضب أثناء الاستجواب. آه. . . ما كان أغباني عندئذٍ! بعد بضع ثوان لن أكون إلا سجيناً؛ ولآخر مرة إنما يمد دمتري كارامازوف يده إليكم مصافحاً مصافحة رجل حر طليق. وإني إذ أودِّعكم إنما أودِّع العالم. . .

أخذ صوته يرتجف، وقدم يده، لكن نيقولا بارفينوفتش الذي كان أقرب الحضور إليه، سحب يده فجأة بحركة تشبه أن تكون متشنجة. فلاحظ ميتيا ذلك فارتعش وسقطت يده.

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول محرجاً:

- لم ينته التحقيق. وسنستأنفه في المدينة. وأنا من جهتي أتمنى لك النجاح في ما ستبذله من جهود لتبرئة نفسك. لقد كنت أميل دائماً يا دمتري فيدوروفتش إلى أن أعدك إنساناً عاثر الحظ إن صح التعبير، لا إنساناً مجرماً... ونحن جميعاً مستعدون - إذا جاز لي أن أنطق بلسان الآخرين أيضاً - لأن نرى فيك شاباً نبيل الخلق في قرارة نفسه، لكنه، واأسفاه، قد اندفع مع أهواء عنيفة جامحة اندفاعاً ربما كان فيه إفراط...

وحين نطق القاضي بهذه الكلمات الأخيرة اصطنع شخصه الضئيل وضع مهابة قوي ووقار عظيم. وأحس ميتيا فجأة أن هذا «الولد الصغير» سيمسكه من ذراعه فيتنحى به جانباً ويستأنف معه حديثه الأخير عن «النساء». هل يتصور أحد أي خواطر غريبة شاذة لا تناسب ظروفاً كظروف هذه اللحظة يمكن أن تومض في ذهن الإنسان، ولو كان هذا الإنسان مجرماً يُساق إلى الإعدام؟

سأل ميتيا:

- سادتي، أنتم أناس طيبون إنسانيون. فهل تسمحون لي بأن أراها مرة أخيرة لأودعها؟

- طبعاً... ولكن، بالنظر إلى الظروف الخاصة... أقصد... لا يمكن أن تراها على انفراد بل بحضور شهود.

- لا أرى أي ضير في أن تحضروا اللقاء.

مضى بعضهم يحضر جروشنكا. ولكن الوداع كان موجزاً، وهذا

ما خيب ظن نيقولا بارفينوفتش. انحنت جروشنكا تحيي ميتيا تحية عميقة. وقالت له:

- قلت إنني سأكون لك إلى الأبد. سأصحبك حيثما تذهب، مهما يكن مصيرك. أستودعك الله، يا من ضيعت نفسك دون أن تكون مذنباً.

واختلجت شفتاها، وسالت الدموع من عينيها.

- اغفري لي يا جروشنكا، اغفري لي أنني أحببتك. فسببت لك الضياع بهذا الحب.

أراد ميتيا أن يضيف شيئاً آخر، ولكنه انقطع عن الكلام فجأة وخرج من الغرفة. وسرعان ما وجد نفسه محاطاً برجال لم يغب عن أنظارهم. وتحت، أمام درجات الباب الذي وصل إليه الليلة البارحة على عربة أندريه محدثاً ضجة كبيرة، كانت تنتظره عربتان. إن مافريكي مافريكفتش، وهو رجل سمين قصير متورم الوجه، يبدو معتكر المزاج قد أحنقه طارئ ما، فهو يغضب ويصيح. وها هو ذا يدعو ميتيا إلى ركوب العربة بلهجة عدَّها ميتيا مسرفة في الخشونة. قال ميتيا يحدث نفسه وهو يركب العربة: «حين كنت أسقيه خمراً في الحانة، كان يبدي غير ما يبدي الآن». وظهر تريفون بوريستش في أسفل درجات الباب أيضاً. واحتشدت جمهرة من الفلاحين والنساء والحوذيين قرب الباب تتفرس في ميتيا.

هتف ميتيا يقول لهم من مكانه:

- أستودعكم الله أيها الناس الطيبون! سامحوني!

فترجَّعت أصوات تقول له:

- اغفر لنا نحن أيضاً.

- أستودعك الله أنت أيضاً يا تريفون بوريستش!

ولكن صاحب النزل أبى حتى أن يلتفت. لعله كان مشغولاً جداً، فلقد كان يصرخ ويتحرك منهمكاً هو أيضاً: والحقّ أن العربة الثانية التي يحب أن يركبها خفيران من رجال مافريكي مافريكفتش لم تكن بعد جاهزة للسفر. كان الفلاح القصير الذي كُلِّف بسوق العربة يصرُّ على أن يزعم، بينما هو يرتدي قفطانه، أن الدور دور آكيم، لا دوره هو، في القيام بهذه المهمة. ولكن أين آكيم؟ إن أحداً لم يستطع العثور عليه. لقد بحثوا عنه في كل مكان. والفلاح القصير ما يزال يصرّ ويتوسل أن ينتظروه مزيداً من الانتظار.

هتف تريفون بوريستش يقول:

- إن هؤلاء الناس الذين ينتمون إلى سقط الشعب وقحون وقاحة فظيعة يا مافريكي مافريكفتش، انظر كيف يتصرفون!

وأضاف يخاطب الفلاح الصغير:

- لقد أعطاك آكيم منذ ثلاثة أيام خمسة وعشرين كوبيكاً، فشربت بها خمراً، وتريد الآن أن يحل محلك وأن ينوب عنك.

وعاد تريفون بوريستش يخاطب موريس مافريكفتش:

- يدهشني يا مافريكي مافريكتش ما تعامل به هؤلاء الفلاحين الأدنياء من رقة وتسامح. ذلك كل ما أستطيع أن أقوله.

تدخل ميتيا قائلاً:

- لماذا هذه العربة الثانية؟ تكفينا عربة واحدة، ألا تظن ذلك يا مافريكي مافريكفتش؟ إنني لن أتمرد ولن أفر منك! لا حاجة إلى خفر من أجلي!

فأجابه مافريكي مافريكفتش قائلاً بشراسة:

- تعلّم كيف يجب عليك أن تكلمني يا سيد إذا كنت لا تعرف ذلك بعد. أنا لست رفيقك، وإنني أمنعك من مخاطبتي بصيغة

المفرد. مفهوم؟ أما نصائحك ففي وسعك أن تمتنع عن إسدائها إليَّ في المستقبل.

كان واضحاً أنه يسعده أن يفرِّج عن نفسه بالاستسلام لغضبه.

صمت ميتيا. وكان قد احمرّ احمراراً شديداً. وها هو ذا بعد لحظة يشعر ببرد. لقد انقطع المطر عن الهطول، ولكن السماء مغطاة بالسحب، وإن ريحاً جافة جداً تصفع وجهه. تساءل ميتيا في نفسه وهو يضم كتفيه في تشنج: «أهذه رعدة حمى؟». وركب مافريكي مافريكفتش العربة أخيراً. جلس في مكانه ثقيلاً، واسترخى على راحته دافعاً ميتيا إلى ركن المقعد دون أن يبدو عليه أنه لاحظ ذلك. الحق أنه كان معتكر المزاج جداً، وكان مستاءً أشد الاستياء من هذه المهمة التي عهد إليه بها.

- أستودعك الله يا تريفون بوريستتش!

كذلك صاح ميتيا يقول مرة أخرى، ولكنه شعر بأنه لا يخاطب صاحب النزل في هذه المرة بروح المودة، وشعر بأن الغضب هو الذي انتزع منه هذه الصيحة انتزاعاً بغير إرادته. ظل تريفون بوريستتش ساكناً لا يهتز، واضعاً يديه وراء ظهره. وحدَّق إلى ميتيا دون أن يجيب، ناظراً إليه نظرة مثقلة بالكبرياء والتعالي زاخرةً بالاستنكار والاستياء.

ودوّى صوت كالجانوف يقول فجأة وقد انبجس لا يدري أحد من أين:

- الوداع يا دمتري فيدورفتش، الوداع!

كان كالجانوف يجري نحو العربة عاري الرأس، ماداً يده إلى ميتيا، فاتسع وقت ميتيا لأن يمسك يده ويصافحه، قائلاً له:

- الوداع أيها الصديق الشهم. لن أنسى كرمك ما حييت!

ولكن العربة تحركت، فانفصلت يداهما، ورنت الجلاجل. لقد اقتيد ميتيا.

انسحب كالجانوف إلى الدهليز، فجلس في ركن، واضعاً رأسه بين يديه، وأخذ يبكي. وظل يبكي زمناً طويلاً كصبي صغير، لا كشابٍ في العشرين من عمره. لقد كان شبه مقتنع، واأسفاه!، بأن ميتيا قد قتل أباه. فكان يهتف بغير ترابط في أقواله، وهو يشعر بحسرة مرة شبيهة باليأس والقنوط: «ما قيمة البشر بعد هذا؟ كيف يثق المرء بالبشر بعد الآن؟». وبدا له في تلك اللحظة أنه أصبح لا يحب أن يحيا، فهو يتساءل قانطاً: «فيم الحياة؟ فيم الحياة؟»

حواشي

(1) "كانت حياته هادئة وادعة" : يضيف دوستويفسكي هنا حاشية الشرح التالية: "حين انهاض جثمان راهب بسيط (لنقله من الصومعة إلى الكنيسة، ونقله بعد قداس الجنازة من الكنيسة إلى المقبرة) تتلى الآية «كانت حياته هادئة وادعة»، اما إذا كان الراحل راهبا من أصحاب النذور، فانه يرتل له النشيد "ربنا هب لنا من لدنك عونا واحمنا".

(2) "فينيا" : تصغير اسم فيودسيا.

(3) "كتب دوستويفسكي يقول بصدد اسطورة "البصلة" "لقد اخذت هذا النص الثمين من فم فلاحة، ولا شك أنه يسجل الآن أول مرة. أنا على الاقل، لم يسبق لي ان رأيته". اسطورة "أخو المسيح" ذات الموضوع المشابه قد وردت في "مجموعة الأساطير الروسية الشعبية" التي جمعها المؤرخ والباحث الأدبي والمتخصص في الآداب الشعبية الكسندر افاناسيف (1826 - 1871) وقد صدرت عام 1859 في طبعتين في لندن وموسكو. ويبدو ان دوستويفسكي لم يطلع على هذه المجموعة.

(4) "وفي اليوم الثالث كان عرس قانا الجليل..." : من انجيل يوحنا، الاصحاح الثاني، 1 - 9.

(5) "يؤكد المؤرخون أن الأهالي... كانوا أفقر الناس..."

الاقرب إلى الظن ان دوستويفسكي يتحدث هنا عن الاديب الفرنسي جوزيف أرنست رينان (1823 - 1892 Renan) وعن كتابه "حياة المسيح" "Vie de Jesus" الذي نشر لأول مرة عام 1863، ويتضمن اشارات كثيرة إلى الفقر الذي كان يعيش فيه الناس الذين خاطبهم المسيح بدعوته.

(6) "كفى!" اشارة إلى قصة تورجنيف التي تحمل هذا العنوان والتي ظهرت سنة 1865، وفيها يعلن تورجنيف عزمه على الانقطاع عن الكتابة، ويودع قراءه.

(7) "ان سقوط عملتنا الورقية قد حرمني من النوم".

دأبت الصحافة خلال ستينات وسبعينات القرن الماضي على مناقشة الاوضاع

المالية الروسية. ونشرت مجلة "المواطن" التي كان يرأس تحريرها دوستويفسكي آنذاك عدة مقالات حول هذا الموضوع.

(8) "لقد كتبت في هذا إلى شيدرين" ميخائيل سالطيكوف - شيدرين (الاسم الحقيقي: سالطيكوف، والاسم المستعار: شيدرين (1826 - 1889) هو كاتب هجائي وأحد محرري مجلة «المعاصر».
وقد بدأ الجدل بينه وبين دوستويفسكي منذ الستينات. (راجع المجلد الاول من هذه الطبعة).

(9) "ان كلمة "عصرية" كان يمكن ان تذكره بمجلته "المعاصر" وان توقظ في نفسه ذكريات أليمة بسبب الرقابة التي تسود الآن". ("المعاصر") مجلة أدبية واجتماعية - سياسية اسسها الشاعر الكسندر بوشكين عام 1836. وفي خلال سنوات 1840 - 1860 أصبحت لسان حال القوى الديمقراطية الثورية الروسية. ولهذا السبب تعرضت "المعاصر" لمضايقات شديدة من جانب الرقابة. وهذه الغمزة من جانب دوستويفسكي ضد شيدرين ومجلة "المعاصر" التي رأس شيدرين تحريرها فترة من الزمن هي بمثابة صدى متأخر لذلك الجدل العنيف بين "المعاصر" ومجلة الأخوين دوستويفسكي.

(10) "الصمت وحده يهمهم"... استشهاد محوَّر ببيت من قصيدة "روسلان ولودميلا" (1820) للشاعر الكسندر بوشكين: وربما ظننت... يهمس السكون...

(11) "متجر آل بلوتنيكوف": ذكرت ارملة دوستويفسكي ان زوجها كان يذهب كثيرا إلى بقالية بلوتنيكوف، في مدينة ستارايا روسا، ليشتري منها مقبلات وحلوى.

(12) بيتان من الشعر يقولهما أوليس في المقطع الخامس من قصيدة للشاعر شيللر عنوانها "عيد النصر"، وهي تصور معسكر اليونان بعد اخذ طروادة وقد قام بترجمة القصيدة إلى اللغة الروسية تيوتشيف سنة 1851.

(13) شطران الفهما دمترى نفسه، وقد سبق وورده‍ما في الصفحة 225 من الجزء الاول من هذه الرواية.

(14) "اشعر بحزن شديد... واأسفاه! مسكين يوريك ذلك".
هنا يستشهد ميتيا استشهادا غير دقيق بعبارات هملت من مسرحية "هملت" للشاعر والمسرحي البريطاني ويليام شكسبير (1564 - 1616)، حيث نجد هملت في المشهد الاول من الفصل الخامس الختامي ممسكا بجمجمة

يوريك، مهرّج البلاط السابق، ومتحدثا عن فناء كل الاحياء.

(15) "بضعة أسطر أخرى وأتم القصيدة"

استشهاد محرف بمونولوج الراهب المؤرّخ بيمن في مسرحية "بوريس جودونوف" للشاعر الكسندر بوشكين (1824 - 1825):

ما زال ثمة قول أخير

وأفرغ من تدوين الاحداث...

(16) كان موظفو دوائر الدولة في روسيا يرتدون زيا رسميا.

(17) "بارين": بهذا اللقب كان يخاطب الخدم سادتهم في روسيا قبل الثورة (1917).

(18) البان، تعني السيّد بالبولونية، وسيستخدم دوستويفسكي هذه الكلمة كثيراً في إشارة إلى السيد البولوني، وهو الضابط الذي كان عشيق جروشنكا.

(19) "النفوس الميتة" هي رواية جوجول الشهيرة (1842) التي كثيرا ما يستشهد بها دوستويفسكي. اما نوزدريوف وتشتشيكوف فهما من أبطال هذه الرواية.

(20) "نوزدريف كان اسمه الحقيقي نوسوف": ها هنا تلاعب لفظي بكلمتي nozdri ومعناها "المنخران" وnoss ومعناها "الانف".

(21) "اهذا أنت... الشاعر بوالو؟...": مطلع أبيات ساخرة للشاعر اى. آ. كريلوف تستهزئ من ترجمة قصيدة «فن الشّعر L'art poetique» التي ترجمها شاعر ضعيف هو الكونت د. ج. خفوستوف.

(22) أبيات ساخرة للشاعر باتيوشكوف عنوانها "قصيدة إلى سافو جديدة"، وفيها يتهكم على الشاعرة الروسية الاولى آنا بونينا، آسفاً على أنها لم تغرق كما غرقت الاديبة اليونانية الشهيرة سافو.

(23) "إنني أشرب نخب روسيا بحدودها السابقة على سنة 1772!": في عام 1772، وعند التقسيم الأول لبولندا فيما بين روسيا وبروسيا والنمسا، ضُمَّ إلى روسيا الجزء الشرقي من بيلاروسيا والقسم الكاثوليكي من لاتفيا الحالية (لاتغاليا). اما الأراضي البولندية الأصلية فضمت إلى النمسا وبروسيا.

(24) "لا شك ان النقيب يعرف قصة بودفيسوتسكي؟": كتب دوستويفسكي في رسالة بتاريخ 16 نوفمبر 1879: "أدخلت نادرة البان بودفيسوتسكي، تلك النادرة الاسطورية لدى جميع لاعبي الورق الغشاشين البولنديين الصغار الشأن. وقد سمعت هذه النادرة ثلاث مرات في حياتي، في أوقات مختلفة ومن بولنديين مخلتفين".

(25) في رسالة تاريخها 16 تشرين الثاني (نوفمبر) 1879، موجهة إلى ن. آ. ليوبينوف، كتب دوستويفسكي يقول: «هذه الأغنية، التقطتها بنفسي، وهي مثال على الفن القروي الحالي».

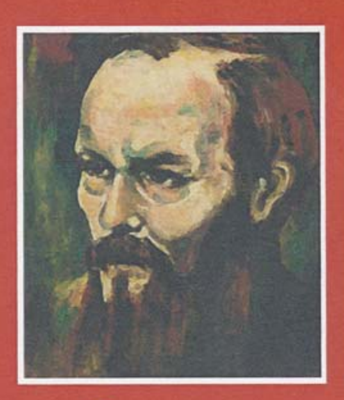
كان أفراد السلطات التي ينتخبها الفلاحون في قرية من القرى يحملون على صدورهم صفائح معدنية تشير إلى رتبهم أثناء ممارستهم عملهم، وهي تقوم بدور الشهود في أثناء تحقيق قضائي.

(26) «معنى بعض الإصلاحات»: إشارة إلى إصلاحات ألكسندر الثاني في السنوات 1861 - 1866 (إلغاء القنانة، الإصلاح القضائي، إلخ).

(27) من قصيدة «الصمت» للشاعر الفيلسوف ف. ج. تيوتشيف (1833).

(28) انتهى (بالفرنسية في الأصل).

(29) «الزاكوسكي»: مائدة مقبلات باردة، مع فودكا، يصيبها الطاعمون عادة في حجرة مجاورة لقاعة الطعام، ويمضون إليها قبل الوجبة.



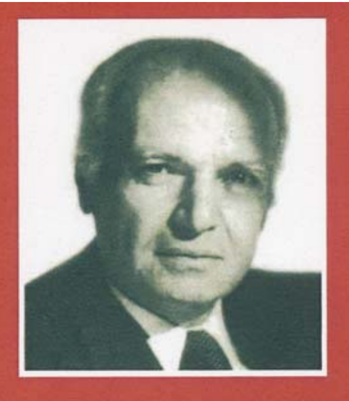
دوستويفسكي

ولد فيدور مخائيلو فتش دوستويفسكي في موسكو في ١١/١١/١٨٢١ من أسرة مطبّب في مشفى للفقراء.

أرسله أبوه لدراسة الهندسة في بطرسبرج ولكن شغفه بالشعر والأدب وإحساسه الرهف تجاه ألم وعذاب الناس، جعله يرى عدم كمال "هذا العالم" فكانت أولى رواياته هي "المساكين" عام ١٨٤٥.

اعتقل عام ١٨٤٩ بسبب انضمامه إلى جماعة من الاشتراكيين الطوباويين، وحكم عليه بالإعدام. لكن خُفّف هذا الحكم بطلب من الإمبراطور. ليطلق سراحه بعد ١٠ سنوات. ويؤسس بعدها مع أخيه ميخائيل مجلة "الوقت" ثم مجلة العصر. وينطلق في الكتابة ويضع أهم رواياته التي صارت معلماً في الأدب الروسي والعالمي وخاصة: الجريمة والعقاب، الأبله، المراهق ثم الأخوة كارامازوف.

توفي دوستويفسكي في ٩ شباط/ فبراير من عام ١٨٨١، ولكن أعماله التي تُقرأ وتُقرأ تجعله حاضراً دائماً.



سامي الدروبي

* أديب وناقد ومترجم ودبلوماسي سوري.
* ولد عام ١٩٢١ بمدينة حمص (الجمهورية العربية السورية).
* درس في جامعات دمشق والقاهرة وباريس وحصل على الدكتوراه في علم النفس من جامعة القاهرةعام ١٩٦١.
* عمل مدرساًللفلسفة في حمص، ثم عميداً لكلية التربية بجامعة دمشق فأستاذاً للفلسفة، فوزيراً للمعارف، ثم سفيراً للجمهورية العربية السورية في يوغسلافيا، ومصر، وأسبانيا، ومندوباً لـ"سوريا" في جامعة الدول العربية.
* له عدة أبحاث نظرية ودراسات فلسفية نفسية حول علاقة علم النفس بالأدب والتعليم.
* ترجم الأعمال الكاملة لدوستويفسكي مؤلفات لليف تولستوي وبوشكين وليرمنتوف وتورجينيف وإيفو أندريتش وآخرين.
* توفي عام ١٩٧٦، ومنح جائزة "لوتس" بعد المهات (١٩٧٨).

في عالم دوستويفسكي يتصارع الرحمن مع الشيطان، والخير مع الشرّ، والحقيقة مع الزيف... وكل ذلك في نفس الإنسان. هكذا هو الأمر على الأرض وفي السماء.. اليوم ومنذ ألف عام.

"ديمتري"، ضابط شاب، ليس مميزاً، بل على العكس، طائش، زير نساء، وسكّير. يقامر ويبذّر أموالاً هي أمانة عنده.. ولكن مع ذلك يعذّبه ضميره. يريد إعادة هذه الأموال وأمله معقود على مال والده.. والوالد، الذي يعيش على هواه، لن يعطيه ما يريد..

لكن يا لهذا الشقيّ! ففي هذا العربيد تحيا روح تعذّبه وتمزّقه. وهو يقول مخاطباً أخاه النّقيّ الورع "أليوشا": "رهيبٌ مصير الإنسان، شديدة آلامه.. ألا فلأكن ملعوناً، منحطاً، سافلاً.. ولكنني لئن اتّبعت الشيطان يا ربّ، فإنني أظلّ ابنك، وأحبك، وفي نفسي رغبة في إرضائك.."

وهذا حال الأخ الثالث "ألكسي"، الذي يعيش ذلك الصراع والقلق بين صورة براقة في الخارج ومظلمة في الداخل.

إن قراءة دوستويفسكي تتطلّب الإنصات والتأمّل.. وذلك من أجل الدخول إلى الروعة الكامنة في أعماق الوقائع، وفي أعماق نماذجه التي يقدّمها في هذه الرواية.. إنه يدفع الإنسان لأن يميّز بين الخير والشرّ مستلهماً حُكمَ قلبه، ويرى أنه من الأفضل أن نهب الله محبتنا أحراراً من أن ننصاع له عبيداً.

اللوحة وتصميم الغلاف: مروان قصّاب باشي


ISBN 978-9953-68-467-7
9 789953 684673


المركز الثقافي العربي
cca@ccaedition.com